يَسْأَلُونَكَ

فِي الدِّينِ وَالحَيَاةِ

تأليف
الدكتور أحمد الشرباصي
الأستاذ بجامعة الأزهر

المجلّد الثالث

دار الجيل
بيروت — لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله تبارك وتعالى ، وأصلي وأسلم على جميع أنبيائه ورسله ، وعلى خاتمهم سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين .

واستفتح بالذي هو خير : « رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ، وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » .

قبسٌ من كتابِ الله

بسم الله الرحمٰن الرحيم

« أَلَـمَ ، ذٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ،وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ، أُولٰئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

« سورة البقرة »

مقدمة المؤلف

يا فضل الله العظيم الواسع ، ويا كرمه الكبير السابغ !.

هذا هو المجلد الثالث من كتابي « يسألونك في الدين والحياة » ، أضعه بين أيدي قرائه، متحدثاً بنعمة الله تبارك وتعالى، حامداً توفيقه، شاكراً آلاءه، سائلا إياه أن يمن على الكتاب وصاحبه بالرضا والقبول، وان يفتح لهما مغاليق الأبصار والقلوب والعقول ، ، إنه أكرم مسئول وأفضل مأمول .

وتحت لواء تلك الكلمة القرآنية المضيئة «يسألونك » أواصل المسيرة في إصدار مجلدات هذا الكتاب ، راجياً من ربي أن تكون خطوات هذه المسيرة منه وإليه، فالأمل فيه والاعتماد عليه .

قبل أن يظهر المجلد الأول من هذا الكتاب في سنة ١٩٧٠م لم أكن قد أخذت من القدر المسيطر موثقاً بأن أتمكن من إصداره ، ولكنه بعون المعين القدير ظهر ؛ وقبل أن يظهر المجلد الثاني منه في سنة ١٩٧٢م لم أكن أيضاً قد أخذت موثقاً من القدر بظهوره ، ولكنه بفضل واهب القُوَى والقُدَر قد ظهر ، وها هوذا المجلد الثالث يأخذ خطواته نحو ظهوره ، فلم لا يحس الإنسان أنه عاجز عن شكران الواهب المنّان ، مهما أوتي من تعبير وبيان ؟!.

لقد استجاب القدر المسعد لما رجوته وأملته حين قلتُ في ختام تقديمي للمجلد الأول من هذا الكتاب :

« ومع أن هذه المجموعة من الفتاوى تبدو كبيرة ضخمة ، ومع أنها تناولت

مختلف الموضوعات والمسائل ، أقول : من يدري ، لعل القدر المسعد يعود متفضلا ، فيهيء لصاحب هذا القلم المجال ، كي يقدم من ورائها مجموعة أخرى أو مجموعات . وما ذلك بعزيز ولا بكثير ، عـلى الله صاحب العون والتيسير » .

كان ذلك في عام ١٩٧٠ ، وفي عام ١٩٧٢ ظهر المجلد الثاني على غرار شقيقه الأول ، وفي حجمه الضخم(١) . ولاقى المولود الثاني ما لاقاه المولود الأول من حسن استقبال وكريم احتفال وتزايد إقبال . وها هوذا المولود الثالث يسعى إليك ، لينضم بين يديك إلى أخويه السابقين، ضاماً داخل دفتيه مئات أخرى من الفتاوى والأجوبة والآراء في الدين والحياة، تناثرت من فم صاحبها وقلمه ، هنا وهناك ، في مختلف المناسبات ، خلال زمن طويل امتد ، ثم شاءت عناية الله العلي الأعلى ، أن يضم شتاتها ، وينتظم فضلُه حباتها ، في هذا العقد من الصفحات ، التي تحمل ألواناً من الموضوعات ، تنوعت فيها الملامح والسمات .

أفأعود إلى الطمع في الأمل والرجاء ، فأسأله سبحانه وهو صاحب النعمة والمنة ، أن يعاودني بفيض من عطائه وحبائه، لأفيء بهذا الفيض إلى مَنْ أحب أن ألقاهم في مواطن التفقه والتعلم ، من حين الى حين ؟.

ولم لا أفعل والطمع هاهنا جميل مقبول ، غير معيب ولا مرذول ؟. ولم لا أعود إلى الرجاء ، وربي هو الذي يحرضني على سؤاله ، ويدعوني إلى طلب المزيد من هباته ، وهو الذي لا ينقص فضله مع الإنفاق والإعطاء ؟.

وإني لأرجو الله حتى كأنني أرى بجميل الظن ما الله صانع !.

• • •

هذا وما زال هدفي في خطواتي هو التعريف بدين الله عز وجل ، في يسر وسهولة ، متنقلا بين الإيجاز والإطناب ، حسب اختلاف المواطن والأحوال مُؤْثراً تبسيط العبارة حتى تكون معواناً على تقريب الزاد الفقهي والروحي

---

(١) المجلد الأول يقع في ٦٧٠ صفحة ، والمجلد الثاني يقع في ٦٥٢ صفحة .

المحتاجين إليه ، والحريصين عليه ، عاملا على توثيق الرابطة بين الدين والحياة، وتعميق الصلة بين الدين والأحياء ، حتى يسعدوا بهذا الدين ، ويؤدوا واجبهم نحوه في نفوسهم ومجتمعهم ودنياهم، شاعراً بأننا ما زلنا في حاجة ملحة إلى مزيد من الثقافة الدينية والثروة الروحية ، لكي نسمو نحو المستوى الذي يريده الإسلام من أمة الإسلام .

يا قارئي ...

هل لك أن تدعو الله معي كي لا يحرمنا نعمةَ الأمل في لقاء جديد، تحت لواء الإسلام ، وفي ضياء القرآن ، ومع نور الإيمان ؟...

وعلى الله قصد السبيل .

أبو حازم
أحمد الشرباصي

الطهارة



من جوانب التطهر في الاسلام

السؤال : كتب كاتب يقول إن إحدى العواصم الأوربية قد حرّمت ركوب السيارات العامة على من يأكل الثوم أو البصل ، ولا يسمح له بركوبها قبل مرور خمس ساعات على تناوله ذلك . وقد ذكر الكاتب هذا كأنه ثمرة من ثمرات الحضارة الحديثة ، ومظهر من مظاهر المدنية المعاصرة . فما رأي الاسلام في ذلك ؟.

الجواب :

قرأتُ هذا فعاد بي ذهني إلى هدى الإسلام ، وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام التي علمت الناس منذ قرون آداب المجتمع وقواعد السلوك ، وخطر بالبال كيف سبق نبي الإسلام منذ أكثر من ألف عام ، إلى ما هو أرقى من هذا التقليد الجديد ، فقال : « من أكل ثوماً أو بصلا أو كراثاً ، فليعتزلنا ، وليقعد في بيته » . وقال : « من أكل من هذه البقلة الخبيثة (أي ما لها رائحة كريهة) فلا يقرب المساجد » . ويلحق بالمساجد الأماكن العامة التي يجتمع فيها الناس ويتقابلون .

ولقد حرم النبي على نفسه — وهو إمام أهل الذوق والتهذيب — أن يأكل الثوم أو البصل أو ما شابههما ، وأراد أن يصور ما يقصده بهذا التصون من تطهر وسمو ، فأخبر بأنه يناجي جبريل عليه السلام ، وكأن صفاء لقاء الملائكة لا يناسبه أن يتناول النبي شيئاً من هذه البقول الكريهة الرائحة .

وقد نهى النبي أمته عن غشيان المساجد حين تناولهم شيئاً منها ، لئلا يؤذوا الناس برائحتها ، أو يضايقوا سواهم بأبخرتها ، ولذلك كانت نظرة الإسلام إلى تناول هذه الأشياء حين الاختلاط بالناس نظرةَ كراهية وتبغيض ، ولعل

قائلا يقول : إن فريقاً من الناس لا يجدون غير هذه البقول ، وقد يكون فيها فوائد يطلبونها للعلاج ونحوه ، ويجاب على ذلك بأن الإسلام لم يحرّمها ، وإنما حذر آكلها من الاختلاط بالناس متى بقيت رائحتها ، وفي الحديث : « من أكل من هذه الشجرة ، فلا يقربنا حتى يذهب ريحها » .

وعن أبي أيوب أن النبي أرسل إليه طعاماً فيه ثوم ولم يأكله ، فسأله أبو أيوب : أحرام هو ؟ قال النبي : لا ، ولكني أكرهه من أجل ريحه ، ولذلك ينصح الهدى النبوي بأن تؤكل هذه البقول بعد طبخها ، أو إماتة رائحتها وإزالتها بالشي أو القلي ، فجاء في الحديث : « إن كنتم لا بد آكليها فأميتوها » .

* * *

ولكن الإنسان قد يمتنع عن أكل هذه الأشياء ، ومع ذلك تكون رائحة فمه كريهة ، من مرض في أسنانه ، أو خلل في بطنه ، أو غير ذلك من الأسباب ، ولذلك حرّض الإسلام الانسانَ على تطهير فمه في كل مناسبة ، فدعا إلى استعمال السواك ، أو ما يقوم مقامه ، كالفرشة والمعجون ، أو السائل المطهّر أو غيره ، فقال الرسول : « السواك مطهرة للفم ، مرضاة للرب» . وقال : « لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل وضوء » . وكان الرسول صلوات الله وسلامه عليه يكره لقاء من اصفرت أسنانه من فضلات الطعام أو ترك التنظيف ، وكان يوصي بدلك الأسنان عند تطهيرها ، حتى يزول ما علق بها ، وذلك لكيلا يتأذى الناس بمرأى هذه الأسنان ، أو يتضايقوا من رائحتها السيئة .

والفقهاء يُسْقطون سنة الصلاة مع الجماعة عن المصاب بالبَخَر ، وهو نتن رائحة الفم ، وبعضهم يرى عدم وجوب الجمعة على مثل هذا ، حتى لا يتضرر بوجوده المصلون ، والبخر الدائم أو نتن الرائحة الذي لا علاج له قد يصلح سبباً للتفريق بين الزوجين إذا لم يستطيعا الصبر عليه ، لأن الزوجية تقوم على الوئام والانسجام ، والإنسان قد يحتمل من غيره ألواناً من الأذى ،

ولكنه لا يصبر على الرائحة المنتنة تنبعث من فم أو عرق أو غير ذلك ، ولذلك نصّ الكثيرُ من النصوص الدينية على أن رائحة المسلم الكامل تكون على الدوام رائحة طيبة محبوبة .

* * *

والإسلام بعد هذا حريص كل الحرص على أن يتعود أبناؤه نظافة الحس والنفس ، وطهارة الروح والبدن، وصفاء القلب والجسم: فالله تعالى يقول: « والله يحب المتطهرين» ، ويقول : « ما يريد الله ليجعل عليكم في الدين من حرج ، ولكن يريد ليطهركم » . والرسول يقول: « الطهور شطر الإيمان » أي الطهارة نصف الإيمان .

وقد شرع الإسلام الوضوء كل يوم عدة مرات ، كما شرع الاغتسال في مختلف المناسبات ، والوضوء على الوضوء نور على نور ، كما حثت السنة النبوية على غسل الشعر ، ودهنه بالطيب ، وترجيله ، ولقد رأى الرسول رجلا شعثاً قد تفرق شعره ، فقال : « أما كان هذا يجد ما يسكّن به شعره ؟ » . ورأى النبي رجلا عليه ثياب وسخة ، فقال : « أما كان هذا يجد ما يغسل به ثوبه » ؟ ورأى رجلا في ثوب قديم غير لائق به ، مع أنه ميسور ، فعاتبه على ذلك ، وقال : « ان الله يحب أن يرى أثرَ نعمته على عبده » .

والإسلام حريص كل الحرص على أن يعلم أبناءه كيف يظهرون بالمظهر المحبوب ، الذي يشرح صدور الناس ويسرهم ، ولا يدخل عليهم بما يؤذيهم أو يضايقهم ، ولذلك حث على نظافة البدن والأطراف والثياب والأفواه ، وبخاصة أثناء الاجتماع والالتقاء بالناس .

وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أن من الفطرة ــ أي السنة التي دعا اليها الأنبياء ، وحافظ عليها المؤمنون ، حتى كأنها أمر طبيعي جِبِلِّيٌّ ــ السواك ، والاستنشاق ، وهو تنظيف الأنف بالماء ، وقص الأظافر حتى لا يبقى تحتها أوساخ ، و « غسل البراجم » وهي غضون مفاصل الأصابع « ونتف شعر

الإبط ، لكي لا تنبعث منه رائحة كريهة ، وحلق العانة من أجل ذلك أيضاً ، والاستنجاء لتطهير المخرجين من النجاسة ، وكل هذه وسائل للتنظيف والتطهير.

وكذلك عودنا الإسلام العادات الطيبة الكريمة ، وباعد بيننا وبين ما يسوء الغير ، أو يقبح في المنظر ، فليس من أدب الإسلام مثلا أن تتثاءب في وجه أخيك ، أو تتجشأ ، أو تنظف أسنانك وتخرج فضلاتها بحيث يراها ، وليس من أدب الإسلام أن تختلط بغيرك وأنت قذر الثياب ، أو وسخ الجسم ، أو فائح العرق ؛ وليس من أدب الإسلام أن يأكل الشخص بصلا أو فجلا ، ثم يركب الترام مثلا ، ويدركه التجشؤ ، فلا ينحرف بوجهه ليكتمه ، بل يفتح فمه في وجوه الناس ، ويتجشأ في منظر بغيض كريه منفر ، وقد لا يتحرز من التمخط بصوت منفر ، أو البصق أمام الناس ؛ وليس من أدب الاسلام أن يخرج العامل من المصنع وثيابه مليئة بالشحم أو الزيت أو الفحم ، ويركب الترام أو السيارة العامة ، أو يذهب لصلاة الجمعة ، بدون تطهر فيلطخ المكان ، ويوسخ ثياب غيره ، وإذا لفته أحد إلى ذلك غضب وثار ، وتحدث عن الكرامة والمساواة ، وينسى أن من المساواة أن يحترم الإنسان غيره ، ويحافظ على شعوره ، وأن يعامل الناس بما يحب أن يعاملوه به ، والمسلم الحق ألف مألوف ، هين لين ، كالنسمة الرقيقة التي ينجذب الناس إليها ويودونها ، وهو كالعافية التي إن جاءتهم فرحوا بها ، وإن غابت عنهم حنوا اليها ، والله جميل يحب الجمال.

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

الوضوء على جنابة

السؤال : **هل يجوز الوضوء على جنابة ؟.**

الجواب :

إذا كان الإنسان جنباً ، أي محدثاً حدثاً أكبر كما يعبر الفقهاء ، فإن الوضوء وحده لا يكفي للطهارة ، ولكنه إذا اغتسل فإن الوضوء يندرج داخل الغسل ، لأن الغسل يجزىء عن الوضوء .

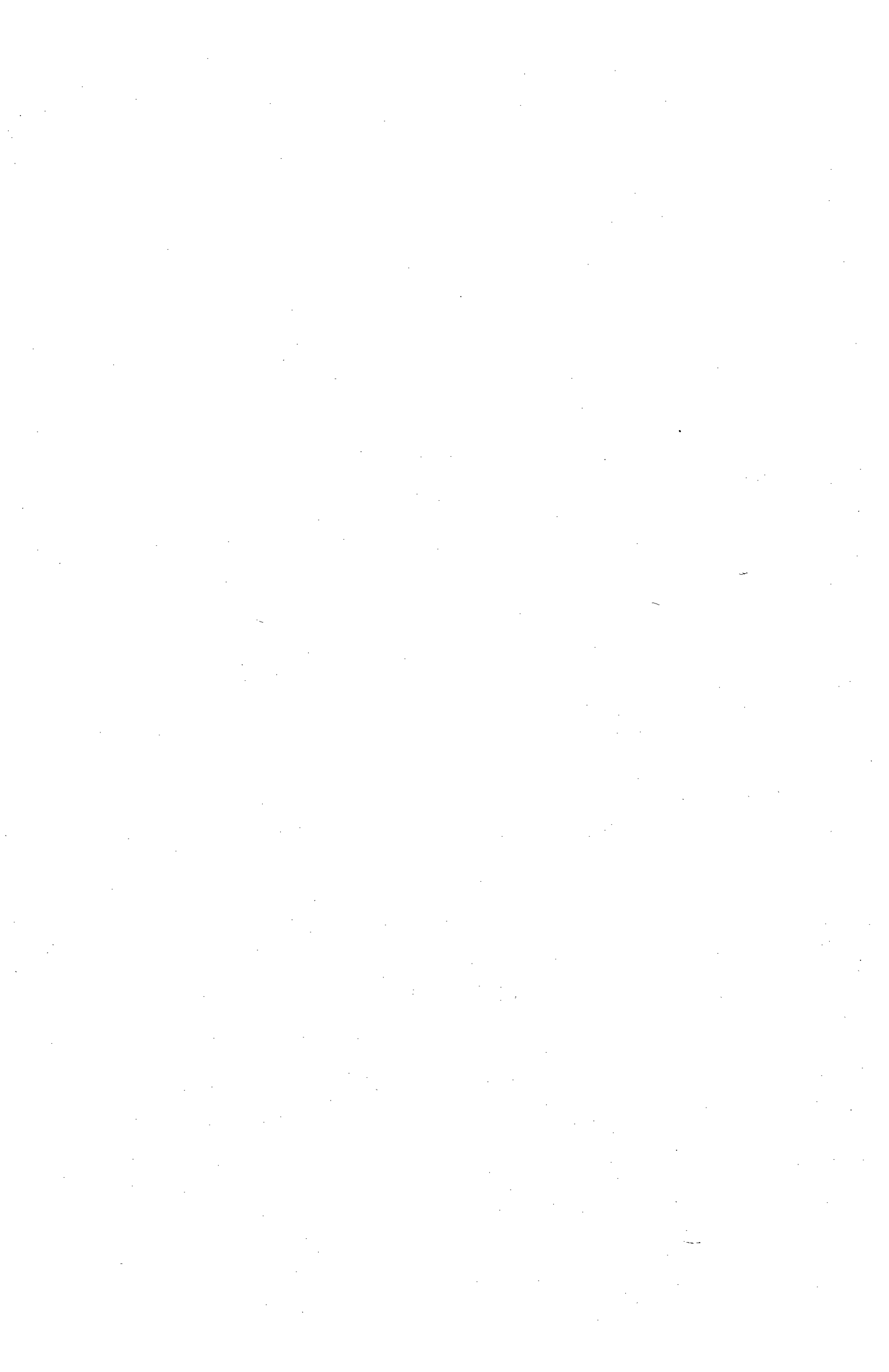
وقد جاء في كتب المذهب المالكي أن من سنن الغسل غسل اليدين أولا ، ثم المضمضة والاستنشاق ، وأن من فضائل الغسل أيضاً غسل أعضاء الوضوء ، وأعطت هذه الكتب حاصلا لكيفية الغسل المندوبة ، وهي أن يبدأ بغسل يديه إلى كوعيه ثلاثاً كالوضوء بنية السنية ، ثم يغسل ما بجميع جسمه من أذى ، وينوي فرض الغسل ، أو رفع الحدث الأكبر ، ثم يغسل أعضاءه الداخلية بين فخذيه ووراءه ، ثم يتمضمض ويستنشق ويستنثر ثم يغسل وجهه إلى تمام الوضوء مرة مرة ، ثم يخلل أصول الشعر في رأسه ، ثم يغسل رأسه ثلاثاً يعم رأسه كل مرة ، ثم يغسل رقبته ثم منكبيه إلى المرفق ، ثم يفيض الماء على شقه الأيمن إلى الكعب ، ثم الأيسر كذلك .

والغسل على الصفة السابقة يجزىء عن الوضوء ، ولو لم ينو رفع الحدث الأصغر ، لأنه يلزم من رفع الحدث الأكبر رفع الحدث الأصغر .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الصَّلاة



رفع الصوت في الصلاة

السؤال : **ما الحكم فيمن يقرأ الفاتحة أثناء الصلاة في جماعة بصوت عال . مع العلم بأن الإمام يقرأ بصوت مسموع ؟ . هل تصح الصلاة مع هذا ؟ وهل يجوز الرد عليه في أثناء الصلاة ؟.**

الجواب :

الأصل في قراءة الصلاة أن يُسمع المصلي نفسه دون غيره ، حتّى لا يشوش على سواه ، ويكفي في بعض المذاهب الفقهية أن يحرك المصلي لسانه بالقراءة ، حتّى ولو لم يُسمع نفسه . وقد روي أن الرسول صلى الله عليه وسلم حينما سمع بعض الصحابة يجهر بالقراءة قال : « ألا إن كلكم مناجٍ ربه ، فلا يؤذين بعضكم بعضاً ، ولا يرفعن بعضكم على بعض بالقراءة » .

ويجب على المأموم ألا يجهر بالقراءة إذا كان سيشوش على مصل آخر ، ويكره كراهةَ تحريم أن يقرأ المأموم الفاتحة والإمام يقرأ ، فإذا رفع المأموم حينئذ صوته بالقراءة ازداد الأمر سوءاً . ولكن الصلاة لا تبطل حينئذ .

ولقد رُوي أن أبا بكر رضي الله عنه كان يسر في قراءته ، وكان عمر رضي الله عنه يجهر بها ، فقيل لهما في ذلك ، فقال أبو بكر : إنما أناجي ربي ، وهو يعلم حاجتّي إليه . وقال عمر : أنا أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان (أي النائم). فلما نزل قوله تعالى: « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا». قيل لأبي بكر : ارفع قليلا . وقيل لعمر : اخفض قليلا .

ولا يجوز للمصلي أن يأمر رافع صوته في الصلاة بأن يترك هذا الرفع ، لأن الأمر مشغول بالصلاة ، والكلام الخارج عن أقوال الصلاة المشروعة حرام ممنوع فيها ، واستدل الفقهاء على ذلك بقول الله تعالى : « وقوموا لله قانتين »

وبقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس » .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

كلمة « آمين »

السؤال : **ما معنى كلمة « آمين » ؟ وما حكم قولها ؟.**

الجواب :

كلمة « آمين » معناها : اللهم استجب لنا . وقيل : هي اسم من أسماء الله تعالى ، ولكن ذلك لم يصح . وقيل : معناها رب افعل ، وقيل : معناها لا تخيِّب رجاءنا .

وقيل إنها بالتشديد : آمِّين . أي نحن قاصدون نحوك .

وليس لقارىء القرآن أن يقول بعد الفراغ في الفاتحة «امينَ» الا بعد سكتة على نون : « ولا الضالين » ، وهذه السكتة ليتميز ما هو قرآن مما ليس بقرآن .

واستدل العلماء على ذلك بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أمّن الإمام فأمِّنوا ، فإنه من وافق تأمينُه تأمين الملائكة غُفر له ما تقدم من ذنبه » . وهذا حديث رواه الجماعة . وهناك أحاديث أخرى .

والتأمين مشروع ، وهو مندوب عند الجمهور ، وأوجبته الظاهرية ، وعند العترة أن التأمين بدعة .

ويشرع الجهر بالتأمين ، ومدّ الصوت به .

وأما جهر الإمام بالتأمين فهو موضع خلاف . قيل : يجهر . وقيل : لا يجهر ، وقيل : هو مخيّر .

والإمام مالك يرى أن الإمام لا يقول : آمين . وإنما يقول ذلك الذين من خلفه .

وقال عطاء : « آمين دعاء ، أمّن الزبير ومَنْ وراءه ، حتى إن للمسجد لَلَجّة » أي صوتاً .

ولذلك يرى فريق من الفقهاء أن يرفع المصلي صوته بالتأمين، لا يخفيه .

وفي مذهب الإمام أبي حنيفة أن الإخفاء بكلمة (آمين) أوْلى من الجهر بها، لأنها دعاء ، والله تعالى يقول : « ادعوا ربكم تضرعاً وخفية » .

وجاء في كتاب « المغني » ما نصه :

« وليس أن يجهر بها الإمام والمأموم فيما يجهر فيه بالقراءة ، وإخفاؤها فيما يخفى فيه . وقال أبو حنيفة ومالك في إحدى الروايتين عنه : ليس إخفاؤها ، لأنه دعاء ، فاستحب إخفاؤه كالتشهد .

ولنا : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : آمين ، ورفع بها صوته ، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بالتأمين عند تأمين الإمام ، فلو لم يجهر به لم يعلق عليه ، كحالة الإخفاء .

وما ذكروه يبطل بآخر الفاتحة، فإنه دعاء ويجهر به ، ودعاء التشهد تابع له ، فيتبعه في الإخفاء ، وهذا تابع للقراءة فيتبعها في الجهر .

فإن نسي الإمام التأمين أمن المأموم ، ورفع صوته ليذكّر الإمام فيأتي به ، لأنه سنة قولية إذا تركها الإمام أتى بها المأموم كالاستعاذة . وإن أخفاها الإمام جهر بها المأموم لما ذكرناه » ج ١ ص ٤٩٠ طبعة دار المنار ١٣٦٧ هـ .

والخلاصة أن التأمين سنة للامام والمأموم عند جمهور الفقهاء ، وأن الجهر به موضع خلاف بينهم ، والله أعلم .

---

(١) يقال إن كلمة (آمين) غير عربية ، وأنها موجودة معروفة في كثير من الديانات، والأناجيل تختم بكلمة (آمين) ، ومزامير داود مختومة بكلمة (آمين). وقيل إن أصلها هو كلمة (آمون) .

كلمات التشهد

السؤال : **هل كانت كلمات « التحيات » في أخر الصلاة حتى قوله : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » ، وأن باقيها جاء بعد النبي صلى الله عليه وسلم ؟.**

الجواب :

جاء في الحديث الصحيح المتفق عليه عن ابن مسعود أنه قال : « علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم التشهد ، كفّي بين كفيه ، كما يعلمني السورة من القرآن : التحيات لله ، والصلوات والطيبات ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد ان لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله » . وقد وردت روايات أخرى بهذا القدر الذي يجب أن يقوله المصلي في التشهد الأخير عند جمهور الفقهاء . ويؤيد هذا ما رواه البخاري في تاريخه عن عمر بن الخطاب قال : « لا تجزّيء صلاة إلا بتشهد » .

وأما النصف الثاني من التشهد ، وهو المتضمن الصلاة على الرسول وآله ؛ فقد جاء بشأنه الحديث الذي رواه أحمد ومسلم الترمذي والنسائي ، عن أبي مسعود أنه قال : « أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن في مجلس سعد ابن عبادة ، فقال له بشير بن سعد : أمرنا الله أن نصلي عليك فكيف نصلي عليك ؟.

فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تمنينا أنه لم يسأله ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قولوا : اللهم صل على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد ، وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد ؛ والسلام كما قد علمتم » .

وفي رواية عن طلحة بن عبيد الله : « اللهم صل على محمد . كما صليت على إبراهيم . إنك حميد مجيد . وبارك على محمد وآل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم . إنك حميد مجيد » . وهناك روايات كثيرة أخرى .

وقد ذكر الشوكاني في كتابه « نيل الأوطار » (ج ٢ ص ٢٨٥) أنهم قد استدلوا بذلك على وجوب الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم بعد التشهد ، وإلى ذلك ذهب عمر ، وابنه عبدالله وابن مسعود وجابر بن زيد والعشبي ومحمد ابن كعب القرظي وأبو جعفر الباقر والهادي والقاسم والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق وابن المواز واختاره القاضي أبو بكر بن العربي .

ثم أطال الشوكاني في ذكر الخلاف حول هذا الموضوع ، وسواء أكان ذكر الصلاة على النبي وآله في التشهد الأخير واجباً أم مندوباً ، فإن هذه الصيغة للصلاة التي ذكرها ابن مسعود في حديثه الصحيح كانت معروفة في عهد الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فلا صحة للقول إذن بأنها لم تأت إلا بعد النبي عليه الصلاة والسلام .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

مرور الكلب أمام المصلي

السؤال : **هل مرور الكلب أمام المصلي يبطل صلاته ؟ وماذا يفعل المصلي إذا أحس بالخطر ؟.**

الجواب :

لا تبطل صلاة المصلي إذا مر الكلب من أمامه ، وقد ورد في صحيح البخاري أن عبد الله بن عمر قال : كانت الكلاب تبول وتقبل وتدبر في المسجد ، في

زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يكونوا يرشون شيئاً من ذلك » .
وقد علق ابن حجر على البخاري فذكر ان المراد من رواية عبد الله بن عمر أن الكلاب كانت تبول خارج المسجد ، ثم تقبل وتدبر في المسجد ، أو أن ذلك كان قبل الأمر بتكريم المساجد.

ومهما كان المراد من الرواية فإن الصلاة لا تبطل بمرور الكلب أمام المصلي .
وينبغي أن تتذكر أن الكلب ليس نجس العين في مذهب المالكية ، بناء على قاعدتهم من أن كل حي وما رشح منه فهو طاهر .

وأما إذا أحس المصلي وهو في صلاته بالخطر ، كأن يهجم عليه من يريد قتله أو جرحه ، أو كلص يسرق ما له أو متاعه ، أو كجدار ينقض عليه ، أو ما شابه ذلك ، فإنه يخرج من الصلاة ، ليدفع هذا الخطر عن نفسه أو ماله ، ثم يعيد الصلاة بعد أن يطمئن ويهدأ ، بل لقد قال العلماء أن المصلي يقطع الصلاة إذا رأى خطراً سيقع على غيره ، وليس هناك من يدفعه إلا المصلي . كما اذا رأى المصلي رجلا كفيف البصر سيقع في البئر ، وليس هناك غير المصلي لينقذه أو ينبهه ، وكما إذا رأى طفلا سيلعب بالنار ، أو سيقع في ترعة أو نحو ذلك . والله يقول : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

ردّ السلام أثناء الخطبة

السؤال : **قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا قلت لصاحبك والإمام يخطب يوم الجمعة أنصت فقد لغوت ، ومن لغا فلا جمعة له » . فماذا أفعل إذا دخل المسجد أحد المصلين والإمام يخطب فوق المنبر ، ثم قال ذلك الشخص: السلام عليكم : أنرد عليه السلام أم نتركه ولا نسلم عليه ؟.**

الجواب :

يجب على المسلم الساعي إلى صلاة الجمعة كل أسبوع أن يتذكر جيداً أن هذه الصلاة تشمل خطبة وركعتين ؛ ولا جمعة دون خطبة . وخطبة الجمعة يقصد منها توجيه المسلمين في أمور دينهم ودنياهم ، فينبغي لحاضر صلاة الجمعة أن يلتزم الصمت أثناء الخطبة . ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من توضأ يوم الجمعة فأحسن الوضوء، ثم راح إلى الجمعة فاستمع وأنصت، غفر الله له ما بين الجمعة إلى الجمعة» .

وجمهور الفقهاء متفقون على أنه لا يجوز الكلام حين الخطبة ؛ وقد جاء في مذهب الإمام أبي حنيفة أنه يكره الكلام تحريماً حال الخطبة ؛ سواء أكان المتكلم بعيداً عن الخطيب أو قريباً منه على الأصح ؛ وسواء أكان الكلام دنيوياً أو بذكر ونحوه على المشهور ، وسواء أحصل من الخطيب لغو أم لا ، وإذا سمع اسم النبي صلى الله عليه وسلم يصلي عليه في نفسه ؛ ولا بأس أن يشير بيده ورأسه عند رؤية المنكر .

أما عند خروج الإمام من خلوته ؛ فالحكم كذلك عند أبي حنفية ، لأن خروج الإمام عنده يقطع الصلاة والكلام ؛ وعند صاحبيه يقطع الصلاة دون الكلام . ومن الكلام المكروه رد السلام بلسانه وبقلبه ، ولا يلزمه قبل الفراغ من الخطبة أو بعدها ؛ لأن البدء بالسلام غير مأذون فيه شرعاً حينئذ ، بل يأثم فاعله ؛ فلا يجب الرد عليه ، وكذلك تشميت العاطس ؛ ويكره للأمام أن يسلم على الناس ؛ وليس من الكلام المكروه التحذير من عقرب أو حية أو النداء لخوف على أعمى ؛ ونحو ذلك مما يترتب عليه دفع ضرر .

وجاء في مذهب الإمام مالك : أن من الكلام المحرم أثناء الخطبة الابتداء بإلقاء السلام ؛ وكذلك الرد على من سلّم ؛ ومنه أيضاً نهي المتكلم أثناء الخطبة .

وفي مذهب الإمام الشافعي أن البدء بإلقاء السلام على من يستمع الخطبة مكروه ؛ ولكن الرد عليه واجب. وفي مذهب الإمام ابن حنبل يجوز أن يرد المستمع السلام بالقول لا بالإشارة

وأستحسن للسائل في المسألة المذكورة أن لا يرد السلام ؛ حتى يدرك ملقي السلام أن الصمت حين الخطبة لازم . وأنه قد ارتكب محظوراً حين ألقى السلام في ذلك الوقت .

وليت المسلمين يتأدبون بأدب الإسلام في هذا المجال فإنا نلاحظ أن كثيراً منهم ينصرفون عن خطبة الجمعة . وقد يتحدثون بكلام لا ضرورة إليه حين إلقائها . وهذا لا يليق بالمسلم . والرسول عليه الصلاة والسلام قد قال : « من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب فهو كمثل الحمار يحمل أسفاراً . والذي يقول له : أنصت ، ليس له جمعة » .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

حول خطبة الجمعة

السؤال : **هل كانت خطبة الجمعة تقال بعد صلاة الجمعة من عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى عهد الأمويين الذين غيّروها ، وجعلوها قبل الصلاة ؟.**

الجواب :

قرر الأئمة الأربعة وجمهور الفقهاء أن خطبة الجمعة شرط لصلاة الجمعة ، ولم يرد أن النبي صلى الله عليه وسلم . ولا أحداً من خلفائه الراشدين — فمَن بعدهم — صلى الجمعة دون خطبة .

ويشترط لصحتها عند جمهور الفقهاء أن تكون قبل الصلاة . لأنها شرط . والشرط يتقدم على المشروط ، فلا يعتد بالخطبة إن تأخرت عن صلاة الجمعة.

وجاء في كتاب «كشاف القناع» أن من شروط الجمعة أن يتقدمها خطبتان، واشترط تقديمها على الصلاة لفعل النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه.

وروى أبو داود في المراسيل أن النبي صلوات الله وسلامه عليه كان يصلي يوم الجمعة، قبل الخطبة، مثل العيدين، حتى إذا كان يوم والنبي يخطب، وقد صلى الجمعة، فدخل رجل فقال إن دحية بن خليفة قد قدم بتجارة، فانفضوا إليها، ولم يبق معه إلا نفر يسير؛ ونزل قوله تعالى:

«وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من اللهو والتجارة، والله خير الرازقين».

وجاء في تفسير القرطبي أن مقاتل بن حيان قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي الجمعة، قبل الخطبة مثل العيدين، حتى كان يوم جمعة، والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب، وقد صلى الجمعة، فدخل رجل فقال: إن دحية خليفة الكلبي قدم بتجارة، وكان دحية إذا قدم تلقاه أهله بالدفاف فخرج الناس، فلم يظنوا إلا أنه ليس في ترك الخطبة شيء، فأنزل الله عز وجل: (وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها)، فقدّم النبي الخطبة يوم الجمعة وأخّر الصلاة» ج ١٨ ص ١١٠.

ولكن ابن حجر يذكر في كتابه «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» ما يفيد أن الحديث السابق الذي يشير إلى أن الصلاة كانت قبل الخطبة «حديث شاذ معضل» ج ٢ ص ٤٢٥ طبعة السلفية.

ومن هذا نفهم أنه ليس بصحيح أن خطبة الجمعة كانت بعد الصلاة من عهد النبي صلى الله عليه وسلم، إلى عهد الأمويين الذين غيروها وجعلوها قبل الصلاة.

والله تبارك وتعالى أعلم.

* * *

خطبة العيد

السؤال : **هل كانت خطبة العيدين تلقى بعد الصلاة من أيام النبي صلى الله عليه وسلم وحتى جاء بنو أمية فجعلوها قبل الصلاة ؟.**

الجواب :

روي عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر يصلون العيدين قبل الصلاة . وهذا حديث رواه الجماعة ، وهناك روايات كثيرة تفيد هذا . وقال الشوكاني في « نيل الأوطار »(١) إن هذا يدل على أن المشروع في صلاة العيد تقديم الصلاة على الخطبة ، وهذا هو المتفق عليه بين علماء الأمصار وأئمة الفتوى ، وهو فعل النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ، رضوان الله عليهم أجمعين .

وجاء في بعض الروايات أن عمر وعثمان قدما الخطبة على الصلاة في بعض الأحيان ، ولكن الشوكاني يذكر أن هذا غير صحيح ، وأنه خبر شاذ مخالف لما ثبت في صحيحي البخاري ومسلم عن عمر ، ويذكر أن نسبة ذلك إلى عثمان كذب يلتفت إليه .

ويروى أن بني أمية قدموا الخطبة على الصلاة ؛ ولكن لا يعتد بعملهم ولا بمخالفتهم ، لأنها مسبوقة بالإجماع الذي كان قبلهم ، ومخالف لسنة النبي صلى الله عليه وسلم الصحيحة ، وقد أنكر الناس عليهم فعلهم ، وعدوه بدعة ومخالفة للسنة .

ويروى أن أول من قدم الخطبة على صلاة العيد هو مروان بن الحكم الأموي ، وقد جاء ذكر ذلك في صحيح مسلم .

---

(١) انظر نيل الأوطار ، ج ٣ ص ٢٩٣ . المطبعة العثمانية .

وقيل أن معاوية هو أول من فعل ذلك ، ولذلك قال الزهري : « أول من أحدث الخطبة قبل الصلاة معاوية » .

وقيل إن أول من فعله زياد بالبصرة في خلافة معاوية .

وقال ابن سيرين : « لا مخالفة بين هذين الأثرين(١) وأثر مروان ، لأن كلاً من مروان وزياد كان عاملاً لمعاوية ، فيحمل على أن معاوية ابتدأ ذلك وتبعه عماله » .

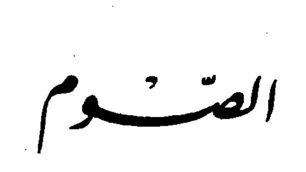
وقد اختلفوا في صحة صلاة العيدين مع تقدم الخطبة ، فعند الإمام الشافعي لا يعتد بها .

والله تبارك وتعالى أعلم .

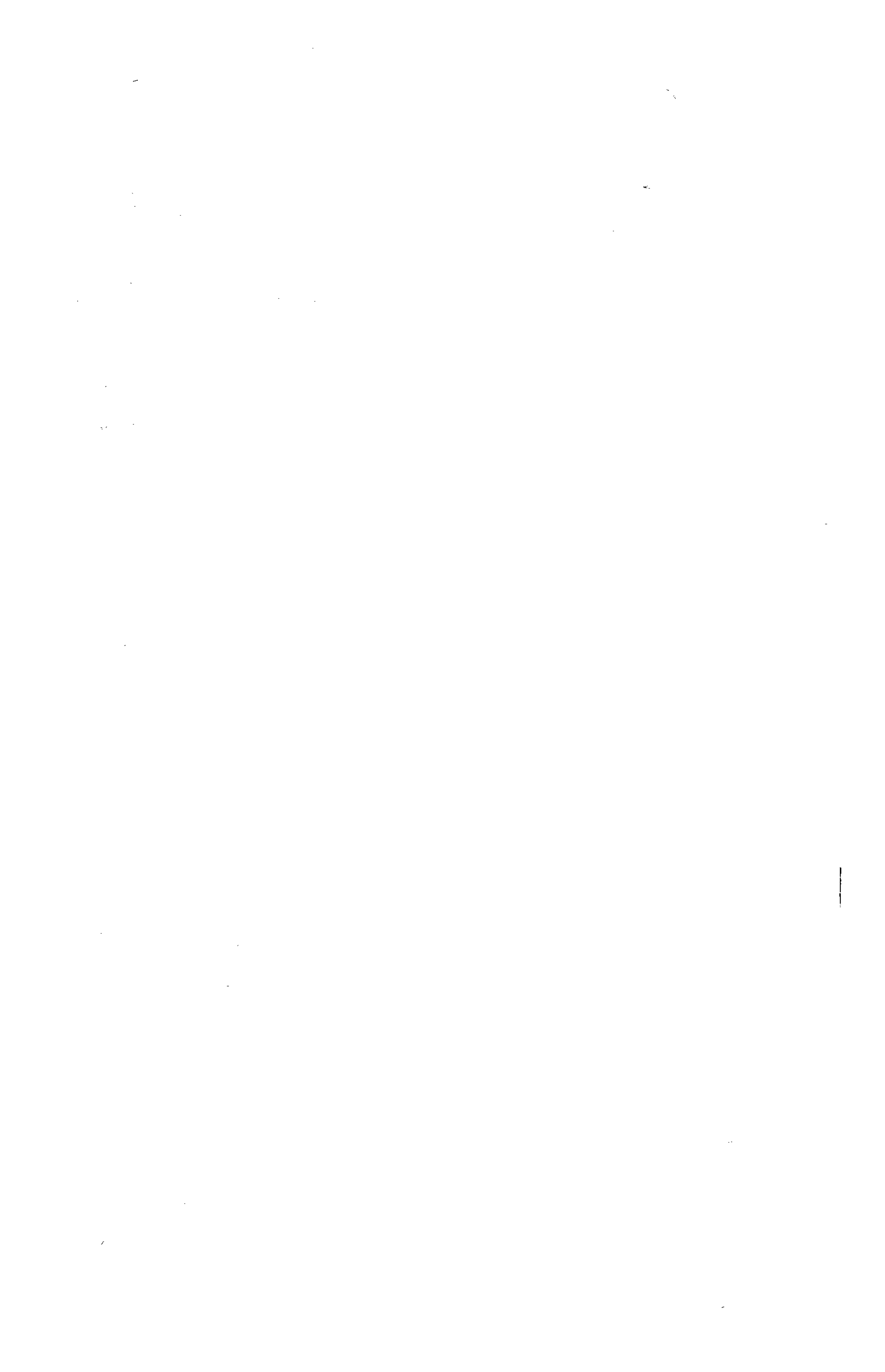
* * *

---

(١) يعني الخبرين ، أو الروايتين .



الصّوم



خصائص رمضان

السؤال : **نريد أن نعرف الخصائص التي يمتاز بها شهر رمضان المبارك بين الشهور .**

الجواب :

شهر رمضان له خصائصه الكثيرة ، من صوم ، وقيام ، وزكاة ، وأوقات طيبة مباركة ، مناسبة لشدة القرب من الله سبحانه وتعالى ، ومن هذه الخصائص ما هو معتاد ومألوف عند جمهرة المسلمين ، كالصيام ، والقيام ، والزكاة ، وانتظار ليلة القدر المباركة ، أو الاحتفال بإحدى لياليه على أنها هي ليلة القدر .

ولكن يوجد بجوار هذا خصيصة من خصائص هذا الشهر تكاد تكون منسية ، أو مهملة تماماً من عامة المسلمين ، وهي عبادة «الاعتكاف» ، لأن عدداً قليلا جداً من المسلمين فيما أظن هم الذين يعرفونها ، وأقل من هذا العدد القليل هم الذين يقومون بها أو يمارسونها ، ومن واجبنا في مثل هذه المناسبات الملائمة أن نطيل التذكير بهذه العبادات الإسلامية المهملة أو المنسية ، لعل في هذا تذكرة لنا ولإخواننا من المسلمين كي نعود ويعودوا إلى إحياء هذه العبادات ، ويباشروا هذه القربات التي شرعها الإسلام ، وأراد منها الخير للعباد في الحال والمآل .

والاعتكاف له حكمة عميقة ، ومن حقنا أن نركز عنايتنا على تبيان هذه الحكمة ، لأن أكثر المتفلسفين اليوم يعدون عبادة الاعتكاف غير ملائمة لحياة الحضارة والمدنية ، أو عصر النور والتقدم ، بدعوى أن مطالب الدنيا كثيرة ، وواجباتها المادية عندهم مهمة ، يجب أن تستحوذ على أوقاتهم وعنايتهم ، ولذلك يرددون من حين إلى حين أن مثل هذه العبادة مضيعة للوقت

والجهد ، فما الفائدة من الاعتزال في مكان مع التعبد والاستغفار ؟. ويقولون : ما فائدتها للعصر العامل المشغول بكثير من الأعمال ؟ والواقع أنه كلما كثرت مشاغل الحياة وزاد تعقدها وجب التأكيد على النواحي الروحية ، لتحقق نوعاً من التعادل أو التوازن بين الناحيتين المهمتين في الإنسان ، وهما الناحية المادية ، والناحية الروحية .

ولن اطيل كثيراً فيما يتعلق بحكمة الاعتكاف ، بل أحب أن أعطي فكرة سريعة عن أحكام هذه العبادة الإسلامية المشروعة . كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم في قول الله تعالى : « ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد » .

وهناك الحديث الذي يرويه البخاري ، والذي يخبرنا بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان ، وأنه في العام الذي قبض فيه إلى ربه تعالى ، اعتكف من الشهر عشرين يوماً . وتحدث الفقهاء عن هذه العبادة ، وذكروا في حكمتها أنها تحقق التخفف من أعراض الحياة ، وتحقق الإقبال على الله ، وذوق لذة المناجاة ، وإحياء القلوب بالذكر ، وتطهير الحواس بالصوم ، واستشهدوا بقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « إن للمساجد أوتاداً ، الملائكة جلساؤهم ، إن غابوا افتقدوهم ، وإن مرضوا عادوهم ، وإن كانوا في حاجة أعانوهم » . وقول الرسول عليه الصلاة والسلام في الحديث الآخر : « المسجد بيت كل تقي ، وتكفل الله لمن كان المسجد بيته بالرَّوْح ، والرحمة ، والجواز إلى رضوان الله : إلى الجنة » . وهذان الحديثان يشيران إلى أن من يألف المساجد ، ويحسن الانتفاع بالوقت الذي يقضيه فيها ، يكون قريباً أكثر من غيره من رحمة الله تعالى ورضوانه وتوفيقه .

ولقد تحدث العلماء أيضا عن مدة هذا الاعتكاف فقالوا : إن الاعتكاف غير محدد الوقت ، وذلك في غير الاعتكاف المنذور ، وإن الأنسان إذا بقي أي مدة معتبرة في المسجد فإنه يمكن أن يجعلها اعتكافاً ، إذا التزم أحكام هذا الاعتكاف ، ثم هناك الاعتكاف المنذور الذي ينذره الإنسان لوجه الله تعالى إن حقق له امراً ، أو دفع عنه ضرراً ، أو ما أشبه ذلك ، وقد قالوا إن أقله

يوم ، لأنه سيشترط فيـــه أن يكون الإنسان صائمـــاً

وأما من ناحية حكم الاعتكاف فهو إما مستحب ، أو سنة مؤكدة ، أو واجب إنه مستحب في سائر أوقات السنة ، وهو سنة مؤكدة في العشر الأواخر من رمضان المبارك ، وهو واجب إذا كان منذوراً ، أي نذره المرء لوجه الله تعالى، وقد جاء في سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام أن الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان قد نذر وهو في الجاهلية ، أن يعتكف في المسجد الحرام يوماً ، وذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له النبي : « أوْف بنذرك». وفسر الفقهاء ذلك بأن الأمر هنا للوجوب .

وهذا الاعتكاف يناسبه أن يشغل الانسان وقته بما يحقق الثمرة المرجوة من ورائه ، ولذلك كره الفقهاء في الاعتكاف أن يصمت الإنسان صمتاً طويلا ، أو يشتغل بكلام من كلام الدنيا ، أو يمارس عملا من أعمال الحياة المادية ، ولا يكون له ضرورة داعية ، واستحبوا للمعتكف أن يصلي تنفلا ، وأن يقرأ في كتاب الله عز وجل ، أو في تفسير القرآن الكريم، أو في أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، أو سير الأنبياء والمرسلين والصالحين، أو يشغل نفسه بالتسبيح والتهليل والاستغفار والدعاء، وكره طائفة من الفقهاء أن يقرأ الإنسان كتبَ العلم المادي في أثناء الاعتكاف ، وعلى الرغم من أن لهذا العلم فائدة كبيرة يعتبرها الدين ، إلا أن المفروض أن المسلم قد أخذ حظه في أوقاته العادية من هذا العلم المادي ، وبقي عليه أن يأخذ حظه من تقويم النفس وتهذيب الروح وإحياء القلب . ويشترط لهذا الاعتكاف عدة شروط : هي أن يكون الانسان مسلماً مميزاً ، وأن ينوي الاعتكاف ، وأن يكون المعتكف طاهراً من الحدَث الأكبر وهو الجنابة أو الحيض أو النفاس . وأن يكف خلاله عن المخالطـــة الجنسية ، وبعضهم يحرّم مقدماتها إذا لم يأمن الإنسان نفسَه ، وألا يخرج من المسجد إلا لضرورة ، كقضاء حاجة التبرز أو التبول أو نحو ذلك ، ويشترط في الاعتكاف أيضاً أن يكون في المسجد الذي تقام فيه الجماعة ، وأن يصاحبه الصوم إذا كان الاعتكاف منذوراً .

وإذا كان الإنسان في مدة الاعتكاف يقصد من ورائه مجردَ قضاء الوقت في المسجد ، دون أن يخرج منه بفائدة تنفعه في نفسه ، وفي تقويم روحه ، فإن الاعتكاف سيكون عديم الفائدة ، ولو توافرت فيه الشروط السابقة توافراً صورياً من ناحية المظهر والشكل .

ونعتقد أن الإنسان في هذا الوقت يستطيع الجمعَ بين الاعتكاف وبين واجبه الدنيوي ، حين يجعل مدة الاعتكاف كتخفيف لهذه المادية الباغية العارمة التي استولت على الإنسان ، واستبدت بأغلب حياته ونشاطه ، وهذا التخفيف أو التلطيف سيفيده فعلا في التوفيق بين مطالب الروح ومطالب البدن ، عندما يعود الى الحياة من جديد ليمارس أعمالها ، مستهدياً بهدى الله تبارك وتعالى فيها .

وقد فهمنا أن المكان الطبيعي للاعتكاف هو المسجد ، ووصفوا هذا المسجد بالمسجد الجامع ، أي الذي تقام فيه الجماعة ، أو له مهيئات لإقامة الجماعة ، ولو لم تُقَمْ فيه كل وقت ، واستحسن بعض الفقهاء للمرأة أن تعتكف في بيت زوجها ، وإن كان يجوز لها أن تعتكف في المسجد متى أمنت الفتنة ، وتوافرَ لها الجوُّ الصالح ، وقال بعض الفقهاء إنه بعد أن فسد الزمان ، وأصبح غير مأمون على المرأة إذا ما ذهبت لتعتكف في المسجد ، يحسن أن تعتكف في مسجد بيتها ، فإن ذلك يكون أدعى إلى توافر الأمن والطمأنينة لها ، مع تحقيقها الهدفَ المقصود من وراء الاعتكاف .

وذكر الفقهاء أنه يباح للمعتكف عدة أمور ، منها أن يقوم لنفسه بالتنظيف والغسل والحلق والتزيين ، ويجوز له أن يعقد البيع والشراء بلا إكثار أوخروج عن وقار المسجد وهيبته ، ويجوز له أن يأكل ويشرب في أثناء الاعتكاف ، ولكن ذلك مشروط بعدم تقذيره للمسجد . وكذلك يجوز للمعتكف أن يتكلم كلاماً دنيوياً لحاجة ، وأن يودع زائراً يزوره إلى باب المسجد ، ويجوز له أن يخرج لقضاء الحاجة ، كالتبرز والتبول . أو لضرورة تدعو إلى ذلك ، وأجاز

بعض الفقهاء للمعتكف أن يخرج لعيادة المريض أو لتشييع الجنازة ، وذلك في غير الاعتكاف الواجب ، وهو الاعتكاف المنذور .

هذه خلاصة سريعة لأحكام الاعتكاف بصفة إجمالية ، ونحن نأمل أن يقبل أبناء الإسلام على هذه العبادة الإسلامية لإحيائها وممارستها ، حتى تظهر شخصية الأمة المسلمة بحرصها على ما شرعه لها الإسلام من عبادات أو عادات أو تقاليد ، وعلى الله قصد السبيل .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الصوم لله

السؤال : **ما معنى قول الحديث القدسي : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم، فإنه لي وأنا أجزي به » ؟. وهل يمحو صوم رمضان الذنوب ؟**

الجواب :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما يرويه عن ربه في الحديث القدسي : « يقول الله عز وجل : كل عمل ابن آدم له ، إلا الصوم ، فإنه لي ، وأنا أجزي به ، يدع طعامه وشرابه من أجلي » .

كل الأعمال في الحقيقة والواقع هي لله تعالى ، لأن القرآن الكريم يقول : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد منهم أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين» (١) .

ولكن الحديث القدسي الذي يرويه النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه تبارك

(١) سورة الذاريات ، الآيات ٥٦ – ٥٨ .

وتعالى هنا ، يقول : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم » ، لأن سائر العبادات الأخرى قد يتطرق إليها الرياء أو الفخر أو المباهاة ، بسبب أنها أعمال ظاهرة مرئية ، فالصلاة تُرَى بركوعها وسجودها وحضور جماعتها ، والزكاة تُرَى بأموالها وحين دفعها إلى مستحقيها ، والحج يرى برحلته وطوافه وسعيه ووقوفه. إلخ .

أما الصوم ففيه « باطنية » مستورة ، وفيه «داخلية » لا يطلع على أمرها إلا الله تبارك وتعالى ، ولذلك جعل الله الصوم الحقيقي المختص عملا خالصاً لوجهه تزيد مضاعفة الثواب من الله عليه ،حتى يغمر الله عبدَه بفيوض رحمته ونعمته ، ولعل الحديث قد أشار إلى هذا السبب حين قال : « يدع طعامَه وشرابه من أجلي » .

وفي التعليق على هذا الحديث يقول حجة الإسلام الغزالي : « إن الصوم إنما كان لله ، ومشرَّفاً للنسبة إليه — وإن كانت العادات كلها له — كما شُرِّف البيت (الكعبة) — والأرض كلها له — لمعنيين : أحدهما أن الصوم كفٌّ وترك ، وهو في نفس الوقت سر ليس فيه عمل يشاهَد ، وجميع أعمال الطاعات بمشهد من الخلق ومرأى ، والصوم لا يراه إلا الله عز وجل ، فإنه عمل في الباطن بالصبر المجرد ، والثاني أنه قهر لعدو الله عز وجل ، فإن وسيلة الشيطان لعنه الله الشهوات ، وإنما تقوى الشهوات بالأكل والشرب ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فضيِّقوا مجاريه بالجوع » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم ذنبه » .

ويشير هذا الحديث إلى أن رمضان فرصة للرجوع إلى الله ، والاستغفار له . والتوبة من الهفوات والسيئات ، فإذا أقبل الإنسان على رمضان، وصامه خالصاً مخلصاً ، تائباً مستغفراً ، متسلحاً بصدق الإيمان وخالص الاحتساب إلى

الله – والاحتساب هو طلب وجه الله تعالى وحده بالعمل – غفر الله له ذنوبَه التي تقدمت .

والذنوب التي تُمحى هي الذنوب التي تكون بين الإنسان وربه ، وأما الذنوب المتعلقة بحقوق العباد فيلزم ردّها إلى أصحابها ما دامت موجودة ، أو ما دام الإنسان قادراً على ردها، فقد ذكر الأئمة أن التوبة تكون بالندم وترك الذنب ، والعزم على عدم الرجوع إليه ، ورد الحقوق إلى أصحابها . ومن صام رمضان بإيمان وإخلاص لا بد له من أن يكون قد تاب توبة صادقة .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

فدية الصوم

السؤال : ما معنى قول الله تعالى : « وعلى الذين يطيقونه فدية » ؟.

الجواب :

يقول الله تعالى في سورة البقرة : « وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ » .

ومعنى كلمة « يطيقونه » أي يصومون بمشقة ظاهرة وتعب واضح ، والعرب تقول : أطاق فلان الشيء إذا كانت قدرته عليه في نهاية الضعف ، بحيث يتحمل به مشقة شديدة .

والمراد بالذين يطيقونه الشيوخ الضعفاء الذين طعنوا في السن ، والمرضى بأمراض مزمنة لا يرجى شفاؤها ، ولا ينتظر برؤها ، وأصحاب الأعمال الشاقة المرهقة التي تلزمهم ، ولا يسهل عليهم تركُها أو التخفف منها .

والفدية هي ما يفتدى الإنسان نفسَه به من التبعة ومن العذاب ، ويراد بها هنا ما يجعله المسلم مقابلَ صومه الذي لم يقم به لسبب من الأسباب ، أو عذر من الأعذار ، فتكون الفدية عوضاً وافتداء ، وإنقاذاً لصاحبها من المسئولية تجاهَ الواجب الذي لم يقم به .

وتساوي الفدية ما يكفي لإطعام مسكين يوماً من الأيام ، إطعاماً متوسطاً ، لا توسع فيه ولا إجحاف ، ويمكن أن نقول إن وجبة كاملة أو وجبتين متوسطتين تكفيان لهذا الإطعام ، والتقدير للفدية ماليّاً قد يختلف باختلاف البيئات والقوة الشرائية فيها ، ولكني أظن أن الفدية اليوم في بيئتنا المصرية تكون نحو عشرة قروش ، ومن زاد فهو خير له ، فكل يوم يفطر فيه الإنسان — ممن ذكرنا — يدفع في مقابله هذه الفدية ، وقد جاء في بعض التفاسير قوله : « على الذين يشق عليهم الصيام إطعام مسكين ، عن كل يوم يفطرون فيه ، من أوسط ما يطعمون منه أهليهم في العادة الغالبة ، لا أعلاه ولا أدناه ، ويطعم بقدر كفاية أكلة واحدة ، أو بقدر شبع المعتدل الأكلة ، وكانوا يقدرونه بمد ، وهو ربع الصاع ، وقدروه بما يملأ الكفين من القمح أو التمر » .

وتعطى هذه الفدية كما قال القرآن الكريم للمسكين ، والمسكين هو الشخص الضعيف المحتاج ، الذي لا يجد ما يكفيه ، حتى إن الحاجة قد تلجئه إلى السكون الناشيء عن الضعف من جهة ، والحياء من السؤال من جهة أخرى ، وينبغي أن يحسن الإنسان اختيار المحتاج ، فلا يدفع بالفدية إلى من يحترف الشحاذة وهو قادر على أن يعمل ، أو عنده ما يكفيه من المال .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

إفطار المجاهد

السؤال : **هل للمجاهد في سبيل الله أن يفطر ؟.**

الجواب :

الجهاد فريضة لازمة باقية ، لأن الجهاد في سبيل الحق والحرية والمبدأ والعقيدة هو طريق العزة ، التي جعلها الله شأن الأمة المؤمنة « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » .

والجهاد من شأنه أن يكون فيه تعب ومشقة ، كما أنه يحتاج في الغالب إلى أن يكون المجاهد قوياً في جسمه ، قد توافر له من الغذاء والشراب ما يعينه على متاعب الجهاد .

لذلك أباحت الشريعة الإسلامية للمجاهد أن يفطر ، وقد يجب الإفطار ، وروي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال : « سافرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة (يبدو أن ذلك كان في غزوة الفتح) ونحن صيام (صائمون) فنزلنا منزلا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنكم قد دنوتم من عدوكم ، والفطر أقوى لكم. فكانت رخصةً (أي تتضمن الجواز والإباحة) فمنا من صام ، ومنا من أفطر ، ثم نزلنا منزلا آخر ، فقال : إنكم مصبحو عدوّكم ، والفطر أقوى لكم ، فأفطروا ؛ فكانت عزيمة (أي أمراً واجباً) ، فأفطرنا ، ثم رأيتُنا نصوم بعد ذلك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في السفر » .

وعن أبي سعيد أيضاً : « كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان ، فمنا الصائم ، ومنا المفطر ، فلا يجد الصائم على المفطر (أي لا

يعيب عليه) ولا المفطر على الصائم ، ثم يرون أن من وجد قوةً فصام فإن ذلك حسن ، ويرون أن من وجد ضعفاً فأفطر فإن ذلك حسن » . رواه مسلم وأحمد .

ونخلص من هذا بأن المجاهد له الحق في الإفطار ، سواء قدر على الصوم أو صعب عليه ، لأن من شأن الجهاد أن يكون شاقاً ، وتوفير القوة للمجاهد أمر لازم ، ولذلك لو احتاج الجهاد إلى الافطار وتوقف عليه ، كانْ الإفطار واجباً ، حتّى ولو كان المجاهد — في حد ذاته كفرد — قادراً على الصوم . والحكمة في ذلك هو ضمان كسب المعركة ، وتوفير الجهد كله للنضال حتّى تعلو كلمة الله .

والمفروض أن الجهاد له وقت محدود ، فإذا انتهى وأفطر فيه المجاهد ، استطاع بعد ذلك أن يقضي ، ولكن إذا طال الجهاد واستمر ، أو كان من شأن المجاهد أن يبقى في ميدان الجهاد ، وصار ذلك عمله المستمر ، فإنه يلحق بصاحب الأعمال الشاقة المرهقة فيفدي عن كل يوم بإطعام مسكين.

وتعد محاربة المحتلين لبلاد الإسلام والعروبة جهاداً في سبيل الله عز وجل ، متى توافر للجندي النية الصادقة في الجهاد والإخلاص فيه ، وقصد وجه الله به .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

استعمال الصائم لمعجون الأسنان

السؤال : **هل يجوز للصائم في رمضان أن يستعمل معجون الأسنان ؟.**

الجواب :

المفطر للصائم هو وصول شيء من الأطعمة أو الأشربة ، أو ما في حكمها، إلى جوف الإنسان من منفذ طبيعي معتاد ، وكذلك شهوة الفرج مفطرة .

وأما استعمال السواك لتنظيف الفم والأسنان ، أو ما يقوم مقامه ، كالفرشة ، أو المعجون المستعمل لتنظيف الأسنان ، فإنه لا يفسد الصوم ولا يفطر الصائم ، لأن الفم لا يعد جزءاً من الجوف ، ولكن يشترط أن لا يصل شيء من أجزاء المعجون إلى الجوف ، ولذلك يجب على الإنسان أن يحترس وهو يستعمل المعجون لتنظيف أسنانه أثناء الصوم ، حتى لا يتسرب منه أجزاء إلى داخل البطن .

واستعمال هذا المعجون قد يشبه من بعض الوجوه وضع الكحل أو القطرة أو المرهم في العينين ، فإن الفقهاء قد قرروا أن هذا لا يفطر ، سواء أوجد الصائم طعم هذه الأشياء في حلقه أو لم يجده ، وقد روى المحدثون عن أنس رضي الله عنه : أنه كان يكتحل وهو صائم .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

مبطلات الصوم

السؤال : **ما هي الأشياء التي تبطل الصوم وتفسده ؟**

الجواب :

إذا تذكرنا أن الصوم هو الإمساك عن المفطرات ابتداء من طلوع الفجر ، إلى غروب الشمس ، في الأيام التي يعرض فيها الصوم ، أو يجوز ، مع نية الصوم ، فإنه يسهل علينا أن ندرك أن مبطلات الصوم هي الأشياء التي تفسد هذا الامساك على الصورة المذكورة .

وقد ذكر الفقهاء طائفة من مفسدات الصيام ، ومنها الأكل أو الشرب عمداً ، ولو كان المأكول أو المشروب قليلا ، ولكنه اذا أكل أو شرب ناسياً ، فإنه لا يفطر ، حتى ولو كان المأكول أو المشروب كثيراً ،

لأن الحديث النبوي المتفق عليه يقول: «مَنْ نسي وهو صائم فأكل أو شرب، فَلْيُتمّ صومه، فإنما أطعمه الله وسقاه». وكذلك جاء حديث يقول: «من أفطر في رمضان ناسياً، فلا قضاء عليه ولا كفارة».

ومن مفسدات الصيام اخراج شيء من بطن الإنسان عمداً، كما في حالة القيء المتعمد، لأن الرسول صلوات الله عليه وسلامه يقول: «من ذرَعَه (أي غلبه) القيء فليس عليه قضاء، ومن استقاء عمداً (أي تعمّد القيء بوسيلة) فليقض».

وأما إخراج البلغم من الداخل، وقذفه إلى الخارج، فلا يفسد به الصوم، لتكرار الحاجة إلى ذلك.

ومن مفسدات الصيام الحيض والنفاس، فإذا جاءت حالة الدورة الشهرية التي تمر على المرأة فإن صومها يفسد، حتى ولو كان نزول الدم قبل الغروب بوقت قليل، ويجب عليها الإفطار حتى ينقطع الدم، وتكون آثمة لو صامت وهي في هذه الحالة، كما يفعله كثير من النساء الجاهلات بحكم الدين.

ومن مفسدات الصيام حالة النفاس التي تعقب الولادة، فما دامت المرأة في هذه الحالة فإنه لا يصح صومها.

ومن مبطلات الصوم المعاشرة الجنسية في نهار رمضان، وقد أجمع الأئمة على أن الإنسان إذا عاشر معاشرة جنسية وهو صائم فسد صومه، ووجب عليه قضاء يوم بدل اليوم الذي أفسد فيه صومه، وعليه كذلك الكفارة المبيّنة في كتب الفقه الإسلامي، بشرط أن يكون الصائم في ارتكابه هذه المعاشرة عامدا مختاراً عالماً بالتحريم، وألا يكون الإنسان في هذه المعاشرة مخطئاً. فلو كان ظاناً بقاء الليل، أو دخول المغرب، ثم تبين له أنه قد عاشر نهاراً، فلا كفارة عليه، وعليه القضاء فقط عند جمهور الفقهاء.

ومن أفسد صومه ووجب عليه القضاء ، فيلزمه أن يصوم أياماً بدل الأيام التي فسد صومها ، ويمكنه أن يصوم هذه الأيام متوالية أو متفرقة ، ولكن الأفضل له أن يطيل التأجيل أو يكرر التسويف ، ليتمكن من قضاء ما عليه قبل أن يحل شهر جديد من شهور رمضان .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الرسول في صومه

السؤال : **أحب أن أعرف فكرة عامة عن طريقة النبي عليه الصلاة والسلام في الصوم ؟.**

الجواب :

كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قدوة مُثْلَى لكل مسلم ، ولذلك قال القرآن الكريم : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » . واذا رجعنا الى هدى الرسول في صومه وجدناه يعجّل الفطر ، فإذا غربت الشمس وانتهى صوم اليوم ، أفطر ، وكان يفطر قبل أن يصلي فريضة المغرب ، وكان يبدأ إفطاره بتناول بعض الرطب ، فإن لم يجد رطباً تناول بعض التمر ، فإن لم يجد تمراً تناول جانباً من الماء ، وكان يقول عند إفطاره : « اللهم لك صمت ، وعلى رزقك أفطرت ، فتقبل منا إنك أنت السميع العليم » . ويقول : « ذهب الظمأ ، وابتلت العروق ، وثبت الأجر ، إن شاء الله عز وجل » . وكان يقول : « لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر » .

وكان يؤخر السحور ، ويقول لأتباعه : « استعينوا بطعام السحر على صيام النهار ، وبالقيلولة على قيام الليل » . وكان يقول : « تسحروا فإن في السحور بركة » .

وكان يستاك وهو صائم ، وكان يصب الماء على رأسه وهو صائم . وكان يحرص على صلاة القيام – وهي صلاة التراويح – ومع أن صلاة القيام سنة فقد حافظ عليها الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يتركها غير مرة واحدة .

وكان يكثر من تلاوة القرآن ومن الذكر والصلاة والاعتكاف ، وبخاصة في الثلث الأخير من رمضان ، وكان يكثر من الصدقة والإحسان ، ولقد قال الإمام ابن القيم في كتابه « زاد المعاد » : « وكان من هديه صلى الله عليه وسلم في شهر رمضان الإكثار من أنواع العبادات ، فكان جبريل عليه الصلاة والسلام يدارسه القرآن في رمضان، وكان إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسله، وكان أجود الناس ، وأجود ما يكون في رمضان ، يكثر فيه من الصدقة والإحسان ، وتلاوة القرآن ، والصلاة والذكر والاعتكاف ، وكان يخص رمضان من العبادة بما لا يخص غيره به من الشهور ، حتى انه ليواصل فيه أحياناً ، ليوفر ساعات ليله ونهاره على العبادة ، وكان ينهي أصحابه عن الوصال (جمع يومين في الصوم بلا أكل) فيقولون له : إنك تواصل ، فيقول : لست كهيئتكم ، إني أبيت – وفي رواية أني أظل – عند ربي ، يطعمني ويسقيني .

وقد قيل إن المراد بذلك هو ما يغذيه به ربه من المعارف ، وما يفيضه على قلبه من لذة مناجاته ، وقرة عينه بقربه ، وتنعمه بحبه والشوق إليه ، وتوابع ذلك من الأحوال التي هي غذاء القلوب ونعيم الأرواح ، وقرة العين وبهجة القلوب والارواح .

ولا عجب أن يعنى الرسول صلى الله عليه وسلم كل هذه العناية بشهر رمضان ، فهو القائل : « أتاكم رمضان شهر بركة ، يغشاكم الله فيه ، فيُنزل الرحمة ، ويحط الخطايا ، ويستجيب الدعاء ، وينظر إلى تنافسكم في الخير ، ويباهي بكم ملائكته ، فأروا الله من أنفسكم خيراً ، فإن الشقي من حرم فيه

رحمة الله عز وجل » . وهو القائل : « لو يعلم الناس ما في هذا الشهر من الخيرات ، لتمنت أمتي أن يكون رمضان السنة كلها » .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الصوم والجهاد

السؤال : **هل يجب الصوم على المجاهدين ؟ ومتى يحق لهم أن يفطروا ؟.**

الجواب :

الصوم هو إحدى القواعد الخمس التي بُني عليها الإسلام ، وهي فريضة مكتوبة واجبة على كل مكلّف قادر ، وكتاب الله العزيز يؤكد ذلك حين يقول في سورة البقرة : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » . وحين يقول فيها أيضاً : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » . وجاء في حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام أن أبا أمامة قال : « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله ، مرني بعمل يدخلني الجنة . فقال : عليك بالصوم فإنه لا عِدْل له . ثم أتيته الثانية ، فقال : عليك بالصيام » .

وكذلك الجهاد جعله الله فريضة مكتوبة قائمة يجب القيام بها ، كلما دعا إليها داعٍ أو أوجبها موجب ، وحسبنا قول الله عز من قائل : « انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » .

وخلاصة القول في صوم المجاهد أنه يجوز له أن يفطر إذا كان في جهاد أو قتال ، وأدرك أن الإفطار يزيده قوة في كفاحه ونضاله ، وأنه يجب عليه أن يفطر إذا توقف النصر على إفطاره ، وأيقن أو غلب على ظنه أنه سيضعف

وينهزم إذا ظل صائماً وهو يقاتل ، ولولي الأمر أن يدعو الجنود إلى الإفطار إذا كانوا في معركة دائرة ، وتوقف نصرهم على الإفطار .

وأما إذا كان الجنود في غير معركة ، وكانوا مطمئنين في أماكنهم أو مواطن رباطهم ، فعليهم أن يصوموا .

ولقد روت السيرة النبوية العطرة أن غزوة فتح مكة وقعت في رمضان من السنة الثامنة للهجرة ، وخرج الرسول صلى الله عليه وسلم ومعه جنوده وهم صائمون ، ولكن النبي صلوات الله وسلامه عليه حينما بلغ موضعاً على الطريق يقال له « الكديد» أفطر وأعلن إفطاره، حتى يراه من حوله فيقتدوا به، ويفطروا متابعين له .

وأصبح الناس منهم الصائم ، ومنهم المفطر ، فأمرهم الرسول عليه الصلاة والسلام بالإفطار جميعاً حينما بلغ أقرب منزل يقدر أن يلقى فيه العدو ، وحينما بلغه عن بعض الناس أنهم ظلوا صائمين غضب وقال : أولئك العصاة.

وقد روى عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح في رمضان ، فصام وصام المسلمون معه ، حتى إذا كان بالكديد دعا بماء في قعب ، وهو على راحلته ، فشرب والناس ينظرون ، يعلمهم أنه قد أفطر ، فأفطر المسلمون .

وروي عن سعيد بن جبير رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاء إلى قوم محاصري حصن ، فأمرهم أن يفطروا ، وجاء ذلك في كتاب « زوائد المسانيد الثمانية » للامام الحافظ ابن حجر .

كما ذكر الطبري في تاريخه ، وابن كثير في كتابه « البداية والنهاية » أن القائد الإسلامي الفاتح المثني بن حارثة الشيباني أمر المجاهدين في غزوة«البويب» ــ وهو مكان بقرب الكوفة ــ أن يفطروا ، فأفطروا عن آخرهم ، ليكون ذلك أقوى لهم .

والله تبارك وتعالى أعلم .

ليلة القدر

السؤال : متى تكون ليلة القدر ؟ وما منزلتها في نظر الإسلام ؟ ولماذا تسمى ليلة القدر ؟ وما الواجب نحوها ؟.

الجواب :

يرى جمهور العلماء أن ليلة القدر هي ليلة السابع والعشرين من رمضان المبارك ، وإلى جوار هذا الرأي آراء . ولكن رأي الجمهور ينهض على روايات كثيرة في السنّة . وإذا كانت الأيام والليالي تتفاضل وتتفاوت في المكانة والمنزلة ، فذلك يرجع إلى ما تتعلق به من ذكريات ، أو ما وقع فيها من آيات ، أو ما يؤدّى خلالها من واجبات . وليلة القدر من هذه الناحية هي خير الليالي ، إذ ترتبط بأعظم حادث في التاريخ ، وهو نزول القرآن الكريم من رب العالمين على الرسول الأمين ، والقرآن هو قائد البشرية ورائد الإنسانية : « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » .

ولقد وردت الإشارة إلى وقت نزول القرآن في ثلاثة مواطن من كتاب رب العزة ؛ الموطن الأول في سورة الدخان حيث يقول القرآن : « حم ، والكتاب المبين ، إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين ، فيها يفرق كل أمر حكيم » . والموطن الثاني في سورة القدر ، حيث يقول : « إنا أنزلناه في ليلة القدر » . والموطن الثالث في سورة البقرة حيث يقول : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدًى للناس وبينات من الهدى والفرقان » . ونفهم من الآية الأولى أن القرآن الحكيم نزل في ليلة عظيمة مباركة ، ومن الآية الثانية انه نزل في ليلة سماها القرآن نفسه « ليلة القدر » ، ومن الآية الثالثة نفهم أن هذه الليلة كانت إحدى ليالي شهر رمضان العظيم .

ولقد سمى الله تعالى هذه الليلة : « ليلة القدر » لأنها ليلة مجدّها الله وشرفها، حيث أنزل فيها كتاباً له مكانةٌ وقدر ، مع جبريل عليه السلام وهو ملك من ملائكة الرحمن له منزلة وقدر ، إلى رسول كريم له مكانة وقدر ، لهداية أمة يريد لها ربها أن تكون ذات منزلة وقدر . ومما يلفت أبصارنا وبصائرنا أن الله تعالى كرر كلمة « القدر » ثلاث مرات في سورة القدر الوجيزة الكلمات القصيرة الآيات ، فقال في طليعتها : « إنا أنزلناه في ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر » .

ونستطيع أن نصف ليلة القدر بأنها « ليلة النور » ، فقد كان فيها نور الله جل جلاله الذي فاض على نبيه ، ومن ورائه أتباعه ، وقد تأذنت رحمته وفضله بهدايتهم وإرشادهم وتدبير أمورهم ، وهناك نور القرآن المجيد الذي هدى البشرية من ضلال ، وأعزها بعد إذلال ، وهناك نور الملائكة الذين تنزلوا فيها بإذن ربهم من كل أمر ، وهناك نور السلام الذي يشرق على الآفاق بالسنا والضياء : « سلام هي » . وهناك نور الفجر الذي كان مسكا ختامياً لهذه الليلة المجيدة المباركة الخالدة على مر الزمن : « سلام هي حتى مطلع الفجر » .

وإذا كان الله تبارك وتعالى قد أعطى ليلة القدر كل هذه المكانة ، فقد أراد فيما نفهم — والله أعلم بمراده — أن يلفتنا إلى ما كان فيها ، ليحثنا على الاهتداء بالنور الذي تنزل خلالها ، وواجبنا أمام هذه الليلة أن نوثق ارتباطنا بذكراها ، وأن ننتفع بإيمانها في صدق وإخلاص ، فنعود إلى مائدة القرآن ، لنحيا مع كتاب الله ، ونهتدي في كل أحوالنا وأعمالنا بهدى الله ، حتى نحسن الفهم لقول الله جل جلاله : « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

يسر الله في الصوم

السؤال : **ما هي الأشياء التي يجوز للصائم أن يفعلها دون أن يفسد صومه ؟.**

الجواب :

الله لطيف بعباده ، وهو الرءوف الرحيم بخلقه ، ولذلك يقول سبحانه : « وما جعل عليكم في الدين من حرج » ويقول : « يريد الله أن يخفف عنكم ». ويقول : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » .

وهناك طائفة من الأشياء تجوز للصائم دون أن يفسد صومه ، وإن ظن بعض الناس خلاف ذلك ، ومنها :

أولا : الإستحمام أو السباحة في الماء والغطس فيه ، حتى ولو كان ذلك على سبيل تلطيف حدة العطش ، أو تلطيف حدة الحر ، أي للتبرد . وقد روي أن الرسول صب الماء على جسده وهو متوجه لفتح مكة في رمضان ، عند مكان يقال له « السقيا » .

ثانياً : وضع القطرة أو مادة المس أو الكحل في العين ،فقد روي أن الرسول عليه الصلاة والسلام اكتحل وهو صائم .

ثالثاً : الحقنة بمختلف أنواعها ، سواء أكانت تحت الجلد أم كانت في العروق ، وقد أفتى مفتي مصر سنة ١٣٥١ هـ بأن الحقنة تحت الجلد لا تفسد الصوم ، سواء أكانت للتداوي ، أم للتغذية ، أم للتخدير ، وفي أي موضع من البدن ، ومثلها الحقنة في العروق ، والحقنة في الشرايين .

وكذلك أصدرت لجنة الفتوى بالأزهر الشريف سنة ١٩٤٨ م تقرر فيها أن ما يصل إلى الجوف من غير المنافذ الطبيعية لا يفطر ، وعليه لا يفطر الصائم

بأخذ الحقن المعروفة الآن بجميع أنواعها ، سواء أكانت للدواء أم للغذاء ، وسواء أكان الدواء أو الغذاء يصل بها إلى الجوف أم لا . أما اذا لم يصل فالأمر ظاهر ، وإن وصل فإنما يصل من منفذ عارض غير خِلْقي .

رابعاً : تكرار المضمضة والاستنشاق ، مع عدم المبالغة فيهما ، لأنها مكروهة للصائم .

خامساً : استعمال السواك أو ما يقوم مقامه من أدوات التطهير والتنظيف للفم والأسنان .

سادساً : بلع الريق المتوالد من الفم ، ولو تكرر أو كثر داخل الفم ، لأنه يصعب تجنب ذلك .

سابعاً : تذوق المرأة الطعام وهي تطبخ ، بأن تذوقه بلسانها دون ابتلاع شيء منه ، وذلك لكي تعرف عن طريق تذوقه درجة ملوحته وصلاحيته .

ثامناً : شم الروائح الطيبة كالعطور والأزهار والبخور .

تاسعاً : التطيب والتعطر والإدهان متى دامت الحاجة تدعو إلى ذلك ، وهذا بالنسبة إلى الرجال ، وبالنسبة إلى المرأة إذا كانت منفردة ولم تختلط بأجنبي عنها.

عاشراً : طلوع الفجر والصائم جنب لم يغتسل بعد ، ولكن يجب عليه أن يغتسل ليتمكن من أداء الصلاة .

هذه طائفة من الأشياء التي يجوز للصائم أن يفعلها دون أن يفسد صومه ، وينبغي أن نتذكر أن كثيرين ممن تشغلهم أفكار الصيام المخلص وأسراره لن يجدوا أنفسهم مائلين إلى ممارسة كل هذه المباحات ، فقد قال الحكيم : «على قدر أهل العزم تأتي العزائم » .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

صوم الاثنين والخميس

السؤال : **ما حكم صيام يومي الخميس والجمعة ، واليوم السابع والعشرين من شهر رجب ؟**

الجواب :

جاء في كتب الفقه الإسلامي أنه من المندوب صوم الاثنين والخميس من كل أسبوع ، ويقول الغزالي في كتابه « إحياء علوم الدين » : « ومن فواضل الأيام في الأسبوع يوم الخميس والاثنين ، تُرفع فيهما الأعمال إلى الله تعالى » . وقد ذكر الغزالي في الكتاب المذكور أن هناك أياماً في الأسبوع يستحب فيها الصيام وتكثرُ فيها الخيرات ، لتضاعف أجورها ببركة هذه الأوقات .

وقال إن صوم نصف الدهر — وهو أن يصوم الإنسان يوماً ويفطر يوماً — قد ورد في فضله أخبار كثيرة ، لأن العبد فيه بين صوم يوم وشكر يوم . وقد ورد فيه الحديث القائل : « عُرضت عليّ مفاتيح الدنيا وكنوز الأرض(١) فرددتها ، وقلت : أجوع يوماً وأشبع يوماً ، أحمدك إذا شبعت ، وأتضرع إليك إذا جعت » . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أفضل الصيام صوم أخي داود ، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً » .

ثم قال : « ومن لا يقدر على صوم نصف الدهر فلا بأس بثلثه ، وهو أن يصوم يوماً ويفطر يومين ، وإذا صام ثلاثة من أول الشهر ، وثلاثة من الوسط ، وثلاثة من الآخر فهو ثلث ، وواقع في الأيام الفاضلة.وإن صام الاثنين والخميس والجمعة فهو قريب من الثلث .

(١) وفي رواية : « عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً ... » .

وإذا ظهرت أوقات الفضيلة فالكمال في أن يفهم الإنسان معنى الصوم ، وأن مقصوده تصفية القلب ، وتفريغ الهم لله عز وجل . والفقيه بدقائق الباطن ينظر إلى أحواله ، فقد يقتضي حاله دوام الصوم ، وقد يقتضي دوام الفطر ، وقد يقتضي مزج الإفطار بالصوم . وإذا فهم المعنى وتحقق حده في سلوك طريق الآخرة بمراقبة القلب ، لم يخف عليه صلاح قلبه ، وذلك لا يوجب ترتيباً مستمراً .

ولذلك روي أنه صلى الله عليه وسلم كان يصوم حتّى يقال لا يفطر ، ويفطر حتّى يقال لا يصوم ، وينام حتّى يقال لا يقوم ، ويقوم حتّى يقال لا ينام ، وكان ذلك بحسب ما ينكشف له بنور النبوة من القيام بحقوق الأوقات » .

وأما فيما يتعلق بيوم الإسراء والمعراج فلم يرد عنه شيء في السنة ، وقد أورد الغزالي في شأنها حديثاً لا يصح ثبوته ، بل هو ضعيف منكر ، كما قرر ذلك الإمام العراقي ، وهذا الحديث المنكر هو :

« للعامل في هذه الليلة حسنات مائة سنة ، فمن صلى في هذه الليلة اثنتي عشرة ركعة ، يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة من القرآن ، ويتشهد في ركعتين ، ويسلّم في آخرهن ، ثم يقول سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر مائة مرة ، ثم يستغفر الله مائة مرة ، ويصلي على النبي صلى الله عليه وسلم مائة مرة ، ويدعو لنفسه بما شاء من أمر دنياه وآخرته ، ويصبح صائماً فإن الله يستجيب دعاءه كله ، إلا أن يدعو بمعصية » .

ونص عبارة العراقي عن هذا الحديث هو :

« حديث الصلاة المأثورة في ليلة السابع والعشرين من رجب ، ذكر ابو موسى المديني في كتاب : فضائل الأيام والليالي أن أبا محمد الحباري رواه من طريق الحاكم أبي عبدالله ، من رواية محمد بن الفضل ، عن أبان مرفوعاً ، ومحمد بن الفضل وأبان ضعيفان جداً ، والحديث منكر » .

فلا ينبغي أن يغتر المسلم بأمثال هذه الآثار المنكرة غير الثابتة ، ويكفيه ما شرعه القرآن والسنة ؛ والملاحظ أن بعض المسلمين يعطون أمثال هذه المندوبات – أو التي قيل عنها مندوبات – عناية ربما لا يعطونها لما هو أهم منها من واجبات ومشروعات .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

المعاشرة الزوجية في رمضان

السؤال : **متى تحل المباشرة الزوجية في شهر رمضان ؟**

الجواب :

يقول الله تبارك وتعالى في سورة البقرة : « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ، علم الله أنكم تختانون أنفسكم ، فتاب عليكم وعفا عنكم ، فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم ، وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، ثم أتموا الصيام إلى الليل،ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد ، تلك حدود الله فلا تقربوها ، كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون » . الآية ١٨٧ .

والرفث : كناية عن المعاشرة الزوجية ، ومن الآية الكريمة نفهم أن المسلم يباح له أن يعاشر زوجته في رمضان المعاشرة الزوجية ، كل ليلة من ليالي رمضان ، ابتداء من تمام غروب الشمس إلى أول طلوع الفجر ؛ وقد أنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية لأن بعض الصحابة كانوا يحرمون على أنفسهم المعاشرة الزوجية أثناء الليل إذا عرض لهم النوم .

وقد جاء في صحيح البخاري عن البراء أن الرجل من الصحابة كان إذا حضر

موعد الإفطار ، فنام قبل أن يفطر ، لم يأكل في ليلته تلك ولا في يومه بعدها حتى يمسي وتغرب الشمس ، وعنه أيضاً أنه لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء في رمضان كله ، وكان بعضهم يخون نفسه ، فيباشر زوجته في ليل رمضان ، ثم يندم على ذلك . فأراد الله عز شأنه أن يخفف على عباده ، فأباح لهم الأكل والشرب والمباشرة الجنسية في كل ليلة من ليالي رمضان من بعد غروب الشمس إلى بدء طلوع الفجر .

وينبغي أن نتذكر أنه لا يجوز للمسلم إطلاقاً أن يعاشر زوجته وهو صائم ، لأن هذه المعاشرة تفسد الصوم .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

صوم الدهر

السؤال : **ما رأي الإسلام في شخص يريد أن يصوم دائماً طيلة عمره ولا يفطر أبداً إلا في الليل ؟.**

الجواب :

هذا العمل الذي يريده الشخص المسئول عنه يسمى « صوم الدهر » ، وقد وردت في النهي عنه أحاديث ، منها ما روي عن عبدالله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا صام من صام الأبد » ، وهو حديث متفق عليه .

وعن أبي قتادة أنه قيل : يا رسول الله ، كيف بمن صام الدهر ؟.

فقال : لا صام ولا أفطر . وفي رواية : لم يصم ولم يفطر . وهذا الحديث رواه الجماعة إلا البخاري وابن ماجه .

وقد استدل الفقهاء بهذا على كراهية صوم الدهر ، وقد كرهه مطلقاً إسحاق وأهل الظاهر ، وفي رواية عن أحمد ، وقال حزم إنه حرام .

وهناك من ذهبوا إلى استحباب صومه لمن لا يدخل عليه مشقة ، ولا يفوته حق من الحقوق بسبب هذا الصوم . وقالوا : إن النهي الوارد عن صوم الدهر محمول على من كان يُدخل على نفسه مشقة ، أو يفوّت حقاً .

والنفس تميل إلى الرأي الأول ، لأن الإسلام دين يسر وسهولة ، وشعاره القصد والاعتدال والتوسط ، ولقد حدّث عبدالله بن عمرو عن نفسه قال :

أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أني أقول : لأقومن الليل ، ولأصومن النهار ما عشت . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : آنت الذي تقول ذلك. فقلت : قد قلته يا رسول الله . فقال : إنك لا تستطيع ذلك ، فصم وأفطر ، ونم وقم ، وصم من الشهر ثلاثة أيام ، فإن الحسنة بعشر أمثالها ، وذلك مثل صيام الدهر .

قلت : فإني أطيق أفضل من ذلك (أي أكثر) .

قال : صم يوماً وأفطر يومين . قلت : فإني أطيق أفضل من ذلك يا رسول الله .

قال : صم يوماً وأفطر يوماً ، وذلك صيام داود عليه السلام ، وهو أعدل الصيام .

قلت : فإني أطيق أفضل من ذلك . قال : لا أفضل من ذلك .

ثم قال عبدالله بعد ذلك : لأن أكون قبلت الثلاثة الأيام التي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبُّ إليَّ من أهلي ومالي . وذلك حينما ضعف في آخر عمره .

وفي رواية أن النبي عليه الصلاة والسلام قال له : لا تفعل ، صم وأفطر ، وقم ونم ، فإن لجسدك عليك حقاً ، وإن لعينيك عليك حقاً ، وإن لزوجك

عليك حقاً ، وإن لزَوْرك (لضيفك) عليك حقاً ، وإن يحسبك (يكفيك) أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام .

وفي رواية أخرى : قال لي النبي صلى الله عليه وسلم : إنك لتصوم الدهر ، وتقوم الليل ؟. قلت : نعم . قال : إنك إذا فعلت ذلك هجمت له العين(أي ضعفت) ، ونَفِهت له النفس (أي سئمت) ، لا صام من صام الدهر ، صوم ثلاثة أيام صوم الدهر كله . (رواه الثلاثة والنسائي) .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

الزكاة

زكاة الفطر وقبول الصوم

السؤال : **هل من الضروري أن يخرج كل مسلم زكاة فطره حتى يقبل صيامه ؟ وإذا كان الإنسان لا يملك ما يمكنه من إخراج هذه الزكاة ، فهل يقبل صيامه في رمضان ؟**

الجواب :

الصوم فريضة من فرائض الإسلام كتبها الله على عباده بقوله في سورة البقرة: « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » . وزكاة الفطر كذلك أوجبها الله على عباده ، وقد ثبت في الحديث المتفق عليه أن النبي صلوات الله وسلامه عليه فرض زكاة الفطر في رمضان .

وصوم رمضان لا يغني عن أداء زكاة الفطر ، كما أن زكاة الفطر لا تغني عن صوم رمضان ، فكل منهما واجب مستقل ، وكل منهما مطلوب الأداء من المسلم القادر ، ومن ترك الصوم وزكاة الفطر معاً كان أفحش ممن ترك أحدهما ، ومن أداهما معاً فذلك هو المسلم الصحيح .

ولكن لا ينبغي أن يقال لمن يصوم ولا يزكي زكاة الفطر إنه غير مقبول الصيام ، لأنه يمكن أن يقال إن الصيام فريضة لها ثوابها عند أدائها ، وعلى الإنسان عقوبتها إذا أهمل في أدائها ، ومثل هذا يمكن أن يقال بشأن زكاة الفطر . وإن كان الواجب علينا ألا ننسى أن الإسلام كل لا يتجزأ ، وان فرائضه وأوامره كلها يجب أن تؤدى .

ولقد جاء في كتب السنة حديث منسوب الى رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول : « صوم رمضان معلّق بين السماء والأرض لا يُرفع إلا بزكاة الفطر» .

ومع أن علماء الحديث قد تكلموا في درجة هذا الحديث ، نفهم أن هناك تصويراً في كلماته لنوع من الارتباط بين حكمة الصوم وحكمة زكاة الفطر ، فمن بين حكم الصوم أنه يحرك الشعور بما يتعرض له الفقراء والمحتاجون من ألم الجوع ، فتأتي زكاة الفطر ترجمة عملية لما يترتب على هذا الشعور من عطف على المساكين وإغناء لهم عن السؤال في مناسبة العيد ، ولعل ما يفسر هذا أن بعض الأحاديث الشريفة قد بينت أن زكاة الفطر فيها « طهرة للصائم من اللغو والرفث ، وطُعمة للمساكين » .

وأما إذا كان الإنسان لا يملك ما يمكنه من إخراج هذه الزكاة ، فلا ذنب عليه إذا لم يخرجها ، لأن القرآن الكريم يقول : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها» .

وفي الجزء الأول من كتابي « يسألونك في الدين والحياة » أن زكاة الفطر إنما تجب على من يقدر على دفعها ، بأن كان عنده نصاب الزكاة ، أو كان لديه ما يزيد عن حاجته وحاجة من ينفق عليهم يوم العيد وليلته ، ويدفع الإنسان هذه الزكاة عن نفسه ، وعن كل من تلزمه نفقته كالزوجة والأولاد الصغار والخدم ونحوهم(١) .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

وظيفة الزكاة في المجتمع

السؤال : يقول بعض الجهلة إن الزكاة نظام رجعي ، ليس له موضع في المجتمع المعاصر ، فما رأيكم ؟.

الجواب :

إن هناك قوماً يضيقون ذرعاً بالدين الحنيف وأحكامه وتعاليمه ومبادئه ،

(١) انظر الجزء الأول من كتابي « يسألونك في الدين والحياة » ، ص ١٦٤ .

فيودون أن يصبحوا فيجدوا الدنيا بلا دين وبلا متدينين ، ليسهل عليهم أن ينطلقوا في دنيا أهوائهم وشهواتهم كما يريدون وكما يشاءون .. يقول قائل مثلا : لا نريد من رجال الدين أن يدسوا أنوفهم في كل شيء ، ولا أن يقولوا كلما جدّ إصلاح : لقد سبق الإسلام الى هذا ، وقال فيه القرآن كذا ، وقال الحديث كذا .... وأمام هذا القول يحار علماء الدين : إن قاوموا البدع والمنكرات التي استجدت في المجتمع ، وُصِفُوا بأنهم جامدون رجعيون ، يعيشون مع القرون الوسطى ، ومع عهود الظلمات ... وإن بدا لهؤلاء العلماء لون من التوافق بين مبادىء الإسلام الحنيف الخالد ووجوه الإصلاح في المجتمع ، فالتمسوا تزكية هذه الإصلاحات بإيراد شواهد من القرآن أو الحديث ، قال المعوقون : ان هذا دس من العلماء لأنوفهم في أمور لا تدخل في اختصاصهم... فماذا يصنع العلماء إذن ؟ أيقاومون المنكر أم لا يقاومونه ؟. أيؤيدون الاصلاح أم لا يؤيدونه ؟. إنها مشكلة أوسع من القول بأن الزكاة نظام رجعي أو غير رجعي ..

ويقول قائل : ليس في الإسلام رجال دين كرجال الكهنوت . وهو يعلم أنه ليس هناك عالم من علماء المسلمين قال أو يقول بأن في الإسلام رجال دين أو رجال كهنوت .. ولكن المتهجم يريد أن يحرف الكلم عن مواضعه ، فبدل أن يقول : يجب أن يكون في المجتمع علماء دين ، لأن الله تعالى يقول في نص كتابه الحكيم : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » ، يقول : إنه ليس في الإسلام رجال دين أو رجال كهنوت ، ليوجد خلطاً أو مزجاً بين ما يجب أن يكون وهم علماء الدين ، وما لا يمكن أن يكون في الإسلام وهم طبقة رجال الدين أو طبقة رجال الكهنوت ...

ويقول قائل . إن الدين صلة بين العبد وربه فقط .. وهذا حكم لا يقره الإسلام ، لأنه تعريف مبتور ناقص للإسلام ورسالته ، فالإسلام صلة بين العبد وربه ، وصلة بين الإنسان ونفسه ، وصلة بين الإنسان ومجتمعه ، وصلة بين

الإنسان والناس كلهم ، بل هو صلة بين الإنسان والحيوان ، بل بين الإنسان وبين الجماد ، بل بين الانسان وسائر الأشياء ..

فالمسألة إذن ليست مقصورة على القول بأن الزكاة رجعية أو ليست رجعية ، وإنما هذه الكلمة سطر من كتاب تضليل يراد به النّيْل من ضوء ساطع سيظل متألقاً باقياً : « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » .

ثم نعود إلى موضوع الزكاة . يقول القائل : إن الزكاة أمر موكول إلى الأفراد ، وإلى رحمة الناس ، وإلى مدى استجابة الإنسان لعواطف الخير ونزعات البر ... وهذا ادعاء لم يجيء به الإسلام ، ولم يفهمه علماء المسلمين ، ولم يقل به قائل من المسلمين يوزن كلامه .

الزكاة ، كما يعرفها الطالب الأزهري المبتدىء ، فرض وحق معلوم ، وواجب حتم يُجمع من القادرين ، ومن مالكي النصاب ، ليتـولى ولي الأمر الشرعي إنفاقَ هذا المجموع في الوجوه التي نص الله عليها في كتابه.ومن الدلالة العميقة في آية مصارف الزكاة أنها ذكرت : « العاملين عليها » ، أي الذين يقومون بجمع الزكاة ، كأن الأصل في هذه الزكاة هو أن تجمع بوساطة ولي الأمر الشرعي ، لتُرَدَّ على المحتاجين وعلى المصارف التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم . فليست الزكاة إذن موكولةً إلى رغبة ، أو استجابة ، أو تحرك عاطفة من عواطف الخير ، وإنما هي فرض كفرض الصوم والحج والصلاة . ثم إن الأسلام إلى جوار فرض الزكاة قد أرضى عواطفَ الخير والبر في نفوس الأفراد والجماعات ، فلفت إلى مجالات التصدق ، ومجالات الإحسان ، ومجالات الإفاضة في عمل الخير ، بعـد أداء الواجب والفرض المحتوم ، وهو الزكاة .

فالقول بأن الزكاة عمل فردي ، أو موكول إلى تحرك عاطفة الخير في نفس الإنسان ، لا نصيب له من الصحة أو الواقع .

ثم يظن هذا القائل أن المجتمع ما دام قد صدرت فيه قوانين يراد منها التقريب

بين طبقات الفقراء وطبقات الأغنياء ، فإنه سيخلو نهائياً من المحتاجين والفقراء. ولم يقل بذلك قائل في قديم أو حديث، فإن أرقى المجتمعات في النواحي المادية لا يخلو من وجود محتاجين ، او من عائشين في أقل من المستوى الذي يجب أن يعيش فيه الفرد الكريم ، فمهما ارتفعنا بمستوانا المادي ، فسيظل هناك أناس يحتاجون إلى معاونة . وليست مصارف الزكاة مقصورة على أفراد يحتاجون احتياجاً ظاهرياً ، بل يوجد من هذه المصارف ما يتسع نطاقه وينفسح مداه إلى مسافات بعيدة من جهات الإصلاح ووجوه العمران ، ولذلك يذهب بعض الفقهاء في تفسير قول الله تعالى : « وفي سبيل الله » مذاهب واسعة ، تجعل كثيراً من وجوه الإصلاح تدخل في هذا المصرف من مصارف الزكاة، وهو « سبيل الله » .

يخيل للانسان أن هناك حملة منظمة ضد الدين ومبادئه ، نظمتها أقلام كانت من عهد قريب تنحرف ذات اليمين وذات الشمال ، لتمالىء هذا أو ذاك من الاتجاهات الدخيلة ...

ونحن نعلم كيف كانت هذه الأقلام تعمل لتقويض دعامات البناء والخير في هذا البلد ، وكيف كان أصحابها يسارعون ، كلما جد في الحياة بريق جديد ، لكي يغنموا ويكسبوا ..

فأمثال هؤلاء يجب أن يقفوا عند حدهم ، لا بأيدي الأفراد ، بل بأيدي ولاة الأمور ، لأنها الأيدي القادرة الموجهة إلى الخير والإصلاح .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *



الحج



الحج وأهدافه الاجتماعية

السؤال : **لماذا شرع الله الحج ؟ وما هي فلسفته الاجتماعية ؟.**

الجواب :

« وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير » .

جعل الله لعباده في أيامه أعياداً ومواسم ، يتذكرون فيها نعماءه ، ويشكرون آلاءه ، ويحمدونه أثناءها على توفيقه لهم في ميادين الطاعة والعمل الصالح ، والصفةُ الغالبة على هذه الأعياد والمواسم ، هي أن الحق تبارك وتعالى قد جعلها مناسبات لتجميع الأمة ، وتأليف قلوبها ، وتوحيدها في وجهتها وطريقتها ، وحركاتها وسكناتها ، وآلامها وآمالها ، والتسامي نحو الوحدة التي يريد الله لعباده وأوليائه أن تكون متحققة فيهم على الدوام ، « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » ، كما يريد سبحانه لهذه الأمة أن تكون متكافلة متضامنة ، تبدو كتلة واحدة إذا تحركت بأجمعها ، لأن كل جزء منها ملتئم مع بقية الأجزاء ومرتبط بها ، ومن هنا صور الرسول صلوات الله عليه وسلامه الأمة بهذه الصورة الرائعة فقال : « مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » ، كما قال : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» .

وأكبر عيد تبدو فيه الأمة المؤمنة مجتمعة متلاقية هو عيد الحج الأكبر ، الذي يمثل المؤتمر الإسلامي الأعظم ، حيث تخرج الألوف بعد الألوف ، من مشارق الأرض ومغاربها ، ساعين إلى ربهم ، متحملين وعثاء السفر ومشقات الرحلة ،

ليتلاقوا فيتعارفوا ويتآلفوا ، ويتدارسوا ويتباحثوا ، ويطبوا لمشكلاتهم المختلفة، وليشهدوا منافع لهم ، وليذكروا اسم الله في أيام معدودات ، وليوفوا نذورهم، وليطوفوا بالبيت العتيق أول بيت وضع للناس ...

* * *

وقد شرع الله الحج ليكون رحلة خالصة مخلصة لوجهه وفي سبيله ، تتوافر فيها رياضة الحس والوجدان ، وحمل النفس على التجرد من زينة الحياة ، والإقبال بها على طاعة الرحمن ، ولذلك كان في الحج انتقال وارتحال ، وإعداد للزاد ، واحتمال لمشاق السفر وتغير الأجواء ، وتجرد من متاع الحياة، حتى في الثياب المألوفة والملابس المعروفة ، وإقبال على الله بالحس والنفس ، والعمل والقول ، والذكر والفكر ،فشعار المسلم منذ إحرامه هو نداؤه ودعاؤه: « لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » .

ولذلك كان من أول ما يلزم للحج هو النية الطاهرة الصادقة ، التي يعزم فيها المسلم على الرحيل إلى ربه بنفس مؤمنة ، وذات تائبة ، وهمة معرضة عن الشهوات والملذات ، مقبلة على الطاعات والقربات ، لأنه سيحل ضيفاً على ربه عز وجل ، حول بيته الذي جعله الله مباركاً وهدى للعالمين.

وبيت الله كما علّمنا الإسلامُ يحتاج في زيارته إلى طهارة المظهر والمخبر، وقد روى الإمام القرطبي عن حذيفة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « إن الله أوحى إليّ : يا أخا المنذرين ، يا أخا المرسلين ، أنذر قومك ألا يدخلوا بيتاً من بيوتي إلا بقلوب سليمة ، وألسنة صادقة ، وأيد نقية ، وفروج طاهرة ، وألا يدخلوا بيتاً من بيوتي ما دام لأحد عندهم مظلمة ، فإني ألعنه ما دام قائماً بين يديَّ ، حتى يرد تلك الظلامة إلى أهلها ، فأكون سمعَه الذي يسمع به ، وبصرَه الذي يبصر به ، ويكون من أوليائي وأصفيائي ، ويكون جاري مع النبيين والصديقين ، والشهداء والصالحين » .

واذا كان هذا يقال في حق أي بيت من بيوت الله ، فكيف بالبيت الحرام الذي يقول فيه بديعَ السموات والأرض : « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً ، واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ، وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود » .

ويقول تبارك وتعالى : « جعل الله الكعبةَ البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ، ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ، وأن الله بكل شيء عليم » .

كما شرع الله الحج ليعلّم عباده كيف يترفعون عن الأحقاد والأضغان ، ويتناسَوْن الشحناء والبغضاء ، ويزهقون روح الخصومة والمعاداة ، ولذلك جعل الله موسم الحج فرصة للاخاء والصفاء ، والتنزه عن الخلاف والاعتساف ، حتى في الكلام والحوار ، والتطهر من كل أسباب التمرد والانحراف ، ولذلك يقول أصدقُ القائلين سبحانه : « الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقوني يا أولى الألباب » .

* * *

وموسم الحج موسم أمان وسلام ، يأمن فيه كل فرد على نفسه ومتاعه ، وكلما تطلع المسلم إلى بيت الله الكريم قال كما كان يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، فحيِّنا ربنا بالسلام » .

بل إن الحمام نفسه – وهو طائر رقيق ضعيف – يأمن على نفسه ، فهو يطير هنا وهناك ، وينتقل من مكان إلى مكان ، لا يخشىٰ عند الحرم أذى أو عدواناً ، وكيف يخشى ذلك وهو في الحرم ، وحول البيت الحرام ، وفي البلد الحرام ، وفي الموسم الحرام ، حيث لا يكون اعتداء أو انتقام ؟.

وهذا رسول الله صلوات الله عليه وسلامه يقول عن مكة يوم الفتح : « إن هذا البلد حرمه الله تعالى يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله

تعالى إلى يوم القيامة ، وإنه لم يحل القتالُ فيه لأحد قبلي ، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة ، لا يعضد شوكة (أي لا يقطع) ، ولا ينفّر صيده ، ولا تلتقط لقطتُه إلا من عرفها ، ولا يختلي خلاها (أي لا يقطع نباتها الرطب الرقيق ما دام رطباً) .

وهؤلاء هم ضيوف الله حول بيته ، كأنهم في صلاة ممتدة الأجل طويلة الأمد ، فهم يتحركون ويذهبون ويجيئون ، وذكرُ الله هو الشغل الشاغل لهم ، وتصفيةُ قلوبهم هو الأمر المسيطر عليهم ، وتطهير نفوسهم هو المقصد الأسمى من رحلتهم ، حتى يتحقق فيهم ومنهم الحج المبرور الذي يجعل المرء وكأنه قد وُلد من جديد ، مصداقاً لقول رسول الله عليه صلوات الله وسلامه : « ليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة » . ولعل هذا لا يبعد عن مجال الحكمة في أن يطوف المسلم حول الكعبة طاهراً متوضئاً كأنه في الصلاة . وقد جاء في الحديث « الطواف بالبيت مثل الصلاة ، إلا أنكم تتكلمون فيه ، فمن تكلم فيه فلا يتكلم إلا بخير » .

* * *

ألا ما أجملها من رحلة ، وما أكرمها من ضيافة ، وما أعظمها من نعمة وما أجله من فوز مبين .

يذهب المسلم الصادق إلى الحج، فإذا وفقه مولاه جل علاه لتأدية الفريضة على الوجه الأكمل ، فقد وصل إلى جملة أغراض وعدة مقاصد : إنه يسهم أولا بشخصه مع إخوانه في الله ، في تطبيق الوحدة على أوسع نطاق مستطاع ، وهو يزور الأماكن الطيبة المقدسة صاحبة الذكريات الدينية المجيدة ، والنفحات الالهية العديدة ، فيكون له من هذه الذكريات نور وضياء ، ومن هذه النفحات غذاء ودواء ، ومن التدبر والتفكر إيقاظ وإحياء ، والذكرى تنفع المؤمنين .

وهو يرى المشاعر الحرام فيزداد لدين الله إجلالا ، وعلى ربه إقبالا ، وهو يرى بعينه كيف انبعث دين الإسلام الهادي من جوف الصحراء ، ومن

واد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم ، ومع ذلك عمر هذا الإسلام دنيا الناس بالخيرات والبركات ، وزانها بالطيبات الصالحات ، وأخرج من مال الفيافي ومن جوف الخيام رجالا صاروا فرسان النهار ورهبان الليل ، فعلّموا الدنيا كيف تكون القيادة الرشيدة ، والعبادة المجيدة ، والجهاد من أجل الحق والخير والعدالة والإخاء .

إن الحج فريضة توجد في الإنسان إذا أداها بصدق وإخلاص كثيراً من مقومات الشخصية الاجتماعية المنشودة للمجتمع الحي الدءوب ، فهي تأخذه أولا بالتوبة ، والتطهر من المآثم والمظالم ، وتعلمه الرحلة في سبيل العقيدة ، والتعب في سبيل المبدأ ، وهي تعلمه أيضاً كيف يلتئم وينسجم مع إخوانه في مؤتمر عام ضخم ، وهي تعوده كيف تنبسط يده بالبر والإحسان ، وتعوده على التضحية والبذل ، وحبذا لو فقهت ملايينُ المسلمين هذه الفريضة الجليلة على هذا الوضع ، حتى تتضاعف الثمرات من أداء الحج في كل عام .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

متى يجب الحج ؟

السؤال : **يريد فقير مدين أن يقوم بأداء فريضة الحج ، مع أنه لا يستطيع ذلك بطبيعة دخله وكثرة التزاماته ، فهل يكون الحج مفروضاً عليه في تلك الحالة؟**

الجواب :

إن النص الإلهي القرآني صريح واضح في أن الحج لا يجب على الإنسان إلا إذا كان قادراً مستطيعاً ، فالله تبارك وتعالى يقول في سورة آل عمران : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمينُ » ؛

ولا جدال في أن الحج له فضله الكبير ومكانته السامية حتى روى الطبراني والبزار وابن حيان في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كنت جالساً مع النبي صلى الله عليه وسلم ، في مسجد منى ، فأتاه رجل من الأنصار ، ورجل من ثقيف، فسلما ثم قالا: يا رسول الله، جئنا نسألك. فقال: إن شئتما أخبرتكما بما جئتما تسألاني عنه فعلتُ ، وإن شئتما أن أمسك وتسألاني فعلت .

فقالا : أخبرنا يا رسول الله ، فقال الثقفي للأنصاري : سل . فقال: أخبرني يا رسول الله . فقال : جئت تسألني عن مخرجك من بيتك تؤم البيت الحرام ومالك فيه ، وعن ركعتيك بعد الطواف ومالك فيهما ، وعن طوافك بين الصفا والمروة ومالك فيه (يقصد السعي) وعن وقوفك عشية عرفة ومالك فيه ، وعن رميك الجمار ومالك فيه ، وعن نحرك ومالك فيه ، وعن حلقك رأسك ومالك فيه ، وعن طوافك بالبيت بعد ذلك ومالك فيه مع الإفاضة .

فقال : والذي بعثك بالحق لَعَنْ هذا جئت أسألك . قال : فإنك إذا خرجت من بيتك تؤم البيت الحرام لا تضع ناقتك خفا ولا ترفعه إلا كتب الله لك به حسنة ومحا عنك خطيئة ، وأما ركعتاك بعد الطواف كعتق رقبة من بني إسماعيل ، وأما طوافك بالصفا والمروة بعد ذلك كعتق سبعين رقبة ، وأما وقوفك عشية عرفة فإن الله تعالى يهبط إلى سماء الدنيا فيباهي بكم الملائكة، يقول : عبادي جاءوني شُعثاً من كل فج عميق ، يرجون رحمتي ؛ فلو كانت ذنوبكم كعدد الرمل أو كقطر المطر ، أو كزبد البحر ، لغفرتها ؛ أفيضوا عبادي مغفوراً لكم ولمن شفعتم له . وأما رميك الجمار فلك بكل حصاة رميتها تكفير كبيرة من الموبقات ، وأما نحرك فمذخور لك عند ربك، وأما حلقك رأسك فلك بكل شعرة حلقتها حسنة ، وتمحى عنك بها خطيئة ، وأما طوافك بالبيت بعد ذلك فإنك تطوف ولا ذنب لك ، يأتي مَلَكٌ حتى يضع يديه بين كتفيك فيقول : اعمل فيما يستقبل فقد غُفر لك ما مضى .

وهناك أحاديث كثيرة في فضل الحج المبرور السليم من الآفات والعيوب ، ولكن الحج لا يجب على الانسان إلا إذا كان مستطيعاً ، ومعنى الاستطاعة

السلامة والصحة والقدرة على أداء الفرض ، وتملك الزاد والنفقة منذ خروجه إلى أن يعود ، وقال الفقهاء إذا كان الشخص متعوداً على أكل اللحم ، فإن الحج لا يجب عليه إذا قدر على خبز وجبن فقط ، والمعتبر نفقـــة الوسط ؛ وكذلك تتوافر له وسيلة الركوب والانتقال من دابة أو باخرة أو سيارة أو طيارة ، ولذلك حينما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى قوله تعالى : « من استطاع إليه سبيلا » قال : الزاد والراحلة ، وكذلك يكون عند أولادهم وأسرته ومن تلزمه نفقتهم ما يكفيهم طيلة ذهابه ورجوعه ، ويشترط أن تكون هذه الأشياء فاضلة عن حوائجه الأصلية .

ومن هذا نفهم ان الدين لا يوجب على الإنسان الحج عن طريق الاستدانة ، وقد روى البيهقي عن عبد الله بن ابي أوفى قال : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل لم يحج : أيستقرض للحج ؟ قال : لا . والله جل جلاله لا يريد بنا العسر ، بل يريد بنا اليسر ، وهو القائل في كتابـــه : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » . فعلى من لزمه دَيْن ووجب أداؤه أن يؤديه ، وينتظر حتّى تتوافر له أسباب الاستطاعة للحج ثم يحج عند ذلك ، ولا داعي للاقتراض من أجل الحج ، والله غفور رحيم .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الحج المبرور

السؤال : **يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » ، فما هو الحج المبرور ؟**

الجواب :

الحج فريضة من فرائض الدين ، وقاعدة من قواعد الإسلام ، والأساس

في أداء هذه الفرائض هو الإخلاص ، حتى تكون مقبولة عند الله تبارك وتعالى ، مرضية لديه ، جديرة بثوابها الجزيل العميم ، و« الحج المبرور » معناه : الحج المقبول الذي يقابله الله سبحانه بالبر وهو الثواب ، وإنما يكون الحج كذلك إذا لم يخالطه شيء من المآثم .

ولكي يكون الحج مبروراً يجب أن يخلص الإنسان حجه لوجه ربه ، لأن الله تعالى حينما فرض الحج على الناس في كتابه أشار إلى أن هذه الفريضة له دون سواه ، فقال : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين » . ولذلك على من يريد أن يجعل حجه مبروراً أن يخرج إليه بنية الطاعة إلى الله تعالى ، والتقرب منه ، لا بنية أمر آخر من أمور الدنيا أو شهوة من شهوات النفس، وهذا هو الرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « ما من خارج يخرج من بيته ، إلا ببابه رايتان ، راية بيد مَلَك ، وراية بيد شيطان ، فإن خرج لما يحب الله عز وجل ، اتّبعه المَلَك برايته ، فلم يزل تحت راية المَلَك ، حتى يرجع إلى بيته ؛ وإن خرج لما يسخط الله اتّبعه الشيطان برايته ، فلم يزل تحت راية الشيطان » .

ولكي يكون الحج مبروراً ينبغي للحاج أن يتوجه إلى ربه صادقاً مخلصاً بالدعاء والرجاء ، والتوبة والاستغفار ، فيردد مثل هذا الدعاء : اللهم أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل ، اللهم إني أعوذ بك من سوء الرفقة في السفر ، والكآبة في المنقلب ، اللهم اطوِ لنا الأرض ، وهوّن علينا السفر . ويكثر من أمثال هذه الدعوات في مختلف الأماكن والمناسبات ، لأن الدعاء الطاهر الصادق المخلص هو مخ العبادة كما ورد عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

ولكي يكون الحج مبروراً يجب على القائم به أن يحج من مال حلال طيب ليس بحرام ولا خبيث ، لأن الرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً » . وكذلك يقول : « إذا خرج الحاج حاجاً بنفقة طيبة ،

ووضع رجله في الغَرْز (الركاب) فنادى : لبيك اللهم لبيك ، ناداه منادٍ من السماء : لبيك وسعديك (أي أجاب الله حجك إجابة بعد إجابة) ، زادُكَ حلال ، وراحتك (مركبك) حلال ، وحجك مبرور غير مأزور . وإذا خرج بالنفقة الخبيثة فوضع رجله في الغَرْز ، فنادى : لبيك ، ناداه منادٍ من السماء ، لا لبيك ولا سعديك ، زادُكَ حرام ، ونفقتك حرام ، وحجك مأزور غير مأجور» .

ومن مقتضيات الحج المبرور الا يفرط صاحبه في واجب من واجباته ، وأن لا يهمل آدابه وسننه ، وأن يكثر فيه من الطاعة والتعبد والانفاق ، وأن يكون مثلا طيباً لمكارم الأخلاق ، وأن يطعم فيه الطعام قدر استطاعته ، وأن يتحدث بليِّن الكلام ، وأن يحتمل ما قد يقع من غيره من هفوات ، وأن يعفو ويصفح ، وأن يعود من الحج زاهداً في شهوات الدنيا ، راغباً في طاعات الآخرة ، عاقداً النية على دوام الإنابة والاستقامة ، فالله جل جلاله يقول : «الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقوني يا أولى الألباب » . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه» .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الجدال في الحج

السؤال : **ما المقصود من قول الله سبحانه : « ولا جدال في الحج » ؟**

الجواب :

يقول الله تبارك وتعالى في سورة البقرة : « الحج أشهر معلومات فمن فرض

فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقوني يا أولى الألباب » .

والجدال هو المحاورة التي تكون على سبيل المنازعة والمباراة ، وقيل إن الأصل في الجدال هو الصراع وإسقاط الإنسان صاحبَه على الجَدَالة وهي الأرض الصلبة . كما قيل إن الجدال هو مقابلة الحجة على وجه المفاخرة والرغبة في المغالبة ، والمجادلة هي المخاصمة والمناظرة ؛ وينبغي أن نفهم أن المراد بالجدل المنهى عنه في الحج هو الجدال على الباطل ، طلباً للتغلب فيه ، وأما الجدل الهادىء المخلص ، المراد منه طلب الحق أو إظهار الحقيقة ، فإنه محمود مستحب ، وقد يكون واجباً إذا لزم ، ولذلك يقول الله تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين » .

وقد جاء في القرآن الكريم ما يفيد التعريض بكثرة الجدال ، وأنها ليست من صفات الإنسان الفاضل الكريم ، فجاء في سورة الكهف قوله سبحانه : « وكان الإنسان أكثر شيء جدلا » ، وجاء في سورة الحج : « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ، ويتبع كل شيطان مريد » أي متجبر متجرد للفساد . وجاء في سورة لقمان : « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ، ولا كتاب منير » .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أوتي قوم الجدلَ إلا ضلوا » . وفي رواية أخرى يقول عليه الصلاة والسلام : « ما ضلَّ قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل» . وليس هذا نهياً عن البحث في العلم، أو التنقيب عن المعارف ، أو التتبع لحقائق الأمور ،وإنما هو يقصد—والله أعلم بمراد رسوله— أن ينهى عن الجدال العقيم في الباطل أو في توافه الأشياء والأمور، مما لا يحقق خيراً ولا يمنع شراً ، وينهى عن الجدال الذي يراد منه إظهار التغلب على

الخصم بأي طريق كان ، وليس هذا الجدال من شأن الحاج في قليل أو كثير ، بل ليس من خلق المسلم في شيء .

ويقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « من ترك الكذب – وهو باطل – بُني له رَبَض في الجنة (أي دار) ، ومن ترك المراء (أي الجدل) وهو محق بُني له في وسطها ، ومن حسّن خُلُقَه بُني له في أعلاها » . ويقول أيضاً : « كفى بك إثماً ألا تزال مخاصماً » .

ويذكر بعض المفسرين ان الحكمة في النهي عن الرفث – وهو ما يتعلق بالمباشرة الجنسية – والفسوق – وهو العصيان – والجدال، في أثناء الحج هو تعظيم شأن الحرم ، وتغليظ أمر الإثم فيه ، إذ الأعمال تختلف باختلاف الزمان والمكان ، فللاجتماع مع الناس آداب غير آداب الخلوة مع الأهل ، ويجب أن يكون الإنسان في أوقات العبادة والحضور مع الله تبارك وتعالى على أكمل الآداب وأفضل الأحوال ، وناهيك بالطاعة في البيت الذي نسبه الله إلى نفسه وهو المسجد الحرام والبيت الحرام .

وعلى الحاج أن يتذكر دائماً أنه بزيارته لبيت الله سبحانه ، مقبل على الله جل جلاله ، قاصد له ، متشرف بضيافته ، فعليه أن يجرد نفسه مما قد تكون ألفته من عادات لا تليق بهذا المكان الطهور ، وما أجدر الحاج بأن يكون كريم الأخلاق لطيف العادات ، لا يتكلم فيما لايعنيه ، ولا يحاور فيما لا ينفعه ولا يفيده ، حتّى يتحقق له قول رسول الله عليه الصلاة والسلام : « من حج فلم فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه » .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

العمرة

السؤال : **ما معنى العمرة ؟. وما حكمها ؟. وهل يجوز تكرارها ؟. وما الفرق بينها وبين الحج ؟.**

الجواب :

العمرة معناها في الأصل هو الزيارة ، ومعناها في الشريعة هو زيارة الكعبة المشرفة على وجه مخصوص حدّده الدين ، وبيّنته كتب الفقه الإسلامي . وقد ثبت تشريع العمرة بالقرآن الكريم والسنة النبوية ، فقال الله تعالى : « وأتموا الحج والعمرة لله » . وقال الرسول عليه الصلاة والسلام : « عمرة في رمضان تعدل حجة » .

وتتم العمرة بعدة أعمال ، هي أن يزور المسلم الكعبة ، ويطوف حولها سبعَ مرات ، ثم يسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط ، ثم يحلق شعره أو يقصره ، ويكون الإنسان في أثناء ذلك في حالة الإحرام . ويشترط أن يأتي الإنسان بهذه الأعمال على الترتيب السابق .

وأكثر العلماء على أن العمرة سنة مؤكدة ، وقد سئل النبي عنها : أهي واجبة ؟ فقال : لا ، وأن يعتمر أفضل . وقال عليه الصلاة والسلام : « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » . وقال أيضاً : «تابعوا بين الحج والعمرة ... » .

وإذا كان الحج له وقت معين بمقتضى قول الله تعالى : « الحج أشهر معلومات » . وهذه الأشهر المعلومات هي شوال وذو القعدة وذو الحجة ، فإن العمرة ليس لها وقت محدد ، فيجوز أداؤها في أي شهر من شهور السنة ، وفي

أي يوم من أيامها ، ولكن بعض الأئمة يرى كراهية القيام بها في يوم الوقوف بعرفة وأيام العيد الكبير الأربعة .

ويجوز أن تتكرر العمرة من الإنسان في العام الواحد ، بل إن جمهور العلماء يرى أن ذلك سنة . وأفضل وقت لأداء العمرة هو شهر رمضان ، لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « عمرة في رمضان تعدل حجة » ، وهو يقصد حجة التطوع لا حجة الفرض .

وهناك عدة فروق بين الحج والعمرة ، منها :

أولا : العمرة سنة – على الصحيح – ولكن الحج فرضٌ في المرة الأولى .

ثانياً : العمرة يجوز القيام بها في أي وقت ، ولكن الحج له شهور معينة .

ثالثاً : ليس في العمرة وقوف بعرفة أو مزدلفة ، والحج فيه هذا الوقوف .

رابعاً : العمرة ليس فيها رمي للجمرات ، والحج فيه رمي للجمرات .

وعمرة الرجل كعمرة المرأة في الشروط والأركان ، إلا أن المرأة لا تكشف رأسها ، ولا ترفع صوتها بالتلبية ، ولا تعرض نفسها للزحام عند الطواف بالرجال ، وفيما عدا ذلك فالمرأة والرجل في أداء العمرة سواء .

والحج المفروض واجب لازمُ الأداء ، وأما العمرة فالصحيح أنها سنة مؤكدة . ولذلك لا تغني العمرة عن الحج ، فلو فرضنا أن شخصاً قام بأداء العمرة ، وكان هذا الشخص لم يؤد فريضة الحج ، فإن فريضة الحج لا تسقط عنه ، بل يجب عليه أن يؤديها بعد ذلك ما دام قادراً مستطيعاً .

وإذا قيل أن الرسول قد قال : « عمرة في رمضان تعدل حجة » ، فالجواب – كما قال الفقهاء – ان العمرة تعدل حجة من حجات التطوع ، وليس المقصود حجة الفرض .

وفيما عدا الأشياء التي تختص بها العمرة ، والتي أشرنا إليها فيما سبق ،

تتفق العمرة مع الحج ، ومما يتفقان فيه الإحرام ، فإن المعتمر يحرم من الموضع المعين الذي يحرم منه الحاج ، ويلبس ملابس الإحرام ، ويمتنع عن الأعمال التي تفسد هذا الإحرام .

وكذلك يلبي المعتمر ، فيردد قوله : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

مكانة الحجر الأسود

السؤال : **هناك من يتآمر على الإسلام ويلحد فيه ، فيزعم أن استلام الحجر الأسود وثنية ، ويرفض كل الآثار الواردة فيه ، فما الرأي في هذا الزيغ والضلال ؟.**

الجواب :

أخشى أن نتعود وصفَ كل سؤال عن مسألة دينية ، أو بحث لشبهة تثار حول مسألة دينية ، من مخلص في شبهته ، أو ضال في طريقه ، أو مضل في افتعال هذه الشبهة ، أخشى أن نتعود وصف كلّ شيء من هذا القبيل ، بأنه حلقة في مؤامرات موصولة ضد الإسلام .. وإن كان أعداء الاسلام كثيرين ، فإن الذين يطلبون التفقه في الإسلام والثقافة الدينية أيضاً موجودون ، وهناك أناس يُثَقَّفون ثقافة مدنية ، ثم يتصلون بعد ذلك بأسباب الدين من قرب أو بعد ، لأسباب مختلفة ، فلا يتيسر لهم فقهُ التعاليم الدينية وفهمها على الوجه السليم ، لما يحتاج إليه ذلك من شرح وتوضيح .

لذلك أرجو أن نحاول ما أمكننا الاقتصادَ في الاتهام بالكفر والإلحاد ، وأن نفصل الحديث عن رأي الإسلام فيما يجدُّ من شبهات ، وأن نقتصد نوعاً ما

في إلقاء الصفات الصارخة على هؤلاء ، ومنهم من هو أحقر من أن نعنى به بهذا الشكل الملحوظ ، وصفة الدعوة والتبيان يحسن أن تسبق عندنا صفة الاتهام والتكفير ، ولم يبعث الله محمداً ليكون لعاناً بل ليكون هادياً ورحمة .

والشيء الثاني : هو أن من واجبنا في مقام كهذا أن نعنى عناية ملحوظة بتجلية الأساس الأصيل في دين الله ، وهو أساس التوحيد في الملة الاسلامية ، وأساس تنزيه العبادة فيه عن أي مظهر من مظاهر الشرك أو رائحة للوثنية ، أو صلة بالعبادة الحسية المادية ، ونحن نرى وصف القرآن المجيد للكعبة الذي يفيد فيما أعتقد أنها جُعلت رمزاً مادياً مشيراً إلى عبادة توحيدية منزهة عن كل مادة أو وثنية ، ولكي تكون الكعبة قبلةَ هذه الملايين العديدة من المسلمين ، تجتمع عندها أشخاصهم وحواسهم ، كما تجتمع على عقيدة التوحيد قلوبهم وعقائدهم ونفوسهم ، ثم يرتفعون بعبادتهم إلى الله الواحد الأحد ، الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

فاذا رأينا نصوصاً لها صحتها ولها مكانتها ، فيما بين أيدينا من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، حول هذا الموضوع ، كان علينا أن نتقبلها — ما دامت قد صحت — بالرضا والقبول . ولكننا نعرف من أصول ديننا ومن تعاليمه كذلك أن من البيان ما هو حقيقة ، ومنه ما هو مجاز ، فما كان محتملا للمجاز ، ويصادر ظاهره أصلا من أصول الدين ، كان من فقه العلماء أن يؤولوا التعبير بما يتمشى مع هذه الأصول ، فالحديث الوارد عن أن الحجر الأسود يمين الله في الأرض ، من الممكن فيه ، والميسور أن نفهم عبارة « يمين الله في الأرض » على نوع من المجاز ، بمعنى أن الحجر نقطة ابتداء للطواف المشروع في الحج ، وليس من اللازم أن نأخذ اللفظ على ظاهره ، حتى لا نبعد كثيراً عن الأصول الدينية الواردة في هذا المجال . ثم إن كلمة عمر رضي الله عنه : « والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ،ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك» ، يجب أن توقظ من الحواس ما يجب أن يوقظ ، وأن تنبه من العقول ما يجب أن يتنبه ، فعمر عندما يقف أمام الحجر وقفته العازمة ، ويقول كلمته الصارمة :

« ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك » ، إنما كان يريد أن يجلجل بصوته الجهير في أسماع المسلمين على عهده وعلى العهود التالية له ، أن الحجر ليس له أصل عبادي في الإسلام ، وإنما هو حجر له قيمته التاريخية في الكعبة ، وفائدته أنه نقطة بدء لمرات الطواف .

وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد قبله ، وقبله عمر ، وقبله خيار من المسلمين من بعده ، فإنما ذلك لون من السنة ، ومن السنن ما لا يبلغ حدّ الأصل الديني الذي يفرض على أنه عبادة . والملاحظ أن الأغلبية المعاصرة من المسلمين يقيمون اعتباراً كبيراً لمسألة استلام الحجر الأسود وتقبيله ، ويتزاحمون بعنف على ذلك ، ولذلك يجب على علماء الملة أن يصيحوا في آذان هؤلاء بأن ذلك ليس من الفرض ولا من الواجب ، بل وليس من هدى النبوة أن يزدحموا هذا الازدحام الصارخ على الحجر الأسود ، حتى قد يخيل لرائيهم أنهم مـــا قدموا الى الكعبة إلا لكي يلثموا الحجر الأسود أو يمسوه . إننا نريد أن يسلم لنا ديننا كما أراده ربنا ، بلا تزيد أو تحريف ، وبلا شك أو ارتياب .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الأسرة
الزواج ، المرأة



حول تعدد الزوجات

السؤال : **لماذا أباح الإسلام تعددَ الزوجات ؟.**
وما الحكمة في تشريعه ؟.
ولماذا تعددت زوجات النبي صلى الله عليه وسلم ؟.

الجواب :

في زحمة الشواغل التي تشغلنا في هذه المرحلة من تاريخنا ، نشرت الصحف خبر قضية يجب أن نقف أمامها وقفة الاعتبار والادكار ، لأنها تعطينا برهاناً جديداً على أن الإسلام الحنيف هو الدين الجامع الخالد ، الصالح لكل زمان ومكان ، وموضوع هذه القضية أن رجلا مسيحياً تزوج باثنتين ، فأرادت الزوجة الأولى حرمان الزوجة الثانية وأولادها من حقوقهم عند الزوج ، بحجة أن الجمع بين زوجتين محرم وباطل في الديانة المسيحية .

وقد حكم القاضي في هذه القضية برفض ذلك ، وقرر في حيثيات حكمه أن هناك خطأ مشهوراً هو القول بأن الإسلام وحده هو الذي يبيح تعدد الزوجات ، مع أن هذا التعدد وُجد في كثير من الجهات والبيئات والأديان فتعدد الزوجات غير غريب على البيئة المصرية منذ عهد الفراعنة ، وقد كان التعدد في الزوجات هو النظام السائد في الديانة اليهودية ، وإنما حرمه مجمع يهودي عقد في القرن الحادي عشر للميلاد ، ومع ذلك ظلت بعض الطوائف اليهودية تأخذ بنظام تعدد الزوجات أسوةً بأنبياء بني إسرائيل ، ولم يرد في الإنجيل نص صريح قاطع يحرم تعدد الزوجات ، والنصوص التي يستند إليها القائلون بغير ذلك لا تستقيم دون الاعتساف في تأويلها وتفسيرها ، وإنما الذي حرم التعدد في المسيحية هو مجمع « نيقية » المعروف .

هذه خلاصة أمينة لقرار القاضي في هذا الموضوع ، وإنه لقرار عميق الدلالة ، جليل الأثر ، لأنه يعد صفعةً قوية على وجوه أولئك الذين يحاولون من حين إلى حين أن يهدموا شريعة الله ، فيطالبوا بمنع تعدد الزوجات منعاً باتاً ، وبتسوية المرأة بالرجل في الميراث ، وبمنع الطلاق ، إلى آخر ما يحاولونه من تحريف وتبديل ، ويتفننون في اتخاذ الطرق الملتوية إلى ما يريدون ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ...

وقيمة هذا القرار ترجع إلى أنه من قاض مدني وليس من رجل ديني ، وأنه يصحح أوهاماً رائجة بين كثير من الناس ، وأنه ينصف الدين الإسلامي المظلوم عند الجاهلين به والحاقدين عليه . فطالما افترى المفترون بأن تعدد الزوجات أمر معيب في جميع صوره ، ويجب أن يُمنع منعاً باتاً ، مع أن هناك ظروفاً تقضي به وتلجيء إليه ، فحينما يزيد عدد النساء على الرجال — بسبب تعرض الرجال للمتاعب والشدائد والحروب — لا بد للعدد الزائد من النساء أن يجد الحياة الكريمة في ظل الأسرة ، وإلا عمد إلى الترهب أو الفجور ، وكل منهما يفضي إلى طائفة من الشرور ...

وقد تصاب الزوجة الأولى بعقم ، والرجل يريد الذرية ويحرص عليها ، وتشقى حياته ، وتقلق نفسه قلقاً شديداً أليماً إذا فقد هذه الذرية ، وإن طلق الزوجة الأولى ضاعت أو هانت ، فهو يبقيها مكرَّمة ويضم إليها ثانية ...

وقد تصاب المرأة بمرض مزمن يجعلها غير صالحة للفراش ، ولا بد للرجل من إرضاء غريزته ، فإن لم يفعل ذلك حلالا اندفع إليه في ظلال الإثم والفسوق.

والواقع أن كلا من الاسلام والمدنية التي يتشدقون بها يبيح تعدد الزوجات ، ولكن الفرق بين الإسلام الحنيف ومدنيتهم في هذه الناحية هو أن الإسلام أباح تعدد الزوجات عند الحاجة إليه ، تحت بصر التشريع وسمع المجتمع ، وفي صورة واضحة معترف بها من الفرد والجماعة ، مستلزمة لتبعات كثيرة أثناء الحياة الزوجية وبعدها ، وأما مدنيتهم فإنها أباحت التعدد تحت ستار المخادنة والعلاقات الجنسية الأثيمة الفاجرة بين الجنسين ، والاتصالات البهيمية بين

الرجال والنساء ، بلا اعتراف نظيف من المجتمع ، ولا التزام صريح بحقوق الزواج : « « فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون » ؟.

لسنا بهذا نحرض على تعدد الزوجات ، أو نشجع عليه دون ضرورة أو حاجة فالحق أنه كالدواء الذي يؤخذ عند الحاجة إليه فقط ، وما أكثر المجرمين الذين يسيئون استعمال هذا الدواء بلا حاجة ، فيجنون على أنفسهم وعلى غيرهم ، ولكن سوء الاستعمال لا يوجب منع الدواء إطلاقاً ، وإلا تعذر علاج الحالات التي يلزمها هذا الدواء .

والأصل في الحياة الزوجية الهادئة الساكنة السعيدة أن يقتصر الإنسان على زوجة واحدة ، يعاونها وتعاونه ، ويسعدها وتسعده ، ويخلص لها وتخلص له ، ويشعر كل منهما في أعماق قلبه بأنه شريك أمين لصاحبه ، حتى يكونا الخلية الأولى من خلايا المجتمع وهي الأسرة ، وتكاليف الحياة اليوم قد أصبحت شاقة عنيفة ، ومن العسير أن ينهض الفرد العادي بحقوق الزوجة كلها نهوضاً سليماً كريماً ، فكيف ــ والحالة هذه ــ يضع ضغثاً على إبالة ؟؟.

والإسلام الحنيف يعتبر الفقر والعجز عن نفقة الأسرة عذراً وسبباً في عدم التزوج حتى بزوجة واحدة ، فهو من باب أولى لا يبيح للعاجز عن التبعات الزوجية أن يتزوج بأكثر من واحدة . والخطة المثلى في هذا الباب هي أن نبصّر الرجال بتبعات الزواج وبحقوق الزوجة ، وبأن البيت له نفقاته وتكاليفه ، وبأن زوجة واحدة تحتاج إلى كثير من العناية ومن الرعاية ، فلا يقدم على الزواج بأخرى إلا إذا كان محتاجاً احتياجاً صادقاً ملحاً إلى هذه الزوجة الثانية ، وعرف أنه سيعدل بين الزوجتين العدل المستطاع الذي يدخل في طاقته . يقول الحق تبارك وتعالى : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » . والرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : « من كانت له امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه ساقط » .

ومما يتصل بهذا الموضوع أن إحدى المجلات المتحللة نشرت كلاماً عن تعدد زوجات الرسول صلوات الله وسلامه عليه يفهم منه أن ذلك التعدد كان

للشهوة الزائدة . « ألا ساء ما يحكمون » . وأية شهوة طاغية عند نبي صنعه الله على عينه ، واختاره لرسالته ، وكلفه من التبعات ما يزلزل الجبال الرواسي ؟. بل أين مجال هذه الشهوة الطاغية عند رجل مشهور بمكارم الأخلاق ، واستقامة الطباع ، واعتدال المزاج ، وحسن التصرف من صغره ، وقد تزوج وهو في الخامسة والعشرين من عمره سيدةً في الأربعين من عمرها ، وهي السيدة خديجة رضي الله عنها ، وقد تزوجت قبله مرتين ، وتقدم إليها الخُطّاب بعد ذلك ، ومنهم أصحاب الجمال والفتوة ، فلم تستجب لهم ، فقد أخذت من الرجال حظها البدني ، ومع ذلك عاش النبي صلوات الله وسلامه عليه مع هذه الزوجة الوحيدة الفريدة الكبيرة السن أكثر من خمسة وعشرين عاماً ، أي بعد أن تجاوز الخمسين من عمره ، وانقضى عهد الشباب والاشتهاء ، فلو كانت هناك أثارة من الشهوة الطاغية التي يفترون حديثها ، لاستجاب لها صاحبها وهو في عنفوان الفتوة وبداءة القوة .

وإنما تزوج الرسول عليه الصلاة والسلام في سنواته الأخيرة من تزوج من النساء ليجمع القلوب ، ويتألف القبائل ، وليحقق بتوجيه من ربه ووحي من لدنه أغراضاً أنظف وأشرف مما يتوهمون أو يفترون . تزوج السيدة عائشة تكريماً لأبيها الصديق العظيم أبي بكر ، وتزوج السيدة حفصة إرضاء لأبيها الفاروق عمر ، وجبراً لخاطرها بعد وفاة زوجها الذي توفي مجروحاً في غزوة بدر ، وتزوج السيدة أم سلمة الطاعنة في السن ليحفظها ويحفظ ذريتها ، بعد موت زوجها شهيداً في سبيل الله ، وتزوج السيدة زينب بنت جحش ليبطل بزواجها نظام التبني الذي كان فاشياً بين العرب . وهكذا .

أفيقال بعد هذا عن ذلك الرسول العظيم ما يقولونه من زور وافك وبهتان ؟.

إن حياة النبي المناضلة المجاهدة المكافحة لم يكن فيها مجال للاستمتاع أو الراحة ، حتى ولو أراد أن يستمتع ويرتاح . فقد نشر دعوة . ووحد أمة ، وجمع كلمة ، وأخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وشهد الغزوات والمعارك ، وأفسد المؤامرات ، وقضى على الشرك ، وكان يرى نفسه مسئولا عن كل فرد

في أمته ، فهل يجد في حياته متسعاً لهذه الشهوة أو لهذا الاستمتاع ؟. إن الرجل منا قد تشغله التجارة أو الكتابة أو العمل المرهق فينسى الناس والنساء ومتاع الحياة ، ولا يجد دوافع للمتعة أو الشهوة ، فكيف بمن تعب للجميع حتّى أسعد الجميع ، عليه الصلاة والسلام .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

بين المرأة والرجل

السؤال : **كيف رسم الإسلام العلاقة بين الرجل والمرأة ؟.**

الجواب :

أبدع الله الحياة وكوّن الأحياء ، وجعل الإنسان سيدَ الأحياء في هذه الأرض ، وقد أنهض الخالق سلالةَ الإنسان على أصلين هما الذكر والأنثى : « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى » ، وجعل منشأ الاثنين واحداً ، فكان المنطق الطبيعي يقضي بقيام المساواة الكريمة السليمة بين الشطرين ، ولكن عهوداً مرت بالإنسانيةُ ، انحرفت فيها عن سواء السبيل ، فاصطنعت على الطريق عواملَ للتفريق والتمزيق بين الرجل والمرأة ، فأخذا يعيشان في الحياة كخصمين يتناحران ، لا كشقيقين يتعاونان ، ونال المرأة بسبب ذلك ما نالها من عدوان .

فجاء الإسلام ليصحح الاوضاع ، ويعيد الحقوق ، ويرفع المظالم ، وإذا القرآن الكريم يقر ر في مفتتح سورة النساء الحقيقة الرائعة الباهرة ، وهي اتحاد المنبع الذي صدر عنه الرجل والمرأة فيقول : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذي تسألون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً » . ومعنى هذا بأوجز تعبير هو أن الناس جميعهم : ذكورهم وإناثهم ، مخلوقون من نفس

واحدة ، هي النفس البشرية الأولى ، فلا يمتاز فرع على فرع في أصله أو منبته .

ويذكر ابن جرير الطبري في تفسيره أن الله تعالى أراد في هذه الآية أن ينبه العباد على أنهم جميعاً أبناء رجل واحد وأم واحدة ، وأن بعضهم من بعض ، وأن حق بعضهم على بعض واجب كوجوب حق الأخ على أخيه ، لاجتماعهم في النسب إلى أب واحد وأم واحدة . وإذا كان الله تعالى قد خلق الناس جميعاً من نفس واحدة ، وخلق من هذه النفس الواحدة زوجها وهي الانثى ، فكأن المرأة من الرجل ، فهي منه وله ، وإذن فبعض الناس وهو الذكر من بعضهم وهو الانثى ، وهذا تقرير واضح للمساواة في الأصل والنشأة ، وهي أساس لألوان كثيرة من المساواة بين هؤلاء وهؤلاء .

ويؤكد القرآن المجيد هذه الحقيقة فيقول في سورة الأعراف : « هو الذي خلقكم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها ليسكن إليها » . فهي منه بمقتضى أنها صدرت عنه ، وهو منها باعتباره مصدر تفرعها ، ولذلك ينبغي أن يتحقق بينهما الأمن والسكن ، لأن النظائر أليق بالنظائر ، والأشباه أقرب إلى الأشباه .

والقرآن الكريم يحدثنا بأن المساواة بين الذكر والأنثى بدأت منذ بداية الخليقة ، فإن الله تعالى بعد أن خلق آدم وسواه ، وأنشأ منه زوجته حواء ، ليأنس بها ويسكن إليها ، دعاهما معاً إلى سكنى الجنة ، ودعاهما معاً إلى التمتع بالنعيم ، وحذرهما معاً ما حرم عليهما فقال : « وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغدا حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » . وإذا كان الخطاب الإلهي قد اتجه أولا إلى آدم — لأنه عنوان الأسرة ، والقوام عليها ، والمسئول عنها أولا — فإن الدعوة والتكليف كانا للطرفين على حد سواء .

وما أجمل تصوير الرسول لروح الأخوة والمساواة بين الرجل والمرأة حين يقول : « النساء شقائق الرجال » . وهذا يفيد بالمفهوم اللغوي أن كلا من النوعين مشتق من الآخر ، وهو مع هذا شقيق له ، فهو مثله ، وهو أخ شقيق

له ، وقد قضت الفطرة منذ الأزل بأن طبائع النفوس السليمة تحرص على التعاون والتناصر بين الأشقاء .

ويعود القرآن الكريم في موطن آخر فيقول : « فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم ، من ذكر أو أنثى ، بعضكم من بعض » . وهذا النص قد جعل كلمة « عامل » هذه شاملة للرجل والمرأة ، بلا تفرقة بالتذكير والتأنيث ، وهذا غير غريب على لغة العرب : لغة القرآن ، فأول مثل جرى للعرب — كما يروي الميداني في « مجمع الأمثال» — هو : «المرأة من المرء، وكل أدماء من آدم » ، وهذا يوحي باتحاد الأصل وتساوي المنشأ ؛ وفي لغة العرب — كما يذكر صاحب « لسان العرب » — أن الإنسان هو الواحد من البشر ، ويقال للرجل : إنسان ، ويقال للمرأة أيضاً : إنسان .

وهذا النص الإلهي السابق يفيد أن المرأة والرجل متساويان عند الله في الجزاء والثواب ، متى تساويا في العمل والمجهود ، وحكمة النص على هذه المساواة هي ألا يغتر الرجل بقوته أو قوامته على المرأة ، فيخيل إليه أنه أقرب إلى الله منها ، وألا تسيء المرأة الظن بنفسها ، فتتوهم أن كون الرجل قواماً عليها معناه أنه أرفع منزلة ، وأنها أقل منه قيمة . ولذلك قال الله تعالى في الآية نفسها : « بعضكم من بعض » . ويا له من تعبير رائع ، أي أن الأصل واحد ، والمنشأ واحد ، فالرجل من المرأة ، والمرأة من الرجل ، وكل منهما ؛ بعض»للآخر ، فلا فرق بينهما في القيمة البشرية ، ولا فضل لأحدهما على الآخر إلا بالتقوى والعمل الصالح والسعي المشكور .

وإذا كان للرجال مبايعة في الإسلام ، فإن للنساء أيضاً مثل هذه المبايعة ، والله تعالى يقول في سورة الفتح : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيوتيه أجراً عظيماً » . والله تعالى يقول أيضاً في سورة الممتحنة : « يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئاً ، ولا يسرقن ، ولا

يزنين ، ولا يقتلن أولادهن ، ، ولا يأتين ببهتان يفتّرينه بين أيديهن وأرجلهن ، ولا يعصينك في معروف ، فبايعهن ، واستغفر لهن الله ، إن الله غفور رحيم» .

وهذه المساواة بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات الأساسية والعامة ، لا تتعارض أبداً مع ما هيأ الله كلّاً واحد منهما ليكون صالحاً للعمل في مجالات تتلاقى وتتكامل مع مجالات شقيقه ورفيقه.، ولا تتعارض مع توزع التبعات بين الشقيقين بحسب الاستعداد والطاقة وظروف الحياة ، ومن الواجب على الرجل والمرأة أن ينطلقا في رحاب المجتمع متعاونين متكاملين محققين لقول الرسول : « النساء شقائق الرجال » .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

نحن نظلم المرأة

السؤال : **يقول بعض النساء إننا نحن الرجال نظلم المرأة ، فهل يصح مثل هذا القول ؟.**

الجواب :

نعم نحن نظلم المرأة حين نحمّلها مواريثَ الماضي المظلم البعيد ، فنؤاخذها بجرائم الساقطات ، وننظر إليها نظرتَنا إلى المخلوق الخبيث الشرير ، والكائن الدنيء الحقير ، ونظن أنها معجونة بماء الشر ، فلا يصدر عنها الخير ، ولا ينطوي صدرها على فضيلة أبداً .

ونحن نظلمها حين نفضّل الذكور عليها في الحب والمعاملة والوصية وغير ذلك ، فنبذر في نفسها من أول الطريق بذورَ الحقد والضغينة والعناد ، ولا زال أكثرنا يشعر بشعور جاهلي تجاه المرأة ، مما تصوره العبارة القرآنية الكريمة :

« وإذا بُشـر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ، ألا ساء ما يحكمون».

ونحن نظلم المرأة حين نتركها جاهلة أُمية ، لا نعلّمها ولا نثقفها ، فلا يسهل عليها حينئذ أن تميز الخبيث من الطيب ، ولا تعرف كيف تحسن التصرف في أمور الحياة ، ولا كيف تحفظ نفسَها وتصون كرامتها منفردة ومجتمعة ، ولو تسلحت بالعلم الصحيح القويم لاعتدلت به وتقوت .

ونحن نظلم المرأة حين لا نطبعها على الفضائل النبيلة ، والأخلاق الكريمة ، والعقيدة السليمة من أول الطريق ، حتّى نعمر دنياها بالصلاح والصالحات ، فكم من تقيات عفيفات كان الدين لهن مشكاة هدتهن إلى سبل المكارم وقمم المآثر ، وبعض النساء في هذا المجال أفضل من بعض الرجال .

ونحن نظلمها حين نحبسها في دارها ، لا للصيانة والرعاية ، بل لتكون كقطع الأثاث المقتنى ، فكبت ثقيل مسرف ، وحرمان شديد مشتط ، واستغلال مادي عنيف ، وقد كنا نستطيع حتّى مع الحجاب المنظم أن نعطيها حقوقها ، وأن نصون لها كرامتها ، وأن نهيء لها فرص الرياضة والانتقال والحركة ، والتمتع الطاهر بطيبات الحياة والطبيعة ، في أمن وسلام ، وعفة واستتار ، ولكن كيف السبيل إلى ذلك ومنا من لا يزال يقف من المرأة موقف الذئب من الشاة ؟.

ونحن نظلمها حين لا نستشيرها ، ولا نقيم لها كياناً ولا اعتباراً في المنزل ، فنقضي الأمور ، ما تعلق بها ، وما قرب منها ، وما بعد عنها ، ولا يفكر الرجل منا أن يقول لأمه أو زوجته أو بنته أو أخته : ما رأيك ؟. ولو على سبيل المجاملة و«تطييب الخاطر » .

ونحن نظلمها حين نكبت عواطفها ونزعاتها وغرائزها ، بصورة جاهلة حمقاء ، نكبتها كبتَ المستبدين الجهلاء ، وقد كنا نستطيع أن نهذبها تهذيب

المربين الحكماء ، وقد كنا نستطيع أن ننفس عن هذه الغرائز والعواطف بطرق مأمونة مشروعة ، أو نصعّدها ونتسامى بها عن طريق الفنون الجميلة ، والآداب الراقية ، والرياضة المناسبة ، والعمل المثمر الشاغل المحبوب... ولو فعلنا لتجنبنا الكوارث ، وقطفنا يانع الثمرات .

ونحن نظلمها حين يزّين لنا الشيطان اللعين اللئيم أن نحبسها في البيت «عانساً» تضطرم في صدرها مشاعر ، وتثور في نفسها عواطف ، وتستبد بثباتها مزعزعات ، ونحن نُرْضي « مركبَ النقص » فينا ، ونشبع رغبة الرجولية الكاذبة ، والتفاخر الأعمى ، والكبرياء الخداعة ؛ والخاطبون يتوافدون على البيت خاطباً بعد خاطب ، ونحن نشمخ بالأنوف إلى العلاء ، بينما الإست في الماء، كما قال القدماء ؛ ويرجع الخاطبون بالخيبة والفشل . هذا لأنه ليس ابنَ عمها . وما هو ابن عمها أيها الناس ؟ وهذا لأنه ليس كفؤاً لها ، كأنها من طبقة فوق طبقة البشر ، وهذا لأنه ليس غنياً مثل أهلها . وما فائدة الغنى والثراء ، والقلوب والنفوس هواء ؟ . وهذا لأنه ليس مشهوراً ذائع الصيت مرموق المكانة كإخوتها ... وهذا ، وهذا ... إلى آخر المعاذير التافهة والأسباب الهزيلة التي لا تنهض على أساس ... ألا لعنة الله على الحمقى السفهاء .

وتظل العانس في المنزل العامر ، ويقبل ربيع الحياة ويمضي ، ويقبل عليها الخريف بويلاته وبروده ، فتنحرف نفسية المرأة ، وتحقد على الحياة والأحياء، وليس ببعيد أن تزل وتهوى ، أو تضل وتطغى ، والمجرمون هناك طلقاء .

ونحن نظلمها حين ندخل عليها عامدين أو غافلين بأسباب الثورة والتمرد والانحراف ، ونضع تحت عينها وفي متناول يدها وسائلَ التحرر الجاهل ، ودوافع الانطلاق الأعمى ، ونجعلها ترى ما يحدث في الحياة المدنية من تطورات وزلازل ، عن طريق المذياع والصحيفة والمجلة والتصرفات الشخصية والأحاديث المتناثرة ، وعلى الرغم من كل هذا التحريض السافر المستمر ؛ نظل نقول لها آمرين متجبرين متعنتين : حذار ، لا تتحركي ولا تنطلقي . هذه

الثمرات حرام عليك . وهذا خُلق لكل الناس إلا لك . وهذا الذي يفعله الناس، وترينه فيما أمامك ، أو تسمعينه مما حولك ، لا يليق بك أن تفعليه ...

فما أشبهها حينئذ بهر جائع ، نضع بين يديه أشهى أنواع اللحوم ، ثم نقول له : حذار أيها السنور أن تمس شيئاً من هذه اللحوم ... ونحن نظلمها حين تزل وتقع ... وهنا تكون الطامة الكبرى ، وهنا يكون التصرف الأحمق الأرعن... وهنا يكون إرضاء الكبرياء الكاذبة فحسب ... لقد وقعت ، فيجب أن تُقطع رقبتها .

لم نسأل عن السبب، ولا عن الدافع، ولاعن الظروف ، ولا عن المحرضات، ولا عن الشركاء ، وربما ذُبحت المرأة إرضاء للغرور الكاذب ، أو الفخر الدعي ، بينما يوجد المجرمون الأصليون في حرية يمرحون ، بل لعل بعض الذين حزوا رقبةَ الشاة — لأنها طعمت من الحمى الحرام — كانوا أول من حرض الشاة على أن ترعى من ذلك الحمى الحرام ، وما ظنك برجل يُلجىء المرأةَ إلجاءً إلى الوقوع في الجريمة ، بغفلته أو حمقه أو تساهله ، أو غير ذلك من تصرفاته ، فإذا ما وقعت نسي هذا كله ، وطالب برقبتها ؟.

يا بني آدم ، أنصفوا المرأة ولا تظلموها ... أعطوها حقوقها وحظوظها من الرعاية ، والعلم ، والخلق ، والدين،والكرامة ، والاحترام ، وتبادل الشعور ، والصيانة ، والتوجيه ، والتنفيس ، والتصعيد ، ثم حاسبوها بعد ذلك. واذكروا على الدوام أن النساء شقائق الرجال .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

صلة الأرحام

السؤال : **كيف دعا الإسلام إلى صلة الأرحام ؟.**

الجواب :

« الأرحام » و« الرحم » كلمتان تدلان على الأقارب والقرابة . ومن بديع صنع الإسلام أنه أقام مجتمعَه على أساس الأسرة ، والأسرةُ كيان اجتماعي، تنشأ عنه روابط وقرابات ، وهذه الروابط تستدعي التواصلَ والتكافل ، مما يؤدي إلى تماسك المجتمع ، وسعادة الفرد ، وهناء الجماعة ؛ ولذلك عني الإسلام العظيم عناية خاصة بالبحث على رعاية الحقوق المتعلقة بالأرحام والأقارب، وبالدعوة إلى حسن المعاملة لهم ، وكريم التصرف معهم ، وموصول الإحسان إليهم ، والقرآن الكريم يقول: « واتقوا اللهَ الذي تساءلون به والأرحام، إن الله كان عليكم رقيبا » . فجعل مكانة الأرحام عالية رفيعة ، حتّى أن الإنسان ليدعو ربه فيسأله بحق الرحم ليستجيب الله له .

ويقول القرآن في سورة الأنفال : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ، إن الله بكل شيء عليم » ، كما يقول في سورة الأحزاب : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأزواجه أمهاتهم ، وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين ، إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً ، كان ذلك في الكتاب مسطورا ». وهذا الهدى القرآني يفيد أن المرء ينبغي له أن يفضل القريبَ على البعيد ، وأن يخصه أولا برعايته ومعونته ، فكل منهما أولى بصاحبه وأحق ، ومتّى وعى كل فرد ذلك المعنى وقام بحقه سرى الخير والبر بين الجميع .

ومن دلائل عناية القرآن برعاية الأرحام والأقارب ، أنه شرع الوصية قبل الموت للوالدين والأقربين ، فقال في سورة البقرة : « كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين » ، كما حث على معاونة الأقارب الذين لا يستحقون في الميراث ، بشيء منه ، مساعدة لهم ، وتطييباً لقلوبهم ، فقال في سورة النساء : « وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفاً».

* * *

ولو انتقلنا من روضة القرآن إلى حديقة السنة لوجدنا الرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « يقول الله تعالى : أنا الرحمن وهذه الرحم ، شققتُ لها اسماً من اسمي فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته » . وفي الحديث النبوي أيضاً ما يصور لنا أن الرحم عادت بخالقها سبحانه وتعالى هاتفة : هذا مقام العائذ بك من القطيعة . فقال لها ربها : أفما ترضين أن أقطع من قطعك ، وأصل من وصلك ؟. قالت نعم . فقال لها : فذلك لك ؛ وقال الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « إن الرحم شجنة (مشتقة) من الرحمن ، فقال الله : من وصلك وصلته ، ومن قطعك قطعته » .

ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « من سره أن يُمَد له في عمره ، ويوسع له في رزقه ، فليتق الله ، وليصل رحمه » .

وقيل للنبي صلوات الله وسلامه عليه : أي الناس أفضل ؟ فقال : «أتقاهم لله ، وأوصلهم لرحمه ، وآمرهم بالمعروف ، وأنهاهم عن المنكر » . وعن أبي هريرة عن النبي قال : «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم ، فإن صلة الرحم محبة في الأهل ، ميراث في المال ، منسأة في الأثر » أي توجب محبة الأهل وسعة الرزق وطول العمر .

والإنسان حينما يقوم بواجباته المختلفة في حياته ، يلزمه أن يقدم الأهم على المهم ، والمهم على غير المهم ، وبذلك ينتظم الأداء ، وتتحقق منه الثمرات ، وليس بجائز في شرعة الدين أو العقل أن يترك الإنسان واجباً لازماً ، لينشغل قبل أدائه بما ليس بواجب أو محتوم ، إذ أن ذلك يؤدي إلى اضطراب الأمور من جهة ، وضياع الحقوق من جهة أخرى ، ولذلك قال الرسول عليه الصلاة والسلام فيما يتعلق بحقوق النفس والأهل والأقارب : « ابدأ بنفسك فتصدق عليها (أي أنفق عليها) ، فإن فضل شيء فلأهلك ، فإن فضل شيء عن أهلك فلذي قرابتك ، فإن فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا » ، أي فاجعله لمن يستحقه من أي جانب ، بعد أو قرب ، ويؤكد هذا قول الرسول : «الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذي الرحم صدقة وصلة» .

ومن الواضح أن الأقارب درجات ومنازل ، وفي طليعة هذه الدرجات وأعلاها تأتي مكانة الوالدين ، لأنهما أقرب قريب إلى الإنسان ، ولذلك يجب تقديمهما في البر على غيرهما ، ثم ينتقل الإنسان إلى من بعدهما ، ولقد قال رجل للرسول : من أبر ؟. فقال : أمك ، ثم أمك ، ثم أمك ، ثم الأقرب فالأقرب . وفي حديث آخر : بِرَّ أمّك وأباك ، وأختك وأخاك ، ثم أدناك أدناك .

ولعمر بن الخطاب في هذا المقام توجيه فيه حكمة وفائدة ، فلقد كتب إلى عماله يقول : « مروا الأقــاربَ أن يتزاوروا ولا يتجاوروا » . وذلك لأن التجاور يدعو إلى الاختلاف في أحيان كثيرة على أمور كبيرة أو صغيرة ، فيؤدي ذلك إلى سوء العلاقات وتقطع الروابط ، ولكن التباعد مع التزاور مما يؤدي إلى الشوق من جهة ، والتطلع إلى صيانة الحقوق من جهة أخرى . يقول الغزالي تعليقاً على كلمة عمر السابقة : « وإنما قال ذلك لأن التجاور يورث التزاحم على الحقوق ، وربما يورث الوحشة وقطيعة الرحم » .

ولقد يسيء إلى الإنسان بعضُ أقاربه أو رحمه ، وهنا ينبغي للانسان أن يغفر الزلة ، وينسى الهفوة ، ويقابل الإساءة بالإحسان ، ليقتلع جذور الشر من قلب الإنسان : « ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي أحسن ، إذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم» . والحديث يقول: « أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح » ، أي القريب المعرض أو المعادي . وقد روي عن أبي ذر أنه قال : « أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم بصلة الرحم وإن أدبرت ، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرا » .

ولقد قال رجل : يا رسول الله ، إن لي قرابةً أصلهم ويقطعوني ، وأحسن إليهم ويسيئون اليّ ، وأحلم عنهم ويجهلون عليّ ؛ فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : « لئن كنت كما قلت فكأنما تسِفهم الملّ (أي يلحقهم من الألم كما يلحق آكل الرماد الحار ، لأساءتهم إلى من أحسن إليهم) ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك » .

ومن دقيق الإشارات أن القرآن قرن بين الإفساد في الأرض وقطع الرحم . فقال القرآن : « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ». أي إن المتوقع إن أعرضتم عن هدى الله ورسوله أن تفسدوا في الأرض . وتمزقوا روابط الأخـــوة ، فتستحقوا اللعنة والعذاب .

إن صلة الأرحام باب للرحمة والسلام ، ومفتاح للتعاون والترابط ، وأساس من أسس التمكين للمجتمع .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الاسلام والطفولة

السؤال : **ما موقف الإسلام من رعاية الطفولة والعناية بشئونها ؟.**

الجواب :

إن من أعظم الواجبات علينا أن نعنى بالطفولة ، وأن نرعاها حق رعايتها ؛ لأنها خَلْق الله الجديد ، الذي تمتد به حياتنا وتنفسح آمالنا :

وإنما أولادنـــا بيننا   أكبادنا تمشي على الأرض

والإسلام الحنيف دين قد كرّم الطفولة وأجلّ شأنها ، ويكفي في أول الأمر أنها الدليل المحسوس الملموس في عالم البشر على قدرة الله جل جلاله ، فمن نطفة ضئيلة يُخرج الخالق البارىء المصور هذا الوليدَ الجديد ، بما فيه مـــن طاقات تتفتح يوماً بعد يوم : « ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا » . وإذا هذا الطفل ينمو في استواء واعتدال ، فتبارك الله أحسن

الخالقين : « يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم ، الذي خلقك فسواك فعدلك ، في أي صورة ما شاء ركبك » ؟.

ويكفي الطفولةَ شرفاً أن نرى القرآن الكريم يقسم بها ، فيعلي من شأنها ، ويلفت الأبصار والبصائر إلى مكانتها فيقول : « لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حل بهذا البلد ، ووالد وما ولد ، لقد خلقنا الانسان في كبد » . ويزيد في تكريمها حين يقول : « يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً » .

والله تبارك وتعالى يجعل الذرية — وهي التي تتمثل فيها الطفولة أولَ أمرها — نعمةً يمن بها على عباده ، ويذكرهم بقدرها وحقها ، فيقول : « وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة » ، بل ويجعلها نعمة على أنبيائه ورسله ، فيقول : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية » . ولذلك تطلعت إلى هذه الذرية عيونُ عباد الرحمن ، يرجونها طيبة صالحة : « والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً » . بل وتتطلع إليها عيون الانبياء المقربين : « هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء » .

وعلّم القرآن الكريم أتباعه أن يسألوا ربهم طيبَ نسلهم وإصلاح ذريتهم ، حتى تكون الطفولة خالصة من الأذى والقذى ، فأرشد الإنسانَ إلى أن يدعو ربه ، فيقول فيما يقول : « وأصلح لي في ذريتي ، إني تبت إليك وإني من المسلمين » ، وقال على لسان أم مريم : « وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » .

وفي القرآن إشارة إلى أن واجب الآباء أن يعنوا بأبنائهم ، وأن يرعوا نشأتهم ، ويصونوا طفولتهم ، حتى يقدّر الأطفال هذا الجميلَ من آبائهم حينما يكبرون ، فيقابلوا الجميلَ بالجميل ، فالقرآن يعلّم المسلم أن يقول عن والديه : « رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ». فالتربية في الصغر هي التي استوجبت التقديرَ في الكبر : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » ؟.

وعلى الآباء أن يتذكروا أن الطفولة بين أيديهم وديعة غالية ، وأمانة جليلة ، وهم مطالَبون بصيانتها ورعايتها ، وأن هذه الطفولة عجينة لينة صالحة للتشكل ، قابلة للتوجيه والتعلم ، وحينما قال الرسول صلى الله عليه وسلم عن الطفل الذي يموت قبل أن يبلغ مبلغ التكليف : « الوليد في الجنة » أراد أن يرشدنا إلى أن الطفل حينئذ يكون في مرحلة البراءة والطهارة ، فهو لم يأتِ إثماً ، ولم يرتكب فحشاً ، ولم يتعود التواءً أو خبثاً ، بل هو صفحة نقية بيضاء ، ونحن الذين نكتب عليها ما نشاء ، وينشأ الطفل حسبما نوجهه ونؤثر فيه ، ومن هنا قال الرسول : « كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه ينصرانه أو يهودانه أو يمجسانه » .

ويا لها من تبعة خطيرة يحملها الآباء نحو الأبناء ، ونحو الطفولة التي يلزمها حسنُ الرعاية ، وحسن الوقاية ، وحسنِ التوجيه ، وهذا رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام ، يقرع الأسماعَ مذكِّراً بحقوق الأولاد وصيانة الأطفال ، وأداء الواجب نحوهم في التربية والتعليم والتوجيه والتقويم ، فيقول : « ما نَحَلَ والد ولدَه أفضل من أدب حسن » . ويقول : « لأن يؤدب الرجل ولدَه خير له من أن يتصدق كل يوم بصاع على المساكين » . ويقول عبدالله بن عمر : « أدّب ابنك ، فإنك مسئول عنه : ماذا أدبتَه ، وماذا علمته ، وإنه مسئول عن بره لك ، وطواعيته لك » .

ولو رجعنا إلى سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، لوجدنا فيها تكريماً للطفولة ، ورعاية لها ، وحدباً عليها . فقد روي في سيرته أنه كان أحياناً يصلي فيأتي الحسن أو الحسين ليعلو ظهره وهو ساجد ، فيطيل الرسول سجودَه حتى لا يزعج الطفل ، ولا يقطع عليه لهوَه البريء الساذج ، وقد روي فيها أيضاً أنه كان يخطب ذات يوم ، فرأى الحسن والحسين يقبلان نحوه ، وهما يتعثران في ثيابهما وخطواتهما ، فلم يملك نفسَه أن نزل في أثناء خطبته ، وحمل الطفلين على صدره ، وعاد ليتّم حديثه ، وهو يعبر عن قيمة الذرية ، وعن تقديره لحفيديه العزيزين عليه ، الحبيبين إليه .

ولقد كان الرسول يسمع بكاء طفل من الأطفال وهو يصلي بأصحابه ، فيخفف صلاته . حتى تستطيع أم الطفل التي تصلي وراءه أن تعجل بالعودة إلى طفلها الباكي لإسكاته وإرضائه ، وكأنه صلوات الله وسلامه عليه كان يحس بالذع شديد لبكاء الطفل ، فهو يريده هادئاً راضياً سعيداً . وهكذا يكون الشعور النبيل بمكانة الطفولة .

ومن تقدير الإسلام للطفولة ، وحرصه على رعايتها وصيانتها ، أنه ينبه المسلمين إلى عدم الاقتصار على العناية بأطفالهم ، بل يجب أن تتسع هذه العناية لتشمل أطفالَ غيرهم ، وبخاصة من كان هناك من الأطفال اليتامى الذين لا يجدون حصناً ولا درعاً ولا رعاية ، وأنه من فساد الشعور وأنانية العاطفة أن يهتم الإنسان بأطفاله ، لأنه قادر على إسعادهم ، ثم يترك أطفالَ غيره الذين تيتموا فلم يجدوا عائلا ولا موئلا ولا معيناً ، ولذلك يقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا » ويشير بإصبعيه السبابة والوسطى.

وما أكثر الأحاديث النبوية التي حثت على تربية اليتامى ورعايتهم وصيانتهم ، وما أقوى حديث القرآن المحرض على تربية لليتيم وحفظ ماله ، وتهيئة الأسباب التي تجعله في المستقبل رجلا صالحاً سعيداً ، وحسبنا هذا الإنذار الموجه من القرآن إلى الناس كيلا يهملوا طفولة اليتامى ، أو يجحفوا بحقها . أو يعتدوا على شيء لها ، فيقول القرآن : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا » .

إن اهتمامنا بالطفولة يستوجب منا أن نتقي الله في هذه الطفولة ، فننشئها من أول الأمر على الاستقامة والصلاح ، والارتباط بهدى الله العلي الكبير ، منذ بداية الطريق ، وأن نعنى بأطفال الفقراء والعاجزين ، الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، وعيد الطفولة الذي ننظمه ، إنما يحقق ثمراته على وجهها إذا أزلنا من مجتمعنا الأسباب المؤدية إلى هذه الطفولة المشردة التي نرى

ضحاياها هنا وهناك، فلا يكفي أن يرفل أطفال القادرين في الدمقس والحرير، وأطفال العاجزين يفترشون الغبراء ويلتحفون السماء، وسبحان من لو شاء لهدي الناس جميعاً إلى سواء السبيل ..

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

مكانة الولد في الاسلام

السؤال : **ما هي مكانة «الولد» في نظر الإسلام ؟.**

الجواب :

الذرية لها في قلب الإنسان مكانة عالية غالية ، لأن الوالد يرى أن حياته تتجدد وتمتد في صورة ابنه ، وفي خطواته على الطريق ، ولذلك لم يكن عجيباً ولا غريباً أن نجد القرآن الكريم يقول : «المال والبنون زينة الحياة الدنيا». وأن نجد الأحنف بن قيس يقول عن الأولاد : «هم ثمارُ قلوبنا ، وعماد ظهورنا ، ونحن لهم أرض ذليلة ، وسماء ظليلة» . وروى «العقد الفريد» أنه جاء في الحديث المرفوع «ريحُ الولد من ريح الجنة» ، وجاء فيه أيضاً :

«الأولاد من ريحان الله» . ولما بُشِّر سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام بابنته فاطمة قال: «ريحانة أشمها ورزقها على الله» ، وقال معاوية عن ابنته عائشة : «هذه تفاحة القلب» إلى غير ذلك من الأقوال التي تنبىء عن المكانة العظيمة التي تحتلها الذرية ، ويحظى بها الأولاد .

ولو ذهبنا نحث عن مكانة الولد في الإسلام لبهرتنا هذه المكانة ، وحسبنا أن نجد الله تبارك وتعالى يقسم في القرآن الكريم بالولد ، فيقول جل جلاله : «لا أقسم بهذا البلد، وأنت حل بهذا البلد ، ووالد وما ولد» . كما أن الله تعالى حينما يتحدث عن مظاهر قدرته ، وآيات رحمته ، ودلائل ألوهيته ، وبراهين

ربوبيته ، يجعل من بين ذلك اقتدارَ البديع على خلق الذرية وإيجاد الأولاد ، فتارة يقول سبحانه : « ونقر في الأرحام ما نشاء ، إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا » . وتارة نجده يحدثنا عن خاق الإنسان ، وعن إبداعه له منذ كان جنيناً، في أبدع صورة وأجل مظهر ، فيقول : « يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ، الذي خلقك فسواك فعدلك ، في أي صورة ما شاء ركبك » .

ثم نجد القرآن الكريم يحدثنا بأن الذرية من نعم الله تعالى ، التي يمن بها على أخيار عباده ونماذج خلقه العليا ، وهم الأنبياء والمرسلون ، فهو تارة يقول مخاطباً رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ، وجعلنا لهم أزواجاً وذرية » ، وتارة يقول على لسان أحد أنبيائه : « رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ، ربنا وتقبل دعائي » .

وتارة نجد القرآن المجيد يقول عن زكريا عليه السلام : « هنالك دعا زكريا ربه ، قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء » .

وتمتد عناية القرآن بالولد منذ البداية إلى النهاية ، فهو يحذّر كلَّ التحذير من الاعتداء على الذرية حيث يقول : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم و إياكم » . وتارة يقول : « قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم » . وتارة يقول : « يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف ، فبايعهن واستغفر لهن الله ، إن الله غفور رحيم » .

والقرآن هنا يشير إلى الرذيلة السيئة الفظيعة التي كان يرتكبها بعض أهـــل الجاهلية ، وهي رذيلة قتل الأولاد بسبب الفقر أو خوف العار أو الفضيحة .

ثم يعني القرآن برعاية الأطفال وهم صغار ، فينظم لهم التربية و الرضاع ، ونجده يقول في ذلك : « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف » .

ويحذر القرآن الإنسان أن يعتدي عـــلى ذرية لغيره ، بأي لون من ألوان الاعتداء ، حتى لا تقيض له الأقدار يوماً من يعتدي على ذريته بعد وفاته ، فيقول القرآن الكريم : « وليخشى الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم ، فليتقوا الله وليقولوا قولا سديداً » .

* * *

وإذا انتقلنا من روضة القرآن الحكيم إلى روضة السنة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم ، وجدنا صوراً رائعة للعناية بالطفولة ، والعطف على الذرية ، والرحمة بالأولاد ، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من رزقه الله تعالى بثلاث بنات فأحسن تربيتهن أدخله الله الجنة ، قالوا : واثنتين يا رسول الله ؟ قال : واثنتين . قالوا : وواحدة يا رسول الله ؟ قال : وواحدة.

ويقول الحديث النبوي : « أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله » . ثم يذكر الحديث بعد ذلك الإنفاقَ في سبيل الله ، وحينما قارن الرسول عليه الصلاة والسلام بين أصناف النساء فضّل نساء قريش على بقية الأصناف ، وجعل السببَ في ذلك أنهن أكثر حناناً على أولادهن ، وأكثر رعاية لهم من غيرهن .

ولقد عد الرسول إهمالَ الإنسان لولده في تربيته ، أو الإنفاق عليه ، أو تعليمه أو تهذيبه ، أو حسن توجيهه ، إثماً كبيراً ، فقال عليه الصلاة والسلام : « كفى المرء إثماً أن يضيّع من يقوت » والذين يقوتهم الإنسان هم أفراد أسرته ، وأهم من فيها هم الأولاد .

وما أروع هذا التوجيه النبوي المحمدي الذي يتمثل في الحديث الشريف القائل : « لأن يؤدب الرجل ولدَه خير له من أن يتصدق كل يوم بصاع على المساكين » .

ومما يدلنا على حنان الرسول على الذرية ، ورحمته للأولاد ، أنه كـــان

ذات يوم يخطب بين أصحابه ، وإذا الحسن والحسين يقبلان عليه ، وهما طفلان يتعثّران في مشيتهما ، فأوقف الرسول خطبته ، وقطع حديثه ، ونزل فحملهما في حنان غامر طاهر ، وعاد وهو يتلطف معهما ، وأتم خطبته وهو يقول : أيها الناس ، صدق الله العظيم : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » ، والله لقد رأيت ابنيّ يجريان ويتعثّران ، فما أطقت حتّى نزلت فحملتهما » .

وذات مرة أقبل الحسن والحسين على الرسول وهو ساجد ، فاعتليا ظهره ، فأطال في سجوده حتّى نزلا ، خشية منه أن يسارع بالارتفاع من سجوده فيفزعان أو يغضبان ، صلوات الله وسلامه عليه .

ولا عجب في ذلك ، فالرسول هو الذي كان يصلي بقومه فيطيل الصلاة حتّى تستوفي خشوعها وأركانها ، ولكنه كان إذا سمع صوت طفل أسرع في الصلاة ، خشية أن تكون أمه مع المصلين فتقلق على ولدها، وهو حريص على أن تسارع إليه لتسكته ، وتزيل سبب بكائه وغضبه ، وهكذا يكون الاهتمام بالأولاد .

والإسلام يدعو الوالد إلى أن يقوم لولده بما يجب نحوه ، فيحسن له اختيار اسمه ، ويختار له مرضعةً سليمة صحيحة ، ويختار له بيئة طاهرة نظيفة تبعده عن أقران السوء ورفقة الانحراف . ويعلمه أمور الدين والدنيا ، ويعلمه الكتابة والسباحة والرمي والرياضة والجهاد ، وكلّ ما يحتاج إليه في هذه الحياة .

وهذا أحد أمراء المؤمنين يكتب إلى معلّم ولده يقول له: «صيِّر يدك عليه مبسوطة ، وطاعتَه لك واجبة ، وكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين ، أقرئه القرآن ، وعرفه الأخبار ، وروِّه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصِّره بمواقع الكلام وبدئه،وامنعه من الضحك إلا في وقته ، ولا تمرن بك ساعةٌ إلا وأنت مغتنم له فائدة تفيده إياها ، من غير أن تُحزِنه فتميتَ ذهنه ، وقومه ما استطعت بالرفق والملاينة ، فان أباهما فعليك بالشدة والغلظة » إلخ...

ومن أجل الطفولة ورعاية الولد شرع الإسلام نظامَ النفقة على الأولاد ،

ونظام الحضانة للأولاد ، ونظم التربية للأولاد ، وإذا رجعنا إلى ما كتبه علماء المسلمين في تربية الأولاد ، وخاصة حجة الإسلام الأمام الغزالي لوجدناهم يعطوننا تفاصيل باهرة استمدوها من الإسلام ، وكلها تدور حول صيانة الأولاد وتربيتهم وتقويم أخلاقهم .

والإسلام لا يرضى أبداً من الإنسان أن ينجب بذرية ، ثم يترك هذه الذرية فقيرة عليلة جائعة ضائعة ، ولو أنه فعل ذلك لكان مهملا لنعمة كبرى من نعم الله تبارك وتعالى ، وكان غير مقدّر لقيمتها ، فيكون كالكافر لها ، والقرآن الكريم يقول : « لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد » .

ومن اللائق بنا الآن وقد تعقدت الحياة ، وكثرت مطالبها ، وتعددت مطالبها ، أن نتذكر أن تربية الولد الواحد تحتاج إلى مجهودات كثيرة موصولة ، فكيف بتربية مجموعة من الأولاد ؟

فإذا كانت الرغبة أو الشهوة تدفع بالإنسان إلى أن ينجب طفلا وراء طفل ، فواجبه يقضي عليه أولا وقبل كل شيء أن يعد لهذه الذرية تبعاتها وحقوقها ولوازمها ومطالبها ، وإلا كان معتدياً عليها ، مفرطاً في واجباتها ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

مكانة المرأة في الاسلام

السؤال : **كيف رسم القرآن الكريم صورة المرأة التي تحدد مكانتها في المجتمع ؟.**

الجواب :

المرأة نصف المجتمع . هذه حقيقة يعرفها العقل ، ويؤيدها الواقع . وحينما نرجع إلى القرآن الكريم ، نجد أنه قد رسم للمرأة شخصية متميزة ، قائمة على احترام الذات ، وكرامة النفس ، وأصالة الخُلُق ، وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « النساء شقائق الرجال» فإنه يستمد هذا من هدى القرآن الكريم ، فإن آيات كثيرة منه تشعرنا بالمساواة البشرية في الحقوق الطبيعية بين الرجل والمرأة ، فهو يتحدث عنها بما يفيد مشاركتها للرجل ، وتحملها للتبعة معه ، فيقول في قصة آدم أبي البشر : « وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغدا حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » . ويقول عن النساء والرجال : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة » . وهي درجة القوامة والرعاية في الأسرة .

ويقول : « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون » . ويقول : « فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ، بعضكم من بعض » . ويقول أيضاً : « إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً » .

ثم نجد القرآن الكريم — من إشعاره لنا بشخصية المرأة وكيانها الذي يجب أن يصان ويرعى — يسمي سورة من أطول سوره باسم « النساء » ، يتحدث فيها عن كثير من شئونهن ، التي تدل على أن شخصية المرأة في المجتمع الإسلامي مبنية على أساس من التقدير والاحترام في نظر الإسلام ، وها هوذا القرآن يسمي سورة أخرى باسم « المجادلة » يفتتحها بالحديث عن استماع الله من فوق سبع

سموات إلى امرأة تجادل النبي وتحاوره . فيقول في بدء هذه السورة : « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله ، والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير » .

ويحدثنا القرآن الحكيم عن المرأة ، فيشير إلى أن شخصيتها تعلو وتسمو حين تتجمل بطائفة من مكارم الأخلاق الدينية والاجتماعية ، فيوجه الخطاب إلى بعض نساء النبي في سورة التحريم فيقول : « عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات » ، أي مطيعات لله قائمات بالحقوق ، يحفظن ما يجب حفظه من النفس والمال والعرض والشرف ، ففيهن خلق الأمانة والصيانة ، وهن مهاجرات وصائمات ، وهذه أمهات للأخلاق الكريمة الفاضلة .

وقد عرض علينا القرآن الكريم نماذج رائعة سامية لفضليات النساء في تاريخ البشرية ، فهو يحدثنا عن نساء ضربن المثل في الإيمان والصبر والعفة والاعتصام بحبل الله المتين ، فكان لهن على الأيام تاريخ مخلّد ، وذكر ممجد . فلنستمع إلى قول الله تعالى : « وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ، ونجني من فرعون وعمله ، ونجني من القوم الظالمين ، ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين » .

ويعود القرآن في مواطن كثيرة إلى الحديث عن مريم البتول العذراء ، وتكريمها بطهارتها وعفتها وصيانتها لنفسها ، فيقول عنها مثلا : « فتقبلها ربها بقبول حسن ، وأنبتها نباتاً حسناً ، وكفلها زكريا ، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً . قال : يا مريم أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » . ويقول أيضاً : « وإذ قالت الملائكة : يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ، يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين » .

ويحدثنا القرآن عن أم موسى التي تمثلت فيها عاطفةُ الأمومة بأجلى معانيها ،

خوفاً على وليدها ، وحرصاً على وحيدها . ولكنها لا تتأبى على أمر ربها ، بل تلقيه في اليم طاعةً لقول ربها : « فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ، ولا تخافي ولا تحزني ، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين » .

ولكنها بعد إلقائها بابنها في اليم ، يصبح تفكيرها فيه هو الشغل الشاغل لها ، بطبيعة أمومتها وحنانها ، ولكنها تلجأ إلى عون الله الذي يثبت فؤادها ، ويربط على قلبها ، فذلك حيث يقول : « وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً ، إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين » . فنفهم أن من مقومات الشخصية الرفيعة عند المرأة الفاضلة : الإيمان بالله والاستعانة بالله ، وحسن احتمال الأحداث .

وفي القرآن الكريم إشارة إلى أن المرأة استطاعت أن تبلغ في بعض العصور السابقة منازلَ مرموقة سامية . فهو يحدثنا عن « ملكة سبأ » التي تحلت بالذكاء وبعد النظر ، مع تطلب المشورة والنصيحة ، فيقول عنها في أمرها مع سليمان: قالت : « يا أيها الملأ أفتوني في أمري ، ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون ، قالوا نحن أولو قوة واولو بأس شديد ، والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين » . وبعد أن يقص القرآن علينا مواقفها مع سليمان تنتهي ملكة سبأ إلى الإيمان ، وتردد قولها كما حكى القرآن : « وأسلمتُ مع سليمان لله رب العالمين » .

إن المرأة تستطيع بشخصيتها الأصيلة ، وأخلاقها الجميلة ، وأعمالها الجليلة ، أن تقيم البرهانَ على أنها شطر المجتمع الذي لا يستهان به بحال من الأحوال..

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

زوج يسيء معاشرة زوجته

السؤال : **ما حكم الإسلام في رجل متزوج ترك زوجته ولها طفلان ، مدة تزيد عن خمس سنوات؟ وهل له حق في ذلك، مع أن الزوجة صابرة من أجل ولديها ؟.**

الجواب :

يقول الله تبارك وتعالى في سورة الروم في شأن الحياة الزوجية : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ، ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

ويقول القرآن الكريم في سورة البقرة: « فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف » .

ويقول في سورة النساء : « وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » .

وهناك آيات كثيرة غير ما تقدم ، وكلها تحض على حسن المعاشرة بين الزوجين ، وتدعو الزوج الى حسن الرعاية لزوجته ، لأنه مطالب شرعاً بالإنفاق عليها ورعايتها وحمايتها ، فإذا فرط الزوج في ذلك عامداً، فقد ارتكب بهتاناً وإثماً مبيناً ، وقد هدد رسول الله صلى الله عليه وسلم الزوج الذي يضيِّع أهله ويسيء معاملة زوجته .

والأولاد أيضاً أمانة يجب أن يرعاها الوالد ، وأن يشعرها بالرحمة والرفق والحنان .

فإذا صح أن الزوج قد ترك زوجته مع ولديها ما يزيد عن خمس سنوات

بإرادته واختياره ، فإنه بذلك يتعرض لغضب الله ونقمته وعذابه في الدنيا وفي الآخرة ، ما لم يرتدع ويتب إلى الله ويعجل بإصلاح ما أفسده .

ومن حق هذه الزوجة أن تطالب زوجها بإقامته معها ، وإنفاقه عليها ، ورعايته لأولادها .

وإذا كان الزوج قد غاب هذه المدة ، ولا خبر عنه ولا علم بحاله ، فمن حق الزوجة أن تتقدم إلى القضاء المختص ، لكي يصدر حكمه بالتفريق بينها وبين زوجها المجهول الحال والمكان والحياة .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

زوجة الغائب

السؤال : **تزوج رجل ، ورزق من امرأته بطفل ، ثم اغترب بعد أن عاشر زوجته سنتين ، وانقطعت أخباره مدة ثلاث سنوات ونصف سنة ، وحين عاد الرجل إلى وطنه وجد زوجته متزوجة من رجل آخر ، فما الرأي في ذلك ؟.**

الجواب :

الزواج قائم على المودة والرحمة والطمأنينة ، وهذا يستدعي قيام العشرة الزوجية المنتظمة بين الرجل وزوجته ، بأن يساكنها ويقيم معها ، ويؤدي إليها حقوقها ، وينفق عليها ، ويؤدي إليها ما تتطلبه الحياة الزوجية الآمنة الكريمة ، فإذا هجر الزوج زوجته ، وغاب عنها ، وانقطعت أخباره ، ولم يبعث إليها ما تقضي به مطالب حياتها ، فإن للزوجة الحق – إن أرادت – أن تطلب التفريق بينها وبين زوجها ، بأن تلجأ إلى ولي الأمر (ويمثله هنا القاضي المختص) ، وتشرح له موقف زوجها منها ، وغيابه عنها ، وتضررها بذلك الغياب ، وتطلب

التفريق بينها وبين زوجها بسبب ذلك ، فإذا ثبت القاضي ذلك فإنه يصدر أمره بالتفريق بين هذا الرجل الغائب وزوجته بميقات خاص .

وبذلك تصبح هذه المرأة مطلقة من زوجها المغترب ، وتقضي عدّتها منه ، فإذا انتهت هذه العدة كان لها الحق في أن تتزوج غيره . وإذا عاد إليها زوجها الأول بعد هذا الزواج ، وبعد الدخول بها ، فإنه لا يكون للزوج الأول الحق في طلب تطليقها من الزوج الجديد ، اللهم إلا إذا أرادت الزوجة ذلك، وأراده الزوج الجديد ، فإنه يطلقها حينئذ برضاه ، وتنتظر حتّى تنتهي عدّتها ، ثم تعود إلى زوجها القديم إذا شاءت وشاء ، بعقد ومهر جديدين .

ولكن هذه الزوجة إذا انتهزت الفرصة لغياب زوجها عنها ، وأرادت التخلص منه ، وأقدمت على التزوج من زوج آخر ، قبل أن يصدر الأمر بالتفريق بينهما ، وقبل أن تنتهي عدّتها ، فإن هذا الزواج لا يكون صحيحاً ولا مشروعاً ، وتكون المرأة بذلك قد ارتكبت إثماً كبيراً ، ويكون الزوج الجديد قد شاركها هذا الإثم الكبير ، إذا كان يعلم حقيقة الأمر ، ومن واجب ولي الأمر بين المسلمين أن لا يقر مثل هذا العمل ، بل يمنعه ويحول دونه .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الإسلام ورعاية الأحداث

السؤال : **ما مدى عناية الدين الإسلامي برعاية الأحداث ؟.**

الجواب :

«الأحداث» هم أولئك البراعم الجديدة المتفتحة في حديقة الحياة وروضة الأيام،وهم الذين يمثلون الذرية الغالية العزيزة التي هي فلذات الأكباد وثمرات القلوب . والإسلام يعد الذرية الصالحة نعمةً كبيرة ، يمن الله بها على عباده ،

ولهذا نجد القرآن الكريم يعد الولد بشرى من البشريات التي تستحق أن تُخلّد وتمجد ، فنراه يقول : « يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا » .

ويقول القرآن عن الذرية على لسان الأخيار الأبرار من عباد الرحمن : « ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرةَ أعين واجعلنا للمتقين إماماً » . ولن تكون هذه الذرية قرة أعين إذا كانت مريضة أو فقيرة أو جاهلة مشردة ، وإنما تكون قرة أعين حقاً وصدقاً إذا كانت مرعية مصونة ، موفورة الكرامة والسعادة ، وقد أمر الله تبارك وتعالى الإنسان بأن يحفظ أهلَه ويصونهم ، ومن بينهم الأولاد ، فيقول القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً » . وقال المفسرون إن الوقاية هنا تكون بالتعليم و التأديب والرعاية ، وحسن الإشراف والتوجيه .

ولذلك قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « ما نَحَل والد ولدَه أفضلَ من أدب حسن »، أي ما أهدى إليه أحسن من تعويده فضائل الآداب ومكارم الأخلاق ومحامد الشيم ، وفي حديث آخر قال الرسول : « لأن يؤدب أحدكم ولده خير له من أن يتصدق كل يوم بنصف صاع على المساكين » .

والإسلام يحث على رعاية الأحداث ، وحسن معاملة الأطفال ، والرحمة بالناشئة ، ومما يدل على ذلك أن الحسن بن علي دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو صغير ، فقبّله الرسول ، وكان عند الرسول رجل أسمه الأقرع بن حابس فقال : إن لي عشرة من الأولاد ما قبلتُ منهم أحداً . فقال الرسول : من لا يرحم لا يرحمه الله . وقدم بعض الأعراب على النبي فقالوا للرسول : أتقبلون صبيانكم ؟. قال النبي : نعم. فقالوا : لكنا والله ما نقبلهم. فقال الرسول : « وما أملك إن كان الله نزع من قلوبكم الرحمة » ؟.

ومن رعاية الإسلام للأحداث والناشئة أنه يوجه أباءهم وأولياء أمورهم إلى العناية بهم في كل شيء ، سواء أكان ذلك متعلقاً بالمظهر أو المخبر ، حتى إن الإسلام يأمر الإنسان بأن يحسن اختيارَ اسم ولده ، فقد قال بعض الصحابة

لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، قد علمنا حقّ الوالد ، فما هو حق الولد ؟. فأجابه قائلا : يُحسن والدُه اسمه ، ويحسن أدبَه .

ولقد جاء رجل إلى الرسول عليه الصلاة والسلام وقال له : يا رسول الله ، وُلد لي مولود ، فما خير الأسماء ؟. فقال : « خير أسمائكم الحارث وهمّام، ونعم الأسماء عبدالله وعبد الرحمن ، وتسموا بأسماء الأنبياء » .

وفي حديث نبوي آخر : « من وُلد له ولد فليحسن اسمه وأدبه ، فاذا بلغ فليزوجه ، فان بلغ ولم يزوجه فأصاب إثماً فإثمه على أبيه » ، وهذا معناه أن أن الكبير يتحمل تبعة الزلل الذي يقع من الحدث الصغير ، ما دام لم يعطه من العناية والرعاية ما هو له أهل ، وبه جدير .

والإمام العظيم ابن القيم يقول في كتابه « تحفة الودود بأحكام المولود » هذه العبارة : « مَنْ أهمل تعليم ولده ما ينفعه ، وتركه سدى ، فقد أساء إليه غايةَ الإساءة ، وأكثرُ الأولاد إنما جاء فسادهم من قبل الآباء وإهمالهم لهم ، وترك تعليمهم فرائضَ الدين وسننه ، فأضاعوها صغاراً ، فلم ينفعوا أنفسهم ولم ينفعوا آباءهم كباراً » .

كما عاتب بعضهم ولدَه على العقوق فقال : « يا أبت إنك عققتني صغيراً ، فعققتك كبيراً ، وأضعتني صغيراً ، فأضعتك شيخاً» .

والرعاية للأحداث في الإسلام تشمل الذكر والأنثى ، ولقد حرَّم الإسلام تحريماً قاطعاً تلك الصورةُ البشعة التي كانت موجودة قبل الإسلام في زمن الجاهلية ، وهي كراهية البنت ، وتفضيل الذكر عليها ، والعمل على التخلص منها ، فيقول القرآن المجيد واصفاً هذه الجريمة : « وإذا بُشِّر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ، ألا ساء ما يحكمون » . وقال القرآن أيضاً : « وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا (وهو البنات) ظل وجهه مسوداً وهو كظيم » . وقال : « وإذا المؤودة سئلت بأي ذنب قتلت » ؟.

وقد أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام بأن الذي يرزقه الله تعالى ببنتين ، فيحسن رعايتهما وتربيتهما ، كان قريباً من مكان الرسول في الجنة ، وكذلك أخبرنا بأن من رُزق ببنات فأحسن إليهن كنّ له ستراً من النار . ولما رزق عليه الصلاة والسلام بابنته السيدة فاطمة ، هش لها وبش ، وفرح بها وقال عنها : « ريحانة أشمها ورزقها على الله » .

ويتصل بهذا أن الإسلام أمر بالعدل بين الأولاد جميعاً ، وحذر من التفرقة في المعاملة بينهم ، فقال الحديث النبوي : « اعدلوا بين أبنائكم ، اعدلوا بين أبنائكم » . وقد كرر الأمر للتأكيد والتأييد .

ولما حاول بعض المسلمين أن يجعل الرسول صلوات الله وسلامه عليه يشهد على شيء خص به بعضَ أبنائه دون الباقين ، رفض الرسول ذلك وغضب منه ، وقال : « لا تشهدوني على جور ، ان لبنيك عليك من الحق أن تعدل بينهم » . وفي حديث ثالث يقول الرسول : « اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم » .

والعدل بنبغي أن يكون في كل شيء ، لأن التفرقة — حتى في الأمر السريع كالضمّة أو القُبلة — يعد ظلماً ، ولقد رأى النبي عليه الصلاة والسلام رجلا أقبل عليه ابنه فقبله وحمله ، وأجلسه في حجره ، ثم جاءت إليه ابنته فأجلسها إلى جانبه ، فلامه النبي على ذلك قائلا : « ما عدلت بينهما » .

ومن الشواهد الواضحة على عناية الإسلام برعاية الأحداث أننا نجد الأئمة الأعلام من رجاله وفقهائه ، يعنون بالحديث عن تفاصيل العناية بالأطفال والأحداث ، وهذا مثلا واحد منهم وهو الامام ابن قيم الجوزية يهتم بحديث طويل عن واجبات الوالد نحو ابنه الحَدَث ، ومن هذا الحديث نقطف هذه العبارات التالية ، فهو يقول مثلا : « وينبغي ألا يهمل أمر قماطه ورباطه ولو شق عليه ، إلى أن تقوى أعضاؤه ، ويصلب بدنه ، ويجلس على الأرض ، فحينئذ يمرن ويدرب على الحركة ، والقيام قليلا قليلا ، إلى أن يصير له ملكة وقوة يفعل ذلك بنفسه ، وينبغي أن يوقى الطفل كل أمر يفزعه من الأصوات الشديدة الشنيعة ، والمناظر الفظيعة ، والحركات المفزعة ، فإن ذلك ربما أدى

إلى فساد قوته العاقلة لضعفها ، فلا ينتفع بها بعد كبره ، فإذا عرض له عارض من تلك فينبغي المبادرة إلى تلافيه بضده ، وإيناسه بما ينسيه إياه ، وأن يلقم ثديه في الحال ، ويسارع إلى رضاعه ، ليزول عنه حفظ ذلك المزعج له ، ولا يرتسم في قوته الحافظة فيعسر زواله ، ويستعمل تمهيده بالحركة اللطيفة ، إلى أن ينام فينسى ذلك ، ولا يهمل هذا الأمر ، فإن في إهماله إسكان الفزع والروع في قلبه ، فينشأ على ذلك ويعسر زواله » .

ويقول أيضاً : « وينبغي للمرضع إذا أرادت فطامه أن تفطمه على التدريج ، ولا تفاجئه بالفطام وهلة واحدة ، بل تعوده إياه وتمرنه عليه ، لمضرة الانتقال عن الإلف والعادة مرة واحدة ، كما قال بقراط في فصوله : استعمال الكثير بغتة مما يملأ البدن أو يستفرغه ، أو يسخنه ، أو يبرده ، أو يحركه بنوع آخر من الحركة ، أي نوع كان فهو خطر ، وكل ما كان كثيراً فهو معادٍ للطبيعة ، وكل ما كان قليلا فهو مأمون » .

ويقول أيضاً : « وليحذر كل الحذر من تمكينه من تناول ما يزيل عقله من سُكْر وغيره ، أو عشرة من يخشى فساده أو كلامه له أو الأخذ من يده ، فإن ذلك فيه الهلاك كله » .

ويقول أيضاً : « وينبغي أن يتأمل حالَ الصبي ، وما هو مستعد له من الأعمال ، ومهيأ له منها ، فيعلم أنه مخلوق له ، فلا يحمله على غيره مما كان مأذوناً فيه شرعاً ، فإنه إن حمله على غير ما هو مستعد له لم يفلح فيه ، فإنه ما هو مهيأ له ، فاذا رآه حسن الفهم صحيح الإدراك جيد الحفظ واعياً ، فهذا من علامة قبوله وتهيؤه للعلم ، فلينقشه في لوح قلبه ما دام خالياً ، فإنه يتمكن فيه ، ويستقر ويزكو معه ، وإن رآه بخلاف ذلك من كل وجه ، وهو مستعد للفروسية وأسبابها ، من الركوب واللعب بالرمح ، وأنه لا فهم له في العلم ، مكّنه من أسباب الفروسية والتمرن عليها ، فإنه أنفع له وللمسلمين .

وإن رآه بخلاف ذلك ، وأنه لم يُخلق لذلك ، ورأى عينه مفتوحة إلى صنعة

من الصنائع مستعداً لها مقبلاً عليها ، وهي صناعة مباحة نافعة للناس ، فليمكنه منها . هذا كله بعد تعليمه ما يحتاج إليه في دينه » .

• • •

هذا ، ولقد عُني الإسلام برعاية اليتامى ، ومن في حكمهم من الأحداث الذين لا يجدون راعياً ولا معيناً، فقال القرآن محرضاً على حسن معاملة الأحداث : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذريةً ضعافاً خافوا عليهم ، فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً » . وحث الرسول على رعاية اليتيم حتّى يكبر فقال : « أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا » . وأشار باصبعيه السبابة والوسطى .

وهكذا نرى أن الإسلام حث على رعاية الأحداث ، والعناية بالناشئة ، حتّى تكون ذرية صالحة بعضها من بعض ، والله سميع عليم .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

تبعات الوالد نحو أولاده

السؤال : **تزوجت منذ خمسة وعشرين عاماً ، وتحملت مع زوجي أعباء الحياة حتّى بلغ مركزاً كبيراً وكوّن ثروة ، ثم طلقني وتركني مع أولادي ، وتزوج غيري مرة ومرتين وثلاث مرات ، وفشل في كل مرة ، والآن أعيش مع أولادي بالقليل ، فهل لنا حقوق عليه ؟ وما حكم الدين في أب يقاطع أبناءه مدة تزيد على عشر سنوات ؟.**

الجواب :

إن الحياة الزوجية رابطة دينية مقدسه ، يجب أن تصان وتُرعى ؛ والقرآن الكريم قد أشار إلى جلال هذه الرابطة حين قال للرجال عن زوجاتهم : «وأخذن

منكم ميثاقاً غليظاً » أي عهداً قوياً متيناً . له حرمته وله خطورته . ونحن نلاحظ أن عقد الزواج يقترن غالباً بذكر الله تبارك وتعالى . وذكر كتابه الكريم ، وذكر رسوله صلى الله عليه وسلم . ولذلك يقول الرجل للمرأة في صيغة عقد الزواج غالباً : تزوجتك على دين الله تعالى وكتابه وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام .

وقد أقام الإسلام العلاقة بين الزوجين على المحبة والمودة وسكينة القلب والنفس . فقال الله عز وجل في سورة الروم : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . وقال الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « استوصوا بالنساء خيراً » .

والزوج الذي يتنكر للحياة الزوجية ، أو يهمل حقوقها ، أو يضيع تبعاتها ، أو يهين زوجته ويضيع أمرها ، أو يترك الإنفاق والإشراف على أولاده ، يكون آثماً عاصياً ، مضيعاً لحقوق بيته وأسرته ، معرضاً نفسه لغضب الله وعقابه .

وإذا صحت الوقائع التي يشير إليها السؤال ، فإن هذا الزوج يكون قد ارتكب عدة جرائم يعاقبه الله عليها . ارتكب أولا إيقاع الطلاق دون مسوغ أو داع ، والرسول يقول : « ابغض الحلال إلى الله الطلاق » . ويقول : «لعن الله كل مذواق مطلاق » . وارتكب أيضاً تكرار التزوج عدة مرات دون ضرورة ، مع فشله في كل مرة ، وارتكب ثالثاً إهماله لزوجه وأولاده ؛ وزوجتُه هي عرضه وشرفه ، وأم أولاده وشريكة حياته، وهي التي تحملت المتاعب والمصاعب في سبيل زوجها وتكوينه مادياً واجتماعياً ، إن صح ما جاء في السؤال .

وكأن الله سبحانه وتعالى أراد أن ينتصف لهذه الزوجة من مطلقها ، فكتب عليه الفشل في مرات الزواج الثلاث التي قام بها ، وليته اتخذ من ذلك عبرة أو عظة تزجره عن هجره لأولاده ، وتدفعه إلى القيام بواجبه الديني والاجتماعي والقانوني والأدبي نحوهم ، فإنهم أفلاذ كبده ، يحملون اسمه ، وينتسبون إليه ؛

وما أغلظ قلب هذا الوالد إن صح أنه قد هجر أولاده طيلة هذه المدة — وهي عشر سنوات — مع أنهم يستطيعون عن طريق القانون والقضاء — إن كانوا محتاجين فعلا — أن يأخذوا منه نفقتهم التي تقوم بأودهم ، ويلزمه دفعُها إليهم طوعاً أو كرهاً ، ما دام قادراً على أدائها . وليته يتذكر قول الله تبارك وتعالى : « لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قُدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله » . وقول رسوله صلى الله عليه وسلم : « برّ ولدك ، كما أن لوالديك عليك حقاً ، كذلك لولدك عليك حق» . وقوله: « رحم الله والداً أعان ولده على بره» . أي أحسن إلى ولده في تربيته وتقويمه ، وتوفير أسباب السعادة له ، حتى إذا كبر الولد وقدر ، تذكر جميل والده معه ، فقابل الجميل بالجميل ، وجازى الإحسان بالإحسان(١) : « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

والله سبحانه وتعالى أعلم .

• • •

الزواج العرفي

السؤال : **هل يحرم الشرع الزواج العرفي ؟.**

الجواب :

المراد بالزواج العرفي في عصرنا الحاضر هو الزواج الذي يُعقد سرّاً ، لسبب من الأسباب التي يحاول أصحابُها إخفاءها وكتمانها عن الغير ، حيث لا يستطيعون مواجهة المجتمع بها . ولا يسجلون هذا الزواج في وثيقة رسمية .

والزواج في الأصل نعمة من نعم الله الكبرى ، التي يمن بها على عباده ،

---

(١) انظر كتابي « الدين وتنظيم الأسرة » ص ٢١ طبعة سنة ١٩٦٦ .

ولذلك يقول الحق جل جلاله في سورة الروم : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . ومن هنا كان من الطبيعي إعلانُ هذا الزواج عند عقده ، تحدثاً بنعمة الله من جهة ، وإعلاناً للناس أن هناك علاقة شرعية قد نشأت بين ذكر وانثى ، تعارفاً وتآلفا وارتبطا بعقد الزواج الذي وصفه القرآن الكريم بأنه « ميثاق غليظ » . وحينئذ لا لسوء ظنون الناس إذا رأوا هذا الرجل يعايش هذه المرأة ، بل يعلمون أنهما قد تزوجا زواجاً مشروعاً ، على كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك قال النبي صلوات الله وسلامه عليه : « أعلنوا النكاح واضربوا عليه بالدفوف » .

وأقل حالات الإعلان للزواج هو أن يكون في مجلس العقد العاقدان والشهود، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « لا نكاح إلا بشهود » . وروى عبدالله ابن عباس أن النبي قال : « كل نكاح لم يحضره أربعة فهو سفاح : خاطب وولي وشاهدان» . كذلك جاء في السنة: « لا نكاح إلا بولي وشاهديْ عدل ».

وقديماً كان الزواج ينعقد دون توقف على تسجيله في ورقة أو وثيقة ، ما دامت شروط العقد قد توافرت ، ولكن ولي الأمر في العصر الأخير قد لاحظ وقوع كثير من حوادث الإنكار والجحود ، بوسائل الخداع والاحتيال ، فيما يتعلق بحالات الزواج ، فأراد للمصلحة العامة أن يصون المرأة والرجل والذرية من العواقب السيئة لذلك ، فأوجب تسجيل عقد الزواج في وثيقة رسمية ، ومنع المحاكم من قبول النظر في قضية تتعلق بإثبات الزواج ، إلا إذا كان عقد الزواج مسجلا في وثيقة رسمية ، ولذلك جاء في القانون المعمول به في مصر هذه المادة : « لا تُسمع عند الإنكار دعوى الزوجية أو الإقرار بها ، إلا إذا كانت ثابتة بوثيقة زواج رسمية في الحوادث الواقعة من أول أغطس سنة ١٩٣١ » . وجاء في المذكرة الإيضاحية لهذه المادة ما يلي :

« الحوادث قد دلت على أن عقد الزواج – وهو أساس رابطة الأسرة – لا يزال في حاجة إلى الصيانة والاحتياط في أمره ، فقد يتفق اثنان على الزواج

بدون وثيقة ، ثم يجحده أحدهما ، ويعجز الآخر عن إثباته أمام القضاء . وقد يدّعي الزوجية بعضُ ذوي الأغراض زوراً وبهتاناً ، أو نكاية وتشهيراً ، أو ابتغاء غرض آخر ، اعتماداً على سهولة إثباتها ، خصوصاً وأن الفقه يجيز الشهادة بالتسامع في الزواج ، وقد تُدّعى الزوجية بورقة عرفية إن ثبتت صحتها مرة لا تثبت مراراً .

وما كان لشيء من ذلك أن يقع ، لو أُثبت هذا العقد دائماً بوثيقة رسمية ، كما في عقود الرهن وحُجج الأوقاف ، وهي أقل منه شأناً وهو أعظم منها خطراً . فحملاً للناس على ذلك ، وإظهاراً لشرف هذا العقد ، وتقديساً له عن الجحود والإنكار ، ومنعاً لهذه المفاسد العديدة ، واحتراماً لروابط الأسرة ، زيدت الفقرة الرابعة في المادة ٩٩ التي نصُّها : (ولا تسمع عند الإنكار دعوى الزوجية أو الإقرار بها إلا إذا كانت ثابتة بوثيقة زواج رسمية في الحوادث الواقعة من أول أغسطس سنة ١٩٣١) » .

وما دام ولي الأمر قد قصد من وراء ذلك مصلحة المجتمع ، كان من الواجب على الناس أن يطيعوا أمره ، وأن يسجلوا عقود زواجهم ، حتى لا تسوء العاقبة ، ولا يكون هناك مجال للخداع والاحتيال .

ومن هنا نفهم أن الزواج إذا كان يتم دون تسجيله بوثيقة رسمية في الاماكن أو الأقاليم التي لا يوجد توثيق فيها لهذه العقود ، فإنه يجب على الناس في الأقاليم التي يوجد فيها توثيق ، أن يطيعوا ولي الأمر فيما نظمه من شئون هذه العقود حفظاً للحقوق ، وقطعاً للطريق على الاحتيال .

وإذا فرضنا وجود عقد زواج ، توافرت فيه الشروط اللازمة ، ولم يسجل، فإن أصحابه يستطيعون المبادرة إلى تسجيله ، تباعداً عن الظن السيء وتعاوناً على الخير ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

حول ثياب المرأة

السؤال : **ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى قد لعن المتشبهين من الرجال بالنساء ، والمتشبهات من النساء بالرجال ، فما حكم الله في طالبة ترتدي « البنطلون » الطويل بقصد الحشمة والتدين ؟.**

الجواب :

خلق الله تبارك وتعالى كُلا من الرجل والمرأة ، وأعطى كلٌ نوع منهما صفات وخصائص يتميز بها ، ويستعين بها على أداء رسالته ، والقيام بواجبه في هذه الحياة ؛ ولم يجعل الله سبحانه الذكورة في حد ذاتها مفخرة يتباهى بها الرجل أو يتكبر ، كما أنه لم يجعل الأنوثة في حد ذاتها عيباً يشين المرأة أو ينال من مكانتها ، بل جعل الله تعالى هذه النوعية من الذكورة والأنوثة ، لتنظيم الحياة ، ويتحقق التكامل والتعاون بين النوعين ، وتتماسك لبنات الأسرة والمجتمع .

ولذلك أرشد الإسلام إلى أن يعتز كلٌ من النوعين بما آتاه الله من طاقات واستعدادات ، وأن يستخدمه في مجاله الطبيعي المناسب ، وحذّر الإسلام أن يتنكر نوع منهما لما يسّره الله له من وظيفة ، أو يتكاف نوع منهما تقليد الآخر، ناسياً أن تحليه بخصائصه مما يحقق التعاون والتعادل بين شطري الحياة البشرية ، فلعن الرسول صلى الله عليه وسلم المرأة اذا حاولت ان تهدم معاني الأنوثة فيها لتتشبه بالرجال فيما هو من شأنهم أو اختصاصهم ، كما لعن الرجل الذي يتنكر لرجولته ويتشبه بالمرأة فيما هو من شأنها ، سواء أكان عملا أم قولا أم سلوكاً.

واحتفظ الإسلام في الوقت نفسه لكل من النوعين بمكانته وحرمته ، فجعلهما شقيقين يسعيان في مسالك الحياة بروح الأخوة والمودة والتضامن ، فقال في

سورة آل عمران : « فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض » . وقال في سورة الأحزاب : « إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً » .

وكان من تنظيم الإسلام لنوعي البشرية — الرجل والمرأة — أن حدد ما يجوز أن يُكشف من الجسم وما لا يجوز ، فأباح أن تكشف المرأة وجهها ويديها وقدميها ، لاحتياجها إلى ذلك في مزاولة أعمال الحياة وتيسير الحركة فيها ؛ وحكم بأن ما عدا هذا من جسم المرأة عورة يجب أن تستّر وتصان ، حتّى لا تكون كشفها سبباً في إثارة الفتنة ، وتحريك الشهوة ، وفتح الباب أمام خيانة الأبصار ، وانحراف الأفكار ، والتمهيد للسوء ، ولذلك كان مما ينبغي للمرأة أن تلبس ملابس متحشمة ساترة لعورتها ، غير مفصلة لأجزاء جسمها ، فقال في سورة النور : « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ... » . وقال في سورة الأحزاب : « ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » . وقال فيها أيضاً : « يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً » .

ومن هنا نفهم أن ارتداء المرأة — طالبة كانت أو غير طالبة — للبنطلون الطويل بقصد الحشمة والتدين ، كما جاء في السؤال أمر يعين على ستّر العورة عند المرأة ، ولا يتوافر فيه تعمد التشبه بالرجال ، ما دامت النية قد توافرت لقصد التدين والتحشم ، ولكن ذلك يشترط أن يكون البنطلون المذكور ساتراً سابغاً غير ضيق ، وغير محدد لما يستّره من أعضاء المرأة .

وأما إذا ارتدت المرأة هذا البنطلون بصورة يجسّم أعضاءها وتحددها ،

وتثير الفتنة من وراء ذلك ، فإنه يكون حراماً ، ويشوه الغرض الكريم المقصود من وراء ستر العورة . وهذا البنطلون – اذا لم نسيء استخدامه – يكون أشبه بالسروال الطويل السابغ المعروف عند المرأة المتحشمة منذ عهد بعيد في بعض بلاد المسلمين . فليت النساء يسلكن طريق الاستقامة بحسن استخدام هذا البنطلون وبذلك يسعين نحو الحشمة والتأدب بأدب الإسلام .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

بين طلب العلم وخدمة الأُسرة

السؤال : **حصلت على الثانوية العامة ، وتوفي والدي ، وترك لي أسرة كبيرة العدد ، منها خمسة أشقاء ، اثنان منهما مجندان ، ولوالدي زوجتان غير أمي ، إحداهما معها ثلاثة أولاد ، والأخرى حامل . وأنا موظف بدبلوم الثانوية التجارية ، وأريد تحسين موقفي الوظيفي ، بحصولي على مؤهل عال ، فما العمل ؟. وليس للأسرة معاش أو دخل .**

أأنتسب إلى إحدى الجامعات أو المعاهد العليا ، أم أشتغل بعد مواعيد العمل الرسمية لأسد حاجات هذه الأسرة ؟.

الجواب :

أبدأ بتحية هذا الشاب على شعوره الكريم بالتبعة والمسئولية نحو أسرته الكبيرة العدد ، وعلى رغبته العميقة في الازدياد من العلم ، وعلى إرادته القوية ، لأنه على الرغم من أنه موظف بدبلوم الثانوية التجارية ، كافح حتى حصل على « الثانوية العامة » .

وأسأل الله تبارك وتعالى لوالده المغفرة ، لأنه قد تزوج ثلاث زوجات ، وكل

واحدة منهن لها حقوق ومطالب ، مع أن ظروفه المادية – فيما يبدو – لا تعاونه على هذا التعدد في الزوجات ، ولا على النهوض بتبعات هذا العدد من الأولاد .

ثم نتذكر أن طلب العلم فريضة ، وأن من حق هذا الشاب – إن لم يكن من واجبه – أن يحصل على مزيد من العلم ، وعلى مزيد من الشهادات ، لتحسين حاله وتوسيع أفقه ، ولكن رعاية الأهل والأسرة واجب مفروض أيضاً على مثل هذا الشاب ، لأنه أقدر الأسرة على تحمل التبعة – فيما يظهر من كلامه – ولذلك أنصح له بأن يحاول التوفيق بين استكمال دراسته واستمراره في العمل، لكي يعول في حدود طاقته هذه الأسرة التي فقدت عائلها ، وليس لها إيراد معين ولا معاش موصول .

وعلى كل فرد في هذه الأسرة أن يسهم بنصيب من العمل أو الإنتاج، مهما كان هذا النصيب ، ومهما كان نوع العمل أو الإنتاج ، لزيادة دخل الأسرة وتوسيع إيرادها ، ولا استثني من ذلك الزوجات الثلاث ، فإنهن يستطعن أن يقمن بأي عمل مناسب لهن داخل البيت أو خارجه ، وفي كثير من البلاد العاملة نجد المرأة تعاون زوجها من داخل بيتها بالعمل في الخياطة أو النسج أو التطريز أو ما أشبه ذلك من أعمال .

كما أرى أنه من واجب جهات الخير العام – سواء أكانت حكومية أم شعبية – أن تمد يدها الرحيمة المصلحة إلى مثل هذه المشكلة ، أو تلك المأساة ، لتعاون بالمساعدة المادية المنتظمة ، أو بتهيئة فرص العمل الملائمة لأفراد هذه الأسرة التي فقدت رجلها ، والقرآن الكريم يقول : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب » . ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام: « الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه ».

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

حدود الخطبة

السؤال : **جرت العادة على أن الخطيب عندما يقدم « الشبكة » لمخطوبته يسلم عليها ، ويلمس يدها ، فهل في هذا حرمة شرعية ؟. وهل يجوز أن يتحدث إليها خارج المنزل دون خلوة ، ومع وجود محرم لها ؟.**

الجواب :

إن السائلة الفاضلة تستحق التقدير والشكر باسم الدين ، لأنها تحرص على أن تعرف دينَ ربها وأحكام شريعته ، لكي تعمل بمقتضى ذلك .

وينبغي لنا أن نتذكر أن « الخطبة » ليست زواجاً ، وليست عقداً ، وهي لا تبيح بين الخطيبين ما تبيحه علاقة الزوجية الشرعية بين الرجل والمرأة ، ولذلك تعد المخطوبة أجنبية بالنسبة إلى خاطبها فيما يتصل بالعلاقة بينهما ، ولا تصبح المخطوبة مرتبطة به إلا إذا تم بينهما عقد الزواج ،لأن الخطبة – كما يعبر الفقهاء – مقدمة من مقدمات الزواج ، وليست داخلة في جوهره ، وقد نستدل على ذلك بأن كلا من الفتى والفتاة يستطيع أن يفسخ هذه الخطبة ، ولا يكون هذا الفسخ طلاقاً ، كما لا يترتب على هذا الفسخ ما يترتب على إنهاء الحياة الزوجية – بعد تحققها بالعقد – من حقوق أو تبعات .

وقد شرع الإسلام الخطبة لتتهيأ فيها الفرصة أمام الفتى كي يعرض طلب زواجه عرضاً مبدئياً بطريقة مألوفة سليمة ، يكون فيها استئناس واستطلاع ، وليكون هناك نوع من التعاون بين الطرفين ، حتى لا يفاجأ أحدهما بما لا يقبله من الآخر .

والإسلام قد أباح للخاطب أن ينظر إلى مخطوبته ، فجاء الحديث الشريف :

« إذا خطب أحدكم المرأة ، فإن استطاع أن ينظر منها إلى ما يدعوه إلى نكاحها (زواجها) فليفعل » . وروي أن رجلا من الصحابة خطب امرأة ، فقال له الرسول : « أنظرت إليها » ؟ . قال : لا . قال : « انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » أي أن هذا النظر يعاون على تعارفكما ، وبذلك يدوم الوفـاق بينكما .

ومن حق الفتاة أيضاً أن تنظر إلى خطيبها حتّى ترضاه ، ولذلك قال عمر رضي الله عنه : « لا تزوجوا بناتكم من الرجل الدميم ، فإنه يعجبهن منهم ما يعجبهم منهن » . ولكن ذلك لا ينبغي أن يخرج عن النطاق الكريم السليم ، فإن الخطبة مقدمة وليست زواجاً ، وهي لا تعطي أحداً من الطرفين حقاً من حقوق الزوجية .

وما دام الأمر كذلك فإنه يحرم على الخاطب شرعاً أن يختلي بمخطوبته خلوة شرعية ، لأنها ما زالت محرمة بالنسبة إليه ، إذ لم يعقد عقده عليها ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يخلون بامرأة ليس معها ذو محرم ، فإن ثالثهما الشيطان » .

ومن بلايا العصر الحديث التوسع في الاختلاط بين الخاطب ومخطوبته ، مما يؤدي إلى عواقب سيئة ، ومن المؤسف أن الفتاة هي التي تجني الثمرات المرة لهذه العواقب(١) .

هذا ، ولا تضيق سماحة الإسلام عن قبول تقديم الخاطب « الشبكة » إلى مخطوبته ، ومصافحته لها ، ما دام ذلك في إطار النية الخالصة في الزواج ، دون استغلاله لقصد غير كريم ، كما يجوز حديثه إليها مع وجود محرم لها ، على أن يقتصر ذلك على ما يحتاج إليه الإنسان الشريف الغاية في مثل هذا المقام .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

---

(١) انظر كتابي « يسألونك في الدين والحياة » — المجلد الأول ، ص ٢٠٤ طبعة سنة ١٩٧٠ .

رؤية المخطوبة

السؤال : **ذهب شاب إلى خطبة فتاة ، فقابلته بزي شرعي وملابس محتشمة ، فانصرف الشاب وقال إنه يريد أن يراها في ثياب قصيرة ليتأكد من جمالها ، فما رأي الدين ؟ وما الحكم على موقف الفتاة وموقف الشاب ؟.**

الجواب :

أحيي أولا هذه الفتاة التي أرجو أن تكون قد حرصت على زيها الشرعي بطهارة وإخلاص، صيانة لحشمتها وطاعة لربها لا على سبيل التمثيل والمخادعة، فإن الفتيات اللواتي يخلصن لربهم في صيانة عرضهن وكرامتهن ، ويحرصن على التحشم في ثيابهن ومظهرهن ، قد أصبح عددهن قليلا ، والحق لن ينقلب باطلا مهما قل متبعوه ، والباطل لن ينقلب حقاً مهما كثر مشايعوه .

وأعتب بصرامة على هذا الشاب الذي غضب لأن الفتاة أبت أن تكشف ما حرم الله كشفه من جسمها وعورتها ، وكان ينبغي له أن يقدر من الفتاة هذا التصون وهذا التحشم في زمن شاع فيه التبرج بصورة مؤسفة .

إن الله تبارك وتعالى يقول في محكم تنزيله في سورة الأحزاب : « يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ، وكان الله غفوراً رحيماً » .

وقال سبحانه في سورة النور : « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخُمُرهن على جيوبهن » .

وقال عز شأنه في سورة الأحزاب : « ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » .

ولقد أباح الدين للخاطب أن ينظر إلى مخطوبته ، ولو دون أن يشعر بذلك ، وله أن يراها أو يلقاها أكثر من مرة مع وجود محرم من محارمها ، ودون خلوة معها ، ما دامت نيته صادقة في إرادة الزواج .

ولكن يجب أن نتذكر ،ما حدده الدين من عورة للمرأة يجب أن تصان وتستر ، وعورة المرأة الحرة ، كما يقول الفقهاء ، جميع بدنها ، باستثناء الوجه والكفين والقدمين ، وهذا على أوسع المذاهب الفقهية .

وبعض العلماء يتوسع أكثر فيذهب إلى أنه يجوز للمرأة أن تكشف نصف ذراعها ، ويستند في ذلك بأن ابن حرير الطبري حينما تعرض لتفسير قوله تعالى : « ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها » ذكر أن قتادة قال : « بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تخرج يدها إلا إلى هاهنا ؛ وقبض نصف الذراع » .

ونقل ابن جرير عن ابن جُريج أن عائشة رضي الله عنها قالت : « دخلت عليّ ابنة أخي لأمي عبدالله بن الطفل مُزيّنة ، فدخل النبي صلى الله عليه وسلم فأعرض ، فقالت عائشة : يا رسول الله ، إنها ابنة أخي وجارية (أي شابة) . فقال : إذا عَرّكت المرأة (أي بلغت وحاضت) لم يحل لها أن تظهر إلا وجهها ، وإلاّ ما دون هذا ؛ وقبض على ذراع نفسه ، فترك بين قبضته وبين الكتف مثل قبضة أخرى » .

ثم ذكر ابن جرير أن الفقهاء قرروا أن للمرأة أن تكشف وجهها وكفيها في صلاتها ، وأن عليها أن تستر ما عدا ذلك من بدنها ، إلا ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أباح لها أن تبديه من ذراعها إلى قدر النصف .

ولكن المجتمع المعاصر لم يكتف بهذا ، مع التوسع فيه ، ومع معارضة كثير من الفقهاء ، بل اتسع المجتمع اتساعاً جارحاً في إطلاق مجال الاختلاط بين الرجل والمرأة ، وشهد المجتمع المعاصر ألواناصارخة من التبرج لا يقرها عاقل.

وكان على هذا الشاب الخاطب أن يكتفي بما أباحه له الدين ، وأن يستدل به على ما يتطلع إليه من معرفة عامة بالفتاة ، وإن أراد أن يعرف عـــن خطيبته معلومات أخرى لازمة ، فقد تستطيع أن تدله عليها أمه أو أخته . وكم مـــن خطوبة فشلت بسبب أن الخاطبين شاهدوا تبرجاً واسعاً من المخطوبات ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

نقل الدم وحرمة الرضاع

السؤال : **هل يترتب على نقل الدم من المرأة إلى الرجل – أو العكس – ما يترتب على الرضاع من الحرمة الشرعية ؟.**

الجواب :

يحسن بنا قبل التعرف إلى وجه الحكم في هذا السؤال ، أن نتعرف أولا إلى حكم الرضاع في الإسلام ، فالله تبارك وتعالى يقول في آية المحرمات مـــن سورة النساء : « وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة » . وجاء في الحديث الصحيح قول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « يحرم مـــن الرضاع ما يحرم من النسب » .

فإذا اشترك ذكر وأنثى في رضاع ثدي من أمرأة ، وكلٌ منهما قد رضع من هذا الثدي في وقت الرضاع ، وقدره على المعتمد سنتان ، لقول الله جل جلاله : « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة » ، فإن هذين الراضعين يصبحان أخوين من الرضاع ، ويحرم بينهما ما يحرم بين الأخ وأخته من النسب .

واختلفوا في عدد الرضعات المحرمة ، من رضعة إلى عشر رضعات ، والمُفْتَىَ بــه الآن هو خمس رضعات مشبعات متفرقات متيقنات في زمن الرضاع . وقد علل العلماء حرمة الرضاع بأن الرضاع المتكرر في زمن الرضاع يوجد علاقة كعلاقة النسب والقرابة ، لأنه ينبت العظم واللحم. وقال المفسرون إذا أرضعت المرأة طفلا حرمتْ عليه لأنها أمه ، وبنتُها لأنها أخته ، وأختُها لأنها خالته ، وأمُّها لأنها جدته ، وهكذا ...

ومن هذا نرى أنه لا بد من أن يكون الرضاع في وقت الطفولة الذي يؤثر في إنبات اللحم والعظم ، ولذلك يقول الحديث الشريف : « لا يحرم مــن الرضاعة إلا ما فتق الأمعاء في الثدي ، وكان قبل الفطام » . وقوله : « في الثدي» أي في زمن الرضاع من الثدي ، أي في سن الرضاعة ، وجاء في حديث آخر : « لا يحرم من الرضاع إلا ما أنبتَ اللحم وأنشر العظم ، أي مد العظام وبسطها ، أي جعلها تنمو .

ولا بد أن يكون الرضاع متكرراً عند جمهور الفقهاء ، بحيث يوجد تكرارُه علاقة بين المرضعة ومَنْ رضع من ثديها ؛ ومَنْ رضع من امرأة — كما يعبِّر بعض المفسرين — «كان بعضُ بدنه جزءًا منها ، لأنه تكوَّن من لبنها ، فصارت في هذا كأمه التي ولدته ، وصار أولادها إخوة له، لأن لتكوين أبدانهم أصلا واحداً هو ذلك اللبن » .

وكأن الإسلام أراد التكريم لحالة الإرضاع المتكررة ، فحاطها بهذه الحرمة، تقديراً لشعور المرأة التي أرضعت الطفل ، وحملته على صدرها ، وأعطته بعض جسمها ، وتوقيراً من الطفل — إذا كبر — لمقام من أرضعته وبذلت له من ذات حسها وجسمها .

وفي حالة نقل الدم المسئول عنها هنا لا يُوجَدُ كل هذه الاعتبارات فكل من الرجل والمرأة في السؤال كبيران ، ونقل الدم لا ينبت عظماً ولا لحماً ، والعادة أن هذا النقل لا يتكرر ، وأنه يحدث في حالة الإسعاف عند الإصابة ،

وقد يكون بين المنقول إليه الدم والمنقول منه الدم بعد مكاني واسع ، ولذلك لا يجد الناظر في روح الدين نصاً يوجب التحريم في حالة نقل الدم المسئول عنها هنا ، والله جل جلاله هو القائل : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر».

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

لا تظلموا الغانيات ... !

السؤال : **يطلق كثير من الناس كلمة « غانية » على المرأة اللعوب المتحللة ، فهل هذا الإطلاق صحيح ؟.**

الجواب :

اعتاد بعض الكاتبين — وخاصة كتاب القصة — أن يطلقوا كلمة «الغانية» على المرأة اللاهية اللعوب ، التي تفتن في سحرها وسهرها ، وتبرع في اجتذابها وألاعيبها ، وهذا استعمال لغوي خاطيء ، وظلم لكلمة « الغانية » التي عرفتها اللغة العربية دالةً على معنى كريم ومدلول قويم . وحسبنا أن نسوق لذلك طائفةً من النصوص اللغوية في اختصار وإيجاز ، لندلل على الظلم الذي نال كلمة «غانية» ، فنقلها من مقامها المقبول ، إلى مدلولها الخاطيء المرذول .

جاء في القاموس المحيط : « والغانية المرأة التي تُطلَب ولا تَطلُب ، أو الغنية بحسنها عن الزينة ، أو التي غنيت ببيت أبويها ، ولم يقع عليها سباء ، أو الشابة العفيفة ، ذات زوج أم لا ، والجمع غوان » .

وفي مفردات القرآن للأصفهاني : « والغانية المستغنية بزوجها عن الزينة ، وقيل المستغنية بحسنها عن التزين » .

وكلمة « الغانية » مشتقة من مادة « غنى » وهي مادة تدل في استعمالاتهـا

اللغوية المختلفة على الاستغناء والاكتفاء وعدم الاحتياج ، ولذلك جاء في «أساس البلاغة» للزمخشري : «لي عن هذا غُنية ، وأنا عنه غني» .

قال :

كلانا غني عن أخيه حياتَــه ونحن إذا متنا أشد تغانيــا

وأغنى فلان في الحرب غناءً حسناً ، وأغنى عني فلان غناءً ، أي كفى في الدفع ، وتقول : «لأغنين عنك مغناه ، ولأكفينك ما كفاه» . وفي كتاب «تهذيب الأسماء واللغات» للنووي: «قال أهل اللغة : الغني - مقصور مكسور الأول : هو اليسار ، يقال منه : غَنِيَ الرجل فهو غني ، وتغنى الرجل واستغنى بمعنى واحد ، وأغناه الله تعالى ، وتغانوا : أي استغنى بعضهم عن بعض .. وغنيت المرأة بزوجها غنياناً أي استغنت .. قال الشاعر :

كُتب القتلُ والقتال علينــا وعلى الغانيات جرُّ الذيول

أراد بالغانيات النساء ، واختلف أهل اللغة في الغانية ، فقيل هي الزوجة ، لأنها غنيت بزوجها عن غيره ، وأنشد ابن الأعرابي ثم الجوهري في صحاحه على هذا قولَ جميل صاحب بثينة :

أحِبُّ الأيامى إذ بثينة أيِّمٌ وأحببت لما أن غنيت الغوانيا

أراد بالأيامى اللاتي لا أزواج لهن ، وبالغواني المزوجات.. وقيل: الغانية الشابة الجميلة الناعمة، وقيل: هي البارعة في الجمال التي أغناها جمالُها عن الزينة» .

وفي كتاب النهاية لابن الأثير : « في أسماء الله تعالى الغني ، وهو الذي لا يحتاج إلى أحد في شيء ، وكل أحد يحتاج إليه ، وهذا هو الغنَى المطلق ، ولا يشارك الله فيه غيره .. ومن أسمائه المغني ،وهو الذي يغني من يشاء من عباده» .

وقد تكورت مادة «غنى» في القرآن المجيد عشرات المرات بصور مختلفة.

ولكنها دلت في هذه الصور أيضاً على الاستغناء والاستكفاء . يقول التنزيل في سورة الأعراف : « قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون » . وفي سورة الحجر : « فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون » . وفي سورة الحاقة : « ما أغنى عني ماليه ، هلك عني سلطانيه » . وفي سورة النجم : « وأنه هو أغنى وأقنى » . وفي سورة الضحى : « ووجدك عائلا فأغنى » . وفي سورة النساء : « وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته » . وفي سورة التوبة : « وإن خفتم عَيْلة فسوف يغنيكم الله من فضله » . وفي سورة النمل : « ومن كفر فان ربي غني كريم » .

من هذه النصوص وأمثالها نفهم أن كلمة « الغانية » في لغة العرب لا تفيد معنى اللهو والتحلل . والانغمار في اللذات واصطناع أسباب الهوى ، كما يظن البعض ويستعمل . ولكنها تفيد معنى الاستغناء والاكتفاء ، وهي في أغلب استعمالاتها تفيد الاستغناء عن الحرام المرذول ، وتكتفي بالحلال الجميل .

فيا أيها الكتاب ... سموا المرأة اللاهية ما شئتم من أسمائها فهي كثيرة شهيرة. ولكن لا تسموها « غانية » ، فانها قد استغنت حين تبذلت عن الاستغناء .واجعلوا كلمة « الغانية » لصاحبتها تلك التي غنيت وعزت على باطل الأهواء .. وقد يتعلل متعلل بتأويل بعيد أو قريب . ولكنها ليست طريقة الحكماء ! !..

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الزواج السري والعرفي

السؤال : **ما رأيكم في الزواج السري والزواج العرفي ؟.**

الجواب :

الذي أفهمه انتزاعاً من واقع الحال أن الزواج السري والزواج العرفي بينهما

عموم وخصوص مطلق ، فكل زواج عرفي يكون سرياً ، وربما لا يكون الزواج السري عرفياً في بعض الأحيان ، والسبب في هذا أن الزواج السري والزواج العرفي حسبما نسمع ونشاهد تحيط بهما رغبة الكتمان وعدم الظهور ، وكل ما بينهما من فرق في سرية هذا وسرية ذاك أن الزواج العرفي حسبما نسمع تكتب به ورقة عرفية تُطوى وتُكتم ، وتُنكر عند اللزوم ، وفي أغلب الأحيان فالسرية موجودة تقريباً في الصنفين .

وعقد الزواج عقد ديني له مكانته وجلالته ، ولذلك حاطته الشريعة بشروط وقيود أكثر من أي عقد آخر ، لأن استحلال الفروج المحرمة أعظم أمر في نظر الإسلام ، فالمرأة الأجنبية تصبح بالزواج حلالا لزوجها الذي كان أجنبياً عنها قبل العقد ، يعاشرها ويضاجعها ، وتصبح مقصورة عليه ، ويترتب على هذا العقد ارتباط وذرية ونفقة وميراث وحقوق أخرى ، ولذلك حاط الإسلام هذا العقد بقيود وضوابط أكثر من أي عقد آخر . ومن الضوابط والقيود التي وضعها الدين لهذا العقد اشتراط الظهور عند العقد ، ويروى في ذلك أكثر من حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهناك حديث يقول : « لا لا نكاح إلا بشاهدين » ، وحديث ثان يقول : « لا نكاح إلا بشهود » ، وحديث ثالث يقول : « لا نكاح إلا بولي وشاهديْ عدل » ، وحديث رابع يقول : « كل نكاح لم يحضره أربعة فهو سفاح : خاطب وولي وشاهدان » .

ويقصد من وجود الشهود على الزواج معنيان ، معنى الإشهار والإعلان ، ومعنى التوثيق والإثبات في المستقبل عند اللزوم . فالشهادة لا يراد منها الإعلان فقط ، وإنما يراد منها الإعلان مضافاً إليه إمكان إثبات هذا العقد عند محاولة إنكاره ، ولعل هذا هو السبب في ذهاب جمهرة من الفقهاء إلى اشتراط العدالة في الشاهدين ، حتى لا يكونا فاسقين أو مجرَّحين بسبب من الأسباب ، فيميلا إلى الإنكار بمؤثر من المؤثرات .

والعقود تنقسم إلى نوعين : عقود يسمونها عقوداً رضائية ، وعقود يسمونها

عقوداً شكلية ، وكلمة « شكلية » قد توحي بمعنى غير المقصود من هذا التعبير القانوني .

العقود الرضائية هي ما يكتفى فيها بتحقيق الرضا بين الطرفين عن طريق اقتران الإيجاب بالقبول ، أما العقود الشكلية فيراد بها في الحقيقة والواقع العقود الرضائية الشكلية ، أعني المستوفاة لشروطها في المخبر والمظهر ، وفي المعنى والمبنى ، فعقد الزواج عندما تقول عنه إنه عقد شكلي ليس معناه أنه أقل درجة من العقد الرضائي ، بل هو عقد رضائي يضاف إلى رضائيته تمام الصورة الظاهرية الشكلية ، حتى لا يتعلل شخص بأن هذا لم يظهر أو لم يبن ، فاشترط الدين ظهورَ عقد الزواج في صورة واضحة للعيان ، يشهد عليها الشهود وهو المراد من قولهم إنه عقد شكلي ، أي لا بد من استيفاء أركانه الباطنية والظاهرية إذا صح هذا التعبير .

ثم إنهم ينسبون إلى مذهب الإمام مالك أنه لا يشترط وجود الشهود عند العقد ، ويفهم بعض الناس هذا فهماً خاطئاً ، فيجوّزون به عدمَ إعلان العقد ويصلون به إلى حل الزواج السري أو العرفي الشائع في العصر الحاضر . ولكن يجب علينا أن نتذكر أنه إذا كان مذهب الإمام مالك لا يشترط الإشهاد عند عقد الزواج فمعناه حسب تعبير الفقهاء أنه ليس شرطاً لإنشاء عقد الزواج ابتداءً ، وإن كان يُشترط فيه انتهاءً عند الدخول ، لأن مذهب المالكية يشترط الإعلان للزواج عند الدخول ، فكأنه لا يشترط الإشهاد لمجرد إنشاء العقد ، ولكنه يشترط إعلان هذا العقد عند الدخول ، فكأن العقد سينتهي في مذهب الامام مالك أيضاً إلى الإشهار وإلى الإعلان .

وفيما يتعلق بهذا الإعلان نجد قول الرسول صلى الله عليه وسلم: « أعلنوا النكاحَ ولو بالدف » . وفي رواية أخرى : « أعلنوا النكاح واضربوا عليه بالدفوف » . ويخيل إليّ من الرواية الأولى أن أقل درجات الإعلان من ناحية إبداء الفرح هو الضرب بالدف ، وضربات الدف يسمعها الجيران ومن حولهم، وهذا إعلان كاف في المقام .

يضاف إلى هذا أن من سنن العقد في الإسلام أن تُلْقَى فيه خطبة تسمى خطبة النكاح أو خطبة الزواج ، وهي خطبة مألوفة عند العرب من أقدم العصور ، ونحن نذكر أن أبا طالب خطب في زواج الرسول صلى الله عليه وسلم ، والرسول صلى الله عليه وسلم خطب في عقد زواج فاطمة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما . وجرى عرف المسلمين على إلقاء خطبة الزواج عند كل عقد ،والخطبة إنما تلقى من قائل على سامعين ، فكأن من تعاليم الإسلام ومن طبيعته أن يكون هناك إعلان للزواج ، يضاف إلى هذا ما ذُكر من إقامة الوليمة ، والوليمة إنما تقام لآكلين ، وهؤلاء الآكلون سيكونون شهوداً على الزواج .

وأما ما نُسب إلى الإمام الحسن بن علي من أنه تزوج بغير شهود ، فأنا أذكر أن الفقهاء والمعاصرين منهم ذكروا أن هذا من الأقوال الشاذة .

وإذا كان الحسن بن علي (رضي الله عنهما) لم يشهد على الزواج فإنه أعلنه بعد ذلك عند الدخول ، فكأنه يلتقي مع القول المنسوب إلى الإمام مالك ، وكأن الإعلان قد وُجد فعلا عند مباشرة حقوق الزواج الفعلية ، فلا يكون هناك سر أو عرف ، هذا على فرض صحة الواقعة المنسوبة إلى الإمام الحسن بن علي رضي الله عنهما .

وينبغي أن نتذكر أن الهدف الأساسي من الزواج هو ما تعبر عنه الآية الكريمة : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

وفي حالة الزواج السري أو العرفي لا يتصور العاقل وجود مودة ، أو وجود سكينة ، أو وجود اطمئنان ، لأن كلا من الزوجين يبدو كالمتلصص السارق الذي يختلس خطواته إلى مباشرة الحقوق الزوجية ، ويخطفها خطفاً بعيداً عن الأعين. وهذا يُوجِد كثيراً من الريب والشبهات ، وخصوصاً وأن ثقل هذه الريبة لن يقع على الزوجين وحدهما ، فقد يستطيعان التكتم ، ولكنه سيقع على كواهل الذرية البريئة المسكينة التي تخرج إلى الحياة ، ثم تشهد هذا المنظرَ

الشاذ المنحرف ، ومصير الزواج العرفي أن يصبح جهراً في يوم من الأيام ، فمتى عرفه الناس ثارت حوله الشبهات والظنون والأقاويل .

ولننظر إلى الفقرة الرابعة من المادة التاسعة والتسعين من قانون تنظيم المحاكم الشرعية التي ألغيت ، لأنها تبين لنا أن الذين وضعوا قوانين الأحوال الشخصية في المرات المتعددة قد لاحظوا ما جدّ في المجتمع مما يفسد على الأسرة كيانها واستقرارها ، واستيفاءها الأهداف التي يريدها الإسلام من تكوين الأسرة ، فكانوا كلما وجدوا انحرافاً قاوموه بما يحده على قدر الإمكان . تقول المادة بتمامها : « لا تسمع عند الإنكار دعوى الزوجية أو الطلاق أو الإقرار بهما بعد وفاة أحد الزوجين ، في الحوادث السابقة على سنة ١٩١١ أفرنكية ، سواء أكانت مقامة من أحد الزوجين أم من غيرهما ، إلا إذا كانت مؤيّدة بأوراق خالية من شبهة التزوير ، ومع ذلك يجوز سماع دعوى الزوجية ، أو الإقرار بها ، المقامة من أحد الزوجين في الحوادث السابقة على سنة ١٨٩٧ م فقط بشهادة الشهود ، وبشرط أن تكون الزوجية معروفة بالشهرة العامة . ولا يجوز سماع دعوى ما ذكر كله من أحد الزوجين أو غيره في الحوادث الواقعة من سنة ١٩١١ إلا إذا كانت ثابتة بأوراق رسمية أو مكتوبة كلها بخط المتوفي وعليها امضاؤه كذلك » . فلما ازداد الفساد اضطروا إلى وضع الفقرة الرابعة وهي : « ولا تسمع عند الإنكار دعوى الزوجية أو الإقرار بها إلا إذا كانت ثابتة بوثيقة زواج رسمية في الحوادث الواقعة من أول أغسطس سنة ١٩٣١ م » .

والمذكرة التفسيرية لهذه المادة قد تعطينا دليلا آخر على أن المشرع استهدف المبادىء العامة التي يريد ترسيخها في نفوس الناس فيما يتعلق بهذه الناحية (وهي ناحية الزواج السري والعرفي) . تقول المذكرة : « من القواعد الشرعية أن القضاء يتخصص بالزمان والمكان والحوادث والأشخاص ، وأن لولي الأمر أن يمنع قضائه عن سماع بعض الدعاوى ، وأن يقيد السماع بما يراه من القيود ، تبعاً لأحوال الزمان وحاجة الناس ، وصيانة للحقوق من العبث والضياع . وقد

درج الفقهاء من سالف العصور على ذلك . وأقروا هذا المبدأ في أحكام كثيرة، واشتملت لائحتا سنة ١٨٩٧ و ١٩١٠ للمحاكم الشرعية على كثير من مواد التخصيص وخاصة فيما يتعلق بدعاوى الزوجية والطلاق والإقرار بهما ، وألف الناس هذه القيود واطمأنوا إليها بعد ما تبين ما لها من عظيم الأثر في صيانة حقوق الأسر .

إلا أن الحوادث قد دلت على أن عقد الزواج وهو أساس رابطة الأسرة لا يزال في حاجة إلى الصيانة والاحتياط في أمره . فقد يتفق اثنان على الزواج بدون وثيقة ، ثم يجحده أحدهما . ويعجز الآخر عن إثباته أمام القضاء ، وقد يدعي الزوجية بعض ذوي الأغراض زوراً وبهتاناً ، أو نكاية وتشهيراً ، أو ابتغاء غرض آخر اعتماداً على سهولة إثباتها ، خاصة وأن الفقه يجيز الشهادة بالتسامع في الزواج ، وقد تدعي الزوجية بورقة عرفية إن ثبتت صحتها مرة فلا تثبت مراراً . وما كان لشيء من ذلك أن يقع لو أثبت هذا العقد دائماً بوثيقة رسمية كما في عقود الرهن وحجج الأوقاف ، وهي أقل منه شأناً ، وهو أعظم منها خطراً . فحملا للناس على ذلك ، وإظهاراً لشرف هذا العقد ، وتقديساً له عن الجحود والإنكار ، ومنعاً لهذه المفاسد العديدة ، واحتراماً لروابط الأسرة ، زيدت الفقرة الرابعة في المادة (٩٩) التي نصها : « ولا تسمع عند الإنكار دعوى الزوجية أو الإقرار بها إلا إذا كانت ثابتة بوثيقة زواج رسمية في الحوادث الواقعة من أول أغسطس سنة ١٩٣١ » .

ومن هذا يتضح لنا أيضاً أن القوانين نفسها تميل إلى أن الزواج السري والزواج العرفي ليس من طبيعة المجتمع الإسلامي ، بل هو من طبيعة المتلصصين المتهربين من تبعات الزواج ، ويجب علينا في هذا المقام إذا أنذرنا الرجل أو حذرناه من هذا الزواج مرة أن نحذر النساء منه مئات المرات ، لأن عواقبه السود تنصب غالباً على عواتق النساء ، فالرجل من السهل عليه أن ينكر الزوجية بينما تكون

الزوجة قد صارت ثيباً ، وقد أنجبت بذرية ، وليس هناك من ينفق عليها فيجب أن تحذر . والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

مكانة المرأة في المجتمع

السؤال : **اتسعت المرأة في حريتها وانطلاقها ، فما هي المبادىء الإسلامية التي رسمها الدين الحنيف لتحديد وضع المرأة المسلمة في المجتمع ؟.**

الجواب :

المرأة المسلمة في المجتمع المعاصر تضيع بين دعاة الإفراط ودعاة التفريط : فهناك قوم يحجرون على المرأة حجراً كلياً ، ويمنعونها أن تكشف وجهها أو ترفع صوتها ، أو تخرج من بيتها ، لأن كل شيء فيها ومنها هو عندهم عورة ، يجب أن تقاوَم وأن تُستر ، وهؤلاء هم دعاة الإفراط في الحجاب ، وهناك بجوارهم دعاة التفريط ، يدعون المرأة إلى الخروج بلا قيد ولا شرط ، متبرجة سافرة ، متقلدة ما شاءت من أعمال .. وأعتقد أن المرأة المسلمة في هذا المجتمع تحتاج إلى موقف آخر وسط بين دعاة الإفراط ودعاة التفريط ، لكي تثبت شخصيتها ، وتأخذ حقها وحريتها ، وفي الوقت نفسه تصون فضيلتها وعفتها ، ولا تخرج عن هدى ربها وسنة نبيها . وهذا الوضع يحتاج أولا وقبل كل شيء إلى أن تكون المرأة في المجتمع إنسانة قبل أن تكون أنثى .

أقول : إن موقف المرأة يعتدل عندما تعتبر نفسها في هذا المجتمع إنسانة لا أنثى ، لأن المشاهَد في أكثر النساء في المجتمعات المعاصرة المتحررة المتحللة ، أن المرأة تعتمد على أنوثتها أكثر من اعتمادها على أي شيء آخر في شخصيتها .

ولذلك تحاول ، كلما خرجت أو اختلطت أو بدت ، أن تجلي هذه الناحية الأنثوية بمختلف الوسائل ، سواء أكان ذلك ثوباً أم زينة ، أم حركة أم مشية ، أم إثارة لأي عاطفة تتصل بهذه الناحية .. ولو أن المرأة في المجتمع المعاصر أشعرت بقية أعضاء المجتمع بأنها إنسانة ، وأن أنوثتها لا تبدو ولا تظهر إلا في مجالها الطبيعي الشرعي ، الذي يتهيأ لها فيه إبداء هذه الأنوثة ، لأرغمت ما في المجتمع على احترامها . وفي المجتمع بطبيعة الحال قلة من النساء كسبن احترام الرجال قبل احترام النساء ، بشخصياتهن التي تجلت فيها الناحية الإنسانية أو العلمية أو الخلقية ، أكثر مما تجلت فيها ناحية الأنوثة .

إن الاسلام عندما جاء ليعالج قضية المرأة من ناحية أنوثتها ، ومن ناحية اختلاطها وعلاقتها بالرجل ، وخروجها إلى العمل ، وضع عدة قواعد تحقق هذا الوضع الكريم ، الذي يجعل الرجل مع المرأة أخوين أو شقيقين يتعاونان على الحياة ، دون أن يتبسب أحدهما في متاعب للآخر . فقد أمر الإسلام بغض البصر من الرجل والمرأة : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم » . « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن » . ثم أمر بعد غض البصر بحفظ الفروج : « ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم » ، « ويحفظن فروجهن » . كما أمر بعد هذا بعدم دخول البيوت دون استئذان ، ونهى عن التعرض للخلوة المنفردة بين رجل وامرأة أجنبية ، وهي الاجتماع الذي يتهيأ للرجل والمرأة فيه خلوة يستطيعان فيها أن يرضيا نزعتهما الجنسية ، دون أن يتابع حركتهما أو موقفهما من يراقبهما ، وهو ما يسمى عند الفقهاء بالخلوة الشرعية ، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يخلون رجل بامرأة » ، وفي الحديث الثاني : « لا يخلون رجل وامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما » .

بعد هذا وضع الإسلام قاعدة اصطحاب المحرم مع المرأة في المواطن التي تتعرض فيها المرأة للفتنة أو الشبهة أو الابتلاء ، كالسفر ، ورؤية الخطيب لها عند خطبتها ، وعند ذهابها مثلا إلى الطبيب ، والمتفق مع هدى الإسلام أنه لا يباح للطبيب على طول الخط أن يكشف على المرأة منفرداً ، أو أن يكشف

عن سائر أعضائها لغير ضرورة ، بل لا بد أن يكون معها محرم من محارمها ، أو جمع من نسوة يؤمن بحضورهن .

بعد هذا منع الإسلام إبداء الزينة من المرأة ، وهو ما أشرنا إليه من أن المرأة تعتمد عليه اظهاراً لجانب أنها أنثى قبل أن تكون انسانة : « ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن » إلى آخر ما استثنى القرآن من رجال يعدون محارم للمرأة ، فلا بأس اذا أبدت زينتها لهؤلاء . وبعد هذا وضع الإسلام قواعد شكلية ، تثبت هذه القواعد الأصلية ، من غض البصر ، وحفظ الفروج ، وعدم إبداء الزينة ، وعدم الخلوة ، ففيما يتعلق بالمظهر أمر الإسلام المرأة بأن تضرب على جيبها وهو شق ثوبها الأعلى في صدرها : « وليضربن بخمرهن على جيوبهن » . وأمر أيضاً بإرخاء الجلابيب : « يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنينَ عليهن من جلابيبهن » . ويخيل إليّ والله أعلم أن الإشارة إلى إرخاء الخُمُر على الجيوب رمز إلى ستر النصف الأعلى من المرأة ، والجزء الذي يتعرض في هذا النصف للظهور عادة هو صدرها ، بحكم أنه الجزء البارز منها ، فأمر القرآن نص على أن يستّر هذا الجيب بالخمار ، ويتبعه ما يكون أشد إثارة أو فتنة من جسمها ، وإرخاء الجلابيب يشير إلى ستّر النصف الأدنى من جسمها ، فكأن المرأة مأمورة بالقرآن أن تكون ثيابها ساترة لما علا من جسمها ولما سفل منه .

بعد هذا نجد جمهور الفقهاء يكادون يجمعون على أن المرأة يجوز لها أن تكشف وجهها ويديها ، وهناك خلاف مع بعض الفقهاء في القدمين أو باطن القدمين . وكذلك قالوا إن للمرأة أن تخرج من بيتها إذا دعت الحاجة إلى خروجها ، سواء أكانت هذه الحاجة معاشية أم صحية أم قضائية أم غير ذلك من الشئون ، وان لها أن تزاول من العمل ما تحتاج إليه ، وتضطر إلى احترافه ، بشرط ألا يكون هذا العمل منافياً لصيانة عفتها وفضيلتها وكرامتها . فليس في الإسلام حَجْر على أن تعمل المرأة ، أو تحترف وظيفة تناسبها ، بشرط ألا يؤدي ذلك إلى اختلال الفضائل التي أمر بها الإسلام ، لكي يضمن حسن العلاقة واستتباب العفة بين الرجال والنساء ، كما أشرنا إلى ذلك .

ونص الفقهاء – استمداداً من هدى الكتاب والسنة – على أن المرأة يباح لها أن تذهب إلى المسجد ، وأن تحضر صلاة الجماعة ، وأن تحضر صلاة الأعياد ، ويجوز لها أن تبدي رأيها فيما يعن لها ، وحادثة عمر ، رضي الله عنه مع المرأة التي عارضته في المهور أظهر من أن نذكرها . كذلك أباح لها الإسلام أن تتعلم كما يتعلم الرجال ما تقتضيه طبيعتها ورسالتها في الحياة . والتعلم هنا يستلزم بطبيعة الحال أن تخرج المرأة إلى معهد نسائي أو مدرسة نسائية . ولكن ليس معنى هذا أن نبيح للمرأة الحرية المطلقة ، وأن نبيح لها أن تحترف من الأعمال ما تحتاج إليه ، دون أن يكون معها الوقاية التي تعصمها من الزلل والخلل إذا ما خرجت من بيتها ، فلا يصح أن نأذن باسم الإسلام في الخروج لامرأة لم تنشأ نشأة دينية ، ولم يكن عندها وقاية أو حصانة لنفسها .

ويتعلل بعض المعاصرين بقصة سلمة بن قيس عندما ذهب ليتغدى مع عمر بن الخطاب ، فنادى عمر على زوجته أم كلثوم ، وهي بنت علي بن أبي طالب ، وقال لها : لم لا تأكلين معنا ؟. فقالت : لو كنتَ كسوتني كما كسا الزبير وفلان وفلان نساءهم لخرجت ولقيت الرجال... هذه القصة لا يصح للمعاصرين المعروفين بنزعاتهم التحللية أن يتخذوها شاهداً على ما يريدون ، وإذا صحت فإن الأشخاص فيها بمنأى عن الشبهة والريبة ، فهم قوم قد تربوا رجالا ونساء في مدرسة محمد عليه الصلاة والسلام خير تربية ، فلا يصح أن نقيس بهؤلاء الأعلام آخرين لم ينالوا تربية أو ثقافة أو حصانة دينية .

ولكي أؤيد هذا المعنى أذكر قصة الزبير بن العوام مع زوجته عاتكة بنت زيد ابن عمرو بن قيس ، وكانت امرأة جميلة ، وكان الزبير يغار عليها ، وكانت تحرص على أن تصلي في مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام ، فأراد الزبير بحكم الغيرة أن يمنعها من الصلاة ، فقالت له : كيف تمنعني وقد قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « لا تمنعوا إماء الله بيوتَ الله » ؟. فاضطر أن يأذن لها في الخروج إلى الصلاة ، لكنه ترصد ذات صباح وهي سائرة في الطريق ، فلما مرت أمامه وقد اختبأ ، جاء فلمس جزءاً من ظهرها بيده ،

فما كان منها إلا أن استغفرت واستعاذت واسترجعت ، ثم عادت من الطريق إلى البيت ، ولم تذهب إلى المسجد ، وانتظر الزبير يوماً ويومين فوجدها لا تخرج ، فقال لها : لم لا تخرجين إلى الصلاة في المسجد كما كنت تخرجين يا عاتكة ؟. فقالت له : لقد فسد الناس .. فهي إذن تعرف المقياس والمعيار الذي تقيس به المرأة وضعها ، فإذا وجدت أن المجتمع الذي حولها سيصون كرامتها وعفتها ، فإنها تستطيع أن تخرج لتزاول ما تحتاج إليه من عمل ، ولتؤدي ما تريد أداءه من شعائر . أما اليوم فإن المجتمع ينظر إليها نظرة الذئب إلى الشاة ، فمن الواجب عليها أن تحتاط أكثر من اللازم ، وأن تتقي الشبهات ، وأن تتباعد عن مكان الحمى الذي يوشك من قاربه أن يقع فيه ، كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام .

بعد هذا أعتقد أننا في زمننا قد وصلنا الى عصر يصدق عليه قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « إنه سيكون هناك نساء عاريات كاسيات ، مائلات ، مميلات » إلى آخر الحديث ، فنحن لا نريد أن نبخس المرأة حقها كامرأة ، ولا أن نمنعها حقاً من حقوقها ، بل نريد أن تمارس كل حقوقها ، وأن تتمتع بكامل شخصيتها ، ولكن بعد أن تكسب ويكسب الرجل معها مستوى خلقياً ودينياً ، وسمواً اجتماعياً ، يجعل كلا منهما ينظر إلى الآخر نظر الشقيق إلى الشقيق ، كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « النساء شقائق الرجال » .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

التلقيح الصناعي والدين

السؤال : زعموا أن عالماً إيطالياً حاول إيجاد جنين عن طريق المخبار في المعمل ، مستخدماً مادة تناسلية حية . ولم يفلح بعد خطوات من محاولته ، فما رأي الدين في ذلك ؟.

وما الرأي في التلقيح الصناعي في النبات والحيوان والإنسان ؟.

الجواب :

إن خبر هذا العالم الإيطالي يغلب عليه الصحة في أصل محاولته ، مع أنه خبر يحتمل الصدق والكذب ، وقد يكون لعنصر الدعاية دخل كبير في تزويق الخبر وإن كان له أصل ، فان الطموح أو الجموح الموجود لدى العلماء الماديين يجعلهم دائماً يحاولون استكشاف بعض الظواهر الطبيعية المجهولة للانسان .. والمحاولة الأخيرة ، وهي محاولة تكوين جنين عن طريق التقاء المادة المنوية من الرجل والمادة المنوية من الأنثى ، ليست قريبة العهد ، بل هي موجودة من عهد بعيد ، ولقد تعثرت هذه التجارب ، وبعضها نجح نجاحاً جزئياً فيما يظهر .

والواجب علينا في مجال البحث لهذا الموضوع هو أن تظهر الفروق الجوهرية الأساسية بين محاولة الإنسان وبين إبداع الخالق سبحانه وتعالى . وهنا نلحظ عدة أمور :

الأمر الأول : هذا العالم – اذا صح ما نُشر عنه – لم يبتـدىء من أول الطريق ، وإنما استخدم أشياء فيها خواص وطاقات وإمكانيات وحياة ، وكل ما فعله أنه قلد وتابع ، مع الفرق الكبير بين عمل الإنسان وعمل الخالق سبحانه وتعالى .

الأمر الثاني : أنه لم يستطع أن يبلغ بعمله نهاية المطاف ، لقد بدأ مما بعـد البداية ، ولم يصل أيضاً إلى النهاية ، فسواء أكانت المدة أياماً أو أكثر من أيام ، فإن محاولته كما ذكرت الصحف المزوقة للخبر المبالغة فيه قد انتهى إلى الفشل .

الأمر الثالث : نتساءل عن الدافع الذي دفع هذا العالم إلى هذه التجربة ، أهو مجرد الطموح العلمي أو الجموح فيه ، أم هو دافع مادي إلحادي صرف يراد منه القضاء على عقيدة الألوهية ، وعقيدة الخلق الرباني ،وعقيدة الإبداع الإلهي، حتى يفقد الناس الثقة بهذه العقيدة . ومتى انتهى من الناس الإيمان بعقيدة الخلق الإلهي والإبداع الرباني انهارت التعاليم الدينية من وراء ذلك ؟.

والذي يغلب على ظني أن المقصد الأخير هو الذي يدفع كثيراً من هؤلاء العلماء إلى هذه التجارب ، بدليل أن هذه التجارب في أغلبها إنما تم في بيئات إلحادية أو غير متمسكة بعقائد دينية . والرجل المتدين – سواء كان مسلماً أو غير مسلم ، ما دام يؤمن بعقيدة الإله وبالخلق الإلهي – يتورع عن مثل هذا ، حتى لو وجد أو آنس من نفسه قدرة على أن يمضي شوطاً أو أشواطاً في التجربة ، وهو يخشى أن يقدم على هذه التجربة لعلمه أن الخلق ليس من وظيفته وليس من اختصاصه ، وإنما هو عمل الخالق سبحانه وتعالى .

كذلك نتساءل عن الثمرة المرجوة من وراء هذه المحاولات ، فأمام الإنسانية مشكلات عويصة ضخمة ، كان أولى بمثل هذا العالم العابث أن يصرف اهتمامه إليها ، وقد قيل : إن التناسل كثر ، فمجيء مثل هذا العالم العابث ومحاولته أن يصنع جنيناً عن طريق المخبار ، معناه أنه يضع على الحمل ناقة ، أو يزيد شكوى العالم من ضخامة السكان ، أو انفجار السكان كما يعبرون الآن .

وبجوار هذا توجد مشكلات علمية وطبية واجتماعية محتاجة إلى كل قطرة من قطرات جهود هؤلاء العلماء ، إن كانوا صادقين ومخلصين في خدمة الإنسانية ، فليت مثل هذا العالم العابث وجه اهتمامه إلى بحث دواء للسرطان أو البلهارسيا ، أو السكتة القلبية ، أو انفجارات الشرايين في المخ ، أو هذه الامراض المستحدثة المستعصية التي أوجدتها المدنية ، ويقف أهل هذه المدنية أمامها حيارى بينما يتعرضون لمشكلات أعلى من طاقاتهم آلاف المرات ، كهذه المحاولة التي يلجأ إليها ذلك العالم الباحث .

وهل يمكن أن نقارن بين المسخ المشوه الذي أوجده ذلك الباحث العابث أو يوجده تقليداً لعمل إلهي فوق طاقة البشر ، وبين قوله تعالى : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » ، وقوله تعالى : « يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك » . وقوله تعالى : «الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » ، وقوله تعالى . « والله أنبتكم من الأرض

نباتاً » . فبداية الخلق من المادة الترابية التي تحولت بعد ذلك إلى أشياء حية هي الفارق الجوهري بين عبث هذا الباحث وبين خلق الله العلي الكبير .

والإنسان المادي – وخصوصاً في العصور المتأخرة – مولع بأن يعبث بالطاقات والخامات التي أودعها الله سبحانه وتعالى بين يديه في العالم ، ولا يحسن الانتفاع بها ، ولا يتقن استخدامها ، وإنما يوجد منها مشكلات تعقد الحياة أمام البشرية ، أو وسائل مدمرة ومخربة لهذه الحياة ، كالوسائل التي أوجدها نتيجة لتحطيم الذرة ، أو قوة الدفع بالبارود ، وغير ذلك من وسائل القوة ، فقد استعملها الإنسان ، إما أسلحة للحروب ، وإما وسائل تهديد لإيجاد القلق في الحياة .

هذا ما يجب أن نركز فيه عنايتنا لكي نوجه أنظار الناس جميعاً – سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين ممن يدينون بالألوهية أو يؤمنون بكرامة الإنسان– إلى العناية بكرامة الإنسان وأمنه ، حتى نوجه الجهود عند هؤلاء الباحثين إلى ما يعود بخير وفائدة على الإنسان .

ولو فرضنا أن هذا الشخص استمر في تنمية هذا الجنين ، فهل يدل هـــذا على قدرته ؟ . أم أن هذا يدل أولا وقبل كل شيء على قدرة الله الذي وضع أمامه الأسباب ، والخامات ، والطاقات المهيئة لهذا النمو ؟.

لو فُرض ووصل العالم في بحوثه المادية إلى خطوات أخرى أوسع فان هذا أيضاً لا يقوم حجة على الدين ، بل يكون دليلا للدين ، فنحن نقرأ في القرآن الكريم قول الله سبحانه وتعالى : « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس » .

هذا الاقتدار : « أنهم قادرون عليها » رمز وإشارة إلى ما يعتز به الإنسان أو يغتر في مجال طموحه أو جموحه العلمي ، ثم يكون هناك القدْر المحدود المتاح للانسان كإنسان ، إذا جاوزه أتت عقبه النتيجة النهائية ، وهي القصم والإفناء والإهلاك .

* * *

أما فيما يتعلق بالتلقيح في غير الإنسان فمن واجبنا كمنتسبين للدين ألا نحجر أبداً على التلقيح في مجال الحيوان والنبات ، بل ينبغي أن ندعو إلى هذا ، لأن التكاثر فيما يتعلق بالنبات ، وفيما يتعلق بالحيوان ، لا يشترط فيه حفظ أنساب ولا روابط أسرة ، ولا معرفة آباء ولا أمهات ، ولا هذه العلاقات البشرية التي جعلها الله خاصة بالإنسان الذي جعله ربه سيد المخلوقات في هذه الأرض .

وعندما يُظهر رجل الدين الرضا عن التلقيح في عالم الحيوان والنبات يعد هذا مجاراة طيبة منه للطموح العلمي المعقول ، في المجال المصلح لشأن البشرية المرتفع بها إلى مستوى الكمال .

أما حين نأتي إلى مجال الإنسان الذي كرمه الله تعالى ، وجعله صاحب إحساس وعواطف ومشاعر ووجدانات وغيرها ، وحرضه على العفاف والفضيلة ، وجعل عنده حرصاً على الأبوة والأمومة ، فهنا نقول : حسبكم ، لا تلجوا هذا الباب إلا عند الضرورة القصوى وبالطريق الشرعي ، وهو التلقيح بين المرء وزوجه إذا اقتضت ظروفهما اللجوء إلى التلقيح الصناعي بشروطه وقواعده. وأما التلقيح بين غير الزوجين فهو كالزنا المقنع ،وبه تضيع الأنساب والروابط. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الاسلام وبيت الطاعة

السؤال : **هل يوجد في الإسلام ما يسمى « بيت الطاعة » ؟.**

الجواب :

عقد الزواج له من الخطورة والمكانة ما ليس لعقد آخر ، ولعل القرآن الكريم

حينما أخبر بأن عقد الزواج « ميثاق غليظ » قد أراد أن يلفت أبصارنا وأفكارنا إلى ذلك ، إذ أن عقد الزواج ليس شركة ، وليس صفقة ، وليس صحبة موقوتة أو محددة ، وإنما الأصل في هذا العقد أن يستمر ويدوم إلى آخر الحياة ، وإن عرضت له أحياناً عوارضُ قد تدعو إلى فسخه ، إبقاءً على الكرامة الإنسانية ، أو لجوءاً إلى أخف الضررين عند تفاقم الخطر من بقاء الحياة الزوجية .

والآية الكريمة التي تقول : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ». تهدينا إلى الشعور بأن عقد الزواج تترتب عليه آثار مادية ومعنوية وخلقية وإنسانية كثيرة ، فكل من الزوجين يعيش مع الآخر ، ويطلع على أسراره ، ويعرف خباياه ، ويشاركه الطعامَ والمسكن والفراش ، وتترتب عليه آثار مصاهرة ونسب وميراث وسمعة وكرامة ... إلخ .

لذلك يجب أن ننظر إلى عقد الزواج على أنه عقد له مكانته المعنوية فوق مكانته المادية ، ولعل الإسلام حينما وضع مقدمات الزواج الكثيرة أراد أن يوطد هذا العقد على أساس الرضا والاختيار ، والتعارف والتفاهم ، فمهد الإسلام لهذا العقد بأن يكون الزوج راغباً فيه ، والزوجة راضية عنه ، وأن يحسن الزوج اختيارَ زوجته ، وأن يفضل الصالحةَ للبقاء ، وهي ذات الدين والخلق الكريم ، ولا يقتصر على الأعراض الزائلة كالمال والجمال والجاه ، لأنها عوارض تعرض لها ظروف تذهب بها ، أما ذات الدين والخلق القويم والطبع الكريم والتصرف السليم ، فهي أهل لأن تبقى في الحياة الزوجية وتدوم .

وهناك جانب آخر من التمهيد للحياة الزوجية ، نغفله ونبخس حقه ، ونجني بذلك على الحياة الزوجية ، حيث إننا لا نمكن المرأة من أن تكون حرة في اختيار زوجها ، كما يحدث في كثير من الأحيان .

وإذا ما ضم الزوجين بيتٌ واحد كان لا بد من مقومات أو عوامل مساعدة

على بقاء عقد الزواج كريماً وسليماً ، كأن تقوم الحياة الزوجية على المحبة والمودة وحسن المعاشرة ، وقد جاء في السنة : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي » ، وورد فيها أيضاً عن النساء : « ما أكرمهن الا كريم ، ولا أهانهن إلا لئيم » . إلى غير ذلك .

ومن المقومات لصيانة الحياة الزوجية أن الإسلام جعل حقوقاً للزوجة وواجبات عليها ، وجعل حقوقاً للزوج وواجبات عليه ، وجعل واجبات مشتركة بينهما ، ومن أهم هذه الحقوق الخاصة بالزوج حق الطاعة من الزوجة له ، ومن أهم الحقوق الخاصة بالزوجة حق الإنفاق عليها من الزوج .

وجمهور الفقهاء يرون أن النفقة واجبة على الزوج في مقابل « حبس » الزوجة نفسها على زوجها ، حيث لا يجوز لها أن تتزوج سواه ، وكلمة«الطاعة» في الحياة الزوجية أخذت مدلولا آخر غير المدلول الكريم الطيب الذي أراده الإسلام منها ، فالقرآن المجيد نص بصراحة على الطاعة حيث يقول : « فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » . ويقول أيضاً : « فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله » . وفسر كثير من المفسرين كلمة « قانتات » بمعنى مطيعات للأزواج .

والحديث النبوي الشريف صريح في أن الطاعة حق على الزوجة لزوجها في قوله : « خير النساء من إذا نظر إليها زوجها سرته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته في ماله وعرضه » .

ولكن الطاعة عندما تَفسد الحياةُ الزوجية ويدخلها العناد ، تأخذ معنى آخر غير المعنى الذي أراده الإسلام من طاعة الزوجة لزوجها ، فالدين أراد من الطاعة أن تطيع الزوجة زوجها فيما يجب عليها شرعاً أن تطيعه فيه ، من معاشرة زوجية ، وقيام بحق البيت ، والتزام لحدود العفة والفضيلة ، وحفظ لماله وعرضه إذا غاب ، وعدم مغادرة بيت الزوجية إلا باذنه وعلمه ، أو لمصلحة يسوغ لها الشرع الخروج من أجلها ، كأداء حج مفروض مع شروطه ، أو كزيارة الوالدين ، ونحو ذلك .

وإذا كانت هناك حقوق وواجبات لكل من الزوجين ، فهناك أمر استقل به الرجل ، وهو الذي أشار إليه القرآن الكريم في قوله: « وللرجال عليهن درجة»، وقوله : « الرجال قوامون على النساء » . لأن الأسرة لا بد لها من قيادة ، إذ لا يُعقل تركُها دون قيادة ، وإلا ضاعت وضلت ، فإما أن نجعل القيادة للرجل والمرأة معاً ، وهذا يوجد التعارض أو التناقض ، وإما أن نجعل القائد لها هي المرأة ، وهذا قلب للأوضاع ، ومصادمة لما جرت عليه طبيعة الحياة ، من أن الرجل هو الصالح لمواجهة أعباء الحياة ، والتحدث باسم الأسرة .

لكن « قوامة الرجل » أيضاً خرجت عند كثيرين من الرجال عن معناها الديني القويم ، فبعض الرجال يظن أن « القوامة » معناها التعنت من الرجل ، والتحكم السفيه ، والسيطرة الباغية ، فهو يسيء معاشرة الزوجة بدعوى أنه قوام عليها ، وهو يريد أن يسطو على حقوقها المالية بدعوى أنه قوام عليها ، وهو قد يمنعها بعض الحقوق الشرعية بدعوى أنه قوام عليها .

فكما فسد معنى « الطاعة » عند كثير من الناس ، فسد معنى « القوامة » عند كثير من الناس أيضاً ، ومن هنا جاء سوء الاستغلال وسوء التطبيق ، وبذلك أوجد المنحرفون هذه الصورة الرهيبة التي ينسبونها إلى الدين زوراً ، وهو بريء منها ، لأنها نتيجة لسوء الاستغلال وفساد التطبيق ، فالزوجان إذا كانا متفاهمين متوادين ، فإن الحياة تمضي سهلة كريمة ، ولكن إذا حدث الخلاف ، وفسدت النفوس ، فإن الزوجة تترك بيت الزوجية ، وتذهب إلى بيت أبيها وتظل هناك حيناً من الزمان ، وبعد ذلك ترفع « قضية نفقة » ضد زوجها ، وتستعين بالمحاماة وبالشهود ، سواء أكانوا على حق أم على باطل وزور ، وتأتي تعقيدات المخاصمة ، وتأجيلات القضايا، وحِيَل المتقاضين ، فتزيد الأمر تعقيداً .

وقد تحصل الزوجة على حكم بالنفقة ، فلا تخلص في تنفيذ هذا الحكم ، بل تتخذه سلاحاً خبيثاً مسموماً ضد الزوج ، فهي لا تريد من الحكم إلا أن تذل الزوج به ، أو تحبسه من جرائه .

وأمام هذا يثور الزوج ، ويرفع « قضية طاعة » ، لا ليتمتع بحق هذه الطاعة في اعتدال ، بل يكون هذا « ردّ فعل » لما صنعت الزوجة ، وقد يأخذ الزوج حكماً بالطاعة فعلا ، فلا ينفذه في عدالة وإخلاص ، بل يتخذ هذا الحكم وسيلة لإذلال الزوجة ، وأخذها بالقوة إلى « بيت صوري » للحياة الزوجية التي لا يمكن أن تستقر على هذا الوضع . فكأنه لا يقصد سوى الكيد ومقابلة العناد بمثله .

وهكذا ... إذا استطاعت الزوجة أن تقود زوجها إلى « الحبس » من أجل النفقة فعلت ، وإذا استطاع الزوج أن يقود زوجته كرهاً وبالشرطة إلى بيت الزوجة فعل .

والصورة الكريمة التي وضعها الإسلام لبيت الزوجية ، حيث تكون للزوجة فيه كرامة وحرية واستقلال ، وعدم وجود من يضايقها فيه ، ولو كان قريباً للزوج . وحيث لا تكون هناك مضارة للزوجة من أي جهة ... هذه الصورة الكريمة انتقلت بسوء الاستغلال والتطبيق إلى الصورة الكريهة البشعة التي نسمع عنها في كثير من حالات « تطبيق حكم الطاعة » .

إذن لا بد من أن تتجه العناية أولا وقبل كل شيء إلى بناء الحياة الزوجية على أساس الهدى الإسلامي العظيم ، من تفاهم وتواد ومعاشرة بالمعروف ... إلخ . وإذا حدث بعد هذا خلاف كان الحكم واضحاً ؛ إذا أنفق الرجل وجبت الطاعة على الزوجة ، وإذا لم تطع الزوجة سقطت النفقة .

وإذا فرضنا ونشزت الزوجة ، وامتنع الزوج عن الإنفاق ، وطالت المدة، ولم نستطع التوفيق بينهما ، كان من الخير أن نأخذ بنظام «الخُلْع» ، وهو أن تفتدي الزوجة نفسَها من الزوج بشيء من المال تدفعه ، ويكون كالمقابل لما دفعه الزوج من قبل ، لأنها هي الكارهة في هذه الحالة .

والحياة الزوجية لا يمكن أن تبقى مع الكراهية المناقضة للمودة المذكورة في الآية الكريمة ، ولو اجتمع الطرفان على كزاهية بينهما ، لكاد كل منهما للآخر

وتحولت الحياة الزوجية إلى حركة عناد مستمرة ، والسمعة السيئة في النهاية ستكون للمسلمين ، وربما حكَمَ جاهل من خلال هذا على الإسلام ، وهو لا ذنب له في ذلك ، وسيكون الأثر السيء ثمرة مرة للأولاد .

ونظام « الخلع » يذكّرنا بناحية يسيء بعضُ الناس فهمها في الإسلام ، فهم من جهلهم يقولون إن الدين قد حابى الرجلَ حين أعطاه وحده حق الطلاق ، ولم يعط المرأة مثلَ هذا الحق ، مع أن المرأة لها هذا الحق أيضاً ، وإن كان يسمى « فسخ العقد » أو « الخلع » ، فالمرأة لها أن تطلب فسخَ العقد إذا أثبتت أيَّ عيب أخلاقي أو طبيعي أو مادي ، أو نحو ذلك في الزوج .

والحقيقة التي أريد أن أؤكدها أن الحياة الزوجية لا يمكن أن تستقر مع كراهية المرأة البقاء فيها ، فإذا ظهر التعنت منها في هذا المجال أمكن تعزيزها بما يردها إلى صوابها واعتدالها .

ويبقى بعد هذا تساؤل عن الدوافع التي تدفع بعضَ السفهاء إلى التطاول على أحكام الدين ، أو الاعتراض عليها من حين لآخر ، فالواقع أن هدف هؤلاء هو التركيز على هدم القواعد الدينية التي لا تروق لهؤلاء المتحللين ، ومن أمثلة ذلك أن صحيفة قد نشرت أنني أشرفت على رسالة تدور حول المطالبة بالمساواة بين الرجل والمرأة في الميراث ، وتوجه بعض السائلين بسؤال عن هذا الموضوع الى لجنة الفتوى ، وقد سألني عن ذلك رئيس اللجنة ، فقررت له أن ذلك غير صحيح . ولعنة الله على الذين يفترون الكذب وهم يعلمون .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

حول التحلل الأخلاقي

السؤال الأول: **تطالعنا الصحف العالمية والمحلية في كل يوم في الفترة الأخيرة عن مظاهر وأحداث انتشار الانحلال الخلقي، مصورة خطره في المجتمعات الغربية. وقد لمس تلك الأحداث كبار المسئولين ورجال الحكم هناك. وأهم تلك المظاهر وأبشعها الشذوذ الجنسي الذي أصبح مشروعاً ومعترفاً به من الدولة ومن المجتمع الإنجليزي. فما رأيكم في هذا ؟. وما موقف الدين والعلم منه ؟.**

الجواب:

هذه نتيجة طبيعية لاستفحال خطر الحضارة المادية، التي لا تعترف بتقدم أخلاقي، أو سمو روحي، أو اعتصام بالقيم الفاضلة والمثل العليا. ولقد أدت هذه الحضارة المادية إلى إسراف الإنسان في الملذات الحسية والشهوات الجنسية ومطالب البدن وحدها، مما جعل الإنسانَ المعاصر مترفاً رخواً، يتطلب المزيد من هذه الشهوات كل يوم، وهو كالمصاب بالسُّعار، ولا يزيده الحصولُ على رغبة من الرغبات إلا طمعا في مزيد آخر منها. وإذا كان أخطر هذه المظاهر الانحلالية هو الشذوذ الجنسي بالصورة الرهيبة التي تطالعنا بها الأنباء والصحف والمجلات والكتب، فإن هذا نذير بانحلال روابط الأسرة وانحراف العلاقات الجنسية، التي رسمت لها الأقدارُ الإلهية طريقاً طبيعياً يرضيها ويكفيها، عن طريق الاتصال المشروع بين الذكر والأنثى، بطريق الزواج الذي اعترفت به الأديان والشرائع، منذ أبعد عصور التاريخ قدماً. ومتى انفصمت العلاقات داخلَ الأسرة فإن ما وراءها من علاقات أخرى سيتحطم من غير شك، لأن الأسرة في كل مجتمع فاضل هي النواة الأولى التي تتوالد فيها قواعد المجتمع وأفراد الأمة، لذلك نشهد في الغرب تفسخاً مريعاً في العلاقات الأسرية ،

بحيث لا يشعر الآباء بعاطفة الأبوة ، ولا الأمهات بعاطفة الأمومة ، ولا الأولاد بالعاطفة التي تربطهم بآبائهم وأمهاتهم .

وكم من جرائم ارتكبت وترتكب بسبب هذا التفسخ . ومع أن الغرب يشكو من ذلك مُرَّ الشكوى ، فإن كثيراً من جرائم هذا التفسخ وآثاره ترسب إلى قاع المجتمع مختفية تحت القشرة الظاهرية التي تبدو على السطح ، بحكم الزخرفة المادية التي تبدو بها مظاهر هذا المجتمع .

السؤال الثاني : **اتهم أحدُ رجال الدين بالفاتيكان السيد المسيح بالشذوذ الجنسي ، كما ادعى أن السيدة مريم لم تكن عذراء ... وتبين فيما بعد أن هذا الرجل من أصل يهودي . كما باشر أحد رجال الكنيسة بلندن عقد زواج بين رجلين . ما رأيكم في هذا ؟.**

الجواب :

أذكر أني قرأت عن هذه الأنباء التي حدثت في مؤتمر الكنيسة الحديثة ، الذي كان هدفه فيما يدعي أصحابه أن يظهر الأنجيل بصورة توافق المعرفة التي تسود العصر الحاضر . وأذكر أن هذا المؤتمر قد عقد في جامعة كامبردج ، وأن القسيس المشار اليه اسمه « هيو مونت فيوري » وقد تهجم في هذا الاجتماع على السيد المسيح ، وقال إنه كان مصاباً بالشذوذ الجنسي ، وإن النساء كن صديقات للمسيح ، ولكنه كان يفضل عليهن الغلمان . كما أثار شبهة على ميلاد المسيح ، وقال انه ولد بغير زواج شرعي . ومن الإنصاف أن نذكر أن مجلة نيوزويك ذكرت أن الدكتور « ميكائيل رمزي » رئيس أساقفة « كانتربري » ردّ على هذا القسيس وكذبه .

ثم اتضح بعد ذلك أن الدافع الخبيث الذي دفع القسيس « هيومونت فيوري » الى المفتريات التي افتراها على السيد المسيح . هو أن القسيس من أصل يهودي صهيوني ، ولكنه يتظاهر بالمسيحية لخدمة إسرائيل وخدمة الصهيونية .

ومن العجيب أن البحث قد أثبت أن هذا القسيس من سلالة اليهودي البريطاني

المليونير « جوزيف مونت فيوري » الذي أسهم في التمهيد لإنشاء الوطن اليهودي في فلسطين ، في أثناء العهد العثماني ، وقد تبرع بتأسيس مستعمرة يهودية في فلسطين تحمل اسمه ، وقد ضُمّت هذه المستعمرة إلى مدينة القدس بعد توسيعها .

من هذا نفهم أن الصهيونية العالمية الخبيثة من وراء هذه الحملة التشهيرية المجرمة الظالمة للسيد المسيح عليه السلام . ويجب أن يلتفت العالم إلى مدى التناقض بين القيام بهذه الحملة وبين مخادعة اليهود لأتباع المسيحية ، حتى ينتزعوا منهم وثيقة تنص على عدم اشتراك اليهود في مؤامرة لمحاولة قتل المسيح .

وأما موقف الإسلام من هذه المفتريات فهو موقف المعارض لها ، الذي يحكم على أصحابها بالإجرام والتضليل والافتراء ، لأن القرآن الكريم يخبرنا بأن مريم هي البتول الطاهرة العذراء ، سيدة نساء العالمين في عصرها ، ويصف عيسى ابنها بأنه روح الله وكلمته ، وأنه نبي الله ورسوله ، وأنه مبرأ من كل عيب ، ويكفي مريم وابنها شرفاً أن تكون بين سور القرآن الكريم سورة تسمى بسورة مريم .

وأما العقد الذي عقده ذلك القسيس فهو صورة أثيمة لما أشرت إليه سابقاً ، من تفسخ العلاقات الجنسية ، وانحراف العواطف البشرية في المجتمع المادي الذي تنكر للأديان ، وأعطى ظهره للفضيلة ، وأعرض عن كل القيم الأخلاقية .

السؤال الثالث : **ما هي أسباب انتشار الانحلال الخلقي بصفة عامة ، والشذوذ الجنسي بصفة خاصة في المجتمعات الغربية هذه الأيام أكثر مما سبق ؟.**

الجواب :

إن القرآن الكريم قد استنكر الشذوذ الجنسي في أكثر من موضع من سوره وآياته ، وأخبرنا أن هذا ناشيء عن انقلاب القيم الإنسانية في نفوس أصحابها، وعندما عاقب الله تعالى أصحابَ الشذوذ في العصر القديم كان عقابه أنه قَلَبَ

مدنهم وبلادهم ، فجعل عاليها سافلها . فكما انقلب هؤلاء في علاقاتهم انقلبت عليهم دورهم وبلادهم ، جزاءً وفاقاً من الله عز وجل .

والسبب الجوهري في ذلك هو ما أشرت إليه من أن معدة الإنسان المادي قد تضخمت واتسعت ، فزادت في وقود الشهوات الحسية ، فجعلتها مسعورة كالكلاب ، تتطلب رغباتها بإلحاح وازدياد ، دون حدود أو قيود ، على حين تقلصت عقلية الإنسان المادي ، وضمرت روحه ، فلمْ يبق هناك أي تعادل بين مطالب البطن والفرج ومطالب العقل والروح .

ولقد كانت هذه الجرائم موجودة بكثرة في مجتمعاتهم ، ولكنها كانت تتستر حول مظاهر تنتسب إلى الفن تارة ، وإلى الأدب تارة أخرى ، ثم طفح الكيل فزاد الويل ، وتبلورت المشكلة خطيرةً مذهلة ، تهدد بضياع الملامح الباقية من أسس المجتمع البشري القويم .

السؤال الرابع : **إلى ماذا ترجعون تفشي هذا الانحلال والشذوذ في المجتمعات الغربية بصورة بشعة ، دون المجتمعات الشرقية العربية الإسلامية ، برغم ما يلاحظ من أن أهل الغرب يزاولون الطقوس والشعائر الكنائسية أكثر مما يزاولها أهل الشرق والإسلام ؟.**

الجواب :

الطقوس التي يمارسها الغربيون هي شكليات لا تتجاوز الكلمات ،والحركات الظاهرية التي تؤدى بطريقة آلية ، ومن وراء هذه المظاهر تكمن تلك الجرائم ؛ تماماً كما تبدو التفاحة جميلة في ظاهرها ، ولكن الدودة مستقرة في أعماقها . وعهدنا بأهل الغرب يعطوننا الكلمة الطيبة ، واعدة أو ممنية ، ومن ورائها الخنجر المسموم ، حتى قيل في وصفهم : إنهم يكتبون الحكمَ بالإعدام وكأنهم يكتبون بطاقة دعوة إلى وليمة . أما في الشرق فقد يعوذ أهله بشيء من الترتيب الخارجي والتنسيق الظاهري ، ولكنهم بصفة عامة يخشعون أمام قيم دينية يؤمنون بها ، ومعتقدات روحية يخضعون لها . وأهم شيء في هذا الجانب هو غيرتهم على كل ما يتعلق بالأعراض والعفة والفضيلة .

السؤال الخامس : **بماذا تنصحون لتجنب احتمالات مدّ طوفان الانحلال الخلقي من المجتمعات الغربية إلى مجتمعاتنا العربية الإسلامية ؟.**

الجواب :

ليس هناك إلا أمر واحد ، وهو أن تكون التربية الدينية والأخلاقية الواعية البصيرة هي الأساس في تنشأة الفرد والمجتمع .

ولا أعني بهذه التربية أن تكون حفظاً لنصوص ، أو ترديداً لأحكام، أو استخداماً لعنصر التهديد والوعيد . إنما أعني بالتربية أن تكون قيماً وسلوكاً ومنهجاً ، يتجلى في البيت أولا ، وتؤكده المدرسة ثانياً ، وتوطد دعائمه الجامعة ثالثاً ، وتعاون عليه أجهزة الاعلام رابعاً ، وتضرب له القدوة الصالحة المستويات الموجهة خامساً ، وتقف الدوائر المسئولة في وجه الطوفان الانحلالي الوافد علينا كما تفد الأوبئة الخطرة سادساً ، وعلى الله قصد السبيل .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الطلاق والميراث



حالة طلاق معلَّق

السؤال : **أراد زوج منع زوجته أن تأخذ أقراص منع الحمل ، فقال لها : إذا تعاطيت أقراصَ منع الحمل تكوني محرَّمة . وأطاعت الزوجة مدة من الزمن ، ولكنها أمام ما تعانيه من ألم ومشقة بسبب الحمل والوضع ، عادت فأخذت هذه الأقراص ، فما الحكم في ذلك ؟.**

الجواب :

ينبغي أن نعلم أولا أن كلمة « الطلاق » كلمة بغيضة إلى الله عز وجل ، مكروهة عند العقلاء من الناس ، ولقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » . كما جاء في الحديث الشريف أيضاً قوله : « لعن الله كلَّ مذواق مطلاق » . والمذواق هو الكثير التزوج من النساء ، السريع إليه ، دون داعٍ يدعو إلى ذلك ، والمطلاق هو الكثير الحلف بالطلاق.

وإنما شرع الله جل جلاله الطلاق كدواء لا يستعمل إلا عند اللزوم أو الاضطرار إليه ، وليكون آخر وسيلة يلجأ إليها الزوج لفض علاقة الزوجية بطريق مشروع ، إذا استعصي على الزوجين أن يبقيا معاً على رابطة الزوجية ، وإذا لم تجد الوسائل المختلفة للتوفيق بين الزوجين وإصلاح حياتهما الزوجية ، ولذلك يقول القرآن الكريم في سورة النساء : « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً ، والصلح خير ، وأحضرت الأنفس الشح ، وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعلمون خبيراً » ، ثم يقول : « وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته ، وكان الله واسعاً حكيماً » .

ويقول القرآن أيضاً في سورة النساء : « وإن خفتم شقاق بينهما ، فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها ، إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما ، إن الله كان عليماً خبيراً » .

ويقول كذلك في سورة البقـــرة : « فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف » .

ولذلك كان ينبغي لهذا الزوج الذي حلف أن يتفق مع زوجته على عدم تناول هذه الأقراص ، دون لجوء إلى الحلف بالطلاق ، حتى لا يوقع نفسه في مأزق، أو يعرضها لشبهة لا يستريح إليها قلبه .

ومع هذا فاليمين التي أقسم بها هذا الزوج ، وهي قوله : « إذا تعاطيت أقراص منع الحمل تكوني محرمة » تعد من قبيل الطلاق المعلق ، وهو الطلاق الذي يستعمل في العادة لتأكيد أمر يريده الحالف ، أو تشديد النهي عن أمر لا يريده .

وعلى هذا يتوقف وقوع اليمين أو عدم الوقوع في مثل هذه الحالة ، على نية من حلف بالطلاق . وعلقه على أمر – فعلاً أو تركاً – فإذا كان الزوج الحالف هنا ، قد أراد بكلامه الذي قاله أن يؤكد نهيه ، وأن يحمل زوجته على الامتناع عن تناول أقراص الحمل ، فإن اليمين لا تقع ، سواء امتنعت الزوجة عن تناول الأقراص ، أم عادت إلى تناولها ، ولا تكون الزوجة محرمة عـــلى زوجها في هذه الحالة .

وأما إذا كان الحالف قد نوى وعقد العزم على أن تكون زوجته طالقاً إذا تناولت الأقراص المذكورة ، ثم تناولتها الزوجة بعد ذلك ، فإن زوجته تكون طالقاً منه طلقة واحدة رجعية ، يجوز له إعادتها إلى عصمته ، ما لم تكن الطلقة مكملة للطلقات الثلاث .

هذا ، ولعل الذي دعا الزوج المذكور إلى أن يحلف بهذا الحلف ، هو اعتقاده أن تناول أقراص منع الحمل عند الحاجة الماسة إلى منع الحمل مؤقتاً ، أمر يحرمه الإسلام . مع أن المفهوم من تعاليم الإسلام أنه لا يمنع الزوجة أن تتخذ – بموافقة زوجها – وسيلة مشروعة لمنع الحمل ، ما دامت تعاني الألم والمشقة من الحمل والوضع .

والنصوص الدالة على ذلك كثيرة ، وقد أوردتها في كتاب « الدين وتنظيم الأسرة » . ومن بين تلك النصوص فتوى أصدرتها لجنة الفتوى بالأزهر الشريف سنة ١٩٥٣ عن مثل هذه الحالة ، وفيها تقول :

« إن استعمال دواء لمنع الحمل مؤقتاً لا يحرم على رأي عند الشافعية ، وبه تفتي اللجنة ، لما فيه من التيسير على الناس ، ودفع الحرج ، ولا سيما إذا خيف من كثيرة الحمل ، أو ضعف المرأة من الحمل المتتابع ، بدون أن يكون بين الحمل والحمل فترة تستريح فيها المرأة ، وتسترد صحتها ، والله تعالى يقول : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » وقال : « وما جعل عليكم في الدين من حرج » . وأما استعمال دواء لمنع الحمل أبداً فهو حرام (١) .

وعلى الله قصد السبيل .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

طلاق دون وثيقة

السؤال : **هل يجوز أن تتزوج امرأة كانت قد طُلِّقت من زوجها دون ورقة طلاق ، وانتقل هذا الزوج إلى رحمة الله تعالى ؟.**

الجواب :

إذا أوقع الزوج على زوجته يمين الطلاق ، فإن هذه اليمين لا يتوقف نفاذها على كتابة ذلك في ورقة أو وثيقة ، لأن العبرة بالنطق بكلمة الطلاق ، وأما التسجيل في الورقة أو الوثيقة فذلك نظام رأى المجتمع لزومه لحفظ حقوق

(١) كتابي : « الدين وتنظيم الأسرة » ص ١٩٢ الطبعة الثانية سنة ١٩٦٦ م . وانظر أيضاً كتابي « يسألونك في الدين والحياة » ص ٢٤١ – ٢٤٨ . المجلد الأول ، طبعة سنة ١٩٧٠ .

الناس وصيانتها ، ولسد الباب أمام التلاعب بالعلاقات الزوجية أو جحـــود حقوقها .

فإذا كانت هذه الزوجة المسئول عنها قد طلقها زوجها ، وانتهت عدتّها، فإنه يكون لها الحق في أن تتزوج غيره ، بشروط الزواج المقررة في أحكام الشريعة الغراء .

ولا دخل لحياة زوجها الأول أو وفاته في أن تمارس الزوجة المطالقة منه المنتهية العدة حقها ، وهو التزوج من رجل آخر .

وأما إذا كان الزوج المتوفي لم يطلق زوجته ، فإنه يجب عليها أن تبقى مدة عدتّها بعد وفاته ، وهي أربعة أشهر وعشرة أيام ، إذا كانت غير حامل ، وأن نبقى حتّى تضع حملها إذا كانت حاملا ، ولها بعد انتهاء عدتّها أن تشرع في الزواج بغيره إذا أرادت بشروط الزواج المقررة .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

في الميراث

السؤال : **توفي شخص وترك زوجة وأخاً شقيقاً وثلاث أخوات شقيقات ، فما هي الطريقة الشرعية لتقسيم التركة ، ومن هم المستحقون لها في هذه الحالة؟.**

الجواب :

إذا كان الميت قد مات ، وترك زوجة له ، وأخاً شقيقاً ، وثلاث أخوات شقيقات ، فإن الزوجة في هذه الحالة تأخذ ربع التركة فرضاً ، بعد استيفاء ما قد يكون على التركة من حقوق مقدمة على حقوق الورثة، كحق تجهيز الميت، وحق الديون ، وحق الوصية فيما تنفذ فيه الوصية .

وإنما تأخذ الزوجة الربع هنا فرضاً ، لعدم وجود فرع وارث في هذه الحالة ، والدليل على ذلك هو قول الله تبارك وتعالى في سورة النساء : « ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد ، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دَيْن » .

وقد جاء في المادة الحادية عشرة من قانون المواريث المصري لسنة ١٩٤٧ ما نصه : « وللزوجة — ولو كانت مطلقة رجعياً ، إذا مات الزوج وهي في العدة ، أو الزوجات فرض الربع عند عدم الولد وولد الابن وإن نزل ، والثمن مع الولد أو ولد الابن وإن نزل ... » .

وأما الأخوات الشقيقات فإن أخاهن المذكور في السئوال يعصبهن في هذه الحالة ، أي يصير الجميع — الأخ والأخوات الثلاث عصبة — ، والعصبة كلمة تطلق في اللغة على أبناء الانسان وقرابته لأبيه ، أو أوليائه الذكور من ورثته ، ويسمون عصبة لأنهم عصبوا بنسبه ، أي أحاطوا به لحمايته ودفع العدوان عنه .

ولذلك يقسم بينهم الباقي من التركة بعد أخذ الزوجة حقها وهو الربع كما سبق ، ويكون للأخ مثل نصيب اثنتين . والدليل على ذلك هو قول الله تبارك وتعالى في سورة النساء : « يستفتونك ، قل الله يفتيكم في الكلالة (والكلالة الميت الذي لم يخلف ولداً ولا والداً) إن امرؤ هلك ليس له ولد ، وله أخت فلها نصف ما ترك ، وهو يرثها إن لم يكن لها ولد ، فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك ، وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الإثنتين ، يبين الله لكم أن تضلوا ، والله بكل شيء عليم » .

وقد جاء في الفقرة الثالثة من المادة التاسعة عشرة من قانون المواريث في مصر لسنة ١٩٤٧م أن من العصبة بالغير « الأخوات لأبوين مع الإخوة لأبوين ، والأخوات لأب مع الإخوة لأب ، ويكون الإرث بينهم في هذه الأحوال للذكر مثل حظ الاثنتين » .

وخلاصة الإجابة عن الحالة المسئول عنها ان الزوجة تأخذ الربع ، والأخ مع الأخوات الثلاث يأخذون الباقي تعصيباً ، يقسم بينهم للذكر مثل حـظ الاثنتين .

هذا إذا كان الأمر كما جاء في السؤال .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

المعاملات والاقتصاد



المشاركة

السؤال : ما هو نظام « المشاركة » في الإسلام ؟ وما فائدته ؟ ومـــا شروط الشركة ؟ ومتى تبطل ؟ أرجو الإجابة حسب المذهب الحنفي .

الجواب :

المشاركة – أو الشِّرْكة – في اللغة هي الخلطة ، أي خلط المِلْكين ، أو المالين ، أو النصيبين ، وفي الشرع هي : اختصاص اثنين فأكثر بمحل واحد ، والمقصود من المشاركة – غالباً – هو تحصيل الربح أو تحقيق فائدة مرجوة .

والإنسان في هذه الحياة لا يستطيع أن يقوم بكل الأعمال وحده ، ولا أن يحقق آماله بمفرده ، فقد يحتاج ذلك إلى أكثر من شخص ، أو إلى رأس مال أكبر مما يملكه الفرد ، فكانت الحاجة البشرية ماسة وداعية إلى تشريع الشركة ، فكان من فضل الله جل جلاله على عباده أن يشرع لهم نظام المشاركة .

والدليل على جواز المشاركة شرعاً قول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « الشريكان اللهُ ثالثهما ، ما لم يخونا ، فإذا خانا مُحيت البركةُ بينهما» .

وجاء في السيرة النبوية أن قيس بن السائب كان شريكاً للنبي صلى الله عليه وسلم في تجارة البَزِّ والأدَم(١) . وكذلك قال الرسول عليه الصلاة والسلام عن أسامة بن شريك : « كان شريكي ، وكان خير شريك ، لا يشاري ، ولا يماري ، ولا يداري » . أي لا يُلح ، ولا يجادل ، ولا يخالف .

وفي رواية أخرى أن أسامة بن شريك جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : أتعرفني ؟.

(١) البز والأدم : الثياب والجلد .

فقال النبي : وكيف لا أعرفك وكنت شريكي ، ونعم الشريك ، لا تداري ولا تماري » .

وقد ألف الناس التعامل بطريق المشاركة منذ أقدم العصور ، فتحاً لأبواب التجارة والعمل ، وتنشيطاً للحركة الاقتصادية بين الأمة ، وكذلك فعل المسلمون والرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : « لا تجتمع أمتي على ضلالة » ، وما رآه المسلمون حسناً فهو حسن .

وللمشاركة أنواع منها :

شركة العقود — أو شركة التعاقد — ، كأن يشترك اثنان في رأس مال للاتجار به ، أو استثماره معاً ؛ فيقول أحد الطرفين : شاركتك في التجارة أو نحوها ، ويقبل الطرف الآخر ذلك ، على أن يكون الربح بينهما ، بما يتفقان عليه من شروط .

ومن أنواع شركة العقود : « شركة المفاوضة » ، وكلمة المفاوضة في اللغة تفيد معنى المساواة والمشاركة ، وهي مفاعلة من التفويض ، كأن كل واحد من الطرفين يرد ما عنده إلى صاحبه ، أي يفوضه فيه .

وشركة المفاوضة شرعاً أن يشترك اثنان — أو أكثر — بحيث يتساويان في المال والتصرف والربح ، فتكون هناك مساواة في جميع الوجوه ، ويصبح كل من الطرفين وكيلا عن الآخر وكفيلا له ، وكأن كل واحد منهما فوض إلى الآخر أمر الشركة على الإطلاق ، ورضي بفعله .

وقد دل على مشروعية هذه المشاركة قول النبي صلى الله عليه وسلم : «فاوضوا فإنه أعظم للبركة » .

ويشترط لصحة هذه المشاركة أن تكون بين حرين ، بالغين ، عاقلين ، مسلمين ، أو ذميين . فلا تجوز بين حر وعبد لعدم التساوي في التصرف ، ولا بين مسلم وذمي لعدم التساوي في الدين ، ولا بين متفاوتين في رأس المال لعدم التساوي في المال ، وكذلك لا تجوز إذا تفاوتت نسبة الربح بين الاثنين ، لاختلال شرط التساوي .

وكل تصرف من أحد الطرفين يلزم الآخر ، وكذلك كل تبعة تلزم أحدهما تلزم الآخر .

ولا تصح هذه الشركة إلا إذا كان رأس مالها من الطرفين نقوداً ، حتى يمكن ضبط التساوي فيها .

* * *

وهناك نوع من المشاركة يسمى « شركة العِنان » .

وكلمة العِنان — بكسر العين — تفيد في اللغة معنى الحبس والتقييد ، ولذلك أطلقوا كلمة « العِنان » على لجام الدابة ، لأنه يقيدها عن بعض حركتها ، ومن هنا يمكننا أن نسمي شركة العنان : شركة مقيدة ، فهي ليست مشاركة مطاقة كما في « شركة المفاوضة » . لأن كلا من الطرفين في شركة العنان يقيد صاحبه عن إطلاق التصرف في الشركة ، ويكون كل منهما وكيلا عن الآخر ، ولكنه لا يكون كفيلا له في كل شيء .

وتصح شركة العنان مع التفاوت في رأس المال ، ويصح عقدها للاشتراك في نوع معين من التجارة ، ويصح أن تكون في عموم التجارات ، ويمكن أن يسهم فيها الطرفان بأي مبلغ أراداه من مالهما ، ويكون الربح على أساس ما يشترطه المتعاقدان ، ويجوز أن يتفاوت نصيب هذا وذاك ، كما يجوز أن تشترط زيادة في الربح لمن يعمل في هذه الشركة ، والدليل على ذلك قول الرسول صلوات الله وسلامه عليه :

« الربح على ما شرطا ، والوضيعة على قدر المالين » . أي يوزَّع الربح بينهما بحسب الشروط التي اتفقا عليها ، وتكون الوضيعة — أي الخسارة التي قد تحدث — على قدر رأس المال لكل منهما .

ولكل من الشريكين في شركة العنان أن يقوم بالمعروف من أفعال التجار ، لأن الشركة تقتضي ذلك .

وإذا هلك المالان ، أو مال أحد الشريكين ، قبل البدء في التجارة بالشراء، بطلت الشركة .

* * *

وهناك نوع من المشاركة يسمى « شركة الصنائع » ، لأنها مشاركة في الصناعة والعمل ، وقد تسمى : « شركة المحترفة » لأنها مشاركة في الحرفة ، وقد تسمى « شركة التقبل » ، لأن كلاً من الشريكين يتقبل العمل ويشارك زميله القيامَ به .

وصورة هذه الشركة هي أن يتفق اثنان — أو أكثر — على المشاركة في عمل ما ، كالزراعة أو الخياطة أو غيرهما ، كأن يقولا : اشتركنا على أن نعمل في هذا العمل ، على أن ما رزقه الله عز وجل من أجرته فهو بيننا على شرط كذا ...

ومعنى هذا أن رأس مالهما هو العمل ، وأنهما يتقبلان العمل لغيرهما ، ويكون الكسب بينهما ، فالشركة في ضمان العمل ، وفيما يستفاد منه وهو الأجر .

ولو اتفقا على أن يكون العمل مناصفة بينهما ، وأن يتفاوتا في الربح جاز ، لأن الأجر هو بدل عملهما ، وقد يكون أحدهما أجود عملا من الآخر وأحسن صنعة .

وكل عمل يتقبله أحد الشريكين يلزمهما معاً ، لأن هذا المتقبل للعمل أخذه لنفسه ، بالأصالة ، ولشريكه بالوكالة ، فيطالب كل منهما بالعمل ، وله حقه في الأجر .

* * *

وهناك نوع من المشاركة يسمى « شركة الوجوه » .

وكلمة « الوجوه » تدل على الأشخاص الذين لهم وجاهة عند الناس ، أي مكانة ومنزلة ، ولذلك يمكنهم أن يشتروا من الناس دون أن يدفعوا الثمن مقدماً ، ويمكنهم أن يبيعوا ويقبضوا الثمن قبل تسلمهم السلعة المبيعة .

وقد عرّف العلماء هذه المشاركة بأنها هي التي تقوم بين من لا مال لهم ، حيث يشترك اثنان – أو أكثر – وليس لهما رأس مال ، بل يتفقان على أن يشتريا بالنسيئة (أي بالأجل) دون أن يدفعا ثمناً ، بسبب شهرتهما بوجاهتهما وأمانتهما بين الناس؛ ثم يبيعا ما اشترياه بثمن معجل أكثر ،ويدفعا من هذا الثمن ثمن ما اشتريا ، ويكون الباقي ربحاً مشتركاً بينهما ، ويكون كل منهما وكيلا عن الآخر فيما يشتريانه .

والتعامل بتلك الطريقة أمر جائز بين الناس من غير نكير .

وليس لأحد الشريكين في هذه المشاركة أن يؤدي عن الآخر زكاة ماله إلا بإذنه ، لأن ذلك ليس بداخل في الشركة ، لأنه ليس من التجارة .

وتبطل هذه الشركة بموت أحد الشريكين ، أو لحوقه بدار الحرب (دار الأعداء) مرتداً عن الإسلام .

* * *

ولشركة التعاقد شروط هي :

أولا : أن يصير كل طرف في الشركة وكيلا لصاحبه في التصرف والتجارة وتقبل الأعمال ؛ وهذا الشرط يستلزم أن يكون كل طرف أهلاً لهذه الوكالة .

ثانياً : أن يكون نصيب كل طرف في الربح معلوم النسبة ، حتى لا تفضي جهالة النصيب إلى النزاع .

ثالثاً : أن يكون الربح لكل طرف جزءاً شائعاً في الجملة ، لا معيناً ، فلا يجوز تعيين قدر الربح بمقدار من المال ، كأن يقال : للطرف الفلاني من الربح مائة دينار ، أو ألف دينار ، أو نحو ذلك .

رابعاً : يلزم في شركة الأموال أن يكون رأس المال نقداً من النقود كالدنانير وما أشبهها ، لأن جعل المال سلعاً يؤدي إلى جهالة ، لأن قيمة السلع تتفاوت ولا تنضبط.

خامساً : أن يكون رأس مال الشركة حاضراً عند بدء التجارة ، لأن المقصود من الشركة الربح ، وهذا لا يتحقق إلا إذا كان المال حاضراً موجوداً ليمكن الاتجار به .

• • •

وتبطل الشركة بأحد الأمور التالية :

أولا : يبطل عقد الشركة بفسخ أحد الطرفين للشركة ، لأن عقد الشركة عقدها جائز غير لازم، ولذلك يباح لكل من الشريكين أن يطلب فسخ المشاركة، بشرط أن يكون ذلك بعلم صاحبه ، حتى ولو كان غائباً ، إذ المهم أن يعلم بالفسخ ، وبذلك الفسخ تبطل الشركة .

ثانياً : تبطل الشركة إذا مات أحد الشريكين ، لانتقال الملكية وفقدان أهلية التصرف بالموت ، سواء علم الشريك الآخر بموت صاحبه أم لم يعلم ، فالمشاركة تنفسخ من وقت الموت .

ثالثاً : تبطل الشركة إذا ارتد أحد الشريكين عن الإسلام ولحق بدار الحرب ، وحكم القاضي بذلك ، ولو عاد المرتد مسلماً لم تكن بينهما شركة .

رابعاً : يبطل عقد الشركة بجنون أحد الشريكين جنوناً مطبقاً ، لفقدان أهلية التصرف حينئذ .

خامساً : تبطل الشركة بإنكارها ، لأن الإنكار جحود ، فهو كالفسخ .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

البيع والبيع إلى أجل

السؤال : **ما حكمة مشروعية البيع في الإسلام ؟ وما هي شروطه ؟ وما حكم البيع إلى أجل ؟. أرجو الإجابة حسب المذهب الحنفي .**

الجواب :

المجتمع لا غنى له عن البيع والشراء ، لأنه لا يوجد إنسان يكون تحت يده دائماً كلُّ ما يحتاج إليه ، ولو فرضنا وجود شخص يملك كل شيء ، لأحسَّ بالحاجة إلى الاستغناء عن بعض ما يملك .

ولذلك عرف الناس نظام البيع والشراء منذ أقدم العصور ، وأقرته شريعة الله تبارك وتعالى ، كما أقرته قوانين الأرض .

و« البيع » في اللغة هو تمليك المال بالمال ، وهو مبادلة شيء مرغوب بشيء مرغوب ؛ وفي الشرع هو مبادلة المال بالمال بالتراضي بطريق الاكتساب . وكلٌّ من كلمتي البيع والشراء قد تستعمل بمعنى الأخرى ، فيقال : باع فلان الشيء إذا اشتراه .

والدليل على جواز البيع شرعاً قول الله تبارك وتعالى : « وأحل الله البيع ». ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « يا معشر التجار ، إن بيعكم هذا يحضره اللغو والكذب ، فشوبوه (أي اخلطوه) بالصدقة » . وهذا الحديث يدل على جواز البيع في الأصل ، وإن كان يحث على تطهيره من اللغو والكذب .

وقد بُعث النبي صلى الله عليه وسلم والناس يتبايعون ، فلم ينكر عليهم ذلك، بل أقرهم عليه .

وركن البيع في الأصل هو الإيجاب والقبول ، بأن يقول البائع مثلا : بعتُ

أو أبيع ، ويقول المشتّري : اشتريتُ ، أو أشتري . أو يقول البائع للمشتّري : خذ هذا الشيء بكذا من المال . فيقول المشتّري : قبلتُ واشتّريت . ويقول البائع : بعتُ . وهذه الكلمات من الطرفين تسمى عند الفقهاء : صيغة الإيجاب والقبول .

وهذه الصيغة هي التي تحقق التراضي بين الطرفين ، والله تبارك وتعالى يقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، إلا أن تكون تجارة عن تراضٍ منكم » . ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « لا يحل مال امرىء مسلم إلا بطيبة من نفسه » .

ويشترط في البيع من ناحية طرفيه : العقد والتمييز ، كما يشترط فيه من ناحية محل البيع — أي الشيء المبيع — أن يكون مالا متقوماً مقدور التسليم ، ويشترط لنفاذ البيع أن يكون البائع مالكاً لما يبيعه ، وله عليه ولاية .

* * *

وقد ينوب عن صيغة الإيجاب والقبول المبادلةُ بالفعل عن طريق التعاطي بالأيدي — أي الأخذ والإعطاء — فأحَدُ المتبايعين يعطي السلعة ، والآخر يعطي الثمن ، كأن تمد يدك بثمن الصحيفة اليومية إلى بائعها دون أن تتكلم ، وتشير إلى الصحيفة ، فيقدمها اليك البائع ، وهذا — كما نرى — يتم دون كلام ، والله تعالى يقول : « إلا أن تكون تجارة عن تراضٍ منكم ». والتراضي قد يتم بالأخذ والإعطاء ؟ دون توقف على كلام من أحد الطرفين ، كما رأينا .

وقد رُوي عن سفيان الثوري أنه جاء إلى بائع الرمان ، فوضع عنده فلساً ، وأخذ من الرمان رمانة ، ومضى ولم يتكلم .

والبيع بالتعاطي يجوز في الشيء النفيس ، كما يجوز في الشيء الخسيس ، ما دام ذلك يتم بالتراضي ، لأن الإسلام يحرص على تحقيق هدفين في البيع هما : العدل بين المتبايعين ، وصدور البيع بطريق التراضي منهما ، ولذلك لا يصح

بيع المكره ، لقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « لا يحل مال امرىء مسلم إلا بطيب من نفسه » .

* * *

ويشترط في البيع عدة أمور :

أولا : أن يكون البائع عاقلا ، حتى يكون أهلا للتصرف .

ثانياً : أن يقبل المشتري ما أوجبه البائعَ — أي عرضه ووافق عليه — دون تغيير فيه .

ثالثاً : أن يكون الإيجاب والقبول في مجلس واحد .

رابعاً : أن يكون الشيء المبيع موجوداً ، فلا يجوز بيع ما لم يوجد بعد ، كجنين الناقة في بطنها ، أو جنين جنينها .

خامساً : أن يكون الشيء المبيع قابلا للبيع والتملك ، فلا يجوز بيعُ إنسان حر ، ولا يجوز بيع خمر أو خنزير وكل ما كان محرماً ، كالميتة والأصنام وغيرها .

سادساً : أن يكون الشيء المبيع مملوكاً للبائع .

سابعاً : أن يكون المبيع وثمنه معلومين ، بلا جهالة لهما .

* * *

والبيع إلى أجل جائزٌ شرعاً ، فكما يجوز البيع بثمن حالٍّ يجوز البيع بثمن مؤجل ، وذلك إذا كان الأجل معلوماً ، وقد ورد عن رسول الله عليه الصلاة والسلام أنه قال : « من أسلف في تمر ، فليسلف في كيل معلوم ، ووزن معلوم ، إلى أجل معلوم » . كما رُوي أن النبي صلى الله عليه وسلم اشترى طعاماً من غير مسلم إلى أجل معلوم ، ورهنه درعه .

وإذا لم يكن الأجل معلوماً فإن البيع لا يصح ، لأن الجهالة فيه تمنع من التسليم الواجب بمقتضى العقد ، لأن صاحب الثمن سيطالب به في مدة قريبة ، والذي عليه الثمن سيحاول تسليمه في مدة بعيدة ، فيقع النزاع ويحدث الضرر ، ولذلك اشترطوا تحديد الأجل .

وإذا اتفق الطرفان على البيع بثمن عاجل ، ثم حدث التأخير إلى أجل جاز التأجيل ، ما دام البائع راضياً بذلك .

وإذا كان هناك أكثر من نوع للنقد المذكور في البيع ، كالدينار مثلا ، وجاء في ذكر الثمن أنه عشرة دنانير ، دون أن يبين نوعها ، انصرف إلى الدينار الغالب الاستعمال في محل البيع ، لأنه المتعارف ، ولكن إذا كانت الجهالة في نوع النقد مفضية إلى المنازعة فإن البيع يفسد ، ما لم ترتفع الجهالة بالبيان والوصف .

* * *

وينبغي للمسلم أن يتذكر أن الله تعالى قد شرع البيع ليكون باباً من أبواب التيسير على الإنسان ، والتسهيل في قضاء المصالح ، لأن الفرد لا يستطيع أن يستقل – منفرداً – بتهيئة كل مطالب الحياة ، فشرع الدين البيع والشراء لتبادل المنافع وتيسير المصالح .

وليتذكر أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد قال :

« رحم الله رجلا سمحاً إذا باع ، وإذا اشترى ، وإذا اقتضى » .

وسئل النبي صلى الله عليه وسلم : أي الكسب أفضل ؟.

قال : « بيع مبرور ، وعمل الرجل بيده » .

والبيع المبرور هو الذي لم يتلبس به غش ولا كذب (١) .

والله تبارك وتعالى أعلم .

---

(١) يمكن أن نراجع في موضوع « البيع والبيع إلى أجل » الجزء الخامس من كتاب « بدائع الصنائع » للامام علاء الدين الكاساني الحنفي ، والجزء الخامس من كتاب « فتح القدير » للامام الكمال بن الهمام الحنفي وتكملته لشيخ الإسلام علي بن أبي بكر المرغيناني الحنفي .

الرهْــن

السؤال : **ما هو الرهن ؟ وما فائدته ؟ وما دليل مشروعيته ؟ وما شروطه ؟ وهل يجوز انتفاع المرتهن بالشيء المرهون كالأرض الزراعية مثلا ؟ أرجو أن تكون الاجابة حسب المذهب الحنفي .**

الجواب :

كلمة « الرهن » معناها في لغة العرب : الحَبْس ، ومن ذلك قول القرآن الكريم : « كل نفس بما كسبت رهينة » أي محبوسة مقيدة بعملها حتى تنال جزاءها عليه .

والرهن في الشريعة هو ما يوضع وثيقة للدَّيْن ؛ فقد يحتاج الإنسان إلى اقتراض مقدار من المال إلى أجل ، ولكن المقرض صاحب المال يريد أن يطمئن على ماله حتى لا يضيع ، أو حتى لا يتهاون المقترض في رده إلى صاحبه عند حلول أجله ، فيطالب بأن يودع لديه المقترض شيئاً له قيمته من الحلي والجواهر ، أو الآلات والدواب ، أو البيوت والعقار .

وقد يريد المقترض نفسه أن يُدخل الثقة والطمأنينة على قلب مَن سيقترض منه ، فيعرض عليه أن يودع لديه شيئاً له قيمته ، حتى يعيد إليه ماله .

ولذلك كان من فضل الله تبارك وتعالى على عباده أن أباح لهم في شريعته السمحة طريقة الرهن ، لينتفعوا بها عند الحاجة إليها ، دون سوء استغلال لها في غير ما أراده الشرع الحكيم من فائدتها .

ومن هنا قال العلماء إن الحكمة في الرهن هي « توثيق الدَّيْن حتى لا يضيع على صاحبه » .

وقد دل القرآن الكريم على مشروعية الرهن ، حيث جاءت في سورة البقرة

آية « المدانية » وكتابة ورقة بالدَّيْن ، وفي أولها يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه » . ثم قال في الآية التي تليها : « وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة(١) ، فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي أؤتمن أمانته وليتق الله ربه » .

وجاء في الحديث النبوي الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اقترض مبلغاً من المال ، ورهن درعه عند صاحب المال ، وكان يهودياً .

والرهن بعمومه يشمل المنقول كالمتاع والدابة ، والعقار كالدار والأرض ، فيجوز في هذه الأشياء وأمثالها .

* * *

وركن الرهن هو الإيجاب والقبول ، يقول الراهن : رهنتك هذا الشيء في مقابل مالَك عليَّ من الدَّيْن ، حتى أقضيه إليك . أو يقول : هذا الشيء رهن عندك بحقِّك حتى أوفيه إليك . فيقول آخذ الرهن وهو الدائن : قبلتُ ، أو رضيتُ ، أو نحو ذلك .

ولو اشترى إنسان شيئاً ، ودفع إلى الباب ثوباً مثلا ، وقال له : أمسك عندك هذا الثوب حتى أحضر لك الثمن ؛ صار هذا الثوب رهناً ، وإن لم يذكر المشتري كلمة الرهن ، لأن العبرة هنا بالمعنى ، لا باللفظ .

ويشترط في كلٍّ من الراهن والمرتهن أن يكون عاقلا ، فلا يجوز الرهن من المجنون ولا من الصبي ، وأن يكون الشيء المرهون قابلاً للبيع ، بأن يكون موجوداً وقت عقد الرهن ، وأن يكون مالا متقوَّما مملوكاً معلوماً مقدور التسليم ، فلا يجوز رهن حَمْل في بطن شاة مثلا ، ولا رهن شيء لا يحل تملكه كالخمر أو الخنزير أو الميتة .

وفي حق أهل الذمة فيجوز رهن الخمر والخنزير ، لأنهما من الأموال التي لها قيمة عندهم .

---

(١) شرط السفر ليس بلازم في جواز الرهن ، لأنه يجوز في السفر وفي الحضر .

ويشترط لصحة الرهن أن يكون الشيء المرهون متميزاً ، لا شائعاً ، لأن الشيوع يمنع تحقق القبض .

وأن يكون الشيء المرهون فارغاً ، أو غير مشغول بحق آخر ، وأن يكون قبض المرهون بإذن الراهن .

ويجوز رهنُ مال الغير بإذنه ، كما إذا أخذ الإنسان مالا من شخص ، ورهن عنده شيئاً استعاره الراهن من إنسان آخر .

وعقد الرهن لا يراد منه الاستثمار أو الربح ، وإنما يراد منه الاستيثاق وضمان الدّين ، ومن هنا كان الأصل في الرهن أن الدائن لا يحل له الانتفاع بالعين المرهونة (أي الشيء المرهون) ، وإلا كان هذا قرضاً جرّ نفعاً ، والحديث النبوي الشريف يقول : « كل قرض جرّ نفعاً فهو ربا » .

ولكن إذا أذن صاحب الرهن للمرتهن عن طيب خاطر في الانتفاع بالعين المرهونة جاز له الانتفاع بها وإلا فلا . ولذلك يقول بعض العلماء(١) : المقصود من عقد الرهن هو الاستيثاق والضمان للدّيْن ، وليس عقداً للاسترباح أو الاستثمار ، فكان الشيء المرهون يقوم مقام الكفيل أو الصلك المكتوب بالدّين.

فإذا أذن صاحبُ الشيء المرهون — وهو المدين — بأن ينتفع الدائن بهذا الشيء خلال مدة الرهن ، جاز ذلك ، ويكون هذا الانتفاع جائزاً عن طريق الإذن ، لا بسبب القرض .

ولكن ينبغي للدائن أن يتأكد أن هذا الإذن كان اختياراً ولم يكن اضطراراً ، لأن المدين قد يأذن إذناً صُورياً تحت وطأة حاجته واضطراره .

إن الله تبارك وتعالى حينما شرع نظام الرهن ، أراد — وهو أعلم بمراده —

---

(١) انظر كتاب (الفتاوى) للشيخ محمود شلتوت ، ص ٣٤٤ — الطبعة الثالثة .
ويمكن أن يراجع موضوع «الرهن» في الجزء السادس من كتاب «بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع» للامام علاء الدين الكاساني الحنفي .

أن يجعله عاملاً من عوامل التيسير على النـاس ، حتى يسيروا في معاملاتهم الاقتصادية بلا مشقة أو تعسير ، وأن يكون أيضاً وسيلة لتوفير الثقة والطمأنينة عند صاحب المال على حقه ، وبذلك يقبل معاونة الراهن وإقراضه .

ولا يليق بعباد الله أن يقلبوا المقصود من الرهن إلى ضده ، فيجعلوه طريقاً إلى سوء الاستغلال للضرورات التي يتعرض لها بعض الناس .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

الحَجْـر

السؤال : **ما هو الحجر ؟. وما الحكمة من تشريعه؟. ومتى يكون؟. ومتى يرفع؟. أرجو الإجابة حسب المذهب الحنفي .**

الجواب :

الحجر في اللغة هو المنع . يقال : حجر فلان على فلان إذا منعه . والحجر في الشريعة هو المنع عن التصرف في حق شخص مخصوص . وقيل : إن الحجر في الشريعة منع مخصوص ، لشخص مخصوص ، وهو المستحق للحجر بسبب من الأسباب . وقيل : هو سلب ولاية المختار عن الجري على موجب الاختيار .

وهذه كلها تعبيرات تفيد معنى تقييد التصرف بالنسبة إلى شخص لا يصلح للتصرف المعتاد ، فقد يعرض لبعض الناس خلل في عقلـهم أو تمييزهم أو إدراكهم ، يؤدي إلى انحراف في سلوكهم ، أو سفه في تصرفاتهم ، مما يسبب أخطاراً عليهم ، أو أضراراً لغيرهم ؛ فكان من رحمة الله الرءوف الرحيم أن شرع نظام الحجر ، ليأخذ على أيدي هؤلاء ، حتى يمنع شرهم ، ويصد خطرهم ، فإذا ما زال عنهم الضعف أو السفه أو الانحراف أعيدت إليهـم حريتهم في التصرف كسائر العقلاء من الناس .

ومن هنا نرى أن تشريع الحجر فيه شفقة على خلق الله عز وجل ، لأن الناس متفاوتون في العقل وحسن التصرف ، ومنهم عديم العقل كالمجنون ، والمعتوه ناقص العقل ، والصبي الذي لا يحسن التصرف ؛ فكان الحجر على أمثال هؤلاء رحمة من الشريعة بهم وبغيرهم ، لأنهم يضرون أنفسهم وسواهم بهذه التصرفات .

* * *

والذين يُحْجر عليهم أصناف في طليعتهم الصبي الصغير ، والمجنون الذي لا يفيق ، والعبد المملوك ، فلا يجوز تصرف الصغير إلا بإذن وليه لنقصان العقل ، ولا يجوز تصرف المجنون الذي غلبه الجنون إلا إذا أفاق ، لعدم الأهلية في التصرف ، ولا يجوز تصرف العبد المملوك إلا بإذن سيده رعايةً لحق المولى .

والصبي والمجنون لا تصح عقودهما ولا إقرارهما ، ولا يقع طلاقهما ولا عتاقهما ، لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « كل طلاق واقع ، إلا طلاق الصبي والمعتوه » .

وإن أتلفا شيئاً لزمهما ضمانه . وإذا باع الصبي أو المجنون أو العبد شيئاً ، وهو يعقل البيع ويقصده(١) ، فالولي بالخيار ، إن شاء أجاز ذلك، إن كانت فيه مصلحة ، وإن شاء فسخه .

ويُمنع عن المجنون المال المملوك له ما دام مجنوناً .

وكذلك يُمنع مالُ الصبي عنه ما دام لا يعقل ، لأن وضع المال في يد من لا يعقل إتلاف للمال. ولا يعطى المال للصبي حتّى يؤنس منه الرشد في التصرف ، ولا بأس لوليه أن يدفع إليه شيئاً من ماله ، ويأذن له بالتجارة فيها ، على سبيل الاختبار ، والله تعالى يقول : « وابتلوا اليتامى حتّى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم » .

---

(١) قال العلماء : إن المجنون قد يعقل البيع ويقصده ، وإن كان لا يرجح المصلحة على المفسدة.

فإن رأى الولي من الصبي رشداً في تصرفه ، دفع إليه باقي أمواله . والرشد هو الاستقامة والاهتداء في حفظ المال وإصلاحه .

وإذا لم يأنس من الصبي رشداً منعه المال إلى أن يبلغ ، فإن بلغ رشيداً دفعه إليه ، وإن بلغ سفيهاً مفسداً مبذراً ، فإنه يمنع عنه ماله ما دام سفيهاً لا يحسن التصرف .

* * *

ولا يصح من المجنون تصرفات قولية ، فلا يقع منه الطلاق ولا العتق ولا الإقرار ، ولا ينعقد بيعه وشراؤه ، ولا تصح منه الهبة ولا الوصية ولا الصدقة .

وكذلك بالنسبة إلى الصبي الذي لا يعقل .

وذلك لأن أهلية التصرف شرط لجواز هذا التصرف وانعقاده شرعاً ؛ ولا أهلية مع فقدان العقل .

وأما الصبي العاقل فتصح منه التصرفات النافعة ، ولا تصح منه التصرفات القولية الضارة التي لا خير فيها إطلاقاً ، وإذا تصرف تصرفات تدور بين النفع والضرر ، كالبيع والشراء والإجارة ونحوها ، فإن هذه التصرفات تكون موقوفة على إجازة ولي الصبي ، فإن أجازها نفذت ، وإن ردّها بطلت .

* * *

ومن الذين يُحجر عليهم « السفيه » . ويقال لهذا النوع من الحجر « الحجر للفساد » .

والسفه خفة تعتري الإنسان فتحمله على اتباع الهوى والعمل بخلاف موجب الشرع والعقل ، ويتمثل ذلك عادةً في تبذير المال وإتلافه على خلاف مقتضى العقل والشرع .

وفي هذه الحالة لا يُدفع إلى السفيه ماله ، حتى يؤنَس منه الرشد .

ويجوز للسفيه أن يتزوج ، ولا نمنعه أن يؤدي الحج المفروض عليه ، ويخرج وليّه زكاته – أي زكاة المحجور عليه – من ماله ، وكذلك ينفق عليه وعلى أولاده وزوجته ومن تلزمه نفقتُهم من أقاربه أو ذوي أرحامه .

وكذلك تنفذ وصيتُه في الطاعات والقُربات من ثلث ماله .

وقد استدلوا على مشروعية الحجر على السفيه بقول الله تبارك وتعالى : «فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل» . فقد جعل الله لكل واحد من هؤلاء ولياً ؛ وكذلك استدلوا بقوله عز من قائل : «ولا تؤتوا السفهاء أموالكم (١)» فنهى عن إعطاء المال السفهاء .

وعلى هذا لا يُدفع إلى الغلام السفيه مالُه حتى يؤنس منه رشدُه ، ولو بلغ ، ولا يجوز تصرفه في ماله ، لأن علة المنع موجودة ، وهي السَّفَه ، فيبقى الحجر ما بقيت العلة .

* * *

وإذا كان هناك مَدينٌ مفلس ، وطلب غرماؤه – وهم أصحاب الدَّيْن عليه – أن يحجر القاضي عليه ، استجاب لهم ، إيفاءً لحق الغرماء ، ودفعاً للظلم .

وعلى القاضي حين يحجر على هذا المدين المفلس أن يبيّن أنه قد حجر عليه في ماله احتياطاً بسبب الدَّيْن ، ويكون الحجر هنا على مال المدين دون سائر تصرفاته الأخرى ، ويمنعه القاضي من البيع والإقرار بمال حتى لا يضر بذلك الغرماء (أصحاب الدَّيْن) .

وإذا كان لهذا المدين كسب وزعه القاضي على أصحاب الديون بحسب حصصهم ، لاستواء حقوقهم في قوتها .

---

(١) المقصود : أموالهم ، وإنما عبرت الآية بكلمة «أموالكم» للإشارة إلى أن تملك الفرد المال ليس معناه ، انفراده الشخصي بالتصرف فيه حتى ولو كان سيئاً .

ويصدر الحجر بقرار من القاضي ، ويزول أيضاً بقرار من القاضي(١) .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

بيت مال المسلمين

السؤال : **ما هو بيت المال عند المسلمين ؟.**

الجواب :

كانت الأموال التي تُجمع من الغنائم أو نحوها في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم تقسم على أصحابها ومستحقيها أولا بأول ، وفي عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه تولى أبو عبيدة عامر بن الجراح ، رضي الله عنه ، تقسيم الأموال على مستحقيها ، وقال لأبي بكر : « أنا ألفيك المال » .

وأنشأ أبو عبيدة نواة مبدئية لبيت المال في داره ، وأخذ ينفق ما فيه على المسلمين بعدل وقسط . وفي عهد عمر بن الخطاب رضوان الله عليه انشىء بيت المال الذي تجمع فيه أموال المسلمين العامة ، وكان البيت في أول الأمر يسمى « الديوان » .

وأمر عمر بإحصاء المجاهدين والأصناف الأخرى من الأمة الذين يستحقون شيئاً في بيت المال ، وحدد لكل واحد منهم عطاءه ، أو حقه يأخذه من بيت المال .

والديوان في الأصل هو ما يثبتون في جرائده وقوائمه أصول الأمـــوال

---

(١) يمكن أن نراجع موضوع « الحجر » في الجزء السابع من كتاب « بدائع الصنائع » للإمام الكاساني الحنفي ، والجزء السابع من كتاب « فتح القدير » للامام الكمال بن الهمام الحنفي ، وتكملته لشيخ الإسلام علي بن أبي بكر المرغيناني .

المجموعة من جهاتها المختلفة ، ثم توزع الأموال المجموعة في بيوت بعد ذلك ، ويقيمون عليها حراساً لها ومباشرين .

وكان كل مال لا وارث له ، أو لا مالك له يضم إلى بيت مال المسلمين فيصبح من المال العام .

ثم تعددت بيوت المال في العواصم والمدن باتساع الدولة الإسلامية وتعـدد أقاليمها .

وتتكون محتويات بيت المال الإسلامي في العادة من الغنيمة والفيء والخراج والعشر والزكاة والصدقات التطوعية ونحوها .

وفي عهد بني أمية كانت تخصص للخليفة مخصصات من بيت مال المسلمين ، حيث تنفق هذه المخصصات على بيت الخليفة وسرادقاته وستوره وغير ذلك ، فلما تولى خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز الخلافة ، وأقاموا له في اليوم الأول لخلافته هذه السرادقات والستور ، وقدموا إليه الثياب والفرش حسب العادة ، أعرض عن هذا كله ، وأبطل العمل به ، وقال لتابعة « مزاحم » :

« يا مزاحم ضُمَّ هذا إلى بيت مال المسلمين » . وقدموا إليه قوارير العطور والطيب التي كانت تخصص للخليفة ، فرفض هذا وأبطله وقال لتابعه : « يا مزاحم ، ضم هذا إلى بيت مال المسلمين » .

ويقابل بيت مال المسلمين الآن وزارة الخزانة أو وزارة المالية .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

مذهب أبي ذر الاقتصادي

السؤال : **ما الرأي في الاتجاه الاقتصادي الذي اتجه إليه أبو ذر الغفاري رضي الله عنه ؟.**

الجواب :

كان أبو ذر الغفاري يعتمد في دعوته الاقتصادية على قول الله تبارك وتعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها في سبيل الله ، فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها في نار جهنم . فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون(١) » .

وكان يرى أن هذه الآية تحارب خزن المال وتجميده ، لأن الكنز هو جمع المال ، ورص بعضه على بعض ، وخزن الدنانير والدراهم في الصناديق أو دفنها في التراب ، مع إمساكها عن الإنفاق فيما شرعه الله من وجوه الخير والإصلاح. ولذلك كان أبو ذر يثور في وجوه الكانزين والباخلين والمانعين للزكاة وغيرها من حقوق المال في الإسلام ، وكان يقول : « لا يبيتن عند أحدكم دينارٌ ولا درهم ، إلا ما ينفقه في سبيل الله أو يعده لغريم » أي لقضاء دين من الديون .

ومقتضى هذا الرأي الذي آمن به أبو ذر أنه لا يجوز للانسان أن يحتفظ لديه بأكثر من حاجته ، ومن الواضح أن هذا مثل من أمثلة الزهد والإيثار . ولا يطالب به مجموع الأفراد ، إذا كانوا قد أدوا حقوق المال المختلفة التي حددتها الشريعة الغراء ، ولذلك جاء في « تفسير المنار » هذه العبارة : « نصوص الكتاب والسنة تنافي إنفاق كل ما يملك المرء ، وتأمر بالقصد والاعتدال . فمن الآيات قوله

---

(١) سورة التوبة ، الآيتان ٣٤ و ٣٥ .

تعالى : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً » ، وقوله : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً » ، ومن الأحاديث الصحيحة المشهورة حديث نهيه صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن التصدق بجميع ماله ، وإجازته بالثلث مع قوله : « والثلث كثير » .

وكان أبو ذر يؤمن بأن المال العام يجب أن يكون للأمة ، لا مال الدولة ، ولا مال الحكومة ، ولا مال الحاكم ، وهذا بلغة العصر يسمى « التأميم » . ولذلك كان ينادي أبو ذر بأن كل ما تسيطر عليه الدولة من مال ثابت أو منقول ، يجب أن يكون ملكاً للشعب ، وأن يسمّى مال الأمة ، أو مال الشعب ، وأن تتحقق سيطرة الأمة عليه عملا وقولا . وحينما رأى أبو ذر بعضَ الحاكمين يسمي المال العام « مال الله » خاف من هذه التسمية ، وخشي أن ينفرد الحاكم بالتصرف في هذا المال تحت هذه التسمية ، بمقتضى أنه الحاكم المفوض من الجماعة ، ولذلك ثار أبو ذر على هذه التسمية . وطالب بأن يقال للمال العام «مال المسلمين » ، حتى يكون مفهوماً نصاً وروحاً أنه مال الأمة ، لا مال الحاكم ولا مال الدولة .

ولقد روى الطبري وابن الأثير في ذلك أن أبا ذر ذهب إلى معاوية وقال له : ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين مال الله ؟. فقال معاوية مؤولا : يرحمك الله يا أبا ذر ، ألسنا عبادَ الله والمال ماله ؟ . فقال أبو ذر متمسكاً برأيه : فلا تقله . فلم يسع معاوية إلا أن قال : سأقول مال المسلمين .

ومقتضى هذا كما يقول بعض الباحثين أن ينفق المال العام على مصالح الشعب ، ثم يوزع الفائض على الأفراد ، ولذلك كانت الدولة الإسلامية على عهد أبي ذر تأخذ بنظام « العطاء » الذي يوزّع على الناس كل سنة ، وكأن هذا العطاء فائضُ مكاسب ، فهو يرد على الأفراد بعد قضاء كل مصلحة من مصالح الجماعة .

ولقد كان أبو ذر في دعوته الاقتصادية الصارمة العنيفة لا يقبل تردداً ولا

تراجعاً ، وكلما نَهْنَهَ أحدٌ من غلوائه في دعوته قال : « والله لن أدعَ ما كنت أقول » . ثم يكرر قوله : « بشِّر أصحاب الكنوز بكي في جنوبهم ، وكي في جباههم ، وكي في ظهورهم » . وحدَّث الأحنف بن قيس قال : جلست إلى ملأ من قريش ، فجاء رجل خشن الشعر والثياب والهيئة ، حتى قام عليهم فسلم ثم قال : بشر الكانزين برَضْف (حجارة محماة) يحمى عليها في نار جهنم ، ثم يوضع (الحجر المحمى) على حلمة ثدي أحدهم حتى يخرج من نَغْضَ كتفه (أي أعلى الكتف)، ويوضع على نغضَ كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه يتزلزل.

ثم ولى فتبعته ، وجلست إليه وأنا لا أدري من هو ، فقلت : لا أرى القوم إلا وقد كرهوا الذي قلتَ . قال : إنهم لا يعقلون شيئاً . ثم عرف أنه أبو ذر .

وقال أبو ذر إن خليله النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما يسرني أن عندي مثل أحد هذا ذهباً ، تمضي عليَّ ثالثة ، ومنه عندي دينار ، الا شيئاً أرصده لديْن ، إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا » . (أي أنفقه في كل ناحية).

ثم أضاف أبو ذر قوله : « إن هؤلاء لا يعقلون ، إنما يجمعون الدنيا ، ولا والله ما أسألهم دنيا ، ولا أستفتيهم عن دين حتى ألقى اللهَ عز وجل» .

ولقد جاء في « تفسير المنار » بيان للسبب الحقيقي لتشدد أبي ذر في دعوته ، وهو « استعداده الفطري للأخذ بالعزائم واحتمال الشدائد ، واحتقار التنعم والسعة في الدنيا ، وعُرِفَ هذا التشدد عن أفراد من الصحابة رضوان الله عليهم ، ونهاهم عنه صلى الله عليه وسلم ؛ وقد اختبره معاوية ، فأرسل إليه مالا كثيراً ، فلم يلبث أن تصدق به ، وأرسل إليه صهيب بن سلمة – وهو أمير بالشام – ثلاثمائة دينار ، وقال : استعن بها على حاجتك ، فردها وقال لرسوله : « ارجع بها إليه ، أما وجد أحداً أغرَّ بالله منا ؟ ما لنا إلا الظل نتوارى به (يعني المسكن) ، وثلاثة من غنم تروح علينا ، ومولاة لنا تتصدق علينا بخدمتها ، ثم إني أتخوف الفضل » .

وكان من نتيجة ثورة الصحابي أبي ذر الغفاري أن أخرجوه من المدينة إلى

قرية « الرَّبَذة » ، وخرج الإمام علي ليودعه فقال له : « يا أبا ذر ، إنك غضبت لله ، فارجُ من غضبت له ، إن القوم خافوك على دنياهم ، وخفتهم على دينك، فاترك في أيديهم ما خافوك عليه ، واهرب بما خفتهم عليه ، فما أحوجهم إلى ما منعتهم ، وما أغناك عما منعوك . وستعلم من الرابح غداً والأكثر حُسّداً . ولو أن السموات والأرض كانتا على عبد رتقاً ، ثم اتقى الله ، لجعل الله له منهما مخرجاً ، لا يُؤْنِسنك إلا الحق، ولا يُوحِشَنّك إلا الباطل ، فلو قبلت دنياهم لأحبوك ، ولو قرضت منها لأمِنوك » .

وظل أبو ذر لمبدئه وفياً حتّى لحق بربه ، عليه رحمة الله .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

تحريم الربا

السؤال : **يدعو بعض الناس إلى تحليل صور خاصة من المعاملات الاقتصادية ، تقوم على أساس الفائدة ، أو على أساس الربا ، فما رأي الاسلام في الربا ؟.**

الجواب :

أفهم أن الاقتصاد في الإسلام يقوم على عدة أسس ، منها العمل والكسب الطيب ، وإباحة التجارة ، وتحريم الربا ، والأمر بالتعاون ، والأمر بالنفقة والصدقة والإحسان ، مع فريضة الزكاة ، وأفهم كذلك أن تطبيق هذا النظام الاقتصادي ، قد يحتاج إلى وسائل في التطبيق ، تختلف في شكلها باختلاف هذه البيئات .

ولكني لا أفهم أن يكون تطبيق هذه الأسس بحال من الأحوال محلِّلا لحرام أو محرماً لحلال .

وفي أول ما حرم الله وأجمعت الأمة على تحريمه ، الربا بجميع أنواعه ، وذلك أمر مفهوم من الدين بالضرورة ، لأن النصوص فيه صريحة متكاثرة .

وما دام الربا حراماً بالنص والإجماع ، فلا مجال فيه للرأي أو الاجتهاد ، لأنه لا اجتهاد مع النص . والذين يفتون بحل نوع من الربا ، اليوم أو بالأمس ، يحاولون أن يوهموا الناس أنهم يفتون بهذا لأن البلوى قد عمت بالربا ، وارتبطت به مصالح الناس ومعاملاتهم . ومن الأصول الفقهية كما قلنا أنه لا اجتهاد مع النص ، وإذا كان يقال : « حيثما وُجدت المصلحة فثَمَّ شرع الله » فإننا نجيب بأن ما نص عليه الشارع يتضمن مصلحة ، ففيه المصلحة قائمة ، فلا مجال للاجتهاد فيما ورد فيه النص ، ولا بحث فيه عن المصلحة لأنها موجودة ، وإلا كان ذلك تحصيلا لحاصل يتنزه عنه العقلاء من جهة ، وكان تحريفاً أو تأويلا لنص الشارع من جهة أخرى ، فيكون افتراء على الله رب العالمين ، ويا له من إثم عظيم .

ويستدلون أيضاً على إباحة بعض أنواع الربا المحرمة بقضها وقضيضها ، بأن الآية الكريمة تقول : « لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة » ، ويحددون التحريم بهذا الوصف وهو كون الربا « أضعافاً مضاعفة » ، ويتعللون لذلك — خطأً — بأن هذا هو الذي كان معروفاً عند العرب وقتَ نزول النص ، وليس هذا بصحيح ، فقد كان أكل الربا أضعافاً مضاعفة أحدَ الأنواع الربوية التي يتعامل بها العرب عند نزول النص الكريم ، بدليل ما ذكره المفسرون ومن بينهم الامام الرازي ، وهو أن العرب كانوا يعطون الدَّيْن للمقترض ، ويتقاضَون في مقابل الإقراض قدراً معيناً من المال كل شهر ، فاذا حل الأجل أخذوا رأس المال كما هو . وكان هذا النوع من التعامل بالربا موجوداً إلى جوار النوع الآخر وهو ربا الأضعاف المضاعفة ، ثم جاء النص الشامل العام الصريح وهو قوله تعالى : « وأحل الله البيع وحرم الربا » .

وكذلك يقولون : إن ما يحرم من الربا هو ما تُستغل فيه حاجة المقترض ، وهذه الفتوى تقال مع وجود نظام ربوي قائم شائع في المعاملات المصرفية

وغيرها ، ويكفي هنا أن نسائل هؤلاء : هل البنوك التي تشيع نظام الربا بيننا، وتعتبر العمود الفقري لهذا النظام ، هل هذه البنوك تقرض أموالها في غالب معاملاتها للاستغلال ، ولا تقرض لذي الحاجة حتى نقول إنها لا تستغل حاجة المحتاج ؟. إن كثيرين ممن يلجأون إلى البنوك للاستعانة عن طريق الاقتراض العادي ، أو عن طريق الرهن ، أو غير ذلك ، محتاجون أيضاً ، ومع ذلك لا تنظر البنوك إلى حاجة هؤلاء ، ولا تقيم لها وزناً ... والرجل الذي تسيل بين يديه النقود على نافذة المصرف فتدخل ثم تخرج ،وفي خلالها ترسب منها رواسب، هي الفوائد وهي الربا ... هذا الرجل لا يمكن أبداً أن يدخل في تقديره أو اعتباره أن الشخص الذي يقترض منه فقير أو غني ، وإنما هو نظام عام يطبقه على الجميع .. فالذين يزعمون تحليل الربا إلا على المحتاج ، كان يجب أن يقدروا في الوقت الذي زعموا فيه مثل هذا الزعم ، أن الذين يتحكمون في نظام الربا لا يفرقون بين من يحتاج ومن لا يحتاج ، فهم يطبقون الربا كنظام اقتصادي ، والإسلام يحارب الربا من أساسه ، وفي جميع أنواعه ، لأن الإسلام لا يريد أن يقيم اقتصاده على أساس الربا ، وإنما يقيمه على التعاون والتعاطف بين الناس .

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوناً يتخبط » . ويقول : « إن الربا وان كثر فعاقبته إلى أقل » .. ويقول : « يأتي على الناس زمان يأكلون فيه الربا » ، قيل : يا رسول الله أكل الناس ؟ فأجاب عليه الصلاة والسلام : « « من لم يأكله منهم أصابه غباره » .

وهذا تصوير دقيق للوضع المؤلم الذي وصل اليه المجتمع من انتشار التعامل الربوي في أرجائه .

• • •

ومن أعجب العجب أن يتعلل من يحلل نوعاً من الربا بقول الله تعالى : « لا تأكلوا الربا أضعاف مضاعفة » ، مع أنه ليس المراد بالأضعاف هنا أن يصير الربا

مثلَ أصل الدَّيْن عدة مرات ، فان الآية لم تذكر أصل الدين ، بل اقتصرت على ذكر الربا ، فتكون « الأضعاف المضاعفة » راجعة إلى الربا ومتعلقة به ، لأن العرب في الجاهلية كان الواحد منهم يستدين ، فاذا حل الأجل قال لصاحب المال : أجِّلني وأخِّر دينك ، وأنا أزيدك على مالك ، ثم يتكرر التأجيل فتتكرر الزيادة ، فيصبح المجموع من الربا أضعافاً مضاعفة ، لأن فائدة الربا تصير أمثالَ أصلها ، وهذا كما سبق تصوير لبعض الألوان الربوية التي كانوا يأتونها .

وأما حين ذكر القرآن الكريم « رءوس الأموال » ، وهي أصول الدين ، فقد صرح معها بأن أي زيادة على رأس المال حرام لا يجوز أخذها ، فقال : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ، فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون » . وهذه الآيات هي آخر ما نزل من الآيات في شأن الربا ، فتكون هي المرجع الأخير في تحديد الحكم فيه ، فهي المقررة الفاصلة ، وهي الحكم النهائي في الربا .

وفي صدر هذه الآيات جاء الحكم الصريح الواضح ، الذي لا لبس فيه ولا ابهام ، والذي جاء فيه تحريم الربا تحريماً عاماً ، دون ذكر لبعض صوره ، كصورة ربا الأضعاف المضاعفة وغيرها ، فقال الله جل جلاله : « وحرم الربا » .

ومع هذا فكثير من المعاملات الربوية الآن يوجد فيها معنى « الأضعاف المضاعفة » . لأن الرجل يقترض المال ، ويظل عنده عادة سنوات قد تستمر إلى عشر أو عشرين ، وفي كل سنة يتحمل فوق الدين نسبة مئوية ، مثل خمسة في المئة من رأس المال ، وفي العام التالي يتحمل هذه النسبة المئوية مرة تالية ، مع تحمل نسبة هذه النسبة المئوية ، أي مع تحمل ربا ما زاد من ربا قبل ذلك ، فيتكرر تحمل المدين للربا ، ويتكرر تحمل المدين لربا الربا ، وهكذا .

ولقد قال المفسرون في تفسير الآية : « لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة » :

ان الله نهى عباده المؤمنين « عن تعاطي الربا وأكله أضعافاً مضاعفة كما كانوا في الجاهلية يقولون إذا حل أجل الدين: إما أن تقضي وإما أن تربى، فان قضاه، وإلا زاده في المدة، وزاده الآخر في القدر، وهكذا كل عام، فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيراً ».

فقوله تعالى: « أضعافاً مضاعفة » جاء على سبيل التوبيخ لا التقييد، وقال المفسرون: « ليس المراد من قوله تعالى: (أضعافاً مضاعفة) أن هذا النوع من الربا حرام دون غيره، بل تخصيصه بالذكر للتوبيخ، وذكر شناعة ما يقع فيه الربويون عادة »، وهذا لا يفيد أبداً أن الربا جائز بغير الأضعاف المضاعفة، بل الربا كله حرام.

والواقع المشاهد أن قليل الربا يؤدي إلى كثيره، ومن استباح الربا في أول الطريق قليلا خفيفاً وصل إلى وسط الطريق أو نهايته وهو يرتكبه أضعافاً مضاعفة والفقهاء قد نصوا على أن قليل الخمر حرام وإن كان لا يسكر، لإنه سيؤدي إلى الكثير، وعلى تحريم الخلوة بالأجنبية، وان لم يقع في أثناء الخلوة سوء لأن شأنها أن تفتح الباب لما بعدها، وذلك كله من باب سد الذرائع، فنستطيع هنا أن نقول — مع ظهور الفارق بين حالة وحالة —: ان الإسلام حرم قليل الربا كتحريمه لكثيره، لأن القليل فوق كونه شراً في نفسه يؤدي إلى شر اعظم منه، وهو ربا الأضعاف المضاعفة، والإمام القرطبي يقول: « والربا أحق ما حميت مراتعه وسدت طرائقه ».

ومن الميسور أن يقال: إن ذكر الأضعاف المضاعفة في الآية جاء على طريقة قوله تعالى: « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ». فقد تضمنت هذه الآية حرمة التحريض على البغاء بجميع حالاته، ولكنها ذكرت تصويراً لبعض حالات التحريض البشعة، فقد كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة أرسلها تزني، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها، وكان لعبد الله بن أبي بن سلول إماء يكرههن على البغاء. ولذلك يقول المفسرون إن قوله تعالى: « ان أردن تحصناً » خرج مخرج التصوير، فلا نعمل

بمفهومه ، أي فلا يكون التحريض عند عدم ارادة التحصن مباحاً ، وانما ذكر القرآن الكريم هذا لأن الشأن في الاكراه أو الارغام أن يكون عند اظهار الأمة للرغبة في التحصن ، ولو رغبت الجارية في الزنى لما تصورنا أن يكون هناك اكراه لها ، ولماذا يكون اكراه وليس هناك منها امتناع ؟...

ثم يبقى بعد ذلك أن الإقدام على الزنى بأية صورة من صوره — باكراه أو بغير اكراه — حرام ممنوع بقوله تعالى : « ولا تقربوا الزنى انه كان فاحشة وساء سبيلا » .

وقد جاءت آيات أخرى على طريقة « ان أردن تحصناً » كقوله تعالى : «واذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ان خفتم أن يفتنكم الذين كفروا » . وقصر الصلاة لا يختص بحال الخوف وحده ، ولكن الله تعالى ذكر حالة الخوف لأنها الغالبة في ذلك الأمر ...

أما بعد ، فقد جاء رجل إلى الإمام مالك ابن أنس فقال له : يا أبا عبدالله ، إني رأيت رجلا سكران يتعاقر ، يريد أن يأخذ القمر ، فقلت : امرأتي طالق ان كان يدخل جوف ابن آدم أشر من الخمر . فقال الامام مالك : ارجع حتى أنظر في مسألتك . فأتاه الرجل من الغد ، فقال له الامام : ارجع حتى أنظر في مسألتك ، فرجع الرجل مرة أخرى ، ثم عاد اليه في الغد ، فقال له الامام : امرأتك طالق ، لأنني تصفحت كتاب الله وسنة نبيه فلم أر شيئاً أشر من الربا ، لأن الله تعالى أذن فيه بالحرب ... يشير الى قوله تعالى في شأن آكلي الربا : « فأذنوا بحرب من الله ورسوله » .

نسأل الله أن يرينا الحق حقاً ، ويلهمنا اتباعه ، وان يرينا الباطل باطلا ، ويعيننا على اجتنابه ، انه العاصم من الفتنة والضلال .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

انصراف الناس عن الوقف

السؤال : **نلاحظ انصرافَ الكثير من الناس عن نظام الوقف الخيري ، فما أسباب ذلك ؟. وماذا تقترحون في هذا المجال ؟.**

الجواب :

الوقف من الناحية الدينية شيء مجمع على جوازه ، وكثير من الفقهاء والمسلمين يرون أنه تصرف مستحب ، بناءً على ما وقع بين سيدنا عمر بن الخطاب وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين ذهب عمر إلى النبي ، وقال له : يا رسول الله ، إني أصبتُ أرضاً بخيبر ، لم أصب قط مالاً أنفسَ عندي منها ، فما تأمرني فيها ؟. فقال له النبي صلوات الله وسلامه عليه : « إن شئت حبستَ أصلها ، وتصدقتَ بها ، غير أنه لا يباع أصلُها ، ولا يبتاع ، ولا يوهب ، ولا يورث » ، فتصدق بها عمر على الفقراء وذوي القربى والرقاب وابن السبيل والضيف .

وإذا راجعنا تاريخ الإسلام وجدنا أن الوقف كان يمثل في أغلب الأحيان جوانبَ الخير العملي في نفوس المسلمين الخيِّرين القادرين ، فقد تفنن المسلمون في ألوان شتى من الأوقاف أو « الأحباس » كما يسميها بعضهم ، فوقفوا على مختلف الجهات النافعة : جهات العبادة كالمساجد وبيوت الله ، وجهات العلم ، وجهات البر والإحسان والصدقة ، وبعضهم وقف أوقافاً على إطعام الدواب الضالة ، وعلى الطيور في بعض الأماكن ، وبعضهم وقف أوقافاً على شراء بدل الأواني التي تكسر من الخدم والصبية في الشوارع ، وكذلك هناك أوقاف لإيواء الغرباء وإطعام المساكين والمنقطعين للعبادة وطلب العلم . والواقع أن هناك جوانب كثيرة من جوانب المجتمع الإسلامي ما كان ينهض بناؤها لولا

وجود الأوقاف الخيرية التي أريد بها وجه الله ، وأريد بها الإنفاق على جهات الخير التي لا يوجد لها رصيد معين للانفاق عليها .

فالأزهر الشريف، وهو أكبر جامعة إسلامية في العالم ، قام في أغلب عصوره على أوقاف الخيرين ، والمساجد الكبيرة التي كانت تلحق بها بيوت لسكنى الطلاب أو لإيواء الفقراء أيضاً ، أغلبها كانت قائمة على وقف الواقفين ، واستمرت هذه الدور قروناً طويلة .

وقد لوحظ في العصور الأخيرة أن نزعة التقرب إلى الله تعالى ، أو نزعة الحرص على الخير والبر عن طريق الوقف ، بدأت تتقلص وتنكمش ، وقد تعاون فيما أعتقد على هذا التقلص عدةُ أسباب : منها فيما أعتقد سيطرة الشح على نفوس الناس ، فبعد أن كانت حياة المجتمع الإسلامي مزيجاً كريماً طيباً من رعاية المادة والروح ، ومن العمل للحياة الدنيا مع الإعداد للآخرة ، ومن إرضاء مطالب النفس المشروعة في الحياة مع التطوع والتقرب إلى الله عز وجل بمعاونة الآخرين المحتاجين ، أخذ الشح يسيطر على نفوس الناس ، فهم يكتزون أموالهم، ويحرصون على ما في أيديهم، مع أن الوقف نفسه فيه نوع من صيانة مصدر الريع بصورة لو أن العاقل تدبرها لفهم أن فيها أيضاً تحقيقاً لادخاره وصيانة أمر المستقبل حسب طاقة الإنسان ، فقد يقف وقفه على ذريته ، أو ما تسلسل من أقاربه ، أو ما قارب ذلك ، فيكون قد صان بالوقف مصدر إيراد متجدد عن طريق الوقف متى اعتدل واستقام أمره .

وكذلك من أسباب انصراف كثير من الناس عن التوسع في الوقف على جهات الخير والبر ، سواء أكانت خاصةً أم عامة ، سوءُ الاستغلال في الماضي لهذه الاوقاف عن طريق النظار الذين تولوا إدارتها ، وهذا سبب قد شكونا

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتابي « شكيب ارسلان داعية العروبة والإسلام » ، صفحة ٢٠٩ وما بعدها ، مطبعة مصر سنة ١٩٦٣ . وكذلك في كتابي « الدين والمجتمع » صفحة ١١٩ . المطبعة العربية سنة ١٩٧٠ .

منه مر الشكوى ، وتعددت مآسيه ومتاعبه خلال عشرات ماضية من السنين ، وإن كانت الشكوى هنا لا تتعدى دائرة لوم هؤلاء الذين أساءوا التصرف دون التعرض لأصل المسألة ، وهو أن الوقف في حد ذاته أمر يحقق ثمرات كثيرة ومنافع طيبة ، فاذا عرض له في طريقه سوء استغلال من النظار المشرفين على إدارة الوقف ، فإن العلاج في هذا الموقف هو إصلاح ما عرض في طريقه من سوء استغلال أو سوء استعمال ، ولعل هذا السبب كان الدافع الى تكرار المحاولة لاصلاح الشؤون الادارية للأوقاف .

وأقترح أولا أن نبصر القادرين من المسلمين بتاريخ الوقف في الإسلام ، والخيرات الكثيرة التي كانت تعود على الأمة الإسلامية من ورائه ، في العصور الطيبة التي أحسن الناسُ فيها استعمالَ هذه الأوقاف . وأقترح ثانياً : أن نبصر هؤلاء القادرين بما يعودُ عليهم من خير عاجل وآجل، ومن راحة لضمائرهم في حياتهم ، واطمئنان إلى ثواب الله العظيم في أخراهم ، إذا اتجهوا هذه الوجهة ، وخصصوا بعضاً مما يملكون لجهات الخير المتعددة الكثيرة ، التي يحتاج إليها المجتمع الإسلامي فعلا . ثالثاً : أن نبصّر الذين يقفون بأن يتجهوا في وقفهم إلى الجهات التي يناسبها الوقف وتحتاج إليه ، فقد كان هناك واقفون يقفون أوقافاً تثير العجب بشروطها أو قيودها أو جهات صرفها .

والله الهادي إلى سواء السبيل .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الاسلام والاشتراكية

السؤال : **ما موقف الإسلام من الاشتراكية ؟**

الجواب :

أفهم حسب العرف السائد أن « الاشتراكية » كلمة تقابل تقريباً كلمة الرأسمالية ، لأن الاشتراكية تدعو إلى محاربة الفروق الواسعة بين الطبقات وإلى الاشتراك في الخير والتقاسم في النعمة .

ولا شك أن روح الإسلام وتشريعاته تدل على أنه حريص على أن يحقق الاشتراكية الصحيحة التي تقرب بين طبقات المجتمع الإسلامي ، فالقرآن الكريم يخبرنا بأن سبب هلاك الأمم والجماعات يعود إلى انفراد طائفة من الناس بالترف والتنعم ، الذي يصحبه عادة وجود كثرة في بؤس وفقر ، فهو يقول : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » . واشتراكية الإسلام تقوم على أساس أن المسلمين الذين يؤلفون المجتمع الإسلامي إخوة بمنطوق القرآن الكريم : « إنما المؤمنون إخوة » ، اوالحديث يقول : « وكونوا عباد الله إخواناً » ، ونفهم من هذه النصوص أن اشتراكية الإسلام ليست قانوناً ، وليست نظاماً مادياً تضطرنا إليه الحياة ، فنتعايش به بحكم هذا الاضطرار ، وإنما هي أساس ينهض على روابط معنوية وروحية وقلبية تحقق معنى الأخوة بين أفراد هذا المجتمع ، فيتراحمون كما يتراحم الإخوة الأقربون .

كما أن اشتراكية الإسلام تقوم على أساس أن الجميع عباد الله ، يجب ألا يُحرموا التمتع بنعمه وآلائه ، وهذا الأساس أيضاً يعني أن الدعوة إلى إشتراكية الإسلام تتضمن تذكيراً للغني قبل الفقير بأن ما في أيدينا من متع أو آلاء إنما هو موهوب لنا من الله سبحانه وتعالى ، فلايصعب على نفس الغني أن ينزل عن جزء من متعه ونعمه إذا طُلب منه ذلك ، فهو مال الله سبحانه وتعالى ، جعل عبادُه مستخلَفين فيه ، لينظر ماذا يعملون ، وليحاسبهم على ما يفعلون ؛ والقرآن يقول : « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » .

وليس معنى أن المال مال الله أن الإسلام يحارب الملكية الفردية ، أو يحول دون تنميتها وزيادتها ، بل هو على العكس يحترمها ، ويحرص على صيانتها ،

ويحوطها بحوافظ كثيرة ، والحديث النبوي يقول : « كل المسلم على المسلم حرام ، دمه ، وماله ، وعرضه » ، فوضع حرمة المال بين حرمة الدم من جهة ، وحرمة العرض من جهة أخرى . ولكن على الرغم من احترام الإسلام لهذه الملكية الفردية نراه يحرص على أن تنبع هذه الملكية من مصدر مشروع شريف كريم ، لا من السرقة أو الاغتصاب أو أي مصدر ظنين لا يعتمد على أصل مشروع . ولذلك نجد الإسلام ينظر إلى العمل المصحوب بعرق صاحبه على أنه من أهم المصادر التي تفضي إلى هذا التملك ، والحديث يقول : « ما أكل ابن آدم طعاماً قط خيراً من أن يأكل من يده ، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده » ، وحتى الرسل والأنبياء حدثنا القرآن الكريم عنهم بأنهم كانوا يعملون وطالبهم بالعمل وهم النماذج العليا للبشر ، فقال : « يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم » .

ولقد وضع الإسلام عوامل كثيرة لتفتيت الثروة تفتيتاً غير مقصود لذاته ، ولكن ليحقق اشتراكية الإسلام ، فهو حين يشرع الميراث ، يفتت ثروة كانت مجموعة في يد فرد واحد ، ولم ينقلها نقلة واسعة الى غرباء عن المورث ، بل ينقلها إلى أقرباء منه . فكان هذا توزيعاً وتحريكاً للثروة ، واستثمار لها في نطاق أوسع . كما شرع الإسلام أيضاً نظام الزكاة .

وليست الزكاة كما يفهم الناس إحساناً مذلا للنفوس ، أو فضلة من فضلات مال الإنسان يمن بها على غيره ، وإنما هي تحقق أهم دعامة من دعامات اشتراكية الإسلام ، وهي ركن من أركانه . يحارَب الإنسان ويأثم اذا امتنع من أدائها ، وموقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه في حروب الردة ، وإصراره على محاربة الذين فرقوا بين الزكاة والصلاة ، موقف معروف مشهور ، برغم الظروف القاسية التي كانت تحيط بخلافة أبي بكر الصديق في ذلك الوقت ، والقرآن يقول : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » .

وبعد الزكاة ، وهي الفريضة الأساسية التي تحقق أهم أركان اشتراكية الإسلام ، يفتح الإسلام أبواباً أخرى لتحقيق هذه الاشتراكية كالتصدق والتحريض عليه ، ووجوب إسهام الفرد المسلم القادر بما يناسب ثروته أو قدرته ، في الأحوال

الاضطرارية التي ترى الدولة وجوبَ المعاونة فيها ، كحالات الجهاد وطرؤ الأوبئة ونزول القحط ...

* * *

بعد هذا يأتي التكافل الاجتماعي ، فنجد أن الرسول عليه الصلاة والسلام يذكر في أحاديث كثيرة نصوصاً هي من صميم الدعوة إلى اشتراكية الاسلام ، فهو يقول : « من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له » ، ويقول صلوات الله عليه وسلامه: « إن الأشعريين كانوا إذا أرملوا في غزو — أي نفد زادهم — أو جاع أطفالهم، أو قل طعام عيالهم ، جمعوا ما عندهم من طعام ، ووضعوه في ثوب واحد ، واقتسموه بالسوية معاً ، فهم مني وأنا منهم » .

ومن المظاهر العجيبة التي تدل على اشتراكية الإسلام الأصيلة أن ينص الرسول صلى الله عليه وسلم أن هناك أموراً عامة ، وطاقات أساسية للأمة ، يجب ألا ينفرد بها فرد أو أفراد في الأمة ، لأنها أشبه بالثروة العامة للدولة ، فهو صلى الله عليه وسلم يقول : « الناس شركاء في ثلاثة : « النار والكلأ والماء» ، ونص الرسول عليها لأنها كانت المصادر الأساسية التي تعتمد عليها حياة المجتمع العربي الإسلامي في صدر الإسلام ، ومن الممكن أن نفهم من هذا النص النبوي أن هناك مصادر أساسية أخرى للثروة العامة ، يجب أن تكون تحت يد الأمة ، لا تحت يد فرد من الأفراد ، لأن الأشياء تتغير بحسب البيئات والظروف والمجتمعات . وقد وضع أئمة الاشتراكية الحديثة مبادئها ونظرياتها ، ولكنهم لم يستطيعوا تحقيقها في بلادهم ، ثم عادوا فتنكروا لهذه المبادىء وعدّلوا فيها .

أما اشتراكية الإسلام فلم تكن نظريات أو نصوصاً أو مبادىء تُقَرَّر وتلقن وتُسَطّر فحسب ، ولكنها تحولت إلى حقائق واقعة ، وصارت اشتراكية تطبيقية عملية ، وكان رسول الله عليه الصلاة والسلام هو أول من طبق اشتراكية الإسلام بذلك الأسلوب المثالي الكريم ، فكان خيرَ من جعل الأمة كلها متكتلة متضامنة ، مشتركة في الحقوق الأساسية .

وتعجبني أبيات شوقي التي يقول فيها ، يخاطب النبي :

الاشتراكيون أنت إمامهم — لولا دعاوي القوم والغلواءُ

داويتَ متئدا ، وداووا طفرةً — وأخفُّ من بعض الدواء الداء

البر في حق لديك شريعة — لا مِنّة ممنونة وجِبَاهُ

جاءت فوحدت الزكاةُ سبيلَه — حتى استوى الكرماءُ والبخلاء

أنصفتَ أهلَ الفقر من أهل الغنى — فالكلُّ في حق الحياة سواء

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الاسلام والتعاون

السؤال : **يقال إن « التعاون » نظام عصري حديث ، وأفهم أن الإسلام قد سبق هذا النظام ، فما رأيكم ؟. وما الفرق بين مباديء التعاون كما وضعها أهل العصر الحديث ، وما سبق به الإسلام ؟.**

الجواب :

يقولون إن التعاون مذهب اقتصادي اجتماعي ظهر في منتصف القرن التاسع عشر . ولست أدري كيف يقال هذا والإسلام الكريم قد دعا إلى التعاون بلفظه ومعناه منذ أكثر من ألف وثلاثمائة عام ، فقال القرآن الكريم : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » ، وقال الرسول عليه الصلاة والسلام : « الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه » . ومن العجيب أن يقال إن مؤسس التعاون هو « روبرت أون » المتوفي سنة ١٨٥٨ م . وأن داعية التعاون هو « وليم كنج » المتوفي سنة ١٨٦٥ م . مع أن الحق أن الإسلام هو مؤسس التعاون وداعيته بما شرع من نظم اشتراكية ، وكفل للمجتمع من تضامن وتكافل . والعجيب أن « روبرت أون » عندما أنشأ مدارس للتعاون

أهمل تدريس التعاليم الدينية فيها ، مع أن هذه التعاليم تحض على التعاون أكثر من غيرها ، وبخاصة تعاليم الإسلام . ولذلك هاجم رجال الدين « أون » وحملوا عليه .

وجاء في قانون التعاون الحديث أنه يراد منه أن يكون الفرد للجماعة والجماعة للفرد . والإسلام دعا إلى هذا وحققه منذ عهد بعيد . فقال الرسول : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » ، والحجر في البنيان يستمد قوته من بقية الأحجار ، وهو يتعاون أيضاً مع هذه الأحجار في تكوين البناء ، ويقول قانون التعاون إن الفرد يجب أن يعمل لمنفعة الغير وخير الناس . والحديث يقول : « خير الناس أنفعهم للناس » .

ويقول المعاصرون إن التعاون يراد منه محاربة الأنانية والأثرة . وتعاليم التضحية والإيثار . والقرآن يمدح الأنصار فيقول : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » . ويقولون إن التعاون يعمل على احترام الملكية الفردية ، مع الاشتراك في بعض الملكيات العامة . والإسلام قد سبق إلى تنظيم هذا . فاحترم الملكية الخاصة حين قال الحديث : « كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه » . وأشار إلى الملكية العامة حين قال الرسول : « الناس شركاء في ثلاثة : الماء والكلأ والنار » .

ويقولون إن التعاون يراد منه تحريك رءوس الأموال الصغيرة والكبيرة حتى لا تظل مكنوزة جامدة . والإسلام يحض حضاً قوياً على الكسب والعمل، وهما سبيان لاستغلال الأموال واستثمارها . وفي القرآن والاحاديث عشرات النصوص الحاضة على العمل والكسب ، وقد عد الإسلام كسب الرجل من عمل يده أفضل ألوان الكسب . كما أن الإسلام يحمل حملة شديدة على تجميد الأموال وكنزها : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون » . ويقولون

إن التعاون يرمي إلى محاربة الاحتكار ، والإسلام قد حارب الاحتكار ، ونهى الرسول عنه وهدد المحتكرين .

ويقولون أن التعاون يعمل على رعاية الضعفاء وتقوية جانبهم . والإسلام قد سبق إلى هذا . والرسول يقول : « الضعيف أمير الركب » ، ويقول : « إنما تُنصرون بضعفائكم » ، ويقول أبو بكر في خطبته الأولى : « الضعيف فيكم قوي حتّى آخذ الحق له ، والقوي فيكم ضعيف حتّى آخذ الحق منه » . ويقررون أن التعاون من مبادئه الأساسية التخلص من النظام الربوي المرهق للمحتاجين المطغي للأغنياء . والإسلام قد سبق إلى تحريم الربا ، وشن عليه حرباً لا هوادة فيها ، فقال القرآن : « وأحل الله البيع وحرم الربا » ، وقال : « يمحق الله الربا ويربي الصدقات » ، وقال : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا» ، وقال : « الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس » .

ويقررون في قانون التعاون المعاصر أن التعاون يعمل عـلى تعويد الأفراد الاعتدال والاقتصاد في النفقات ، والقرآن الكريم يقول : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً » ، ويقول : « كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » ، ويقول : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً » . وفي الحديث : « ما عال من اقتصد » أي لا يفتقر من يعتدل في الإنفاق .

ومن مبادىء التعاون محاربة الخمر والميسر ، والقرآن يقول : « انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون». ومن مبادىء التعاون تعويد الفرد دفع الثمن فوراً . وفي الحديث : « لا تشتر شيئاً ليس معك ثمنه » ، ومن مبادىء التعاون نشر التعليم ، والإسلام أكبر محرض على التعليم ، والرسول عقب غزوة بدر جعل التعليم فداء لفريق من الأسرى ، وهو القائل : « إنما بُعثت معلما» . وقال : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » . ومن مبادىء التعاون قطع المشاحنات التي تكون بين العمال

وأصحاب العمل . والرسول يقول : « لاتحاسدوا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخواناً». وأخيراً يقولون إن أساس التعاون هو المساواة بين الأعضاء ، والرسول يقول : « الناس سواسية كأسنان المشط في الاستواء» .

هذه مقارنة سريعة بين مبادىء التعاون كما وضعها أهلوها في القرن التاسع عشر وبين تعاليم الإسلام . وقد اقتصرت فيها على النصوص دون توسع في التعليق ، وفي الإسلام أشباه لهذه النصوص ونظائر كثيرة ، ومن هذه المقارنة يتضح أن الإسلام قد سبق إلى التحريض على التعاون بصورة عملية مثالية رائعة. ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

الحُدود



عقوبة الاعدام

السؤال : **هناك من يدعون إلى إلغاء عقوبة الإعدام ، فما رأي الإسلام في ذلك؟.**

الجواب :

عقوبة الإعدام ليست تشريعاً حديثاً ، حتى يصح أن نجعلها موضعاً لذبذبة الإلغاء والإبقاء ، والرفع والإعادة ، وإنما هي عقوبة قديمة في زمنها وفي نتائجها ، وفي زجرها وردعها ، والمشرعون ما بين مسلمين وغير مسلمين قد فرغوا من بحث هذه العقوبة وتكييفها ، وحتى الذين نادوا بها بهذا الإلغاء حيناً لم يستطع أحدهم أن ينادي بإلغاء العقوبة إلغاء كاملا ، فمنهم من معارضها ومع ذلك يقررها في الاضطرابات السياسية وأوقات الحروب ، ومنهم من ينفر منها ، ومع ذلك يدعو إليها عند خطورة الفرد على الهيئة الاجتماعية ، ومنهم من يكره عقوبة الإعدام ، ومع ذلك ينادي بتطبيقها على المجرم بطبيعته.

والذين يدعون إلى إلغاء عقوبة الإعدام يحتجون بحجج كثيرة : منها أن عقوبة الإعدام عقوبة تلزم إذا نفذت ، ولا يستطاع تغيير آثارها ، ويستشهدون على ذلك ببعض حالات نادرة جداً لا تقعّد بها قاعدة . ونرد على هذا بأن التشريع الإسلامي قد أحاط هذه العقوبة بكل الضمانات الكافية التي تبعدها عن الخطأ والشبهة عند تنفيذها ، فهناك عدالة القضاء ، مع الاعتراف بالجريمة ، مع شهادة الشهود العدول ، مع عدم وجود أي شبهة يمكن أن يستند إليها القاضي إذا لاحت له ، لينتقل من عقوبة الإعدام إلى ما بعدها من عقوبات . كل هــذه الضمانات وغيرها كافية لأن تجعل عقوبة الإعدام إذا طُبِّقت في ظل التشريع الإسلامي بعيدةً عن هذا النقد الذي يقولون به ، والرسول يقول : « ادرءوا الحدود بالشبهات » .

على أن هناك كثيراً من العقوبات غير الإعدام لا يمكن تغيير آثارها في نفس من عوقب بها إذا ظهرت براءته ، كالسجن والجلد ، والتعويض المالي لا يمحو الإهانة التي لحقته فيهما .

كذلك من الاعتراضات التي يعترض بها هؤلاء قولهم إن الحياة الإنسانية سامية عزيزة ، وهي ملك خاص لصاحبها ، فيجب ألا يعتدي عليها أي كائن. ونجيب بأن حياة الإنسان ليست ملكاً له ، ولكنها ملك لله خالق السموات والأرض ، والحديث يقول : « الإنسان بنيان الله ، ملعون من هدم بنيانه ». فيوضح لنا أن الإنسان ليس ملكاً لنفسه، لأنه بناية ربه ، ومَنْ بنى شيئاً كان أحقّ به وأولى ، والذي وهب الحياة وصانها هو نفسه الذي شرع القصاص منها عندما تعتدي على حياة مماثلة لها . وعندما يتظاهر المعارضون لعقوبة الإعدام بالرحمة والشفقة على القاتل يكونون قد عرّضوا أنفسهم للون من التناقض ، إذ كان من واجبهم أولا أن يكونوا رحماء مشفقين على هذه الروح التي حرّم الله أن تُقْتَل ، والتي أزهقها ذلك القاتل . وليتنا نتذكر هنا قوله تعالى : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » . أو نتذكر قولهم : « كما تدين تدان » ، او نتذكر قولهم : «الجزاء من جنس العمل » ...

ولقد أورد لنا أحد القضاة تشبيهاً في هذه الناحية ، فهو يقول إن رجال القانون متفقون على مشروعية الدفاع عن النفس ، ويقولون إن المدافع عن نفسه من حقه أن يقتل خصمه في حالة الدفاع عن النفس إذا اضطر إلى ذلك ، ثم يشبه هذا القاضي المجتمعَ بالشخص الذي يدافع عن نفسه ، لأن القاتل الذي يستحق الإعدام قد اعتدى على شخصية المجتمع ، بإزهاقه فرداً من أفراده وجزءاً من أجزائه ، فالمجتمع عندما يطالبه بالقصاص ، وعندما يحكم عليه بالإعدام ، إنما يكون في حالة دفاع عن نفسه ، أي عن شخصية المجتمع .

وعقوبة الإعدام أخيراً عقوبة رادعة زاجرة ، ومن لطيف ما ذكره النائب العام الأستاذ حافظ سابق أنه لما انتهت الحرب بين الصين وانجلترا فرضت انجلترا على الصين المقهورة معاهدة سميت « معاهدة الأفيون » ، وألزمت الصين

بمقتضاها أن يتعاطى رجالها ونساؤها جميعاً الأفيون، حتى صار الأفيون جزءاً من طبيعة الصين ، وسبب لهم من الكوارث والنكبات ما يُعرف وما لا يعرف، ولما قامت الثورة الصينية سنة ١٩٤٩ أصدرت حكومة هذه الثورة قانوناً يقضي بإعدام من يتعاطى الأفيون من أهل الصين ، ثم يقول النائب العام : إنه لا يوجد الآن في الصين من يتعاطى الأفيون ، لا من الرجال ولا من النساء على السواء ، وكان الفضل في ذلك راجعاً إلى عقوبة الإعدام .

فعقوبة الإعدام تشريع رادع زاجر مؤدب لا يغني عنه سواه، وليس فيه إسراف أو اعتساف ، بل فيه قصاص وإنصاف(١) .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

حكم تارك الفرائض

السؤال : **ما حكم الإسلام في رجل لا يصلي ولا يصوم رمضان ولا يخرج الزكاة ؟. وما الذي يجب عمله حيال هذا الشخص ؟.**

الجواب :

يقول الله تبارك وتعالى : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » . ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا ».

---

(١) يستطيع القارىء أن يرجع إلى تفاصيل هذا الموضوع في كتابي « القصاص في الإسلام » وبخاصة فصل : « عقوبة الاعدام بين الإلغاء والابقاء » ص ٩٥ – ١٠٧ . مطابع دار الكتاب العربي بمصر سنة ١٩٥٤ م .

وهذه هي فرائض الإسلام قد فرضها رب العالمين ، وأوجب أداءها على عباده ، فمن استجاب لها وأقامها فقد سعد وفاز ، ومن أعرض عنها كسلا أو تهاوناً ، كان من العصاة المذنبين الذين يغضب الله عليهم ، ويعذبهم بقدر ذنوبهم ، ويجب علينا أن نتقدم إليه بالنصح والتوجيه والإرشاد .

وإن ترك الإنسان هذه الفرائض جاحداً لها ومنكراً لثبوتها فهو من الكافرين ، والله جل جلاله يقول : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .

وهذا الرجل المسئول عنه ، المنتسب إلى الإسلام ، الذي نطق بشهادة التوحيد « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » قد ضيّع معظم فرائض الإسلام ، فاستحق بذلك غضب الله ونقمته ، فماذا يبقى له من حقيقة الإسلام بعد ترك الصلاة والصوم والزكاة ؟ إن إثمه كبير ، وذنبه خطير ، والواجب عليه أن يسارع بالتوبة والاستغفار ، ويبادر بأداء ما فرضه الله عليه ، وإلا فيا سوء العاقبة .

وإذا لم يستجب هذا الإنسان للنصح فالواجب على ولي الأمر أن يقوم بتعزيره ، أي بعقابه وردعه .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

القرآن والتفسير



أسماء القرآن الكريم

السؤال : **هل للقرآن الكريم أسماء أخرى غير اسم القرآن ؟. وما هي تلك الأسماء ؟ .**

الجواب :

إن الله تبارك وتعالى قد سمّى القرآن الكريم بأسماء كثيرة ، ذكرها في القرآن نفسه ، كما وصفه بأوصاف كثيرة ، وهذه الأوصاف يعدها بعض العلماء من ضمن أسماء القرآن ، وقد ألف بعض السابقين في أسامي القرآن ، واستخلص ما يقرب من مئة اسم له .

ولو رجعنا إلى القرآن الكريم لوجدنا فيه من أسمائه اسم « الفرقان » ، وذلك حيث يقول الله تعالى : « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » ، ومن أسمائه « الكتاب » وذلك في قوله تعالى : « الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعله له عوجا ، قيما لينذر بأساً شديداً من لدنه » . ومن أسمائه « كلام الله » وذلك في قوله تعالى : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله » . ومن أسمائه « النور » فذلك في قوله تعالى : « وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً » . وسمّى الله تعالى القرآن ذكراً ، فقال : « وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون » . وسمّاه تنزيلا ، فقال : « وإنه لتنزيل رب العالمين » . وسمّاه قولا فصلا ، فقال : « إنه لقول فصل ، وما هو بالهزل » . وسمّاه « أحسن الحديث » ، فقال : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم » ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد » .

وسماه الله « روحاً » فقال : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ؛ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض إلا إلى الله تصير الأمور » . وسمّاه وحياً فقال : « إنما أنذركم بالوحي » . وسمّاه بصائر فقال : « هذا بصائر للناس » . وسمّاه بياناً فقال : « هذا بيان للناس » . وسمّاه تذكرة ، فقال : « وإنه لتذكرة » . وسمّاه بلاغاً فقال : « هذا بلاغ للناس » . وسمّاه بأربعة أسماء في موطن واحد فقال : « في صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة » . إلى غير ذلك من الأسماء والصفات .

وصدق الله العلي الكبير حين قال : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » . وحين قال : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام . ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » وصلوات الله وسلامه على رسوله حين قال فيما يرويه عنه الامام علي: « كتاب الله، فيه نبأ ما كان قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ... من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

تفسير القرآن بالأثر

السؤال : **هل يُشترط تفسير القرآن الكريم دائماً بالحديث والأثر ؟.**

وهل هناك ما يمنع من استخدام العقل والرأي والتأويل في التفسير ؟.

الجواب :

يكاد الدارس للسنّة يوقن أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يستوعب تفسيرَ آيات القرآن الكريم ، وإنما قام بمهمة البيان ، والبيان ليس قولا فقط ، وإنما كان قولا وعملا ، ويظهر أن الناحية العملية في البيان كانت أكبرَ وأقرب وأجدى في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأن القوم كانوا خبراء باللغة ، أذكياء في الإدارك ، ووجود الرسول نفسه بينهم كان أكبر معوان على تفهمهم حقائق الملة وعقائد الشريعة وأحكام الدين .

وقد قيل : إن الامام السيوطي جمع في كتابه الذي سمّاه ترجمان القرآن » عشرةَ آلاف حديث ، ثم عاد فاختصر هذا في كتابه « الدر المنثور ، في التفسير بالمأثور » ، وهذا قول يحتاج إلى نظر ، لأن العشرة الآلاف التي أشار إليها هي من أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأقوال الصحابة ؛ ولا نستطيع أن نقول عن اقوال الصحابة إنها تفسير نبوي إلا على رأي من يقول : إن قول الصحابي فيما لا مجال للرأي فيه حكمُه حكم المرفوع ، لأن الشأن في الصحابي ألا يقول شيئاً من عند نفسه لا مجال للرأي فيه ، وسنرى أن في تفسير القرآن الكريم مجالا أي مجال للرأي المتفق مع السنة ومع أصول الدين وقواعده .

وقد قيل إن هناك تفسيراً بالأثر لحبر الأمة عبد الله بن عباس ، وهو أيضاً كلام يحتاج إلى نظر ، وخير من يحكم فيه هو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن حديثه الصحيح عن ابن عباس : « اللهم فقّهه في الدين ، وعلّمه التأويل » يشير إلى أن تفسير ابن عباس – على فرض صحة نسبته إليه – لم يكن تفسيراً بالسنة وحدها في جميع مراحله ، وإنما كان تحقيقاً لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، في تعليم ابن عباس التأويل ، أي التفسير والفهم للقرآن ، مهتدياً فيه بسنة الرسول عليه الصلاة والسلام ، فتفسير ابن عباس على فرض صحة نسبته إليه يرينا بعضَ الأدلة التي تشير إلى أن في التفسير مجالا للعقل ، ما دام متقيداً بالشروط التي يجب أن يتقيد بها المفسر لكتاب الله تعالى ، ومع هذا

قرر بعض الباحثين المحققين أن كتاب « تنوير المقياس بتفسير ابن عباس » ليس من عمل عبدالله بن عباس ، وانما هو من عمل مجد الدين الفيروزبادي ، مؤلف كتاب « القاموس المحيط » .

بعد هذا ننتقل إلى شيخ المفسرين ابن جرير الطبري ، وقد قيل إنه مفسر يتقيد بالأثر ، أو يتقيد في التفسير بالحديث . وهذا أيضاً قول يستحق النظر ، لأن الآثار الواردة في كتاب « جامع البيان » لابن جرير الطبري ليست كلها أحاديث نبوية ، إذ فيها قدر كبير من أقوال الصحابة ومن أقوال التابعين أيضاً. وهذا التفسير نفسه شاهد على جواز التفسير بالرأي ، لأن ابن جرير الطبري نفسه ينقل الروايات ، ويكثر في هذه الروايات من التكرار في النص ، مع التعدد في السند ، ثم يقول في كثير من الأحيان : « وأولى الأقوال عندي كذا» ، ويرجح بعض الأقوال على بعض ، وفي أحيان كثيرة أخرى يقول : « والرأي عندي كذا وكذا وكذا » ، ثم يأتي بتفسير في النص القرآني المجيد قد يوافق فيه بعض الأقوال التي ذكرها ، وقد يوفق بين طائفة منها . وقد ينفرد برأي آخر غير الآراء التي ساقها . وفي بعض الأحيان نشتم منه رائحة التفنيد لبعض الروايات . أو بعض الأقوال التي قيلت في تفسير النص القرآني الكريم .

وينبغي أن نتذكر أن ابن جرير الطبري تُوفي في طليعة القرن الرابع الهجري ، فهو من مفسرينا القدماء الكبراء ، وكذلك يروى عن الامام مالك بن أنس فيما أتذكر ، أنه قال : « لا يأتيني أحد لا يعلم لغة العرب يفسر القرآن إلا جعلته نكالا » ، أي عاقبته . وهذا نص له منطوق وله مفهوم ، ومنطوقه أن الجاهل بلغة العرب لا يحق له أن يتعرض لتفسير القرآن ، لأن النص العربي الإلهي المعجز يحتاج إلى صفات كثيرة فيمن يفسره ، وأقل الصفات لمن يقبل على تفسير القرآن ، أن يكون عالماً بلغة العرب بصيراً بها ، ومفهوم هذا النص أنه اذا كان الرجل عالماً بلغة العرب فإنه يجوز له أن يفسر القرآن . ولكن هل شرط المعرفة للغة العربية هو الشرط الوحيد الذي يشترط في مفسر القرآن ؟...

يجب ألا ننسى أن نؤكد أن النص القرآني قد استحدث معاني إسلامية وشرعية

وفقهية لطائفة كبيرة من الألفاظ ، إذا رجعنا فيها إلى المعنى اللغوي الحقيقي وحده قد نتسع في تحديد المعنى المراد منها . أو قد ننحرف عن المعنى المراد منها شرعاً ، ولذلك يجب بجوار الاستئناس باللغة أن نفقه المعاني الاصطلاحية الشرعية لهذه المفردات الدينية القرآنية ، التي نستطيع أن نسميها بشيء من المجاز « لغة القرآن » . وينبغي أيضاً أن نتذكر حقيقة كبرى ، هي أن ثقافة الأمة الإسلامية بمدنيتها وحضارتها وعلومها التي نسميها أحياناً علوماً إسلامية ، وأحياناً علوماً عربية ، قد انبعثت من القرآن ، ونشأت من أجل القرآن ، واستندت إلى القرآن واستمدت من القرآن .

والرسول صلى الله عليه وسلم قد أقبل على العرب وليس لهم كتاب عقلي أو ديني له شأنه ، وكل ما كان لديهم مجموعة من القصص والأشعار والأخبار وأيام العرب .

فعلى أي أساس نشأت هذه الحضارة العظيمة التي قامت ؟. ومن أي منبع تفرعت هذه الروافد الكثيرة التي نسميها معارف الثقافة الاسلامية أو العلوم الإسلامية ؟ كل هذه العلوم العربية والعلوم الإسلامية التي زخرت بها مكتبات العرب والمسلمين في الشرق والغرب ، إنما نبعت من القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهذا الكتاب الإلهي المجيد الذي فجر ينابيع هذه العلوم لا يمكن أبداً أن يقال فيه إنه كان في تفسيره متحجراً مقصوراً على ما نُقل في السنة والأثر ، وإلا لما رأينا هذه الضخامة الرائعة في الثقافة الإسلامية وفي الحضارة الإسلامية .

ومعنى هذا أن الكتاب الذي دعا إلى استخدام العقل وتحريكه ، واعتبر قيمة المؤمن بقيمة عقله ، قد فتح الباب أمام الرأي ، والقرآن نفسه صريح في هذا عندما يقول في سورة النساء : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا » .

وفي سورة محمد نجد قوله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » ؟

ونحن نعرف من مصطلحات اللغة العربية الإسلامية أن لفظ القلب يقوم مقام لفظ العقل ، والعقل يقوم مقام القلب ، فإذا قال القرآن الكريم : « أم على قلوب أقفالها » .

كان من الميسور أن نقول في التفسير : أم على عقول أقفالها ، فهي لا تفقه ولا تدرك ؟ لكنه يجب بعد أن نمجد مكانة الرأي في نظر الإسلام هذا التمجيد، وبعد أن نلحظ من القرآن ومن السنة وعمل حبر الأمة ابن عباس ومن جهود المفسرين القدامى والمتوسطين والمتأخرين ، أن هناك مجالا للرأي في إدراك المعنى القرآني أن نتساءل : ما المراد بالرأي ؟.

إن الأثر ينقسم إلى سنة ، وحديث ، وقول صحابي ، والأثر إذا ثبت أنه سنة نبوية صحيحة ، سواء أكانت سنة متواترة أم سنة أحاد ، يكون مقبولا على العين وعلى الرأس ، ويجب إذا أدركنا بعقولنا فهماً ما في التفسير بجوار الفهم المصرَّح به في الحديث الصحيح ، ألا يتعارض هذا الفهم مع النص النبوي الثابت ، فاذا استطعنا أن نجمع مع البيان النبوي أو التفسير النبوي فهماً جديداً فأهلا به وسهلا ، واذا تعارضا وجب تقديم ما ثبت من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم . ومن حسن الحظ أن الرسول صلى الله عليه وسلم ترك لنا آيات كثيرة بلا تفسير ، وهي الآيات التي فيها مجال لنشاط العقل ونشاط البحث ، كالمسائل العلمية ، والمسائل الكونية ، والمسائل الفلكية ، وشئون الليل والنهار ، والشمس والقمر والنجوم ، فكل هذا لم يتوسع الرسول صلى الله عليه وسلم في تفسيره أو تحديده ، فكان هذا من دلائل نبوته صلوات الله عليه وسلامه ، فهو بوحي من الله وإلهام منه ، يعلم أن هذا النص القرآني إنما نزل ليكون معجزاً وخالداً ما بقيت السموات والأرض ، وأن التطور العقلي البشري مع الكشف الطبيعي على مر الأيام سيؤدي إلى فهوم تتلاءم مع واقع الحياة ومطالبها . ومع منطوق هذا النص أيضاً ، فترك المسائل التي تحتاج إلى فهم يفهمها العقل البشري على مراحل الزمن .

والله تبارك وتعالى أعلم .

اتخاذ المصحف للتبرك

السؤال : **ما حكم الإسلام في اتخاذ القرآن وسيلة للتبرك أو الحفظ ، بوضع المصحف في السيارات ، أو في المكاتب ، أو تحت الوسائد عند النوم ؟.**

الجواب :

أنزل الله تبارك وتعالى كتابه المجيد ليكون نوراً مبيناً يهدي الناس سواء يقول الحق جل جلاله في سورة الإسراء : « إن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً » . ويقول في فاتحة سورة الكهف : « الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً . قيما لينذر بأساً شديداً من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ، ماكثين فيه أبداً » .

ولم يكن الغرض من إنزال القرآن الكريم أن يقتصر الناس في أمره على اتخاذه أحجبة وتمائم ، دون عمل بما فيه ، ودون التزام لأوامره ، أو انتهاء عن نواهيه . وليست رسالة القرآن الأساسية أن يقتصر الناس على اتخاذه لوحات تعلّق في المنازل والمكاتب ، أو تمائم تعلق في الرقاب وعلى الصدور ، أو تعويذة توضع من تحت الوسادة لطرد الشيطان ، أو تحقيق الاطمئنان . أو توضع في في السيارة لحفظها وصيانتها من الحوادث .

ولكن رسالة القرآن الأساسية هي أن يكون عقيدة وشريعة . وأن يكون قائداً للحياة ورائداً للأحياء ، وأن يكون دستوراً يهتدي به كل مؤمن في مجالات الحياة ليتسقيم على الصراط القويم . وهذا هو بعض ما نفهمه من قول الله سبحانه في سورة الإسراء : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين» .

وهذا لا يتعارض مع ما ورد في كتب السنة الصحيحة من مشروعية «الرقية»

بتلاوة القرآن » وقد فسر ذلك بعض العلماء بأنه لون من ألوان الدعاء الذي يستجيبه الله بفضله حينما يتوافر فيه إخلاص التوجه إلى الله عز وجل .

على أنه لا مانع من أن يحمل الإنسان المصحف أو جزءاً منه ، أو يعلق شيئاً من القرآن الكريم أمامه ، أو يضعه على المكتب أو في السيارة ، إذا كان المراد من ذلك هو أن يتذكر المسلم آيات القرآن أو يتلو فيها ، أو يستحضر معانيها بمقتضاها ، فيكون ذلك باباً لرضى الله ورضوانه .

ومما ينبغي ذكره في هذا المجال أن القرآن الكريم تلزم صيانته وحفظه عن مواطن الإهانة والتحقير والنجاسة ، فلا يجوز تعريضه لما لا يليق بحرمته ومكانته.

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

قراءة القرآن في المسجد

السؤال : **القرآن الكريم يتلى في مساجد الدولة في يوم الجمعة ، ما عدا المساجد التي تشرف عليها بعض الجمعيات الدينية بحجة أن قراءته تشوش على المصلين، فهل لهؤلاء في طريقتهم سند من الكتاب أو السنة ؟.**

الجواب :

السؤال يشير إلى العادة التي جرت في بلادنا ، وهي قراءة سورة الكهف في المسجد يوم الجمعة قبل الخطبة ، بصوت مرتفع يسمعه الناس . وقد وردت بعض الأحاديث النبوية التي تشير إلى فضل قراءة سورة الكهف ليلة الجمعة أو يومها ، بحيث يقرأها القارىء لنفسه في البيت ، أو في المسجد دون رفع الصوت ، ومن هذه الأحاديث قوله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق » . ومنها قوله : « من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين السماء والأرض » .

وقد نهى الفقهاء عن قراءة سورة الكهف أو غيرها في المسجد بصورة تؤدي إلى إيذاء الغير أو التشويش عليه ، يقول العلامة زين الدين الشافعي : « يكره الجهر بقراءة سورة الكهف أو غيرها إن حصل به تأذ لمصل أو نائم » .

وكذلك نهى الفقهاء عن قراءة سورة الكهف بصورة تؤدي إلى إعراض الناس عن الاستماع ، لاشتغالهم بعبادة أو بعمل ، أو لأن صوت القارىء منفر ، أو نحو ذلك .

وجاء في كتاب « الإبداع في مضار الابتداع » : « ومن البدع قراءة سورة الكهف يوم الجمعة بصوت مرتفع ، وترجيع كترجيع الغناء ، والناس ما بين راكع وساجد وذاكر وقارىء ومتفكر ، وناهيك بما يكون من العوام من رفع أصواتهم استحساناً لألحان القارىء من غير مبالاة بحرمة المكان والقرآن(١) » . وذكر أن ذلك مذموم لوجوه منها : التشويش على المتعبدين ، ورفع الصوت في المسجد لغير حاجة شرعية ، ومخالفته لما كان عليه الأمر في عهد النبي صلى الله عليه وسلم .

وجاء في كتاب « يسألونك في الدين والحياة » : « « وأما قراءة القرآن قبل صلاة الجمعة — كما جرت العادة في بعض البلاد الإسلامية — فليست شرطاً ولا واجباً ولا سنة ، وإنما هي مجرد عادة ، وهناك من المتشددين من يقاومها ويرى أنها بدعة تؤدي إلى التشويش على من يصلون حينئذ في المسجد ، وهناك من لا يرى بها بأساً ، لأنها تكون سبباً في إصغاء الحاضرين إلى صوت القرآن بدل التحدث في أمور دنيوية لا يليق التحدث بها في المسجد .

ولقد وردت جملة أحاديث استحباب الإكثار من قراءة للقرآن في ليلة الجمعة ويومها ، وبخاصة قراءة سورتي الدخان والكهف ، مثل الحديث الذي يقول : « من قرأ حم الدخان في ليلة الجمعة أو يوم الجمعة بُني له بيت في الجنة » .

---

(١) كتاب الابداع ، ص ١٧٧ الطبعة الخامسة .

(٢) كتابي « يسألونك » ج ١ ص ٧٣ .

والحديث الذي يقول : « من قرأ حم الدخان ليلة الجمعة غُفر له » . والحديث الذي يقول : « من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين » . والحديث الذي يقول : « من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة سطع له نور من تحت قدمه إلى عنان السماء يضيء له يوم القيامة» ، وغير ذلك من الأحاديث .

ولكن أغلب هذه الأحاديث –إن لم يكن جميعها– قد نقدها علماء الحديث، ووصفوها بالضعف أو الشك في صحتها ، ومع هذا فقراءة القرآن الكريم أمر يدعو إليه الدين ويحث عليه في كل وقت » .

وليت المسلمين يحسنون الجمع بين الاستماع إلى قراءة القرآن في أدب وخشوع ، ودون تشويش على غيرهم من المصلين أو المتعبدين ، وعلى الله قصد السبيل .

والله تبارك وتعالى أعلم

* * *

إهلاك الأُمم

السؤال : **ما معنى قول الله تبارك وتعالى : « وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة ، أو معذبوها عذاباً شديداً كان ذلك في الكتاب مسطوراً » ؟.**

الجواب :

يقول الله عز وجل في الآية الثامنة والخمسين من سورة الإسراء : « وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً كان ذلك في الكتاب مسطورا » . ومعنى الآية – والله أعلم بمراده – أن الله جل جلاله قد حتّم بعلمه وحكمه ، وقضى بما كتب عنده في اللوح المحفوظ أنه ما من بلدة إلا سيهلكها ، بأن يبيد أهلها جميعهم ويحكم عليها بالهلاك و الفناء ، أو يعذبهم

قبل موتهم عذاباً شديداً ، إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء ، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وإجرامهم وطغيانهم ، كما قال القرآن الكريم : « وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

أي أنه ما من بلدة إلا نحن قاضون عليها بالفناء قبل قيام الساعة ومجيء يوم القيامة ، بموت أهلها إذا كانت صالحة ، وبالعذاب إن كانت طالحة ، حين تظهر فيها الكبائر والمآثم . وقيل إن هذا الوعيد خاص بالبلاد التي يظلم أهلها ويطغون بمقتضى قوله سبحانه في سورة القصص : « وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون » . والمقصود من وراء ذلك — والله أعلم بحكمته — هو الإنذار والتخويف ، ليرتدع المشركون ، ويتقي الناس عذاب ربهم قبل نزوله ، فإنه ما من قرية كافرة إلا سينزل بها العذاب ، بهذا حكم الله وجعله في اللوح المحفوظ مقيداً مكتوباً . واللوح المحفوظ هو الكتاب الذي كتب الله فيه كل ما هو كائن .

وقد روى ابن جرير الطبري أن قتادة قال عن هذه الآية الكريمة : « قضاء من الله كما تسمعون ، ليس منه بد ، إما أن يهلكها بموت ؛ وإما أن يهلكها بعذاب مستأصل ، إذا تركوا أمره وكذبوا رسله » .

والآية الكريمة تحدثنا عن المصير النهائي الأخير في هذه الدنيا للناس جميعاً ، وهذا المصير قد قدره الله الحكيم الخبير في علمه وقضائه ، وهو أن البلاد العامرة جميعها : كبيرها وصغيرها ، قريبها وبعيدها ، قديمها وحديثها ، ستنتهي إلى الموت والهلاك والزوال قبل يوم القيامة ، إما عن طريق الوفاة العادية عند استيفاء الآجال وانتهاء الأعمار ، وإما عن طريق العذاب والانتقام بسبب ما ارتكبته مما يستحق العقاب والعذاب ؛ ومن هنا لا يبقى حي على وجه الأرض إلا ويلاقي نهايته على أحد الوجهين ، إما أن يموت حتف أنفه ، وإما أن يصيبه الهلاك بالعذاب ، كما قال القرآن المجيد : « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » .

فقد قدر الحق جل جلاله أن يأتي يوم القيامة ، ووجه هذه الأرض خال من

الحياة والأحياء ، فالهلاك إذن ينتظر كل حي قبل ذلك اليوم الذي لا بد من مجيئه للحساب . ثم للعقاب أو الثواب ، فليعتبر الإنسان الغافل ولينزجر ، وليتدبر أمره قبل أن يفجأه الهول الأكبر . وكذلك قدر الله سبحانه العذاب لبعض هذه القرى بسبب ما تقرّف من معاص وذنوب . ذلك ما ثبت في علم الله ، والله سبحانه يعلم ما كان وما هو كائن وما سيكون ، والذي كان والذي يكون والذي سيكون كله في علم الله سواء .

والقرآن الحكيم يؤكد هذا المعنى في أكثر من آية ، فهو يقول مثلا في سورة الأعراف : « وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون ، فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين » .

ويقول في سورة الأنبياء: « وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين » .

ويقول سبحانه في سورة الأعراف : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ، أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون ؟ أوَ أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ، أفأمنوا مكر الله ؟ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » .

ويا له من تحذير ، ويا له من تذكير . وإلى الله المصير .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

يد الله ووجهه

السؤال : **ما المقصود بقوله تعالى : « يد الله فوق أيديهم » ؟. وقوله تعالى : « كل شيء هالك إلا وجهه » ؟.**

الجواب :

يقول الله تبارك وتعالى في سورة الفتح مخاطباً رسولَ الله صلى الله عليه وسلم : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه اللهَ فسيؤتيه أجراً عظيماً » .

واليد في أصل اللغة تطلق على العضو الذي يتناول الإنسان به الأشياء ، وقد تطلق على النعمة فيقول القائل : فلانٌ له عليَّ يد ؛ أي جميل أو معروف أو نعمة ، وقد تطلق على الامتلاك ، كقول القائل : هذا العقار في يد فلان ، أي يمتلكه ويحوزه ، وقد تطلق اليد على القوة والقدرة ، وهذا هو المراد في الآية الكريمة السابقة ، لأن الله تبارك وتعالى منزَّه عن مشابهة غيره ، ولذلك يقول القرآن الكريم : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » . فليس لله تعالى يد كأيدينا ، ولا جارحة كجوارحنا ، فالمقصود باليد هنا هو قدرة الله جل جلاله وقوته وسيطرته ، كما في قوله تعالى في سورة يس : « فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون » . وقوله في سورة آل عمران: « بيدك الخير إنك على كل شيء قدير » وقوله فيها أيضاً : « قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » .

وأما نسبة « الوجه » إلى الله تعالى فقد ورد في قوله تعالى في ختام سورة القصص : « ولا تدع مع الله إلهاً آخر ، لا إله إلا هو ، كل شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون » . والمراد بالوجه هنا هو ذات الله جل جلاله ، كما في قوله تعالى في سورة الرحمن : « كل من عليها فانٍ ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » . ولذلك يقول الإمام الأصفهاني في كتابه « مفردات القرآن » هذه العبارة : « لما كان الوجه اول ما يستقبلك ، واشرف ما في ظاهر البدن ، استُعْمل في مستقبلِ كل شيء وفي أشرفه ومبدئه ، فقيل : وجه كذا ، ووجه النهار ؛ وربما عُبِّر عن الذات بالوجه ، كما في قول الله (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) قيل : ذاته ، وقيل : أراد بالوجه ها هنا التوجه إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة » .

ويقول الله تعالى في سورة البقرة : « ولله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا

فثَمَّ وجهُ الله ، ان الله واسع عليم » . وقد قال المفسرون إن المراد بالوجه في هذه الآية وأمثالها هو الوجود ، أي : فهناك وجود الله جل جلاله ، لأنه موجود في كل مكان ، وإن كان لا يحده مكان ؛ وإنما كان الوجه مجاز ايراد به الوجود لأن الوجه هو أظهر الأعضاء في الشاهد ، وأجلها قدراً ، ولذلك قيل : إن الوجه هنا عبارة عن الله عز وجل ، كما قيل إن المراد بالوجه هو الجهة التي طلب الله تعالى أن نتوجه إليها عند الصلاة له ، وهي القبلة .

كما أن كلمة « الوجه » تفيد — عندما تُنْسب إلى الله جل جلاله — معنى قبوله ورضاه ، وقد نفهم هذا بوضوح من مثل قوله تعالى في سورة الإنسان : « إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً » . وقوله في سورة البقرة : « وما تنفقوا من خير فلأنفسكم ، وما تنفقون إلا ابتغاء وجـــه الله ، وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » . وقوله في سورة الروم : « فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، ذلك خير للذين يريدون وجه الله ، وأولئك هم المفلحون ، وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » . ولذلك جاء في آية أخرى ما يشير إلى أن المراد بوجه الله ومرضاته ، وهو قوله تعالى في سورة البقرة : « ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً مـــن أنفسهم ، كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ، فإن لم يصبها وابل فطل ، والله بما تعملون بصير » .

وكذلك يدل على هذا المعنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من بنى مسجداً يبتغي به وجهَ الله بنى الله له مثله في الجنة » . وقوله عليه الصلاة والسلام : « يُجاء يوم القيامة بصحف مختمة ، فتُنصب بين يدي الله تعالى ، فيقول عز وجل لملائكته : ألقوا هذا ، واقبلوا هذا . فتقول الملائكة : وعزتك يا ربنا ما رأينا إلا خيراً ؛ وهو أعلم ، فيقول : إن هذا كان لغير وجهي ، ولا أقبل من العمل إلا ما ابتغي به وجهي » .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

آيات من سورة البروج

السؤال : نرجو تفسير الآيات الأولى من سورة : « والسماء ذات البروج » .

الجواب :

يقول الله تبارك وتعالى في سورة البروج : « والسماء ذات البروج ، واليوم الموعود . وشاهد ومشهود ، قُتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، إذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ، الذي له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد » .

يقسم الله جل جلاله بالسماء الواسعة العظيمة ذات البروج ، أي المنازل التي تحلها النجوم والكواكب ، وتدور فيها ، وفي طليعتها الشمس والقمر . وكذلك يقسم الله عز شأنه فيقول : « واليوم الموعود » أي اليوم الذي وعد الله بمجيئه وتحققه ، وهو يوم القيامة ، ووعد الله صادق لا يتخلف ، فلا بد من جمع الله عباده في ذلك اليوم للحساب تمهيداً للثواب أو العقاب .

وأقسم الله كذلك فقال : « وشاهد ومشهود » . قيل إن الشاهد هنا يراد به العباد ، حيث يشهدون لله جل جلاله بالربوبية والوحدانية ، والمشهود له هو الله تبارك وتعالى ، يشهد له المؤمنون بالتوحيد والعبادة . وقيل إن الشاهد هو الله ، لأنه شاهد مطلع على شئون خلقه ، والمشهود هو الإنسان لأن ربه يراقبه ويرى جميع أحواله(١) .

ثم جاء جواب هذه الأقسام ، فقال القرآن: « قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود » . أي لقد لعن الله أصحاب الشق العظيم المستطيل في الأرض كالخندق ، وقد شقوه ليعذبوا فيه عبادَ الله المؤمنين ، وقد أشعلوا فيه النار بالحطب حتى اتقدت والتهبت . لعنهم الله وأنزل بهم النكال في الدنيا والآخرة.

« إذ هم عليها قعود » . لقد فعل هؤلاء جريمتهم النار بلا تورع ولا تردد ، بل جلسوا على حافة الأخدود يلقون في النار بالمؤمنين تباعاً ، وهؤلاء المجرمون قاعدون كأنهم يلهون ويلعبون .

---

(١) ذكر ابن الجوزي في تفسيره « زاد المسير » أربعة وعشرين قولا في معنى : « وشاهد ومشهود » انظر ج ٩ ص ٧٠ .

« وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود » أي يفعلون ما يفعلون بالمؤمنين من تحريق وتعذيب . وهم حاضرون يرون الآثار الأثيمة لما يفعلون . مع ذلك لا يرتدعون ولا يستحيون .

« وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » أي إن هؤلاء الكافرين لم ينكروا ولم يأخذوا على هؤلاء المؤمنين ذنباً أو جريرة . إلا أنهم آمنوا بالله الغالب المستحق لكل حمد وثناء .

« الذي له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد » أي إن الله هو الذي يملك كل شيء . ويسيطر على كل شهيد . فهو قادر على أن يأخذ كل إنسان بذنبه . وهو رقيب محيط . لايخفى عليه شيء من الأشياء .

ويقول الإمام محمد عبده(1) عن هذه الآيات :

« فكأنه قال : أقسم بهذا الكون العظيم . وبذلك اليوم الذي يهلك فيه ما يهلك . ويقوم الناس لرب العالمين – لقد ابتلى من قبلكم من المؤمنين الموحدين ببطش أعدائهم ، واشتدادهم في أيذائهم ، حتى خدوا لهم الأخاديد ، وملأوها النيران . وقذفوهم فيها ، ولم تأخذهم به رأفة ، بل كانوا يتشفون برؤية ما يحل بالمؤمنين .

وأقسم : لقد صبروا ، ولقد انتقم الله ممن أوقع بهم ، وأخذه بذنبه أخذ العزيز المقتدر . ولئن صبرتم ليوفينكم أجركم ، وليأخذن الله أعداءكم ، ولينزلن بهم من بطشه ما لا قبل لهم به .

فهذا كله قد فُهم من الآيات الآتية جواباً للقسم ، وقد أقام مقام الجواب حكاية مثل الماضين ووعيده للكافرين ، ووعده للصالحين ، وما بعد ذلك تثبيتاً لقلوب المؤمنين ، وحملا لهم على الصبر والمجاهدة في سبيله ...

... وأصحاب الأخدود قوم كافرون ، ذوو بأس وقوة ، أصابوا قوماً مؤمنين غاظهم إيمانهم ، فحملوهم على الكفر ، وأكرهوهم أن يرتدوا إليه فأبوا ، فشقوا لهم شقاً في الأرض ، وحشوه بالنار ، وجاءوا بالمؤمنين واحداً واحداً ، وألقوهم في النار ، وهؤلاء القُساة قعود على جوانب الشق حول النار ، يشاهدون احتراق الأجساد الحية وما تفعل بها النيران .

---

(1) تفسير جزء عم ، ص ٤٥ .

فقوله « النار » بدل من الأخدود ، أي أن أصحاب الأخدود هم أصحاب النار ذات الوقود ، أي الشديدة ، لها من الحطب الكثير ما يشتد به لهبها .

و « القعود » جمع قاعد ، أي قاعدون حولها ، ينظرون إلى ما يصلاه المؤمنون لا يغمضون جفناً ، ولا يصرفون نظراً ، حتى كأنهم يريدون أن يستثبتوا في أذهانهم أطوار العذاب ووقائعه ، ليؤدوا به شهادة ، وذلك منتهى القسوة .

« وما نقموا منهم » : أي ما عابوا عليهم ، ولا كان للمؤمنين ذنب إليهم سوى أنهم آمنوا بالله (العزيز) الذي لا تغلب قوته ، ولا يفلت أحد من قدرته (الحمد) الذي يحمد على كل حال ، وكل فعاله حسان ، حتى لو أصابك — وأنت مؤمن به — ما ظاهره النقمة ، فهو إما تهذيب لك ليربيك بالصبر ، او ابتلاء لقلبك ليعظم لك فيه الأجر .

أما تعيين أصحاب الأخدود ، وأنى كانوا ؟ ومن هم أولئك المؤمنون ؟ وأين كان منزلهم من الأرض ؟ فقد كثرت فيه الروايات . والأشهر أن المؤمنين كانوا نصارى نجران عندما كان دينهم دين توحيد ليس فيه حدث ولا بدعة . وإن الكافرين كانوا أمراء اليمن أو اليهود الذين لا يبعدون عن هؤلاء في حقيقة الوثنية . غير أن المؤمن لا يحتاج في الاعتبار وإشعار الموعظة قلبه ، إلى أن يعرف القوم والجهة — وبخاصة الدين الذي كان عليه أولئك أو هؤلاء — حتى يطير وراء القصص المشحونة بالمبالغات ، والأساطير المحشوة بالخرافات ، وإنما الذي عليه هو أن يعرف من القصة ما ذكرناه أولا ، ولو علم الله خيراً في أكثر من ذلك لتفضل علينا به » .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الكافرون من الأُمراء والكبراء

السؤال : إلى من تُوَجّه هذه الدعوة : « ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً » ؟ وما المعنى ؟.

الجواب :

يقول الله تبارك وتعالى في سورة الأحزاب : « إن الله لعن الكافرين وأعدّ لهم سعيراً ، خالدين فيها أبداً لا يجدون ولياً ولا نصيراً ، يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ، وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا » . الآيات ٦٣ ـ ٦٨ .

ومعنى هذه الآيات الكريمة أن الله جل جلاله طرد الكافرين ، وأبعدهم عن رحمته ، وأعد لهم في الدار الآخرة ناراً متسعرة شديدة ، يمكثون فيها أبداً ، لا خروج لهم منها ، ولا زوال لهم عنها ، وليس لهم حينئذ نصير ولا معين ولا منقذ ينقذهم مما هم فيه .

وهؤلاء الكافرون المجرمون ستسحبهم زبانية جهنم على وجوههم ، وتلوي رقابهم ، ويتمنى هؤلاء الكافرون إن لو كانوا في دار الدنيا مؤمنين مطيعين لله وللرسول ، حتى لا يصيبهم هذا العذاب الشديد ، وهم يقولون متحسرين على أنفسهم ومصيرهم : يا ليتنا أطعنا الله ، وأطعنا الرسول صلى الله عليه وسلم .

وهم يقولون أيضاً آسفين نادمين : يا ربنا ، إن مصيبتنا أننا أطعنا سادتنا وأمراءنا وكبراءنا ، وعصينا الرسول ، وتوهمنا أن هؤلاء الأمراء والكبراء سينفعوننا بشيء ، فإذا هم يوقعوننا في شر أعمالنا ، وأسوأ عواقبنا ، وأبعدونا عن طريق الحق والصراط المستقيم .

ثم يسأل هؤلاء ربّهم أن يُنزل بأولئك الأمراء والكـبراء ، أو السادة والأشراف ، مِثْلين من العذاب ، لأنهم يستحقون عذاباً بكفرهم وضلالهم ، ويستحقون عذاباً آخر بإضلالهم لغيرهم ، وإغوائهم لسواهم .

ويسألون ربهم أن يبعدهم من كل رحمة ، وأن يطردهم عن كل فضل ، لأن أولئك الكافرين المضلين من الأمراء والكبراء لا يستحقون إلا العذاب الأليم.

فهذا الدعاء المذكور في هذا النص القرآني الكريم، موجّه إلى الكافرين الضالين عن سبيل الله ، الذين يستغلون سلطتهم ومكانتهم في إضلال الناس وإخراجهم عن دين الله الحق المبين .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الذكر في الأيام المعدودات

السؤال : **أرجو أن أسمع تفسيراً واضحاً لقول الله تعالى : « واذكروا الله في أيام معدودات ، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى » .**

الجواب :

يقول الله سبحانه في الآية الثالثة بعد المائتين من سورة البقرة ، وهو يتحدث عن أعمال الحج : « واذكروا الله في أيام معدودات ، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ، ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى ، واتقوا الله ، واعلموا أنكم إليه تحشرون » .

ولقد اتفق جمهور العلماء على أن المراد بالأيام المذكورة في هذه الآية الكريمة هي أيام منى ، التي تسمى أيضاً أيام التشريق ، وتسمى أيضاً أيام رمي الجمار ،

وهي الأيام الثلاثة التي تعقب يوم النحر ، وهو يوم عيد الأضحى العاشر من شهر ذي الحجة ، وروي أن هذه الأيام المعدودات خلاف الأيام «المعلومات» ، لأن الأيام المعلومات هي الأيام العشر الأولى من شهر ذي الحجة وآخرها هو يوم النحر ، وقد ذكرها الله تعالى في قوله من سورة الحج: « واذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات » .

وقد طلب الله سبحانه من عباده أن يذكروه بالتكبير خلال هذه الأيام الثلاثة . وقد جاء في السنة — كما روى الدارقطني والترمذي — أن ناساً من أهل نجد أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بعرفة فسألوه عن أعمال الحج ، فأمر منادياً فنادى: « الحج عرفة ، فمن جاء ليلة جَمْع (أي ليلة المزدلفة) قبل طلوع الفجر فقد أدرك . أيامُ منى ثلاثة ، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه . ومن تأخر فلا إثم عليه » . وجاء في الجامع لأحكام القرآن : « أي من تعجل من الحاج في يومين من أيام منى صار مقامه بمنى ثلاثة أيام بيوم النحر ، ويصير جميع رميه بتسع وأربعين حصاة ، ويسقط عنه رمي اليوم الثالث ، ومن لم ينفر منها الا في آخر اليوم الثالث، حصل له بمنى مقام أربعة أيام من أجل يوم النحر ، واستوفى العدد في الرمي » .

وقال العلماء إن هذا الذكر يشمل الحاج وغيره ، فالتكبير يكون من كل مكلف ، وخصوصاً في أوقات الصلوات ، فيكبر المصلي بعد انقضاء كل صلاة ، سواء أكان منفرداً أم في جماعة ، ويكون التكبير ظاهراً في هذه الأيام اقتداءً بالسلف رضي الله عنهم ، ويستمر هذا التكبير حتى العصر من آخر أيام التشريق .

وفي هذه الأيام الثلاثة يرمي الحاج كل يوم باحدى وعشرين حصاة ، يبدأ بالجمرة الأولى ، ويكبر مع كل حصاة ، فإذا انتهى منها دعا الله بما شاء ، ثم يرمي الجمرة الثانية وهي الوسطى ويدعو ، ثم يرمي الجمرة الثالثة ويكبر مع كل حصاة ، وسنة الذكر في رمي الجمار هو التكبير .

والآية تشير إلى أن من فعل ذلك في يومين عقب يوم العيد ، فلا إثم عليه ولا مؤاخذة له ، ومن فعل ذلك في ثلاثة أيام فقد استوفى العدد ، والمهم هو الإخلاص في العمل مع تقوى الله عز وجل .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

دعوات القرآن الكريم

السؤال : **أرجو التفضل بذكر عبارات الدعاء التي وردت في القرآن الكريم ، وبيان السور التي وردت فيها .**

الجواب :

حسبي في الإجابة على هذا السؤال أن أورد هنا نصَّ مقال كنت قد نشرته في مجلة « الحج » المكية ، في عدد ربيع الأول سنة ١٣٧٣ هـ — نوفمبر سنة ١٩٥٣ ، وهذا هو نص المقال :

الدعاء في الإسلام باب من أبواب المناجاة ، والإقبال على الله واسع العطاء ، وهو مفتاح من مفاتيح البلوغ والاستجابة للرجاء ، وقد دُعينا نحن المسلمين إليه من أكرم مسئول وأفضل مأمول ، وهو الله الحق تبارك وتعالى ، فهو يقول في تنزيله المجيد : « ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين » ، ويقول : « قل ادعو الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى » . ويقول : « وقال ربكم ادعون أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي يدخلون جهنم داخرين » .

ونحن نؤمن بأن خير الحديث كتاب الله تعالى ، ونؤمن بأن سبيله أقـوم السبل ، وطرقه أحق الطرق بالاتباع والاقتداء ، ولذلك خطر لي أن أتتبع الدعوات المنبثة في رياض القرآن ، وأن أنظمها في سلك واحد ، يكون خير

الأدعية ، لأنه دعاء الرحمن ، وتعليم خالق الإنسان ، وقد اقتصرتُ على صيغة الدعاء القرآنية ، وذكرت عقب كل دعوة السورة الواردة فيها ، وقد أعود في فرصة قادمة للتعليق والشرح لهذه الدعوات ، والله يهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم .

* * *

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين – (فاتحة الكتاب) .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم – (البقرة) .

رب اجعل هذا بلداً آمناً ، وارزق أهله من الثمرات ، من آمن منهم بالله واليوم الآخر ... ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم .. وتب علينا انك أنت التواب الرحيم – (البقرة) .

آمنا بالله وما أُنزل الينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب الأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين حد منهم ونحن له مسلمون – (البقرة) .

ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار – (البقرة) .

ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين– (البقرة).

غفرانك ربنا وإليك المصير ... ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين (البقرة) .

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت

الوهاب ، ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد — (آل عمران) .

ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار — (آل عمران) .

ربنا هب لي من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء — (آل عمران) .

ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين — (آل عمران) .

ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين — (آل عمران) .

حسبنا الله ونعم الوكيل — (آل عمران) .

ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ، ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته ، وما للظالمين من أنصار ، ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ، ولا تخزنا يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد — (آل عمران) .

ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً — (النساء) .

ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين — (المائدة) .

ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين—(الأعراف).

ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين — (الأعراف) .

على الله توكلنا ، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ، وأنت خير الفاتحين— (الأعراف) .

ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين — (الأعراف) .

أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ إن هي الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي بها من تشاء ، أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ، واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة ، إنا هدنا اليك — (الأعراف) .

على الله توكلنا ، ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ، ونجنا برحمتك من القوم الكافرين — (يونس) .

رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم ، والا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين — (هود) .

رب قد آتيتني من الملك ، وعلمتني من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض ، أنت وليي في الدنيا والآخرة ، توفني مسلماً وألحقني بالصالحين — (يوسف) .

رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ، ربنا وتقبل دعاء ، ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب — (إبراهيم) .

رب ارحمهما (الوالدين) كما ربياني صغيرا — (الاسراء) .

رب أدخلني مدخل صدق ، وأخرجني مخرج صدق ، واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً — (الاسراء) .

ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وهيىء لنا من أمرنا رشداً — (الكهف) .

رب اشرح لي صدري ، ويسر لي أمري ، وأحلل عقدة من لساني ، يفقهوا قولي — (طه) .

رب زدني علماً — (طه) .

رب لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين — (الأنبياء) .

رب أنزلني منزلا مباركاً ، وأنت خير المنزلين — (المؤمنين) .

رب إما تريني ما يوعدون ، رب فلا تجعلني في القوم الظالمين ، رب أعوذ بك من همزات الشياطين ... وأعوذ بك رب أن يحضرون ... ربنا آمنا فاغفر لنا وأرحمنا وأنت خير الراحمين — (المؤمنون) .

ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ، إن عذابها كان غراماً ، إنها ساءت مستقراً ومقاماً ... ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ، واجعلنا للمتقين إماماً — (الفرقان) .

الذي خلقني فهو يهدين ،والذي يطعمني ويسقين ،واذا مرضت فهو يشفين ، والذي يميتني ثم يحيين ، والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ، رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين ، واجعل لي لسان صدق في الآخرين ، واجعلني من ورثة جنة النعيم ، ولا تخزني يوم يبعثون ، يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم – (الشعراء) .

رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي ، وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين – (النمل) .

رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي ... رب بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين ... رب نجني من القوم الظالمين .. عسى رب أن يهديني سواء السبيل .. رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير – (القصص) .

رب هب لي من الصالحين – (الصافات) .

ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ، ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ، ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، انك أنت العزيز الحكيم ، وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ، وذلك هو الفوز العظيم – (المؤمن) .

رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك واني من المسلمين– (الأحقاف) .

ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم – (الحشر) .

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا واليك المصير ، ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا انك أنت العزيز الحكيم – (الممتحنة) .

ربنا أتمم لنا نورنا ، واغفر لنا ، انك على كل شيء قدير – (التحريم) .

رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، إنك ان تذرهم يضلوا عبادك

ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً . رب اغفر لي ولوالدي ، ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ، ولا تزد الظالمين إلا تباراً – (نوح) .

أعوذ برب الفلق . من شر ما خلق . ومن شر غاسق اذا وقب . ومن شر النفاثات في العقد ، ومن شر حاسد اذا حسد – (الفلق) .

أعوذ برب الناس . ملك الناس . إله الناس . من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس . من الجنة والناس – (الناس) .

صدق الله العظيم . ولنا عودة لبسط الحديث عن هذه الدعوات إذا شاء الله .

* * *

يوم التناد

السؤال : **ما معنى قول القرآن الكريم : « إني أخاف عليكم يوم التناد » ؟ وما هو ذلك اليوم ؟.**

الجواب :

يقول الله تبارك وتعالى في سورة المؤمن (غافر) :

« ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد . يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ، ومن يضلل الله فما له من هاد » . وهاتان الآيتان جاءتا على لسان المؤمن الذي يقال له « مؤمن آل فرعون » . وبه سُميت السورة .

ويوم التناد هو يوم القيامة . هكذا ذكر جمهور المفسرين .

ولكن ما هو التناد ؟. ولماذا سمي يوم القيامة يوم التناد ؟.

التناد : تفاعل من النداء ، يقال : تنادى القوم . أي نادى بعضهم بعضاً . والتنادي من مادة « النداء » . والنداء فيه معنى الصياح والزجر . وتوجيه الخطاب والدعاء .

وقد قرئت كلمة « التناد » بتخفيف الدال ، وترك إثبات الياء ، بمعنى التفاعل من تنادى القوم تناديا .

وقرئت الكلمة : « التنادّ » بتشديد الدال بمعنى التفاعل من « النّدّ » ، وهي قراءة عبدالله بن عباس ، من قولهم : ندّ فلان إذا هرب ، وندّ البعير إذا شرد ، أي يشرد الناس كما تشرد الإبل على أصحابها ، وقد يشير إلى هذا المعنى قوله تعالى : « يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » .

والنص الكريم يقول : « يوم تولون مدبرين » لأنهم إذا سمعوا زفير النار يندون هاربين ، فلا يأتون قطراً من الأقطار ، ولا ناحية من النواحي إلا وجدوا الملائكة صفوفاً ، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه .

وقرأ الحسن البصري : « يوم التنادي » بإثبات الياء وتخفيف الدال ، واختار ابن جرير الطبري عدم إثبات الياء فقال: « والصواب من القراءة في ذلك عندنا : ما عليه قرّاء الأمصار ، وغير جائز خلافها فيما جاءت به نقلا ، فإذا كان ذلك هو الصواب فمعنى الكلام : ويا قوم إني أخاف عليكم يوم ينادي الناس بعضهم بعضاً ، إما من هول ما قد عاينوا من عظيم سلطان الله ، وفظاعة ما غشيهم من كرب ذلك اليوم ؛ وإما لتذكير بعضهم بعضاً إنجاز الله إياهم الوعد الذي وعدهم في الدنيا ، واستغاثة من بعضهم ببعض ، مما لقي من عظيم البلاء فيه » .

وقيل في المعنى : إني أخاف عليكم في ذلك اليوم ، لما يلحقكم من العذاب ، إن لم تؤمنوا ، أو يكون التقدير : إني أخاف عليكم عذاب يوم التناد .

وقيل : إن كل قوم ينادَوْن بأعمالهم ، أي يُدعون إلى المحشر .

وقيل : ينادي أهلُ الجنة أهلَ النار ، وينادي أهلُ النار أهلَ الجنة ، ومناداة أهل الجنة أهل النار : « أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً » ؟. ومناداة أهل النار أهل الجنة : « أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله » .

وقيل : سُمي يوم القيامة يوم التناد لما جاء في حديث « الصور » . وفيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى ، فيقول : انفخ نفخة الفزع . ففزع أهل السموات وأهل الأرض . إلا من شاء الله . ويأمره الله أن يديمها ويطولها فلا يفتر . وهي التي يقول الله : (وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق) فيسيِّر الله الجبال فتكون سراباً . فترج الأرض بأهلها رجاً . وهي التي يقول الله : (يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرادفة . قلوب يومئذ واجفة) فتكون كالسفينة المرتعة في البحر ، تضربها الأمواج . تكفأ بأهلها . أو كالقنديل المعلق بالعرش ترجه الأرواح ، فتميد الناس على ظهرها . فتذهل المراضع . وتضع الحوامل . وتشيب الولدان ، وتطير الشياطين هاربة . حتى تأتي الأقطار . فتتلقاها الملائكة فتضرب وجوهها ، فترجع ويولي الناس مدبرين . ينادي بعضهم بعضاً . وهو الذي يقول الله يوم التناد : يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم » .

ولكن حديث الصور هذا غريب ضعيف .

وقيل إن الضحاك بن مزاحم قال : « إذا كان يوم القيامة . أمر الله السماء الدنيا فتشققت بأهلها . ونزل من فيها من الملائكة . فأحاطوا بالأرض ومن عليها . ثم الثانية . ثم الثالثة ، ثم الرابعة . ثم الخامسة . ثم السادسة . ثم السابعة . فصُفوا صفاً دون صف ، ثم ينزل الملك الأعلى على مجنبته اليسرى جهنم . فإذا رآها أهل الأرض ندّوا ، فلا يأتون قطراً من أقطار الأرض . إلا وجدوا السبعة صفوف من الملائكة ، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه . فذلك قول الله : (إني أخاف عليكم يوم التناد . يوم تولون مدبرين) . وذلك قوله : (وجاء ربك والملك صفاً صفاً . وجيء يومئذ بجهنم) . وقوله : (يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان) . وذلك قوله : (وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ، والملك على أرجائها) .

وقيل : سمي يوم القيامة يوم التناد ؛ لأن ميزان الأعمال يكون عنده ملَك ،

فإذا وزن عمل العبد فرجح نادى بأعلى صوته : سعد فلان بن فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً ؛ وإن خف عمله نادى : ألا قد شقي فلان بن فلان . ولذلك قال الزجاج : لا يبعد أن يكون السبب فيه قوله تعالى : « يوم ندعو كل أناس بإمامهم » أي ينادي بسعادة السعداء . وشقاوة الأشقياء .

وقد يكون معنى « التنادي » يوم القيامة أن المؤمن ينادي : « هاؤم اقرأوا كتابيه » ، وينادي الكافر : « يا ليتني لم أوت كتابيه » . وقد يكون المعنى أن الظالمين ينادي بعضهم بعضاً بالويل والثبور ، فيقولون : يا حسرتنا ، يا ويلتنا !. أو ينادي المنادون باللعنة على الظالمين .

وقد جاء في الحديث : يجاء بالموت على صورة كبش أملح فيذبح في الدار الآخرة ، وينادَى : يا أهل القيامة لا موت ، فيزداد أهل الجنة فرحاً على فرحهم ، ويزداد أهل النار حزناً على حزنهم .

والواقع أن كلمة « التناد » صالحة كما يذكر بعض المفسرين لكي تعطينا صوراً كثيرة للتنادي ، وتوحي إلينا بالفزع والرعب ، والتصايح من كل جانب ، وتناوح الأصوات من مختلف الجهات ، واشتداد الزحام والخصام ... ولعله من هنا اختار البغوي وغيره أن يوم القيامة سمي يوم التناد لمجموع ذلك . قال ابن كثير عن هذا القول : وهو قول حسن جيد .

نسأل الله جل جلاله أن يقينا هول ذلك اليوم ، إنه على ما يشاء قدير .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

قصص القرآن

السؤال : **يقول البعض إن قصص القرآن خيالية ، لا تطابق وقائع التاريخ ، وإنها تختلف عن روايتها في التوراة والإنجيل ، فما رأيكم في ذلك ؟.**

الجواب :

هذه الفكرة الخبيثة لم تنبت في مجتمع عربي ، ولم تتأصل في بلد إسلامي ، وإنما كانت بدايةُ الشر فيها على أيدي كتّاب فرنسيين ، اتهموا القرآن الكريم بأنه من عمل الرسول . وأنه يجمع أخباراً غير مطابقة للتاريخ ، وكتّاب فرنسا عندما يقولون ذلك لا نقيم لهم كبيرَ حساب ، لعلمنا أنهم لا يؤمنون بالإسلام ، ولا يؤمنون بالقرآن ، وإن كانوا في صميم أنفسهم يحسون بخطر هذا الكتاب عليهم كمستعمرين ، وكقوم حاولوا احتلال أرض الإسلام أزماناً طويلة ، حتى يقول قائلهم : اننا لن نستطيع السيطرة الكاملة على المسلمين ما دام هذا القرآن موجوداً ، وما دامت هذه الكعبة تجمع وجوه المسلمين كل يوم عدة مرات . هذه حقيقة أولية في الموضوع ، ثم ينبغي أن نلاحظ أن فئة منا ظهرت عنايتها بالأدب أكثر من عنايتها بالدين والفقه ، رأت أن تتابع أو تشايع هؤلاء الكتّاب الفرنسيين ، فحاولت بثَّ هـذه الفكرة ، وهي أن قَصَص القرآن لا يلتزم الواقع ، وإنما يجنح أحياناً أو غالباً إلى الخيال والرمز والإشارة ، لأن مهمته هي أن تتوافر في قصته العناصر الفنية كما يزعمون . ومن فضل الله على هذا البلد الإسلامي أنه بمجرد أن نبتت هذه الفكرة في بلادنا تصدى لها مَنْ فندها ، ومن فضل الله علينا من جهة أخرى أنه كان في طليعة من تصدى لتفنيدها وثبات زيفها رجال من الجامعة ومن أساتذتها ، ولو أن الأمر اقتصر على دفاع علماء الأزهر عن قصص القرآن الكريم ، لساءت ظنون أهل الظن في هذا الدفاع . أما حين انبرى أساتذة ورؤساء أقسام أدبية وعلمية في الجامعة للرد ، فقد كان هذا تأييداً من غير شك لوجهة النظر الإسلامية ، وهي أن قصص القرآن الكريم قصص تاريخي ثابت حق .

إن الشبهة التي تمسك بها هذا الفريق هي أن كُتّاباً من فرنسا كما ذكرت مالوا إلى هذا الرأي الفاسد ، وتمسكوا أيضاً ببعض عبارات وردت في تفسير « المنار » منسوبة إلى الشيخين محمد عبده ورشيد رضا . وقد يحسن أن نتتبع ما كتبه « المنار » في مواطن متفرقة من تفسيره حول هذا الموضوع ، لنتبين أن الشيخ محمد عبده عندما كان يتحدث عن هذه المسألة لم يكن يقرر رأياً انتهى

إليه ؛ وإنما كان يعرض طريقةَ السلف وطريقة الخلف في تفسير بعض القصص التي تقرب من ناحية المَثَل ، ولا تتحدث عن وقائع التاريخ . ثم نراه يعرض رأي السلف وطريقتهم في هذه القصص ، وهو ما يُجمع عليه جمهور العلماء وجمهور المسلمين ، ثم يذكر رأي الخلف . ومن العجيب أن الشيخ محمد عبده انتهى إلى هذه العبارة التي نجدها في الجزء الثاني من تفسير المنار وهي تقول :
« وإذا ورد في كتب الملل أو المؤرخين ما يخالف بعض هذه القصص ، فعلينا أن نجزم بأن ما أوحاه الله إلى نبيه ونُقل إلينا بالتواتر الصحيح هو الحق ، وخبره هو الصادق ، وما خالفه هو الباطل ، وناقله مخطىء أو كاذب . فلا نعده شبهة على القرآن ، ولا نكلف أنفسنا الجواب عنه ، فان حال التاريخ قبل الإسلام كانت مشتبهة الأعلام حالكة الظلام ، فلا رواية يوثق بها للمعرفة التامة لسيرة رجال سندها ، ولا تواتر يعتد به بالأولى ، وإنما انتقل العالم بعد نزول القرآن من حال الى حال ، فكان بداية تاريخ جديد للبشر ، كان يجب عليهم لو أنصفوا أن يؤرخوا به أجمعين » .

هذا كما نرى نص كلام الأستاذ الإمام في تفسير المنار . ثم جاء تلميذه وناشر أفكاره السيد رشيد رضا . وعقب على هذا في الجزء نفسه وبعد صفحة واحدة من كلام الإمام . فقال هذه العبارة : « وجملة القول أن طريقة القرآن في قصص الذين خلوا هي منتهى الحكمة . وما كان لمحمد الأمي الناشيء في تلك الجاهلية الأمية أن يرتقي إليها بفكره . وقد جهلها الحكماء في عصره وقبل عصره . ولكنها هداية الله تعالى لعباده ، أوحاها إلى صفوته منهم صلى الله عليه وسلم . وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . فعلينا وقد ظهرت الآية ، ووضحت السبيل . ألا نلتفت إلى روايات الغابرين في تلك القصص ، ولا نعد مخالفتها للقرآن شبهة نبالي بكشفها . كما قال الأستاذ الإمام رَوّح الله روحه في مقام الرضوان » .

ثم انتقل « تفسير المنار » إلى ايراد شبهة المشتبهين في أن هناك مخالفة بين القصة كما يذكرها القرآن الكريم . وبين عرض التوراة أو الإنجيل لهذه القصة ، حيث تختلف القصة هنا وهناك وهنالك في بعض أجزائها أو تفصيلاتها . ونرد

على هذا بأن القرآن الكريم لا يعنى بالتفاصيل . باعتباره كتاب عبرة وارشاد، وكتاب عقيدة وشريعة . إنما يختار بحكمة الله وعلمه من القصة ما يكون سبباً للعبرة والموعظة وإحياء المشاعر . والنهي عن أسباب المثلات التي مرت بالأمم السابقة .

ثم التفت « تفسير المنار » التفاتة طيبة جداً ، وقال إن التوراة والإنجيل قد أخبرنا عنهما القرآنُ الكريم المنزل من الله سبحانه وتعالى بأنهما قد نالهما تحريف، فكيف نحكّم التوراة والإنجيل بعد أن نالهما من التحريف ما أخبر عنه القرآن في القرآن نفسه ؟. فمن حقنا أن نقول إن واجب الإنصاف يقضي إذا أردت أن أحاكم القرآن إلى شيء بأن أحاكمه إلى شيء يعترف به ويقره . .

أما وقد سبق حكم القرآن بأن التوراة قد حُرّفت . وبأن الإنجيل قد حُرّف، فليس من الإنصاف في طريقة البحث أن أقول إن هناك مخالفة بين القصة في القرآن والقصة في الإنجيل والتوراة ، لأن القرآن قد سبق فقرر أن التوراة والإنجيل في نظره أو في حكمه قد حُرّفا . وقد دخل عليهما شيء من الحذف والتغيير ، وشيء من الزيادة والنقصان .

ثم يعلق التفسير بقوله : « فإن قيل إن قصص العهدين العتيق والجديد التي يسمى مجموعها الكتاب المقدس هي وحي من الله شهد لها القرآن ، وهي تعارض بعض قصصه . قلنا : أولا : إن تلك الكتب ليس لها أسانيد متصلة متواترة . ثانياً : إن القرآن إنما أثبت أن الله تعالى أعطى موسى عليه السلام التوراة وهي الشريعة ، وأن أتباعه قد حفظوا منها نصيباً ونسوا نصيباً . وأنهم حرّفوا النصيب الذي أتوه . وأنه أعطى عيسى عليه السلام الإنجيل وهو مواعظ وبشارة ، وقال في أتباعه مثل ما قال في اليهود : « (فنسوا حظاً مما ذكروا به)».
إذن الأساس الذي يعتمد عليه هؤلاء في فريتهم أو شبهتهم لا يستقيم في منطق البحث ولا في منطق الإنصاف . لأن هذا الأساس يقوم على شبهتين . الشبهة الأولى ما افتراه الكتّاب الفرنسيون وهؤلاء أحقادهم نحو القرآن ، والثانية

شبهة ما ورد في تضاعيف كلام الأستاذ الإمام ، وقد عرفنا أن الإمام انتهى إلى تقرير الحقيقة الكبرى ، وهي أن قصص القرآن حق لا شبهة فيه .

* * *

بعد هذا أنتقل إلى الشخصيات التي وردت في القرآن الكريم ، وفي قصص القرآن الكريم ، فنجد من هذه الشخصيات آدم ونوحاً وموسى وعيسى ومحمداً. والذين يفترون على القرآن إما من أتباع عيسى ، وإما من اتباع موسى ، وإن لم يصدقوا في اتباع أحدهما ، فالذين اتبعوا عيسى وقالوا هذه الفرية في القرآن ماذا يقولون عن شخصية عيسى ؟.. أيقولون إنها خيالية ؟.. إن قالوا هذا فقد حكموا على عقيدتهم بأنها من صنع الخيال ومن صنع الافتراء ، وأتباع موسى أو المنتسبون إليه إن حكموا على شخصية موسى وأخباره في القرآن بأنها خيالية ، فقد صار موسى شخصية خيالية اخترعها الفن القصصي كما يزعمون . فينهد كل هذا التراث ، وكل هذه الشخصية الدينية التي صورها القرآن ، ثم نأتي إلى شخصية محمد التي يثبت التواتر التاريخي أنها شخصية حقيقية ، وأنه لا يوجد بين أبطال التاريخ شخصية عُرفت جميع أحوالها من أقوال وأفعال وأعمال ، وحركة وسكون ، ونوم ويقظة ، وغضب ورضا ، وإقامة وسفر ، وكل شيء يتعلق به ، حتى في الصفة والهيئة وطريقة الأكل وطريقة الابتسام ، كما عرف عنه عليه الصلاة والسلام . ونرجع إلى القرآن فنجد أنه يقص عن النبي عليه الصلاة والسلام قصصاً ، فهل هذه أيضاً من صنع الخيال ؟. نحن نقرأ مثلا في سورة التوبة قول الله تعالى : « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم » ...

هذه أخبار متوالية متتابعة مع تفصيل يؤيده التاريخ الحق ، ولم يدخل فيه شيء من زيف الخيال أو صنعة الفن ، ثم إننا نرجع إلى مادة قصة وقصص في القرآن ، وقبل أن نرجع إليها في القرآن نرجع إليها في اللغة ، فكلمة : يقص

فلان ، تدل على أنه يقتص الأثر أي يجعل المقصوص مقابلا لما وقع . فنجد في المادة اللغوية معنى المطابقة والمماثلة وعدم الزيادة في الأول أو في الآخر : وعلى أساس هذا المعنى اللغوي سار القرآن الكريم في تعبيره عن القصة . فيقول : « إن هذا لهو القصص الحق » ... وفي سورة الكهف يقول : « نحن نقص عليك نبأهم بالحق » ، وفي سورة الأعراف : « فلنقصن عليهم بعلم » . أي ليس بخيال أو فن أو أدب ، « وما كنا غائبين » . يعني كنا شاهدين محصين للحركات والوقائع والأحداث ، ونقص بعلم وإحاطة شمول : « إن الحكم إلا لله يقص الحق » ، والحق غير الافتعال وغير الافتراء ، وغير الكذب وغير الخيال ... « والله خير الفاصلين » .

وليس أحسن القصص ما كان افتراء . وإن أدباء القصة أنفسهم يقررون أن أروع أنواع القصة ما كان واقعياً ، وكان في الوقت نفسه مشتملا على مقومات القصة : فعند ما يقول الله : « نحن نقص عليك أحسن القصص » ، يعني نحن نختار لك من قصص التاريخ والأمم السابقة ما تتوافر فيه عوامل العبرة والعظة ، وفي الوقت نفسه يطابق الحقّ ويطابق التاريخ ، ويقول القرآن عن موسى وشعيب : « فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف » ، فموسى عندما جاء إلى شعيب قص عليه القصة الحقيقة ، ولو أنه حرف فيها ما وضع نفسه في موقف العطف من شعيب ، حتّى قال له : لا تخف . فعندما قال له : لا تخف فهمنا أن موسى قص عليه قصته مطابقة للواقع ، وبذلك نال تقديره وتكريمه . ويقول القرآن : « لقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك » ، فقد قص الله عليه أنباء هؤلاء الرسل ، وهي قصص تتعلق بالعقائد ، وتتعلق بالأحكام والشرائع ، وتتعلق بالمكيال وبالميزان وبالعدالة بين الفقراء والأغنياء ، وبإقامة علاقات بين الناس . وكل هذا لا يحتمل الخيال ، ولا يحتمل الافتراء . وإنما يجب أن يتوافر فيه الحق والعدالة .

وهذه الفرية — وهي ان القصة في القرآن رمز وخيال للعمل الفنّي لا العمل التاريخي — قالها المشركون الأولون وأعداء الاسلام الأوائل عندما زعموا أن

القرآن أساطير الأولين . والأساطير جمع أسطورة ، والأسطورة هي الخرافة ، أو شيء يفتعل . والقرآن يقول : « ولا تطع كل حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنيم ، ان كان ذا مال وبنين ، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين » ، « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا » ، إذن القرآن نفسه ذكر أن المشركين قد افتروا هذه الفرية وفندها ، وقال نحن لا نقص أساطير الأولين ، وإنما نقص الحق وما دام القرآن قد قرر هذا وقرر أن قصصه هو الحق ، وأنه ينطق بالحق ، وأنه يقص بعلم ، وهو أصدق القائلين ، فكل من يدعي أن قصص القرآن جاء مفتعلا أو متخيلا ، أو أنه لا يطابق الحقيقة والواقع ، يكون مخالفاً لنص القرآن الذي يقول إن قصصه هو القصص الحق ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

القرآن والعلم

السؤال : **ما رأيكم في التفسير العلمي للقرآن ؟. وما رأيكم في التأويلات البعيدة التي يجنح إليها بعض المعاصرين لاستخراج المعاني العلمية من نصوص القرآن ؟.**

الجواب :

لو رجعنا إلى كتاب « الإتقان في علوم القرآن » وهو للإمام جلال الدين السيوطي نجد أن هذا الإمام يتحدث عن غريب القرآن ، ويذكر تفسير كل كلمة من مفردات القرآن التي تحتاج إلى تفسير ، ثم يروي عن حبر الأمة عبدالله بن عباس رضي الله عنهما كل كلمة من مفردات القرآن الغريبة ومعها تفسيرها ودليل عليها ببيت من شعر العرب .

وهذا يشير إلى أن الذين نزل عليهم القرآن الكريم في صدر الإسلام فهموه في ضوء اللغة التي نزل بها القرآن ، والقرآن نفسه نص على هذا في أكثر من موطن ، عندما حدثنا بأن الله تعالى أنزله بلسان عربي مبين ، ولم يكتف بذكر عروبة لسانه ، بل أضاف إليها « البيان » لكي يؤكد أن هذا النص يجب أن يفهم في ضوء معاني الألفاظ التي نزل بها ، وهي ألفاظ اللغة العربية . ولذلك كان المسلمون في صدر الإسلام يفهمون هذا القرآن المجيد عن طريق فهمهم لمعاني مفردات اللغة التي نزل بها ، وهي اللغة العربية . وفي ضوء هذه الحقيقة التي يجب ألا نغفل عنها يجدر بنا أن نسير في تفسير القرآن ، سواء أكان هذا التفسير متعلقاً بالناحية العلمية أو الاجتماعية أو غيرهما .

والقرآن الكريم وظيفته الأساسية أنه كتاب عقيدة وشريعة ، فقد تحدث عن المعتقدات وعن الإلهيات ، وعن أنباء الرسل ، وعن المعاملات ، وعن العبادات ، وعن العلاقات بين الأفراد ، وعن نظام الأسرة ، وشئون الأمة ، وعلاقات الأمم بعضها وبعض ، وعن حالات السلم والحرب . وغير ذلك من شئون الإنسان .

ولكن القرآن فوق هذا قد تضمن طائفة من الآيات التي أشارت إشارات موجزة ومعجزة وبليغة نحو كثير من حقائق العلم ، ومن أسرار الكون، ومن سنن الله في هذه الحياة ، ونلاحظ أن هذه الآيات التي أشارت إلى هذه الحقائق السنن اتسمت بالايجاز والتعميم ، وعدم التعرض للتحليل او التفصيل او إستعراض الأجزاء. فهناك مثلا آية كريمة تقول: « بلى قادرين على أن نسوي بنانه » ، وهناك أيضاً قوله تعالى : « وأرسلنا الرياح لواقح » .

وهناك قوله تعالى : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء » . وهناك قوله تعالى : « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب » . هذه الآيات ومثيلاتها في القرآن تشير من قرب أو من بعد إلى حقائق علمية أو سنن كونية .

فالآية الأولى ، وهي : (بلى قادرين على أنِ نسوي بنانه) يقول عنها الباحثون إنها تشير إلى بصمات الأصابع ، وأن كل بصمة إصبع تختلف عن بقية بصمات الأصابع ، والآية الثانية التي تقول : « وأرسلنا الرياح لواقح » تشير إلى حقيقة علمية ، وهي أن الرياح تقوم بوظيفة التلقيح بين طائفة من النباتات ، والآية الثالثة التي تقول : « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب » تشير إلى حقيقة علمية ، وهي أن الإحساس بالألم إنما يكون في البشرة وفي الجلد، بما فيه من أعصاب ومواطن إحساس، بحيث لو وصل الكي إلى العظم بعد كشط الجلد واحتراقه لما أحس العظم بألم ، وعندما يقول القرآن المجيد : « ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء » يشير إلى حقيقة علمية ، هي أن الطبقات العليا من الجو لا تساعد على سهولة التنفس ، لقلة مادة الأوكسجين في هذه الطبقات العليا ، وهذه الحقائق لم يهتد إليهــا الباحثو ن الا بعد مئات السنين من حديث القرآن الكريم عنها .

هذه الآيات لا شك أن فيها إشارات بليغة وعميقة إلى حقائق علمية . وهناك فرق بين الحقيقة العلمية والنظرية العلمية ، يحلو لي أن أشبه النظرية العلمية بجنين مبتدىء ، ما زال في رحم أمه كقطعة من دم ، أو قطعة من لحم ، فهو عرضة لأن يتكامل بعد شهور الحمل ، وهو عرضة لأن يسقط غير متكامل ولا متخلق. فالنظرية العلمية هي ذلك الجنين قبل اكتماله ، فإن فسد أو سقط لم يبلغ مرتبة الحقيقة العلمية ، وأما إذا تم واكتمل وقضى شهور التكوين والتخلق والتمام والكمال وخرج إلى الناس وليداً كاملا لا عيب فيه ، صار حقيقة علمية .

فالقرآن الكريم قد يلفتنا إلى القيام بالبحث في الكون ، لكي نستنتج أموراً تتعلق بأسرار هي في تقديرنا لأول أمرها نظريات ، ثم تتطور هذه النظريات بالبحث ومواصلة التحرير حتى تبلغ مرتبة الحقائق ، فإذا وصلت النظرية إلى مرتبة الحقيقة تبين لنا أنه لا تصادم بين هذه الحقيقة المجزوم بها ، وهــذا النص القرآني الذي تنزل من لدن الله الحكيم الخبير .

لكن يجب علينا أن نجعل النص القرآني مهيمناً عــلى غيره من النظريات

والحقائق والأمور والنصوص ، لا أن نجعله خاضعاً لما يجد أو يتطور أو يطرأ ، وهناك على سبيل المثال الآية التي تقول : « يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان » ، فقد ذكر بعض الباحثين أنه يفهم من هذه الآية أنها تشير إلى عملية الصاروخ الذي يخرج من نطاق الأرض إلى نطاق الجو أو السماء ، ولكن علينا قبل أن نجـزم بذلك ، وقبل أن نقرر أن هذا هو المعنى المقصود للآية أن نفهم مناسبة الآية ، ونوع الخطاب الذي جاء فيها ، أكان على سبيل التحريض أم على سبيل التحدي والتعجيز ؟. ثم لمن توجه الخطاب ؟أللانس وحدهم ،أم للانس والجن معاً؟ وعمّ تحدث القرآن الكريم هنا ؟ أتحدثَ عن قطر الأرض ومجالها فقط ، أم تحدث عن أقطار غير القطر المعروف لنا ؟ .

وما هذه الأقطار ؟ هل هذه الأقطار متعلقة بالأرض وحدها ، أو هي متعلقة بأقطار السموات والأرض ؟.

إن القرآن الكريم يقول : «إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض» ، ولم يقل : من أقطار الأرض والسموات ، ولم يقل من أقطار السماء والأرض ، بل قال : « من أقطار السموات والأرض » . ليشعرنا بأن هناك من وراء قطرنا الأرضي أقطاراً أخرى تتعلق بأرضنا ، وأقطاراً مثلها أو أكثر منهـا تتعلق بالسموات ، وهذه الأقطار العديدة التي يحدثنا عنها القرآن الكريم ، ولم يحدد لنا عددها أو مبلغها من العدد ، يجب أن تدفعنا دفعاً إلى أن نتريث ونحتاط في تقرير أن المراد بهذه الآية هو « مسألة الصاروخ » . ثم إن الآية واردة على سبيل التحدي ، وكأن معناها : يا معشر الجن والانس ، أنتم محصورون داخل ملك الله تعالى ، وأنتم لا تستطيعون أن تخرجوا من نظام ما أنتم مسخرون فيه ، فأروني قدرتكم .

وقد يقال : إن التعليق هنا تعليق على جائز : « فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان» والسلطان كما قالوا سلطان العلم ، أو سلطان قدرة أخرى يهبها الله لعباده ولم يصلوا إليها الآن. وقد يربطون هذه الآية بالآية الأخرى المتعلقة برؤية الله سبحانه

وتعالى حيث يقول مخاطباً موسى : « ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني » ، فقد قال فريق من العلماء : إن رؤية الله جائزة ، لأن الله علق هذه الرؤية على استقرار الجبل ، وهو أمر جائز الحدوث والوقوع ، وإن لم يكن الجبل قد استقر فعلا ، بل اندك من خشية الله تعالى . ولكن آية الرؤيا هذه فيها نظر : هل تكون الرؤية في الدار الآخرة أو في الدار الدنيا ؟ وهل تكون الرؤية بطاقتنا البشرية أو بعد أن تتغير صورتنا البشرية وتصير إلى صورة أخرى يمكنها أن ترى الله ؟.... والمسألة ليس فيها رأي مجمع عليه ، وفوق هذا لم يكن هناك تحد بين الله تبارك وتعالى ورسوله موسى عليه السلام عندما قـال له : « ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني » .

لا أريد من هذا أن أمنع فهم معنى الصاروخ من نص الآية ، ولكني أحب أن لا يقال : إن الآية إنما جاءت لهذا المعنى ، أو من أجل هذا المعنى ، ويمكن أن يقال : إنها تشير إلى هذا المعنى ، أو ترمز الى هذا المعنى ، أو أنها لون من الحث والتحريض على البحث الذي يحقق لنا قول الله تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » .

والواقع أن تفسير النص القرآني مر بمرحلتين خطيرتين يجب أن نتنبه لهما ، المرحلة الأولى في عهد قديم ، كان بعض العلماء والمفسرين يجعلون حجابا صفيقاً كثيفاً بين القرآن والعلم ، فكلما حدثهم العلم عن شيء يقولون : لا دخل للقرآن فيه ، ولا علاقة لنا به ، ولما دبت بيننا نزعة التفسير العلمي للقرآن لم نحتط في هذا المجال ، بل أسرف البعض وتكلف ، والواجب أن لا نسرف ولا نقتسر ولا نتكلف في تفسير النص القرآني بمقتضى شيء علمي قـد يكون استنتاجاً أو قد يكون نظرية . أما حين يصبح الأمر حقيقة علمية فسنجد القرآن متفقاً معه ، لأن الله سبحانه وتعالى هو أصدق من قال ، وأصدق من تحدث : « ومن أصدق الله قيلا » ؟.

والله تبارك وتعالى أعلم .

السلام المؤمن

السؤال : **ورد في القرآن من أسماء الله الحسنى اسم « السلام » واسم « المؤمن » فما معناهما ؟.**

الجواب :

من أسماء الله الحسنى اسم « السلام » ، والله تبارك وتعالى يقول في القرآن الكريم : « هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن » . والسلام في اللغة هو السلامة والأمان ، والله جلي جلاله يسمى السلام ، لأنـه مصدر السلامة في هذا الوجود ، وهو الذي يسلّم عباده من المهالك ، وهو معطي السلام والأمان لكل من يستحق السلام والأمان ، فليس في الكون سلامة إلا وهي منسوبة إليه ، وصادرة عنه .

ويسمى الله تبارك وتعالى باسم السلام لأنه الذي سلمت ذاته القدسية من كل عيب ، وسلمت صفاته من كل نقص ، وسلمت أفعاله من كل شر . وقد يكون معنى السلام بالنسبة إلى الله أنه « ذو السلام » الذي يسلّم على أوليائه ، كما في قوله تعالى : « الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى » .

ولقد كان من دعاء رسول الله عليه الصلاة والسلام في أعقاب الصلوات أن يقول : « اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، وإليك يعود السلام ، فحينا ربنا بالسلام ، وأدخلنا جنتك دار السلام » . والله قد جعل دينه مشتقاً في عنوانه من مادة « السلام » فسماه « الإسلام » . وجعل تحية المسلمين فيما بينهم تحية السلام : « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » ، وجعل ختام الصلاة هـو السلام ، وجعل تحية المؤمنين عند لقاء الله هي السلام ، فقـال عنهم القرآن الكريم : « تحيتهم يوم يلقونه سلام » وأخبرنا القرآن المجيد أن تحية الملائكة

لهم يوم القيامة هي تحية السلام ، فقال عنهم « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » .

والمسلم العاقل المتدبر يستفيد من التفكر والتدبر في صفة « السلام » المنسوبة إلى الله عز وجل ، أن يتحلى بروح السلام وفضيلة المسالمة ، ولعل هذا يذكرنا بقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه: « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » .

ويقول الإمام الغزالي ما خلاصته :كل عبد سلم قلبهُ من الغش والحقد والحسد وإرادة الشر ، وسلمت جوارحه من الآثام ، وسلمت صفاته من الانتكاس والتقلب ، فذلك هو صاحب الروح الطاهرة، والذي يأتي ربــه يوم القيامة بقلب سليم يستحق النعيم ، ولذلك يقول القرآن : « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » .

* * *

ومن أسماء الله الحسنى اسم « المؤمن » . والإيمان في اللغة هو التصديق ، والله المؤمن أي المصدق لنفسه بكلامه ، أي هو الذي يقرر علمَه بأنه صادق، فهو أصدق القائلين وأعدل الحاكمين ، وهو الذي يشهد لذاته بالحق والصدق ، ولذلك يقول القرآن : « « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط » .

والله تبارك وتعالى هو المؤمن ، لأنه مصدر الأمن و الأمان ، وهو الذي يحقق للمؤمنين السكينة والاطمئنان ، ولذلك يقول القرآن عن المؤمنين : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » .

وللامام الغزالي عبارة بليغة يصور بها كيف يهيء الله جل جلاله أسباب الأمن لعباده ، وكيف يسد عنهم أبواب الخوف ، ويوجد لهم الطمأنينة فيقول : « لو قدرنا إنساناً وحده ، مطلوباً من جهة أعدائه ، وهو ملقى في مضيق لا يقدر أن يحرك عليه أعضاءه لضعفه ، وإن تحركت فلا سلاح معه ، وإن كان

معه سلاح لم يقاوم أعداءه وحده ، وإن كانت لـــه جنود لم يأمن أن تنكسر جنوده ، ولا يجد حصناً يأوي إليه ، فجاء مَنْ عالَجَ ضعفه ، فقوّاه وأمده بجنود واسلحة ، وبنى حوله حصناً حصيناً ، فقد أفاده أمناً وأماناً ، فبالحري أن يسمى مؤمناً في حقه .

والعبد ضعيف في أصل فطرته ، وهو عرضةُ الأمراض والجوع والعطش من باطنه ،، وعرضتهُ الآفات المحرقة والمغرقة ، والجارحة والكاسرة مـــن ظاهره ، ولم يؤمِّنه من هذه المخاوف إلا الذي أعد الأدوية دافعةً لأمراضه ، والأطعمة مزيلةً لجوعه ، والأشربة مميطة لعطشه ، والأعضاء دافعة عن بدنه ، والحواس جواسيس منذرة بما يقرب من مهلكاته ، ثم خوفه الأعظم من هلاك الآخرة ، ولا يحصنه عنه إلا كلمة التوحيد ، والله تعالى هاديه إليها ، ومرغِّبه فيها ، حيث قال (في الحديث القدسي) : « لا إله إلا الله حصني ، فمن دخل حصني فقد أمن عذابي » . فلا أمن في العالم إلا وهو مستفاد بأسباب هو متفرد لخلقها ، والهداية إلى استعمالها ، فهو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، فهو المؤمن المطلق حقاً » .

والله جل جلاله هو المؤمن أيضاً لأنه يصدق وعده ، ولأنه هو الذي يصدق عباده المخلصين ، أي يعلم أنهم صادقون ، وفي هذا يقول الإمام ابن القيم : المؤمن هو المصدق الذي يصدق الصادقين ، بما يقيم لهم من شواهد صدقهم ، فهو الذي صدّق رسله وأنبياءه فيما بلغوا عنه ، وشهد لهـــم بأنهم صادقون بالدلائل التي دل بها على صدقهم قضاءً وخلْقاً ، فإنه سبحانه أخبر — وخبرُه الصدق وقولُه الحق — أنه لا بد أن يرى العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم أن الوحي الذي بلغته رسلُه حق ، فقال تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق « أي القرآن » .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

آية الإحسان

السؤال : **أريد تفسيراً موضحاً لمعنى قول الله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، يعظكم لعلكم تذكرون » .**

الجواب :

منذ نشأنا وعرفنا طريقنا إلى المسجد ، ونحن نسمع الخطيب في كل جمعة يختتم خطبته الثانية بقول الله عز من قائل : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، يعظكم لعلكم تذكرون». ومنذ ذلك الحين ونحن نسمع أن هذه الآية الكريمة هي جماع الإخلاق الفاضلة، ودستور السلوك القويم ، ولقد سمعنا فيما سمعنا ، أو قرأنا فيما قرأنا أن أبا طالب سمع هذه الآية فعلق عليها بقوله : « يا معشر قريش ، اتبعوا ابن أخي ترشدوا ، ولئن كان صادقاً أو كاذباً فإنه ما يأمركم إلا بمكارم الأخلاق » . وأن عثمان بن مظعون ذكر أن الإسلام لم يتمكن من قلبه إلا عقب سماعه هذه الآية، وأن ابن مسعود قال: إن أجمع آية في القرآن لخيرٍ وشر هذه الآية.وأن قتادة قال : ليس من خُلُق حسن كان في الجاهلية يُعمل ويُستحب إلا أمر الله تعالى به في هذه الآية ، وليس من خلق سيء إلا نَهى الله تعالى عنه في هذه الآية . وأن مقرون بن عمرو قال للرسول : إلام تدعو يا أخا قريش ؟. فتلا الرسول عليه هذه الآية ، فقال مقرون : دعوت ، والله ، إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك .

وأمام هذا التمجيد الذي تستحقه هذه الآية وتستحق أكثر منه ، كان الإنسان يتوقع إذا رجع إلى التفاسير الواسعة ، مثل الطبري والقرطبي والرازي ، أن يجد

عرضاً مبسوطاً لأسرار هذه الآية ومعانيها ، ولكننا نجد كثيراً من هذه التفاسير يميل إلى طريقة يمكن أن نسميها « طريقة التفسير بالأبعاض » ، أي أنهم يتناولون كلّ كلمة من كلماتها ، ويفسرونها بشيء هو جزء من معناها العام ، ثم يوردون بعده أشياء أخرى ، ، هي أبعاض لهذا المعنى العام ، وكنا نتمنى أن يحددوا المعنى لكل كلمة ، ثم يوردوا لهذا المعنى ما يندرج تحته من أبعاض أو أجزاء .

هذه مثلا كلمة « العدل » الواردة في الآية الكريمة . لو رجعنا إلى التفاسير لوجدنا بينها ما يبدو كالخلاف الواسع في تحديد معناها ، حيث أوردوا في تفسيرها أشياء كثيرة ، نسبوا كل شيء منها إلى شخص، فذكروا أن العدل هو الإنصاف ، أو شهادة لا إله إلا الله ، أو خلع الأنداد ، أو التوحيد ، أو العدل في الأفعال .... إلخ .

أوردوا كل هذا كأنه اختلاف واسع المدى ، مع أننا نستطيع أن نقول إن العدل هو الاستواء على الصراط المستقيم ، دون التواء أو انحراف إلى جهة ما ، وهذا الاستواء يشمل الاعتقاد والأعمال والأقوال والنوايا ، وبهذا التعريف تندرج الأبعاض التي ذكروها وغيروها تحت هذا المدلول العام . وبذلك نفسح نطاق العدل إلى مدى بعيد ، فهناك عدل في الاعتقاد ، وهو أن تكون مستوياً على الصراط في إيمانك بإله واحد ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ؛ وهناك العدل مع النفس ، وهو أن تعطيها ما ينبغي لها ، وأن تحول بينها وبين ما لا يليق بها ؛ وهناك العدل مع الزوجة ، بحسن المعاملة إن كانت واحدة ، وبعدم الجور إن كان هناك أكثر من زوجة ، حيث يلزم المؤمن حينئذ أن يعدل في المطعم والمشرب ، والمسكن والمبيت ، وكل ما يمكن العدل فيه : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعدلوا » . وعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يو م القيامة وشقه مائل » .

وهناك العدل بين الأولاد ، فقد قال الحديث : « اتقوا الله واعدلوا بين

أولادكم » ، ولقد جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره أنه أعطى ولداً من أولاده هدية ، فقال الرسول : أكلَّ أولادك نَحلْت (أي أعطيت) مثلَ هذا ؟. فقال : لا . فقال الرسول : فارجعه ؛ وفي رواية أخرى : « فلا تُشْهدني إذن ، فإني لا أشهد على جور » .

وهناك العدل في القول : « وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » ؛ والعدل في الكتابة : « وليكتب بينكم كاتب بالعدل » ، والعدل في الإصلاح بين المتخاصمين : « فأصلحوا بينهما بالعدل » . والعدل في الحكم : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ، والعدل مع الأعداء : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » ، والعدل في كل شيء ومع كل إنسان : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا » .

* * *

وهذه كلمة « الإحسان » . لقد أوردوا في تفسيرها اقوالا ، منها أن الإحسان هو أداء الفرائض ، أو الإخلاص ، أو الإحسان في الأقوال ، أو الزيادة على أداء الواجبات ، أو أن تعبد الله كأنك تراه ، أو أن تحب للناس ما تحب لنفسك، فإن كان الشخص مؤمناً أحببتَ أن يزداد إيماناً ، وإن كان كافراً أحببتَ أن يصير أخاك في الإسلام ... إلخ .

ونستطيع أن نقول إن الإحسان هو أن يكون الإنسان في عمله وقوله في مرتبة الإتقان والفضل ، مع المراقبة والإخلاص ؛ ونحن نجد الإحسان في القرآن يستعمل لأحد معان ثلاثة : الأول بمعنى أداء حسناً كاملا طيباً متقناً غير منقوص، ولعل من هذا المعنى قول الله تعالى : « الذي أحسن كل شيء خلقه » ، وهو يذكرنا بقوله عز من قائل: « صنع الله الذي أتقن كل شيء » . ويقرب من هذا قوله : « إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا » .

والمعنى الثاني للاحسان في استعمال القرآن هو معنى الزيادة على المفروض ، والفضل عن الواجب ، مثل قوله تعالى : « والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين » ، فالإحسان هنا كما قيل زيادة الفضل عن العفو ، بأن يحسن الإنسان إلى من أساء إليه ، فلا يقتصر على العفو عنه ، بل يصنع الجميل معه .

والمعنى الثالث للاحسان هو الإخلاص في العمل ، والمراقبة لله سبحانه ، مثل قوله : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين » .فالجهاد هنا يشمل كل لون من ألوان المجاهدة والمراقبة والمعاملة المستقيمة في كل ميدان، وقد ورد مثل هذا في قول الرسول : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

• • •

ومعنى « إيتاء ذي القربى » هو إعطاء صاحب القرابة ما يستحقه وما يليق به وما ينبغي له ، ولكن كلمة « ايتاء » هنا تشعر بأن هذا الإعطاء شيء لازم ، يقتضي من الانسان أن يؤتيه مستحقه .

ونتساءل : أيكون المراد بذي القربى هنا الأقارب من الجهة النسبية والصلبية والقرابة الرحمية أو اللحمية فقط ، أم تحتمل كلمة « القربى » هنا قرابة الجيرة ، وقرابة الأخوة الإيمانية ، وقرابة الأرحام الإنسانية التي نستروح نسيمها في قول الله عز من قائل : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً » ؟.

• • •

ثم ذكرت الآية المنهيات ، فجاءت كلمة « الفحشاء » وذكروا في تفسيرها أشياء ، فقالوا إنها الزنى ، أو البخل ، أو كل الذنوب ، سواء أكانت صغيرة أم كبيرة ، وسواء أكانت في القول أم في الفعل ، وأكاد أفهم أن الفحشاء هي

كل ذنب تدفع إليه شهوة آثمة محرمة ، مع خجل صاحبها منها واستحيائه أن تبدوا للناس ، لعلمه أنها خارجة عن صراط العقل والدين والخلق والعدل ، ولذلك قيل إن الفاحشة هي ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال .

وأما كلمة « المنكر » فقد فسروها بأنها الكفر بالله تعالى ، أو ما لا يعرف في شريعة ولا سنة ، ويمكن أن نعرف المنكر بأنه كل ما ينكره العقل السليم والفطرة السوية ، ولذلك قيل إنه كل فعل تحكم العقول الصحيحة بقبحه ، وتحت هذا التعريف تندرج أبعاض كثيرة .

وقالوا في « البغي » إنه الكبر أو الظلم ، أو أن تبغي على أخيك ؛ وأكاد أفهم أن البغي هو التطاول على الغير ، والاعتداء عليه مع غطرسة وترفع .

ثم أتساءل بعد هذا : هل يمكن أن تكون الرذائل الثلاث المذكورة في الآية ، وهي الفحشاء والمنكر والبغي ، مقابلةً للفضائل الثلاث وهي العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ؟. هل يمكن أن نقول إن الفحشاء مقابلة ومناقضة للعدل ، لأن الخروج عن العدل ظلم ، ولأن الظلم تدعو إليه في العادة شهوة،فهو إذن فحشاء ، وهي ضد العدل الذي هو استقامة واستواء ؟..

وهل يمكن أن نقول إن المنكر يقابل « الإحسان » ويضاده ، لأن كل عاقل يحمد إتقان العمل والإخلاص فيه ، بينما هو يستنكر كل تقصير في أداء هذا العمل ، فكأن العمل المنكر مناقض ومضاد للعمل المتقن المحسن ؟. وهل يمكن أن نقول إن « البغي » يضاد إيتاء ذي القربى ويناقضه ، وخاصة إذا فهمنا القربى بمعناها العام ، لأن إيتاء ذي القربى فيه التزام للعدل مع الفضل ، ولأن البغي فيه مجانبة للعدل والفضل معاً ؟ ولو فهمنا القربى بمعنى القرابة النسبية لامكن أيضاً أن نجعل البغي مناقضاً لها ، لأن من منع قرباه حقها يكون في العادة باغياً متجبراً في بغيه ، فإذا ظلم أقاربه فمنعهم حقهم . فإن مثله لا يتورع عن الاعتداء على سواهم في تجبر وكبرياء .

إن الآية الكريمة تحمل في طواياها من المعاني والإشارات ما يحتاج إلى بسط القول فيها لمدى بعيد ، والله جل جلاله المسئول أن يشرح صدورنا بالقرآن ، وأن يضيء حياتنا به ، إنه أكرم مسئول ، وأفضل مأمول .

والله تبارك وتعالى أعلم .

ابتلاء الله لعباده

السؤال : **أريد تفسيراً لقول الله تعالى : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ، الذين إذا أصابتهم مصيبة ، قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » .**

الجواب :

هذه الآيات الكريمة قد سبقتها آيتان هما قول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ، إن الله مع الصابرين . ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله اموات بل احياء ولكن لا تشعرون » ثم مضت الآيات الكريمة التي معنا تقول : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات » ، الى آخر ما قالت .

وأكاد أفهم أن الذكر الحكيم هنا يعطينا عظته على ثلاث مراحل ، المرحلة الأولى يرسم فيها طريقَ الخير ، ويوجز هذا الطريق في أمرين جليلين ، هما : الصبر والصلاة . ثم تأتي المرحلة الثانية من العظة ، وهي ضربُ مثلٍ رفيع كريم لغاية الصابر الشاكر المصلي ، المخلص لله سبحانه وتعالى ، وهو الذي يجود عندما يحتاج الأمر إلى التضحية بالنفس ، والجود بالنفس أقصى غاية الجود ، فهذا المضحي الذي يبلغ قمةَ الجود والتضحية في سبيل الله ، لا يفقد حياتَه كما يظن كثير من الناس ، بل هو حي باق ، وإن لم نشعر نحن بحياته عن طريق حواسنا القاصرة ، أو رؤيتنا المحدودة ، أو علمنا الضعيف الضيق .

ثم انتقلت الآيات إلى المرحلة الثالثة من مراحل العظة ، وهي التذكير بأنه إذا كان طريق الخير مرسوماً أمامكم يعتمد على الصبر والصلاة ، وإذا كان

هناك من ارتقوا بهذا الصبر وهذه الصلاة،حتى ضحوا في سبيل الله بارواحهم ونفوسهم ، فحفظ الله عليهم حياتهم ، فلا تنسوا ولا تستكثروا أن يعرضكم الله من حين لحين لألوان من الابتلاء والتمحيص والتنقية والتصفية ، لعلكم إذا أحسنتم الصبر على هذه الأنواع من الابتلاء، تستقيمون على الطريق ، فتكونون مثلَ من ضحوا فصاروا أحياء عند ربهم ، أو على الأقل تقربون منهم حينما تستعدون لمثل مصيرهم الكريم .

هذا ما يتعلق بالربط بين هذه الآيات وما سبقها من آيات كريمة ...

النقطة الثانية ، هي التعبير بكلمة « شيء » في قوله : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع » ، فقد قيل أكثر من مرة إن المراد من الشيء هنا التقليل ، وأكاد أفهم أن المراد من الشيء المنكر هنا — والله أعلم — نوع من الإبهام المقصود الذي لا يجعل الشيء المبتلى به محدداً معلوماً ، بل هو شيء قد يكون قليلا ضئيلا ، وقد يكون خفيفاً متوسطاً معتدلا ، وقد يعلو ويرتفع ويتسع مداه: « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع » . ثم هناك كلمة أخرى أكاد أفهم منها هذا الفهم ، وهي قول الله تعالى: «ونقص من الأموال والأنفس والثمرات» ، فكلمة « نقص » هنا أيضاً أريدَ عدمُ تحديدها ، فقد يكون نقصاً قليلا ، وقد يكون خفيفاً متوسطاً ، وقد يكون كثيراً . وهذا يذكرني بتعبير القرآن البليغ المعجز عندما يقول : « اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم » ، «فالبعض» هنا قد يشمل الشيء الضئيل القليل ، وقد يشمل الشيء المتوسط ، وقد يشمل الشيء الكثير ، ولذلك يقول : « اجتنبوا كثيراً من الظن » لأن بعضية الظن الموصوف بأنه سيء مبهمة شائعة في هذا الظن الكثير الذي يجب أن تتجنبوه، فقد يكون الظن السيء في أول ظنكم الكثير ، أو في آخر ظنكم الكثير وأنتم لا تعلمون .

الخاطرة الثالثة التي تخطر لي — وأنا لا أستقصي — أن الخطاب كما يقول كثير من المفسرين موجَّه إلى المسلمين ، وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهناك من يقول : إن الخطاب موجه لمن يتأتى منه الفهم والسمع

والاتجاه . والخاطرة التي تخطر لي هنا هي أن هذه الأنواع التي ذكرها الله من ألوان الابتلاء قد أتقن الله بها تصفيةَ معدنِ الرسول صلى الله عليه وسلم ، حتى ضرب منه خير قدوة وأفضل أسوة ، للذين يتعرضون أو سيتعرضون للابتلاء . إذ ابتلى الله رسوله بمقام الخوف ، لا على أنه ضعف ، أو على أنه فرار من التبعية ، ولكنه خوف على مصير الأمة ، وخوف على الشاردين من أبنائها ، وإذا ما تذكرنا موقف الرسول عليه الصلاة والسلام قبيل غزوة بدر ، وهو غارق في دعاء وابتهال إلى الله ، لأنه لو هلكت هذه العصابة لم يُعبد في الأرض ، لأدركنا سمو الخوف الذي كان يعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا على أنه ضعف أو جبن أو فرار من تبعة ، وإنما هو استكمال للشعور بالتبعية والمسئولية الذي تجعله مسئولا عن كل صغيرة وكبيرة تتعلق بهذه الأمة ، ويقرب من هذا قول الله تعالى لرسوله : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً » ...

ثم يأتي الجوع ، ومن الواضح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خير من جاع ، وأخلص في تحمل تبعة التقشف والتخشن في سبيل الله ، حتى ربط بطنه الشريف بالحجر أيام التعرض لهذا التقشف ، وحتى مرَّ على بيته الشهرُ لا توقد فيه نار ، ومن حوله البيوت يوقد فيها نيران ونيران . ونقص المال في حياة الرسول أظهرُ وأوضح من أن يشرح ، فقد عاش مسكيناً ، ومات مسكيناً ، وسأل ربه أن يحشره يوم القيامة مع المساكين ، وما كان له من مال تمولّه ليورثه لأولاده ، بل قال : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة .

والنقص في الأنفس أيضاً تعرض له الرسول كأكرم ما يمتحن به الرجال ، فقد شاء الله لأولاده أن يتخرمهم الموت واحداً بعد واحد ، ولم يبق له من البنين والبنات إلا فاطمة الزهراء رضون الله عليها . وكذلك نقص الثمرات قد تعرض له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي كان يكتفي بالشعير وبالخبز القفار ، وما كان له من الثمرات ما نقول إنه زائد حتى يعرض له النقص .

والآية قد قالت : « ولنبلونكم » ، فالخطاب موجه إلى عموم السامعين

والقادرين على أن يسمعوا ، ثم جاءت النتيجة بتخصيص نوع يفوز بالبشارة وهو : « وبشر الصابرين » ، فكأن الجميع قد اتجه إليه الخطاب .

والمعنى : أنتم جميعاً ستبتلون بشيء من هذا الابتلاء ، أو ذاك ، أو ذلك . ولكنكم لن تكونوا سواء في تحملكم التبعات والمسئوليات في هذا الابتلاء . فمنكم من يصبر ، ومنكم من لا يصبر . ومنكم من يسترجع ، ومنكم من لا يسترجع .

إن الابتلاء نازل بكم جميعاً ، ولكن صنفاً خاصاً منكم هو الذي سيستحق الثمرة الطيبة : « وبشر الصابرين » ، وكأن هذا إيحاء إلى الإنسان بأنه ما دام سيتعرض للابتلاء ، وما دام سيصيبه ما قدر له من لون أو ألوان من هـذه الابتلاءات ، فمن الخير له أن لا يجزع ما دام الابتلاء واقعاً ، سواء رضي أو أبى : وما دام سينال أجر الابتلاء : وافَقَ أم لم يوافق ، فخير له أن يكون من الصنف الطيب : « وبشر الصابرين » .

الخطوة الخامسة حول قوله : « إنا لله » ، كأن الله تعالى يريد أن يعلمنا — على مستوى أعظم وأكرم ، أمام هذه الألوان من الاختبارات والتمحيص والابتلاء — أن نقف الموقف الكريم ، وأن نكون مستعدين لأن نضحي في سبيل الله بحياتنا وكل أموالنا ، وثمراتنا وأولادنا ، وفي مواقف خوفنا ومواقف شدتنا ، نجعلها خالصة لوجه الله تعالى ما دام قد خلقنا ، وما دام هو الذي يملكنا ، وما دام هو المتصرف فينا ، فهو أحق بنا : أحق بأموالنا وبثمراتنا ، وحياتنا وتضحياتنا في أي ميدان من التضحية : « وإنا إليه راجعون » ، فهو المتصرف ، وهو المالك لنا اليوم وغداً وبعد غد . وهو الذي سنعود إليه ، فلأنْ نعـود إليه ، ونحن قد سبقنا ، ونحن مؤمنون مضحون في سبيله ، خير من أن نعود إليه وهو غير راض عنا أو غير مرحب بنا ومن هنا جاءت الكلمات الكريمة : « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » . وأنا أفهم أن الصلوات هنا يراد بها الثناء وتمجيد الذكر ، حتى يظهر الفرق بين كلمـة الصلوات وبين كلمة الرحمة ، لأن الرحمة فيها الجزاء والفضل وفيها الرضوان.

وكأن الله تعالى يقول : « أولئك عليهم صلوات من ربهم » ، فلهم ثناء طيب ، لأنهم اتبعوا الطريق القويم ، ولهم جزاء هذا الاتباع الكريم ، وهو الرحمة والفضل ، لأنهم قد اهتدوا إلى السبيل القويم : « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

قصة الغرانيق

السؤال : **جاء في كتب التفسير عن قصة «الغرانيق» أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ قوله تعالى : « أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى » ، فألقى الشيطانُ على لسانه كلمتين : « تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى ». ثم سجد في آخر السورة ، وسجد المشركون معه ، ثم جاءه جبريل فقال له : « ما جئتك بهاتين . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : افتريتُ على الله ... إلخ .»**

فما رأيكم في هذه القصة ؟.

الجواب :

قصة « الغرانيق » المفتراة قصة متعبــة للقارىء في كتب التفسير ، وذلك لورودها في كثير من هذه الكتب ، دون العناية الكافية بنقدها أو تفنيدها ، ولو أننا دققنا في تفاصيل القصة نفسها ، حسبما روتها هذه الكتب ذاتها ،لأمكننا أن نجد من الدلائل والبراهين ما يكفي لرفضها ودحضها .

ونلاحظ أولا أن شيخ المفسرين ابن جرير الطبري الذي أورد هذه القصة رجلُ تاريخ وتفسير ، ومع مكانته وشهرته لم يسلم العلماء البصراء له كلَّ ما

في كتابه ، وما من أحد في الأمة إلا ويؤخذ منه ويرد عليه ، إلا صاحب الروضة المعصوم عليه الصلاة والسلام ، وفوق هذا نجد أن أول كلمة بدأ بها ابن جرير الطبري حديثَه عن هذه القصة المزعومة هي كلمة « قيل » ، وهي صيغة معروفة لدينا بأنها صيغة تضعيف ، أو صيغة تمريض ، فكأنه منذ البداية ينظر إلى القصة على أنها خبر ضعيف أو عليل . ثم إن من عادة ابن جرير أنه يسوق الروايات المختلفة في تفسير النص القرآني الكريم ، ثم يعقب على ذلك في الغالب بقوله : « والصواب عندنا كذا ...» أو قوله : « وأَوْلَى الأقوال بالقبول عندنا كذا...» ونلاحظ أنه لم يتبع هذه الطريقة في التعقيب على قصة الغرانيق، بل اكتفى بسرد الروايات والأخبار ، مع إيضاح لبعض عباراتها .

وكذلك يوجد تضارب في رواية العبارة التي يزعمون أنها أُضيفت على لسان الرسول عليه الصلاة والسلام إلى آية : « ومناة الثالثة الأخرى » ، وقد تتبعت هذه العبارة في عدد من كتب التفسير ،فوجدتها تروى بأكثر من عشر روايات، على الوجه التالي :

(١) « تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن ترتضى » .

(٢) « تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترجى » .

(٣) « تلك الغرانيق العلى ، وشفاعتهن ترجى ، مثلهن لا ينسى » .

(٤) « إن الآلهة التي تدعى ، إن شفاعتها لترتجى ، وإنها للغرانيق العلى » .

(٥) « وهي الغرانقة العلى ، وشفاعتهن ترتجى » .

(٦) « تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى » .

(٧) « وإنها لمع الغرانيق العلى » .

(٨) « إن تلك الغرانيق العلى ، منها الشفاعة ترتجى » .

(٩) « إن شفاعتهن ترتجى » .

(١٠) « تلك الغرانقة العلى » .

(١١) « وإنهن لهن الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لهي التي ترتجى »... إلخ .

فهذا النص الذي يزعمون أنه قد جرى على لسان الرسول صلوات الله وسلامه عليه قد تضاربوا في روايته تضارباً شديداً ، ولو فُرض فرضاً أن النبي قاله لكان من الشهرة والذيوع بمكان ، ولما اختلفوا فيه كلّ هذا الاختلاف ، لأنه وجيز ، فهو كالنقطة السوداء في جبهة الفرس الأبيض .

وكذلك جاء في قصة الغرانيق المزعومة أن المشركين والمسلمين كانوا حول الرسول في المسجد ، فلما قرأ سورة النجم ، وأضاف إليها ما يزعمون أنه أضافه ، سجد مَنْ في المسجد من المشركين والمسلمين ، وهنا تقول بعض الروايات التي ذكرها ابن جرير : « فسجد المسلمون بسجود نبيهم ، تصديقاً لما جاء به ، واتباعاً لأمره ، وسجد من في المسجد من المشركين ، من قريش وغيرهم ، لما سمعوا من ذكر آلهتهم ، فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر إلا سجد ، إلا الوليد بن المغيرة ، فإنه كان شيخاً كبيراً فلم يستطع ، فأخذ بيده حفنة من البطحاء فسجد عليها ، ثم تفرق الناس من المسجد ، وخرجت قريش وقد سرهم ما سمعوا » ، فكيف تيسر بهذه السهولة أن يجتمع المسلمون والمشركون في المسجد، مع ما كان هناك من خصومة شديدة بين هؤلاء وهؤلاء؟. وكيف سارع المشركون إلى هذا السجود المزعوم ، وفي السورة وما فيها من حملة صارمة على الأصنام وعابديها ؟.

وهناك بعد هذا اضطراب في تعيين اسم الشخص الذي يقال إنه يسجد على الأرض ، بل سجد على قبضة من التراب رفعها إلى جبهته ، فهناك رواية أخرى تقول إنه أبو أحيحة سعيد بن العاص ، والغريب أن هذه الرواية تقول إن أبا أحيحة قال حينئذ : « قد آن لابن أبي كبشة أن يذكر آلهتنا بخير » . وهو يقصد بذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، وكلمة « ابن أبي كبشة » تعبير كان المشركون يقولونه ذماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكيف يذكر أبو أحيحة هذا التعبير في موقف زعموا أن الرسول طاوعهم فيه واقترب منهم ؟. إن الموقف — لو صح — يناسبه أن يذكر أبو أحيحة كلمةَ مدح أو تقدير ، لا كلمةَ ذم أو تقبيح .

ومن الشواهد على بطلان هذه القصة وافترائها أن سورة النجم التي زعموا فيها الزيادة سورة مكية ، وسورة الحج التي وردت فيها الآيات التي قيل عنها أنها إقرار للقصة ، سورة مدنية نزلت بعد سورة النور ، فهناك إذن مدة زمنية متطاولة بين الإضافة المزعومة في سورة النجم ، وبين تصحيح الموقف الذي يقال إنه ورد في سورة الحج ، فكيف يرضى الله تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يبقى في هذا الموقف الغريب العجيب كلَّ هذه المدة دون مراجعة أو تصحيح ، مع أن القصة المزعومة تقول في روايتها إن جبريل عليه السلام جاء إلى النبي في مساء اليوم الذي قيل إنه قد حدثت فيه الزيادة على السورة ، وطلب منه أن يقرأ ، فلما بلغ النبي قولَه : « تلك الغرانيق العلى .. » عارضه جبريل ، وقال : ما هكذا أقرأتك ، وحزن الرسول كما يزعمون ، وجعل يردد : « لقد قلتُ على الله ما لم يقل » ، وعقب ذلك نزل قول الله تعالى مسلياً الرسول : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ، ثم يحكم الله آياته ، والله عليم حكيم » .

كيف يسوغ لدى أي عاقل أن يترك الله عبادَه المؤمنين طيلةَ هذه المدة الموجودة بين نزول السورتين في شك واضطراب ؟.

ومن الملاحظات التي تزيد علالا من الشكوك على القصة أن ابن جرير الطبري حيثما تعرض في تفسير سورة الحج لتفسير الآية : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ... » إلخ ، ساق الروايات المتعلقة بقصة الغرانيق ، ولكنه لما وصل سورة النجم ، وتعرض لتفسير قوله تعالى : « أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى » ، لم يتعرض لهذه القصة بقليل أو كثير ، ولم يشر إليها أي إشارة ، ولم يُحِلْ عليها في سورة الحج ، وهذا يجعلنا نرتاب في صدق القصة ، بل نرجح أن الطبري لم يثق بها كثيراً ، ولعله قد ساقها بنزعة المؤرخ أكثر مما ساقها بنزعة المفسر .

ومما يحكم على القصة بالزعم والبطلان أن رواتها يقولون إن الرسول صلى الله عليه وسلم قرأ سورة النجم حتى وصل قوله تعالى : « ومناة الثالثة الأخرى » ،

وهنا أضاف — كما يزعمون — قوله : « تلك الغرانيق العلى ... » ثم واصل التلاوة حتى انتهى إلى آخر السورة ،وهنا سجد وسجد معه المسلمون والمشركون، ولو سلمنا بصحة القصة لكان من الطبيعي أن يسجد المشركون عقب الإضافة . لأنها هي التي تهمهم وترضيهم ، ولا ينتظروا حتى يسمعوا في السورة بعد ذلك كلاماً شديداً موجعاً في حقهم وحق أصنامهم ، من مثل قوله تعالى عقب ذلك مباشرة : « ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذن قسمة ضيزى ، إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى » . وقوله : « إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الإنثى ، وما لهم به علم إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً ... » إلخ .

على أنه يمكن من جهة أخرى أن تعرف سبب سجود الرسول والمؤمنين اذا ما قرأوا أو سمعوا سورة النجم حتى نهايتها ، وهو أن في آخرها آية سجدة ، وهي قوله تعالى : « فاسجدوا لله واعبدوا » . وإذا كانت هناك روايات أخرى غير رواية قصة الغرانيق تذكر أن هناك من سجد عند سماعه سورة النجم وهو غير مسلم ، فلعل ذلك — كما قال بعض الأئمة — كان لبلاغة السورة ، وشدة قرعها ، وعظيم وقعها ، وقد قيل لأعرابي غير مسلم سجد عند سماع القرآن : لماذا سجدتَ ؟. هل آمنتَ به ؟. فأجاب : سجدتُ لبلاغته . وعلى هذا الأساس ورد في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ سورة النجم فسجد معه المسلمون والمشركون والجن والأنس ، وقد تحدث عن هذا القاضي عياض .

وكذلك جاء في رواية القصة المزعومة أن السورة نزلت على الرسول وهو في الصلاة ، وأنه تلقاها من جبريل ، وأسمعها لمن خلفه ، وأضاف إليها ما أضاف — كما يزعمون — وأتم السورة حتى نهايتها ، ثم سجد وسجدوا ، وهذا كله لا يناسب حالات الوحي المعهودة ، لأن الصلاة لا تحتمل كل هذا ، لا من ناحية هيئاتها ولا من ناحية طبيعتها ، وإذا كان المسلمون يصلون خلف الرسول حينئذ لأنهم مسلمون ، فما الذي أتى بالمشركين وهم مشركون إلى صفوف المسلمين المصلين ؟. يظهر أن الاختلاق هنا خانه الذكاء وجانبه الإحكام .

بعد هذا تقول الرواية إن جبريل راجع النبي ، ونسخ الزيادة التي زعموا إضافتها ، وهنا كما قالوا اشتد استنكار المشركين ، وتطاول استهزاؤهم واستخفافهم برسول الله عليه الصلاة والسلام ، فكأن التصرف الذي تصرفه الرسول أدى إلى عكس المراد منه ، وانتهى إلى خالة : « رد الفعل » العنيفة ، فلو فرضنا وجردنا الرسول من عنصر الوحي ، وعنصر العصمة ، وعنصر التأييد الإلهي ، وأبقينا له ما يعترف به الأعداء والأولياء على السواء ، وهو العقل والإصلاح البصير ، لما كان بُعْد نظره يؤدي به أن يتصرف مثلَ هذا التصرف فيقول كلاماً لينقضه غداً ، وهو يعلم جيداً أن نقضه سيكون له ما له من وخيم العواقب .

ثم إن هؤلاء الزاعمين لا ينسبون هذه الفرية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده ، بل يعممونها على كل رسول وكل نبي ، بمحاولة خبث تفسيرهم لقول الله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته » ، لأن المعنى الخسيس الذي فهموه هو أنه ما من رسول ولا نبي إلا حرف الكلمَ عن مواضعه ، ونسب إلى الله ما لم يقله ، وكيف يقبل الله تعالى لرسله وأنبيائه جميعاً هذا الموقفَ المهين ؟ ألا ساء ما يحكمون ، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

قد يسأل هنا سائل فيقول : وما معنى هذه الآية إذن ؟. ويحسن بنا أن نلاحظ أن مادة « التمني » تستعمل غالباً في اللغة العربية بمعنى تقدير الشيء في النفس ، وتصوره فيها ، وتطلعها إلى تحقيقه ، سواء أكان ممكناً أم غير ممكن ، وأما استعمالنا مادة « التمني » أو «الأمنية » بمعنى التلاوة أو القراءة فهذا استعمال نادر أو قليل ، فلا يصار إليه إلا لحاجة، وابن عباس حينما ذكر أن الأمنية تستعمل بمعنى القراءة، ذكر ذلك بصيغة التضعيف والتمريض فقال: « ويقال: أمنيته قرأته » . وهذا التعبير يدل على أن ابن عباس لم يعد تفسير الأمنية بالقراءة هو التفسير المختار لديه ، والزاعمون للقصة يعتمدون فيها على عبارة ابن عباس ، فكيف نسلم لهم هذا ؟. وفوق هذا نرى أن راوي الخبر عن ابن عباس هو ابن أبي صالح كاتب الليث ، وهو محكوم عليه بالضعف عند المحققين .

ويمكن أن نفهم معنى الآية على الوضع التالي : إنه ما من رسول ولا نبي أرسله الله تعالى قبل نبينا محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام ، إلا تطلعت نفسه بقوة إلى هداية الناس ، وحملهم على صراط ربهم ، ولكن الشيطان عن طريق أتباعه ووسوسته لهم ، يلقي المصاعب والعقبات في طريق هذه الأمنية ، بصد الناس عن الحق ، وإغرائهم بالباطل ، وحملهم على معارضة الرسل . ثم وعد الله عباده بأن يبطل الباطل ، ويحق الحق ، فيهزم كلمة الشيطان ، وتبقى دعوة الرحمن .

ولو فسرنا التمني هنا بالتلاوة فالمعنى أيضاً لا يتضمن التسليم بصحة قصة الغرانيق ، لأن المعنى يكون حينئذ كما يلي : ما من رسول ولا نبي أرسله الله ، وتلا آيات ربه الواضحات ، إلا حاول الشيطان اللعين عن طريق الوسوسة لأتباعه ، أن يحرفوا الكلم عن مواضعه ، ويحمّلوا الآيات من المعاني الفاسدة ما لم يرده الله ، ولكن الله ينسخ ذلك الباطلَ ويزيله ، ويُحْكم الله آياته ، ولذلك جاء في تفسير الآلوسي عن معنى الآية إنه ما أرسل الله من قبل النبي رسولا ولا نبياً إلا وحاله أنه إذا قرأ شيئاً من آيات الله ألقى الشيطان الشبه والتخيلات فيما يقرؤه على أوليائه وأتباعه ، ليجادلوا النبي بالباطل ويردوا ما جاء به ، ولكن الله سبحانه يبطل ما يلقيه من تلك الشبه ويذهب به ، ويؤيد رسوله بالحق الثابت . وينبغي أن نلاحظ أن الآلوسي لم يذكر شيئاً عن قصة الغرانيق ، لا في تفسير سورة الحج ، ولا في تفسير سورة النجم .

ثم إن القسطلاني شارح البخاري طعن في القصة ، وقال ابن إسحاق إنها من وضع الزنادقة ، وقال القاضي عياض إن حديث القصة لم يُخْرجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه بسند متصل سليم ، وقال ابن العربي إن جميع ما ورد في هذه القصة لا أصل له . وكيف تصح وهي تطعن عصمة الرسول في الصميم ، وقد أثبت المحققون من العلماء أن الروايات التي ذكرت فيها القصة من « المراسيل » والحديث المرسل هو الذي سقط من سنده مَنْ بعد التابعي ، والجمهور يتوقف عن الاحتجاج به ، لجواز أن يكون الساقط

من السند غير صحابي ، بل روى أن الإجماع قائم على عدم الاحتجاج بالمرسل في أصل العقائد ، والاختلاف في جواز الاحتجاج به إنما وقع فيما هو من قبيل الأعمال وفروع الأحكام .

وأخيراً كيف يعقل عاقل حدوثَ هذا من رسول معصوم مؤيد بتوفيق الله الذي قال له : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » ، وقال له أيضاً : « فاستقم كما أمرت » ، وقال له : « قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد » ؟. تعالى رسول الله عن ذلك الافتراء علواً كبيراً . والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *



النبيّ
والحديث الشريف والسّيرة



الحديث عن السيرة المطهرة

السؤال : هناك من يحاول قطعنا عن ماضينا ، وينفرنا من الحديث عن السيرة الإسلامية المطهرة ، فما رأيكم في ذلك ؟.

الجواب :

السيرة النبوية بمعناها الواسع تشمل حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، بما كان فيها من أقوال وأعمال وإقرار ، وتشمل حياة صحابته الأكرمين رضوان الله عليهم أجمعين ، وما كان لهم من جهاد ونضال في سبيل القرآن والملة الغراء، وتشمل حياةَ التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، فهذا كله تشمله كلمة « السيرة النبوية » بمعناها العام الواسع ، لأن الأمام فيها ، والقائد لها ، والعلَم المبرز من بين أعلامها ، هو محمد رسول الله عليه صلوات الله وسلامه ، وكلهم من رسول الله ملتمس طريقَ الهدى وسبيل الرشاد ، فلا غرابة إذا نُسبت السيرة إليه ، وامتدت في الزمان عهوداً بعد عهود ، وعصوراً في إثر عصور .

وإنه لمن الخير لنا في ديننا وفي أنفسنا وفي مجتمعاتنا ، أن نتحدث عن السيرة النبوية في ظروفها الملائمة ومناسباتها المؤاتية . بل من الخير أن نصطنع هذه المناسبات إذا وجدنا في اصطناعها خيراً وفائدة ، وذلك لأن السيرة قدوة وتاريخ ، وتفسير وتطبيق .

نعم إن السيرة قدوة ، إذ أن صاحب هذه السيرة الأعظم محمداً صلى الله عليه وسلم يبدو في طليعة رجالها ، بأخلاقه العالية ، ونفسه الصافية ، وجهاده العظيم، وبلائه الحسن في سبيل القرآن والدين ، وفي حياته من ألوان القدوة ونماذج الأسوة ما يعد خيرَ مهذب ومؤدب للأجيال بعد الأجيال .

وكذلك نرى في سيرة صحابته وأتباعه هذه القدوة وتلك الأسوة ، فلم تكن حيواتهم اياها متتابعة ، ولا حوادث متلاحقة ، ولا حركات جوفاء ، بل كانت دروساً تفيض بالعبر والعظات ، مما يفيد الناس في دينهم ودنياهم ، وفي شئونهم الفردية وأمورهم الجماعية .

ولست أدري لماذا أُحس في نفسي فرقاً كبيراً بين « السيرة » و« التاريخ » . فأنا أحس بالسيرة تأديباً وتهذيباً ، وتعليماً وتقويماً ، فيها ضرب المثل الصالح ، الذي يدعو إلى الخير ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر . ولكن التاريخ سلسلة أحداث وحوادث ، تسردها الألسنة أو الصحف ، يأخذ بعضُها بخناق بعض ، دون أن يعنى السارد باستلهام الحادث عظةً أو عبرة .

* * *

والسيرة يجب أن نتحدث عنها ونطيل الحديث ، لأنها تاريخ فوق أنهـا قدوة ، وهي كما أسلفنا نمط من التاريخ الجامع بين الحادث والقدوة ، وما من أمة تستطيع أن تعيش بغير تاريخ ، وأميرُ الشعر والشعراء شوقي يقول في قيمة التاريخ :

غالِ بالتاريخ،واجعل صحفَهُ ... من كتاب الله في الإجلال قابَا
رُبَّ من سافر في أسفـــاره ... بليالي الدهر والأيام آبـــــا
واطلب الخلدَ ورُمْه منـــزلا ... تجد الخلدَ من التاريخ بابـــا
مَثَلُ القوم نسوا تاريخَهـــم ... كلقيط عَيَّ في الناس انتسابـــا
أو كمغلوب على ذاكـــرة ... يشتكي من صلة الماضي انقضابـــا

ويقول فيه أيضاً :

ذاك كتاب الناس والأيـــامِ ... من آدم الجَدّ إلى القيـــامِ
تأنق الدهر بـــه ما شـــاء ... وأتقـــن التأليف والإنشـــاء

والأمة الإسلامية أشد حاجة من غيرها إلى الإقبال على تاريخها ، والاعتزاز

به والتمعن فيه ، لأن التاريخ الإسلامي شديد الارتباط بتعاليم هذه الشريعة السمحة ، إذ هو ليس تاريخاً قومياً وطنياً فقط ، وليس تاريخ أسرة أو دولة إقليمية ، ولكنه تاريخ دعوة استجاب لها كرام سابقون ، وحملوها على أكفهم إلى المشرق والمغرب ، فكانوا يسالمون ويحاربون ويهاجمون ويستوطنون ويبنون ويعمرون ، وهم مستظلون بلواء هذه العقيدة الإلهية السامية ، ومن هنا امتزج تاريخ نشر الدعوة الإسلامية بتاريخ الذين نشروها ، ومكنوا لقواعدها بين العالمين .

ونحن – حين نطالع تاريخ أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعمرو وخالد وسعد وطارق وقتيبة وعمر بن عبد العزيز وصلاح الدين وغيرهم – لا نطالع تراجم لأناس عاشوا كما يعيش الناس ، يأكلون ويشربون ويتمتعون ، ويعلون في الأرض بالسلطان والبناء ، بل نطالع تاريخ أناس فنوا في دعوتهم ، والتزموا حدود شريعتهم ، وأخلصوا لله جهادهم في حياتهم ، فكانوا مبادىء عملية حية تسعى بين الناس .

* * *

والسيرة يجب أن نتحدث عنها لأنها تفسير لمبادىء هذا الدين الكريم ، وبخاصة أقوال الرسول وأعماله ، لأنه الإمام والقائد . والذين أخذوا عنه من صحابته وأتباعهم إنما يستضيئون بنوره ويهتدون بهداه ، فهو الينبوع وهم خير الناهلين . ونحن نلاحظ بين الفئات الضالة المضلة مَنْ ينجم بين صفوف المسلمين من حين لحين ، ليقول للناس كذباً وزوراً وبهتاناً : إننا يجب أن نأخذ ديننا من القرآن وحده ، ويجب ألا نعتمد على شيء إلا على نصوص القرآن ، مع أن القرآن الكريم جاء مبادىء كلية ونصوصاً عامة ، ولم يتعرض للتفاصيل والجزئيات ، إذ لا يتسع الدستور الأصيل العام لكل هذه التفاصيل والتفاسير ، وتكفلت السنة النبوية صلوات الله وسلامه على صاحبها بالشرح والتفسير والتوضيح .

لقد أمرنا الله في كتابه الكريم بالصلاة والصيام والزكاة والحج ، وشرع

لنا كثيراً من المعاملات ، ولكنه لم يعرض لتفاصيل هذه الفروض ، ولم يطل بتعداد هيئاتها وجزئياتها ، وتكفلت السنة النبوية بالشرح والتفصيل ، فالذين يهونون من شأن السنة والاستدلال بها والرجوع إليها جاهلون جهلا فظيعاً ، أو هم يكيدون للاسلام كيداً لئيماً ، ومهما كانوا فهم بحاجة إلى المجاهدة العقلية والأدبية حتى يستقيموا على الطريق .

* * *

والسيرة يجب أن نتحدث عنها لأنها تطبيق لذلك الدين ، وتنفيذ لذلك القرآن الكريم . وإن هناك من الضالين من يزعمون أن مبادىء القرآن الكريم مبادىء نظرية لا يمكن تنفيذها، ولا يستطاع تطبيقها ، ولكن السيرة تلقمهم الأحجار الكافية لردعهم وإقناعهم في هذا المجال ، فقد استحال القرآن الكلامي إلى قرآن عملي على يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى أيدي أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين . ولقد التزم الأولون مبادىء القرآن الكريم وعملوا بها ، فسعدوا وفازوا ، وشهد العالم على أيديهم أجمل عصر في تاريخ الإنسانية ، وليس ببعيد أبداً أن يحقق الله للمسلمين مثلَ هذه السعادة ، إذا ما أخلصوا نياتهم ، وصدقوا في عزيمتهم ، وأقبلوا على الله يعبدونه ، ويحلون حلاله ، ويحرمون حرامه ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء .

فعلى المسلمين أن يقبلوا على سيرة رسولهم صلى الله عليه وسلم وعلى سيرة صحابته الأكرمين ، ليأخذوا منها القدوة والتاريخ ، والتفسير والتطبيق ، وهذا يستدعي أن يجمعوا هذه السيرةَ جمعاً شاملا ، وأن ينفوا عنها الدخيل والمفترى ، وأن يجيدوا عرضها على أنفسهم وعلى الناس ، ويومئذ يستفيدون منها أكبر الفوائد ، ويجنون من رياضها أطيب الثمرات .

وصدق العلي الكبير إذ يقول : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيراً، ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم

إلا إيماناً وتسليماً ، من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا ، ليجزي الله الصادقين بصدقهم ، ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم ، إن الله كان غفوراً رحيماً » .

وليت المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها يعطون السيرة النبوية حقها الوافي من العناية والاهتمام ، بدل أن تظل مجالا فسيحاً للتزيد والتحريف بأيدي غلاة الأعداء والأصدقاء الجهلاء على السواء .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

العناية بالسنة النبوية

السؤال : **ما هي منزلة السنة النبوية في الإسلام ؟.**
وما واجبنا نحوها ؟.

الجواب :

كل من يعرف الإسلام يدرك بوضوح وجلاء أن السنة هي الركن الثاني في فهم الاسلام وتلقي أحكامه ، بل هي القائمة بمهمة التبيان للمواد الأساسية الكلية الواردة في التنزيل المجيد ، ولا غنى عن الرجوع إليها والاحتجاج بها .

ولكن هناك من يشككون في قيمة السنة ، وفي مراتبها ودرجاتها . ونحن نعرف أن القرآن الكريم كله نص متواتر ، محفوظ من أي نقص أو زيادة أو تغيير ، وأن هذا النص لا تجوز روايته بالمعنى على أنه قرآن ، وقد أجمعت الأمة على ذلك إجماعاً منقطع النظير ، ولكن التراث الضخم الذي يطلق عليه اسم «السنة» قد خلط الناس فيه بين الصحيح الثابت منه وبين الدخيل الطارىء عليه ،

فإذا بنا نسمع عن الأحاديث الموضوعية والضعيفة والسقيمة ، وإذا بنا نجد في كتب التفسير والوعظ والتاريخ كثيراً من المفتريات التي أطلقوا عليها اسم الحديث ، وإذا بنا نجد أعداء الاسلام وقد أدخلوا على كتبه طائفة من الإسرائيليات والأقوال التي ينسبونها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وهي محل نظر ومراجعة . ومن واجبنا أن نقطع ألسنة هؤلاء الآثمين بالتمييز بين الطيب والخبيث من هذا التراث ، وأن ننفي عن السنة الطاهرة الصحيحة الثابتة ما أضافوه إليها من مفتريات وأباطيل ، حتى يدرك هؤلاء الجهلة أن هناك فرقاً كبيراً بين السنة وبين ما أضيف إليها كذباً ، وإذا كان الأوائل قد بذلوا جهوداً جبارة في خدمة السنة من ناحية المتن والسند ، ومن ناحية الرجال والرواية ، ومن ناحية التقييد والجمع ، فمن واجبنا أن نيسّر للناس هذه الجهود ، بأن نعمل تبوبها وتصفيتها ، وتقديمها إلى الناس بوسائل تصلهم بها وتنفعهم بفائدتها .

ونحن نلاحظ أن بعض المجتمعات الإسلامية يعنى بالتفسير عناية فائقة لا يُعطى مثلها للحديث ، والبعض الآخر يعطي الحديث عناية فائقة لا يعطي مثلها للتفسير ، والواجب على علماء الإسلام أن يعنوا بالأمرين معاً عناية عظمى ، ومن واجب الأزهر أن يعنى بأمر السنة أكثر مما عليه الحال الآن .

ولقد سبق التفكير في إنشاء « دار الحديث » التي تعنى بجمعه وتبويبه ونفي الدخيل عنه ، ولو تحقق هذا لكان خدمة كبرى للسنة ، ولحفظها من الطعن فيها والتقول عليها . وأكرر القول بأن تراث السنة محتاج احتياجاً كبيراً إلى عناية ورعاية ، وإلى جمع وتصفية مما أضيف إليه ، وبهذه الجهود يستبين لكل مبصر أن السنة الثابتة عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه هي المفتاح الذي لا بد منه لفهم القرآن ولتطبيق أحكام الإسلام .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• •

من عبقرية الرسول

السؤال : **أريد أن أعرف بعضَ المواقف التي تدل على عبقرية رسول الله صلى الله عليه وسلم .**

الجواب :

الجهات التي يمكن للانسان أن يتحدث عنها في حياة هذا النبي الأمين الكريم كثيرة عديدة ، يحار الإنسان ماذا يختار منها ، وماذا يتحدث عنها ، وبخاصة إذا تكرر تعرض الإنسان للتحدث في مثل هذه الناحية التي تتكرر خيراتها وبركاتها .

ولكني أعتقد أن أوْلَى جهات العبقرية بالإعجاب والإكبار والتعظيم ، في شخص محمد النبيل ، هي ناحية خبرته بالنفس البشرية خبرةً فذة مثالية ، وبراعته في سياستها وقيادتها ، وتوجيهها نحو ما يريده لها من خير وبر ، دون أن يفتعل شيئاً قلقاً أو نابياً في هدايته وإرشاده إلى صراط الحق .

ويجب أن نلاحظ هنا أن محمداً صلوات الله وسلامه عليه لم يتلق درساً في « علم النفس » بإحدى الجامعات العلمية ، أو أحد المعاهد الاجتماعية ، حتى يقال إن هذه الخبرة جاءته من هذه المدرسة أو ذلك التعليم ، وإنما هي الفطرة الإنسانية السامية ، والعصمة الربانية العالية ، والهداية الإلهية جاءته من لدن حكيم خبير .

ونحن نعلم أن البحوث النفسية والدراسات المتصلة بالذات البشرية واسعة المدى ، متعددة الآفاق ، بعيدة الأعماق ، ساحقة الأغوار ، حتى لقد سمعتُ — أو كأني قرأت — أن هناك جامعة في أمريكا تضم أربعة عشر كرسياً لأربعة

عشر استاذاً تخصصوا في مادة واحدة هي مادة « علم النفس » ، وكل منهم متخصص في فرع من فروع هذه المادة المهمة .

ونحن نعلم أن الذي يريد أن يكون محيطاً بعلم النفس بارعاً فيه ، لا بد له مثلا من أن يدرس مسائل الإحساس ، والإدراك ، والتفكير ، والشعور ، والوجدان ، ولا بد له من أن يدرس التصور والخيال ، وأحلام النوم وأحلام اليقظة ، ولا بد من أن يدرس الغرائز والنزعات والعادات ، والإيحاء والاستهواء ، إلى آخر هذه الدراسات العديدة المتشعبة .

ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم على الرغم من أنه لم يدرس شيئاً من هذه الدراسات ، ولا بحثاً من هذه البحوث — كان خبيراً غاية الخبرة بالنفس البشرية ، وكانت له قدرة عجيبة على قيادتها ، وهدايتها إلى صراط ربها بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن .

على أن هناك درساً واحداً تلقاه محمد صلى الله عليه وسلم ، ولعلنا نستطيع مع شيء من التجوز والتسامح في التعبير أن نعده درساً في علم النفس ، وهو ذلك العمل الذي قام به محمد صلوات الله وسلامه عليه في صدر شبابه ، قبل أن يمسك بيديه مقادةَ الأمة ليهديها سواء السبيل ... ذلك العمل قد يستخف به أكثرنا الآن ، وقد ينفر منه بعضنا أو أغلبنا ، وقد يأنف الآنفون من إتيانه أو الرضى به ، ولكن الله تبارك وتعالى بحكمته الإلهية المقدسة جعل هذا العمل المستخف به عندنا عملَ الأنبياء جميعاً ، وهو رعي الغنم . فقد رعى محمد الغنم ، وقد رعاها من قبله الأنبياء والمرسلون . فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما بعث الله نبياً إلا راعي غنم » . قال له أصحابه : وأنت يا رسول الله ؟. قال : وأنا رعيتها لأهل مكة بالقراريط » ...

وقيل إنه كان بين أصحاب الإبل وأصحاب الغنم تنازع ، فاستطال أصحاب الإبل ، فرُوي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « بُعث موسى وهو راعي غنم » ، وبُعث داود وهو راعي غنم ، وبُعثت وأنا راعي غنم أهلي بأجياد » .

وكان محمد صلى الله عليه وسلم راعياً لهذه الأغنام قبل أن يتولى رعاية تلك الأقوام ، وكأن ذلك تدريب، أي تدريب، وتعويد على القيادة والرعاية،أي تعويد .

وذلك لأن الغنم عادةً يكون فيها السخلة المستضعفة ، والشاة الضالة ،والكبش المستأسد ، والماعز الساذجة ، والتيس المصارع ... ثم إن فيما بينها منــازع ومشارب مختلفة متضاربة . فهذه جائعة بحاجة إلى أن تأكل . وهذه ظامئــة بحاجة إلى أن تشرب ، وتلك والدة بحاجة إلى الرعاية . والأخرى جامحة بحاجة إلى أن تُكبح وتقاد بسياسة ولين ، أو بعنف وصرامة . إلى غير ذلك من منازع هذا الصنف من الحيوان الذي يحتاج في رعايته وسياسته إلى كثير من اليقظة والحكمة والملاحظة،حتى يحفظها الراعي من داء الشرود المتمكن منها، العميق فيها .

وما أشبه الأمم الضالة الفاسقة عن أمر ربها بالأغنام ، وقد حدثنا الله عــز وجل عن قوم ضالين فقال : « أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » . وقال : « إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » . وقال :«والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم » .

فالأمم أشبه ما تكون بالغنم،إذا تُركت بلا ضابط أو راع جمحت واعتدت ، وجاوزت حماها إلى حمى سواها ، ولعل هذا يذكرنا بالتعبير النبوي البليغ المستعار من هذا الجو وهو : « ومن واقعَ الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ألا وإن لكل لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه » . ويذكرنا كذلك بالتعبير النبوي الآخر المستمد من هذا المنهل وهو : «لتدخلن الجنة أجمعون أكتعون إلا من شرد على الله»، أي خرج على طاعته وفارق الجماعة ، وذلك من شرود البعير أو الغنم إذا نفرت وذهبت في الأرض .

ولذلك أراد الله تبارك وتعالى لأنبيائه ورسله ، الأمناء على عباده ، والقادة للأمم والشعوب ، أن يرعوا في أول أمرهم هذا الصنفَ من الحيوان ، كي

يتلقوا درساً في قيادة هذه الأمم والشعوب ، حتى يرتفعوا بها عن ذلك المستوى المنحط ، إلى ذلك المستوى الرفيع الذي أراده الله سبحانه للأمة المسلمة المؤمنة : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم ».

ولا أستطيع في مجال محدود كهذا أن أستعرض المواطن والمناسبات الكثيرة التي تجلت فيها خبرة محمد صلى الله عليه وسلم بالنفس البشرية ، فحسبنا إذن أن نقطف قطوفاً سريعة من مواقفه النبيلة الشريفة . وكلها خبرة بالنفس البشرية ، وبراعة في قيادتها وسياستها ..

* * *

لعلنا نذكر موقفَ الرسول صلى الله عليه وسلم عندما جدد العرب على عهد الجاهلية بناء الكعبة ، وكان محمد يومئذ في الخامسة والثلاثين من عمره . ووصلوا في البناء إلى موضع الحجر الأسود . فاختصموا فيه . وكل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى . حتى تحاوروا وتخالفوا . واستعدوا للقتال والنزال . وأدخلوا أيديهم في جفنات الدماء تعاقداً على الموت ، فقال لهم أسنُّهم : يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أولَ من يدخل من باب هذا المسجد ، يقضي بينكم . وفعلوا فكان أول داخل عليهم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهتفوا : هذا هو الأمين ، رضينا به حكماً .

وإذا بهم يفوضونه في الحكم بينهم ، ويعطونه سلطة مطلقة بالفصل في مشكلتهم ، وقد كان محمد حينئذ مستطيعاً أن يحكم بينهم بأي حكم يختاره لهم . كان يستطيع أن يرفع الحجر الأسود بيديه ليضعه موضعه ، فيحوز بذلك كلَّ الفخر لنفسه في اعتقادهم ، وكان يستطيع أن يختار بعضَهم دون البعض الآخر ، ولكنه لم يضع الحجر بيده ، حتى لا يثير ثائرةَ هذه القبائل المتفاخرة المتناحرة ، ولم يختر أحدَهم فيغضب الآخرون ، ولم يستدع غيرهم فيزداد الأمر سوءاً ، فماذا يكون الحل ؟... وكيف يكون الخلاص من هذه المشكلة ؟

لا بد من حل يرضي الجميع ، وهذا الحل لا بد له من وقت وتفكير ، وتمحيص ومعاودة نظر ، ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يحتج إلى الوقت أو المعاودة ، بل استطاع بخبرته الواسعة بالنفس البشرية ، وبراعته في سياسة المنازع وتجميع المشارب المتضاربة المختلفة ، أن يحسم الموقف الحرج سريعاً ، وببراعة وألمعية ، كما استطاع ألا يحرم فرداً من المتنازعين من الاشتراك في هذا الشرف المرموق ، وأراد في الوقت نفسه أن يعطيهم رمزاً بأنه الهادي المنتظر ، وأنه المعلم الذي يتهيأ الآن بعناية ربه وعنايته وصناعته لحمل الأمانة الكبرى والهداية العظمى إلى سائر الناس ، فإذا نحن نراه وقد بسط بين القوم ثوباً ، ووضع الحجر في وسطه ، وأمر كلَّ قبيلة أن يمسك نائبها بطرف من أطراف الثوب ، وأن يرفعوه مشتركين ، فأطاعوا وفعلوا ، حتى بلغوا موضع الحجر الأسود .

ولعل عيون هؤلاء القوم كانت متلهفة أشد التلهف حينئذ، فهي ترقب ماذا سيكون من شأن محمد بعد قليل ، ولعل قلوبهم كانت خافقة أشد الخفقان ، تنتظر ماذا سيكون الحل بعد ذلك ... وبلغ القوم بالحجر موضعَه مشتركين ، وجاءت اللحظة الحاسمة حين صار الحجر في مستوى مكانه ، فأخذه محمد صلى الله عليه وسلم بيده الكريمة الشريفة ، ووضعه موضعه ، والقوم يتطلعون ويرقبون ، ولكنهم لا يتكلمون ، فقد قطعت جهيزةُ قول كل خطيب ، وإذا محمد قد أرضاهم حين أفحمهم جميعاً بهذا الحل الرائع العجيب ، الدال على الألمعية والذكاء والعبقرية وسرعة الخاطر اللماح ، وإذا محمد قد علاهم وساسهم وقادهم دون أن يشعروا أو دون أن يتمردوا .

* * *

ويُبعث محمد عليه الصلاة والسلام بعد ذلك بسنوات ، فإذا نحن نرى لـــه خبرة جديدة بالنفس البشرية ، وبراعة مستمرة متجددة متزايدة في قيادتها وسياستها ، وتوجيهها الى ما يريد ربه ومرسله جل جلاله ، وإذا نحن نرى هذا الأصيل العام السائد في شرعة الإسلام،وفي خطة محمد عليه الصلاة والسلام،

وهو مبدأ التدرج في فرض التكاليف وإيجاب الواجبات وإحقاق الحقوق ، فلا شدة ولا تعسير ، ولا إرهاق أو إعنات ، بل يسر وسهولة ، وتطور وانتقال من حال إلى حال ، وتكليف بالحقوق والواجبات ، يتنقل من مرحلة إلى مرحلة بعد إتقان الأولى وإحسانها والإيمان بها والثبات عليها .

وهذا التدرج الطبيعي السمح هو غاية العلم بطبائع النفوس البشرية التي تمل بسرعة ، وتنفر إذا سيقت إليها التكاليفُ تباعاً ، ومن هنا جاء قول الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم : « إن هذا الدين متين ، فأوغل فيه برفق ، فلن يشادّ الدين أحدٌ إلا غلبه الدين » ، وقوله : « يسّروا ولا تعسروا ، وبشّروا ولا تنفروا » . وقوله : « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » . بل جاء قول العزيز الحكيم : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » ، وقوله : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » ، وقوله : « وما جعل عليكم في الدين من حرج » ، وقوله : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج » .

ومن هنا رأينا الإسلام لا يكلف الناس بكل شيء دفعةً واحدة ، بل كان ذلك دفعة بعد دفعة ، لأن القلوب إذا ملت عميت ، ولأنّ النفوس إذا نالها الإرهاق تبلدت وركدت .

وهذا صحابي جليل ، يحضر مجلساً من مجالس الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، ويسمع فيه من هديه ووعظه وإرشاده ما يرق له قلبه ، وتسمو روحه ، وتصفو نفسه ، ويخرج من لدن الرسول بحالة روحية عجيبة ، فيها علاء ، وفيها نقاء ، حتى كأنه لحق بمواكب الملائكة . يخرج الرجل إلى بيته ، فيلقى زوجتَه فيداعبها ، وأولاده فيلاعبهم ، ويتذكر ما كان فيه وهو بين يدي الرسول ، وما صار إليه وهو بين أهله ، فيسيء بنفسه الظن ، ويخيل إليه أنه قد نافق أو راءى ، فيعجل بالعودة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يشرح له من أمره ما أحس وما شعر ، ويقارن له بين الحالتين ، إذ يجد في الأولى روحانية وذكرى وخشية وخوفاً ، ويجد في الأخرى ملاعبة ومداعبة ، ومعافصة للنساء ، ولهواً مع الأولاد ، فيخاف على نفسه من ذلك ، فإذا الرسول العالم بالنفس

البشرية وتطوراتها يطمئنه ، ويزيل عنه الخوفَ والخشية ، فيقول له : لو كنتم في بيوتكم كما تكونون معي لصافحتكم الملائكة على أفواه الطرق ، ولكن — يا فلان — مرة هكذا ومرة هكذا ...

وهذا هو ما استفادت منه العامة حين قالت كلمتها المشهورة : « ساعة لقلبك وساعة لربك » .

* * *

ثم نرى نبينا وحبيبنا محمداً صلوات الله وسلامه عليه ، ومن حوله العصبة الكريمة الطيبة الطاهرة من حوارييه وصحابته ، رضوان الله عليهم أجمعين ... نراه وهو يعلم أن حب الثناء طبيعة الإنسان ، وهذا الثناء يحبه الرجل الأصيل النبيل إذا جاء عن حق وبصدق ، وإذا كان عن جهد بذله وجهاد قام به وعرق أساله ، ومكرمة أتاها ، وهذا الثناء يحبه الرجل الهزيل سواء أجاء عن حق أم عن باطل . والجميع بعد هذا لا يأبونه وإن اختلف الأساس .

فهم الرسول الكريم هذه الطبيعة العميقة المستكنة في طوايا النفس البشرية ، فإذا نحن نراه وقد حرص على إرضائها بأقوم أسلوب وأكرم منهاج ، فيقدر الجهود الكبيرة الجليلة التي بذلها أصحابه من أجل الإسلام والدعوة إليه فيوزع عليهم هذه الألقابَ المادحة المقدرة ، التي صادفت أهلها ، ولقيت محلها ، فيلقب أبا بكر بالصديق ، وعمر بالفاروق ، وعثمان بذي النورين ، وعلي بن أبي طالب بباب مدينة العلم ، وأبا عبيدة بأمين هذة الأمة ، وحنظلة بغسيل الملائكة ، وحمزة بسيد الشهداء ، وخالد بسيف الله المسلول ، إلخ .

فكانت هذه الألقاب وأمثالها تقديراً كريماً من الرسول صلى الله عليه وسلم ، للجهود الإنسانية العالية ، التي قام بها أولئك الأبطال الأوائل من قادة الإسلام ، وكانت كذلك إرضاء قويماً لهذه العاطفة القوية ، وهي حب الثناء ، وكانت كذلك ضرباً للقدوة الصالحة والمثل الذي يحتذى على ممر الأجيال .

* * *

ويمتد بنا الاستعراض في هذا المجال النبوي الفياض بالخبرات والبركات إلى إحدى الغزوات ، حيث نرى عبد الله بن أبي سلول رأسَ النفاق في المدينة ، وقد استبد به الشقاق والنفاق والعناد ، فينتهز حادثة عارضة تحدث في هذه الغزوة ، فينفض ما في نفسه قائلا : والله ما مثلنا مع محمد إلا كمثل الكلب مع صاحبه ، حيث تقول العرب : جوع كلبك يتبعك ، وسمّن كلبك يأكلك ، والله لئن رجعنا إلىٰ المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذل ... وهو يعني — لعنة الله عليه — بالأعز نفسه ، وبالأذل رسول الله ، وحاشا لرسول الله أن يذل أبداً وهو العزيز بأمر ربه ...

وبلغ الخبر مسامعَ الرسول ، ولكن المنافق الأكبر تنصل ، ووافقه في التكذيب أتباع له ، فتمهل الرسول حتى نزل في ذلك قرآن يفضح ذلك المنافق اللعين ، حيث يقول الحق تبارك وتعالى : « هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ، ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون ، يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون » .

واستبان الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، وتبدت الجريمة واضحةَ المعالم ظاهرة الأركان ، وسارع عمر القوي في كل شيء إلى الرسول يستأذنه في أن يضرب عنق المنافق الأكبر ابن أبَي ، فإذا بالرسول يبعثها كلمةَ خبير بالنفس البشرية ، وكلمة عليم بطبائع الناس ومنازعهم ، في إشاعاتهم وتعليقاتهم وأحكامهم السريعة العاجلة الطائشة على أمور الدنيا وحوادث الأيام ، إذا به يقول لعمر رضي الله عنه : فكيف يا عمر إذا تحدث الناس فقالوا إن محمداً يقتل أصحابه ؟.

نعم يا رسول الله — عليك صلوات الله وسلامه — إن ابن أبى بن سلول لا يزال معدوداً عند الناس من أصحابك ، وإن الكثيرين من الناس لم يعرفوا ما كان منه ، وهناك قبائل لا تعرف أنه قد صارح بالنفاق ، ولا يزال القرآن النازل فيه محصوراً بين المسلمين لم يذع بين غيرهم ، فاذا قتل الرسول ابن أبى

قال الناس عجلين : إن محمداً رجل خائن ، يفتك بأصحابه ، فهو لا ذمة له ولا وفاء . فحذر الرسول ذلك كل الحذر ، حتّى لا يكون ذلك الحكم العاجل من الناس ، فتسوء الأحكام على شريعته المناضلة .

ثم لننظر إلى موقف الرسول صلى الله عليه وسلم حين جاء ه ابنُ ذلك المنافق الأكبر ، وقد كان مسلماً صادق الإسلام ، واسمه عبدالله أيضاً . لقد جاء هذا الابن الذي يرعى حق الأبوة وإن كان أبوه كافراً ، ولكنه يرعى قبل ذلك وبعده حقّ الإسلام ، وإن الاسلام عنده لأفضل ألف مرة من والده ... جاء إلى رحاب النبوة يسعى ... لماذا يأتي هذا الولد المسلم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؟.

يقول له : لقد بلغني أنك ستقتل أبي ، فإن كنت فاعلا فمرني يا رسول الله أحمل إليك رأسه ، لأني اخشى إذا أمرت غيري بقتله أن أتطلع بعد ذلك إلى قاتل أبي ، فتثور نفسي فأقتله ، فأكون قد قتلت مسلماً بكافر ، فأدخل بذلك النار .

وتطلع الرسول إلى تلك النفس المعذبة التي جاءته تسعى تريد الخلاص من أشد العذابين ، وهي صريعة أمام عاطفتين عاصفتين ، عاطفة البنوة وعاطفة العقيدة ، وأراد الرسول أن يضرب عصفورين بحجر واحد . أراد أن يرحم هذه النفس المسلمة من عذابها وحيرتها ، فيكرمها بالعفو عن أبيها ، وفي الوقت نفسه يصيب المنافقَ الأكبرَ في الصميم ، إذ يعفو عنه وهو قادر عليه كل القدرة ، فلا يستطيع ذلك المنافق أن يرفع رأسه أبداً بعد هذا العفو الآسر .

ويقول رسول الله لعبدالله : « بل نكرمه ما دام فينا يا عبدالله » ، فيمتلىء عبدالله المسلم إعجاباً بالرسول الكريم النبيل ، ويزداد عبدالله الوالد المنافق ذلة وهواناً ، فلا يرفع رأسه بعدها أبداً .

ثم نرى عظمة الرسول يوم الفتح ، ونرى لوناً من ألوان خبرته الواسعة بالنفوس البشرية وطرق علاجها ، فها هوذا عمه العباس يقبل عليه بأبي سفيان ابن حرب عظيم العرب وكبيرهم بالأمس ... يقبل عليه بأبي سفيان ليسلم ، مع أنه هو الذي أثار على الرسول القبائل ، وسبب له في طريقه المتاعب.

وإذا بالرسول العالم بالنفس يقول لأبي سفيان في هوادة ولين : يا أبا سفيان ، أما آن لك أن تشهد أن لا إله إلا الله ؟ . فيجيب أبو سفيان : بأبي أنت وأمي ، ما أكرمك وما أحلمك وما أوصلك ، والله لقد علمت أن لو كان هناك إله غيره لأغنى عني اليوم شيئاً . فيقول له الرسول : يا أبا سفيان أما آن لك أن تشهد أني رسول الله ؟. فيجيب أبو سفيان بصراحته ، قائلا : بأبي أنت وأمي ، ما أكرمك وما أحلمك وما أوصلك ، أما هذه ففي النفس منها شيء ، فلا يثور الرسول ، ولا يبطش به ، ولا يعتدي عليه ، ولا ينال منه ، بل تجري محادثة سريعة بين أبي سفيان والعباس يسلم بعدها أبو سفيان .

ويقول العباس للرسول : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر ، فاجعل له شيئاً . فيقول الرسول مستجيباً : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن » .

وكأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أراد بذلك أن يرضي نزعة الفخر الغالبة الحاضرة عند أبي سفيان ، لا لأن النبي يرتضي الاسراف في هذه النزعة ، بل ليتألف قلب أبي سفيان الجديد على الإسلام ، ثم هناك بعد ذلك متسع لكي يروضه على تواضع الإسلام ، وعلى إخلاص العمل لوجه الله سبحانه ، لأن الإسلام الحنيف لا يجزل الأجر كاملا إلا لمن جاهد لتكون كلمة الله هي العليا .

بل وأكثر من ذلك . فهذه امرأة تأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم لتسلم على يديه ، وبعد أن يقبل النبي اسلامها تتذكر شيئاً . فتقول للرسول : ان جماعة من النساء قد جاملنها يوماً في البكاء على ميت لها . وقد مات لهن اليوم ميت ، فهي تريد أن ترد لهن هذه المجاملة ، وتستأذن الرسول في أن تذهب إليهن لتبكي معهن حتى تجاملهن ، ثم تعود إليه مسلمة .

ولم يغضب الرسول ، ولم يثر ، ولم يطردها من حضرته ، بل أذن لها أن تذهب لتفعل ما أرادت ثم تعود إليه ... ولم يسمح لها الرسول بذلك لأنه يرتضي عادة الجاهلية في البكاء والنواح على الأموات ، بل سمح لها به إرضاء لنفسها ، وليتنزع منها جذور الانحراف عن الصراط بحذافيرها ، ثم تعود إليه منشرحة الصدر تماماً للإسلام ، وفعلا ذهبت المرأة وجاملت ، ثم عادت فحسن إسلامها .

وهذا أيضاً شاب يأتي إلى رسول الله ؛ لا ليطلب منه سيفاً يجاهد به ، ولا ليطلب عملا يخدم الدعوة ، ولا ليستفتي في مسألة من مسائل العلم ، بل ليطلب من الرسول ترخيصاً له في كبرى الفواحش وهي الزنا .

ويهم الصحابة بالشاب لتأديبه ؛ ولكن الرسول يصدهم عن ذلك ؛ ويقبل على الشاب هادئاً رزيناً ؛ ليعلمه ويقومه ؛ فيسأله : أيرتضي تلك الفاحشة لأمه ، فيجيب الفتى منزعجاً : كلا . فيجيبه الرسول : كذلك النـــاس لا يريدونه لأمهاتهم . ثم يسأله : أيرتضيه لأخته . فيجيب : كلا . فيقول الرسول : كذلك الناس لا يرتضونه لأخواتهم .

ويظل الرسول يسائله عارضاً عليه محارمه ؛ مذكِّراً إياه بما يجب أن يغار عليه ؛ فتستحضر نفسُ الشاب كلَّ هذه المحارم والأعراض ؛ ولعله تصور بعضها وغيره يهم بهتكها ؛ فاستفظع طلبه ؛ وحاسب نفسه ؛ وأنبه ضميره ، وعرف ما في مساءلة رسول الله صلى الله عليه وسلم من تعريض ورمز ؛ فاقتنع الشاب وأقلع ؛ وعاهد النبي صلى الله عليه وسلم على الابتعاد المطلق عن هذه الفاحشة النكراء ...

أيكون وراء هذه الخبرة بالنفس البشرية وطرق سياستها وإقناعها خبرة ؟.

وأخيراً أقول : إنه يوجد من يدعو إلى هدى محمد صلى الله عليه وسلم ، وهؤلاء هم عصبة الخير وأهل البر ؛ وأعتقد أن أول ما يجب عليهم رعايته هو أن يلتمسوا من نبيهم الأعظم قبساً من هذه النفس البشرية وطرق سياستهـــا وتوجيهها ، حتى يقودوا الناس إلى صراط ربهم على هدى وبصيرة ؛ فيكون عملهم أجدى ، وتأثيرهم أقوى . والله ولي التوفيق .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

مجلس رسول الله

السؤال : نريد أن نعرف كيف كان ينعقد مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم

الجواب :

حينما نستعرض صورة مجالسنا واجتماعاتنا ، نجد بها من العيوب والنقائص الشيء الكثير ، فمجالس الزملاء والإخوان عندنا صاخبة لاعبة ، يستباح فيها من التبذل والفحش ما قد تعلمون ، ومجالس الأسر فاترة لاغبة ، تسودها عادات دخيلة غريبة ، والجالسون إلى دروس العلم أو خطب الوعظ يجلسون بأشباحهم دون أرواحهم ، وبذواتهم دون قلوبهم ، وقد يتكلم بعضهم مع جاره في خصوصياته وشئونه الدنيوية ، بصفة تدل على الاستهتار ، وتعوق غيره عن متابعة ما يقول الواعظ أو المحاضر ، ولعلنا لم ننس بعد أننا نشاهد أناساً يلغطون بمختلف الأحاديث والنوادر عند تلاوة القرآن في المحافل والمآتم وغيرهما ... وناهيكم بما يحدث في مجالس النوادي والجمعيات من الضجيج والعجيج وسوء النظام ، كل واحد يريد أن يعلو صوته على أصوات الجميع ، وكل واحد يريد أن ينتصر لفكرته ، ولو كانت ضلالاً في ضلال ، وقد يتكلم عشرة من الحاضرين في وقت واحد ، بينما لا يستمع إليهم إلا واحد أو اثنان ، الى غير ذلك من مظاهر الاختلال .

وتلك أحوال سيئة ، ومظاهر قبيحة ، من الواجب أن نكر عليها بالمحاربة والاستئصال ، ولعله من الخير لنا في هذا المقام أن نعرف كيف كان ينعقد مجلس رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، وماذا كان يراعى فيه من الأخلاق والآداب ، وكيف كانت تسيطر عليه الحكمة والهيبة ، والهدوء والوقار ، عسى أن يكون فيها بلاغ وذكرى لقوم يعقلون .

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يختار أن يجعل مجلسه في مكان معين ، ويرجح أنه كان ما بين المنبر وحجرة عائشة رضي الله عنها ، وهو المعروف باسم « الروضة الشريفة » .

فكان رسول الله يفيض هنالك مع صحابته في شئون الدين والدنيا ، ويرشدهم إلى سبل الكمال والفلاح .

وكان إذا انتهى من صلاة الفجر جلس إليهم ، ونصحهم بما يفتح الله به عليه ، حتى تبدو تباشير الصباح ، ويدنو وقت العمل ، فينفض المجلس ، ويتوجه إلى سبيله .

وكثيراً ما كان يعقد مجلسه في غير ذلك الوقت ، ضارباً بذلك المثل في مجاراة الحوادث والتمشي مع الظروف .

وكان الصحابة يجلسون إلى رسول الله حلقة بعد حلقة ، دون أن يزاحم أحد أحداً ، وكانوا يهمون بالوقوف إجلالا له عند حضوره فيمنعهم ، كما روى أبو أمامة . قال : « خرج علينا رسول الله فقمنا له ، فقال : لا تقوموا كما يقوم الأعاجم ، يعظم بعضهم بعضاً » (١) . فكان يجلس صلى الله عليه وسلم مختلطاً بهم ، ثم يأخذ في تطهير أرواحهم ، وتزكية نفوسهم ، بما آتاه الله من جوامع الكلم ، وأمده من معجز التنزيل . فكان لا يميز نفسه عن صحابته بشيء ، ولا يتكبر عليهم . كان يستمع لكل إنسان ، ويجيب كل سائل ، حتى لقد جاء في حديث هند بن أبي هالة : كان رسول الله يعطي كلَّ واحد من جلسائه نصيبه ، حتى لا يحسب أحد أن أحداً أكرم عليه منه . بل كان يقدم الفقراء على الأغنياء ، ويكرم المستضعفين قبل الأقوياء.

أما ما كان يُلْقَى في هذا المجلس من الغرر والدرر ، فذلك شيء لا يحيط به بيان، ولا ينال وصفه لسان ، فحدث ما شئت عن آيات التقويم والتوجيه، والنصح والإرشاد ، والتربية والتعليم ، والفصل في الخصومات ، والقضاء في الحادثات والمشكلات ، واستقبال الوفود ، وإعداد الخطط والمناهج للسلم والحرب ، ثم هو بعد ذلك لا يقتصر على روح المحافظة والجد ، بل كان يشتمل أحياناً على جانب من الطّرف والملح ، والدعابة البريئة ، والقصص المتنوعة التي لا تنال من دين أو مروءة ، والتي لا تُخرج القومَ عن وقارهم وحسن استماعهم وجميل أدبهم ، فكثيراً ما أنشد الشعر في مجلس رسول الله ، وضُربت الأمثال ، ورُويت نوادر الأخبار ، حتى لقد روى الترمذي عن جابر بن سمرة

---

(١) هناك أحاديث تدل على إباحة القيام ، والتوفيق بينها وبين أحاديث النهي عن القيام هو أن القيام منهي عنه إذا خيف منه الكبر أو النفاق ، وهو مباح إذا أريد به خالص الاحترام ، والتكريم والمحبة ، كما نفعل مع الوالدين والعلماء والأولياء ، وما نهاهم النبي الكامل عن القيام له إلا ليضرب المثل الأعلى في التواضع ، صلوات الله وسلامه عليه.

قال : جالست رسول الله أكثر من مائة مرة ، وكان أصحابه يتناشدون الشعر ، ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية ، وهو ساكت ، وبما تبسم معهم .

أما آداب الصحابة في هذه المجالس فمسك يتضوع ، وزهر ينفح ، منها أنهم كانوا يجلسون صامتين خاشعين ، لا يتكلمون ولا يهمسون ولا يعرضون ولا يفكرون في شيء غير ما يسمعون . فقد روى أصحاب السنن عن أسامة بن شريك أن رسول الله كان إذا تكلم أطرق جلساؤه ، كأنما على رؤسهم الطير ، أي في حالة السكون التام ، لأن الطائر ينفر من أقل حركة تصدر ، وكانوا إذا أرادوا مخاطبته خفضوا معه أصواتهم إجلالا لمقامه ومجلسه .

فاذا ما رأوا رجلا مقبلا عليهم احتفوا به ، ووسعوا له في المكان ، حتى يجلس مستريحاً مكرماً ، لأن الله أمرهم بذلك فقال : « يأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم » .

كانوا رضوان الله عليهم يسألون في أدب ، ويتجادلون في رفق ، ويقبلون الرأي عن يقين ، ويؤمنون بالفكرة بعد بحثها ، ويستوضحون ما أشكل عليهم بغية الوصول إلى الحق ، لا قصداً للمماراة والمغالبة ، وكانوا يغضون من أصواتهم وأبصارهم ، ويقتصدون في كلامهم وحركاتهم ، ويعطون كل ذي حق حقه ، ويجمعون بين جمال المظهر وطهارة الروح ويقظة العقل .

ولم يَقْصر رسول الله صلوات الله وسلامه عليه مجلسه على الرجال ، بل أعطى المرأة حقّها من التعليم والتهذيب ، فقد جاءت إليه النساء يقلن : يا نبي الله ، غلبنا عليك الرجال ، فاجعل لنا يوماً من نفسك ، فخصص لهم يوماً يلقاهن فيه ، ليعظهن بما يجعلهن ربات صالحات للبيوت ، ، ينشئن الصغار ، ويوقدن نيران العزائم في صدور الرجال .

وكان يحدث أحياناً أن يجمع الصحابة بين غذاء القلوب وغذاء البطون ، فيأكلون في نهاية المجلس تمراً ، أو يشربون مما أحل الله ، فإن لم يوجد من ذلك شيء غادروا المجلس وقد ارتوت قلوبهم وأجسادهم بذلك الري الصافي ، الذي أمد الله به نبيه ، وجعله شتاء ورحمة للمؤمنين .

هذه هي مجالس رسول الله صلوات الله وسلامه غليه ، كان يزينها اختيار المكان والوقت المناسبين ، وحرصُ السامعين على حضورها مبكرين ، وتحليهم بالأدب والوقار ، وتعاطفهم وتوادهم وتآخيهم ، وتواضع الرئيس المحدث وتسويته بينهم ، وميلهم في الغالب إلى نافع الحديث وصالح القول ، وتجديد عزائمهم أحياناً ببرىء الطرف والدعابات .

هكذا كانت مجالسهم التي أمدتهم بالعلوم والمعارف ، وجالت بهم في آفاق الحق والفضيلة والجمال ، فهل لنا أن نفكر في أن نجعل مجالسنا الآن شبيهة بها ، فنحرص على الصمت وحسن الاستماع واحترام الكبير ،وعدم السخرية من آراء الناس ، وعلى النافع مما يقال ، وإذا تناقشنا أن تكون مناقشتنا هادئة رزينة، يقصد منها الوصول إلى الحقيقة الناصعة التي لا مواربة فيها ولا التواء، وأن نعلم أن هذه المجالس كلما كانت مقربة من الله ، رابطة بأسبابه ، كانت أدعى إلى الحرص عليها ، والمبالغة في احترامها واجلالها ، لأننا بإعراضنا عن مثل هذه المجالس ، أو تهاوننا بحقوقها ، نكون معرضين عن الله وكلمته ، فقد روي أن ثلاثة رجال دخلوا مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو جالس بين صحابته يحدثهم ، أما الأول فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها ، وأما الثاني فجلس خلف الناس في حياء ، وأما الثالث فأدبر معرضاً عن المجلس، فلما انتهى النبي من كلامه قال لأصحابه : ألا أخبركم عن هؤلاء الثلاثة ؟. قالوا : نعم يا رسول الله . فقال : أما الأول فأوى إلى الله فآواه الله ، وأما الثاني فإنه استحيا فاستحيا الله منه ، وأما الثالث فقد أعرض فأعرض الله عنه .

نعم هكذا كانت مجالسهم ، فاعتبروا يا اولى الأبصار .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

مكانة السُّنَّة النبوية

السؤال : **ما حكم شيء ورد في السنة النبوية ، ولم يرد به نص صريح في القرآن الكريم ؟.**

الجواب :

ينبغي أن نعرف أولا أن التشريع الإسلامي له عدة مصادر ، أولها وأساسها هو القرآن الكريم كتابُ الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد . والمصدر الثاني هو « السنة النبوية » ويراد بها ما ورد عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من أقوال أو أعمال، أو إقرار لأعمال أو تصرفات وقعت أمامه وأقرها ووافق عليها ، أو علم بها وأقرها ووافق عليها لأن إقراره لها كالحكم بشرعيتها .

وحين نرجع إلى القرآن الكريم نعرف منه أن الله تبارك وتعالى وكل إلى رسوله أن يقوم بالتبليغ عنه ، وبيان دينه ، ويخبرنا القرآن أيضاً أن الرسول معصوم من الخطأ في الدين ، وأنه لا يقول إلا الحق ، وأن المسلمين يجب عليهم أن يقبلوا منه كل ما يأمرهم به ، أو يثبت أنه نطق به أو فعله أو وافق عليه .

إن القرآن الكريم يقول عن عصمة النبي عليه الصلاة والسلام : « وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى » . ويقول مخاطباً النبي ، ومخبراً بأنه يدعو إلى الحق والصواب : « وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم » . ويشير إلى أن النبي هو الذي يفسر القرآن ويشرح الدين فيقول له : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزّل إليهم » .

ويخبرنا القرآن بأن طاعة الرسول من طاعة الله فيقول : « من يطع الرسول فقد أطاع الله ». ويأمرنا باتباعه في كل ما يأمر به فيقول : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » . ويأمر بطاعته في كل ما يدعو إليه وكل ما ينهي عنه فيقول : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

وينبغي أن نعرف أن القرآن أمر بأشياء ولكنه لم يفصل أجزاءها ، وتكفلت السنة النبوية ببيان ذلك ، فالقرآن أمر بالصلاة ، ولكن السنة هي التي ذكرت عدد فرائض الصلاة ، وعددت ركعات كل فريضة ، ووقت كل فريضة ، وكذلك أمر القرآن بالزكاة ، ولكن النبي هو الذي جدد مقاديرها ومواعيدها... الخ .

ولذلك اتفق الأئمة على أنه إذا صح ثبوت الحديث النبوي ونسبته إلى الرسول عليه الصلاة والسلام أصبح حجة شرعية ، وتجب طاعة النبي فيه ، والأحكام التي يأتي بها النبي ، وليس عليها نص صريح في القرآن ، يجب علينا أن نقبلها ، لأنها لا تخرج عن القواعد الأساسية في القرآن ، وقد تكون مستمدة من أصل فيه ، فالقرآن مثلا نص على تحريم الجمع بين الأختين في الزواج ، فجاءت السنة وقاست على ذلك، وأخبرت بأنه يحرم الجمع بين المرأة وعمتها في الزواج، وكذلك الجمع بين المرأة وخالتها .

وصلوات الله وسلامه على رسوله حين قال : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا : كتاب الله وسنتي » .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الرسول بين أهلـه

السؤال : **أريد أن أعرف كيف كان النبي عليه الصلاة والسلام يعامل أهله في البيت .**

الجواب :

الاعتدال في أمور الحياة طريق وسط بين الإفراط والتفريط، وهو شرعة الإسلام وشرعة القرآن ، قال تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً » . ولكن بعض الرجال فينا يبدون كأنهم لا يؤمنون بتلك القاعدة ، فهم لا ينزلون على حكمها ، ولا يتقيدون بقانونها ، وخاصة فيما يتعلق بمعاملتهم لنسائهم ، وسلوكهم داخل منازلهم .

الرجل كل الرجل من قابل الحياة في الخارج برباطة جأش ، وثبات قلب ، وصدق رجولة ، ورزانة نفس ، فإذا انقلب إلى بيته ، وهو عشه الصغير ،

وجنته الخاصة ، وسكَنه الأمين ، كان مثال الفرح والبهجة، والنشوة والسرور ، والدماثة وكرم الأخلاق ، ولذلك قال عمر رضي الله عنه : « ينبغي للرجل أن يكون بين أهله مثل الصبي ، فإذا التمسوا ما عنده وُجِدَ رجلا » .. وفوق هذا لو اضطرته ظروف قاسية في الخارج إلى أن يغضب أو يثور أو يتزمت ، لتنافس في عيش ، أو ضرورة رياسة ، أو توجيه جماعة ، أو ضبط عمل ، فعليه أن يترك ذلك كلّه عند باب بيته ، وأن يلقى أهله بصدر منشرح ، ونفس مغتبطة ، ومظهر جديد ، وأن يكون ضحاكاً بساماً ، ولو تكلف ذلك في بعض الأحايين ، لأن زوجته المسكينة ظلت تنتظره طيلةَ غيبته ، ليؤنس وحدتها ، ويزيل وحشتها ، وليس من كرم الأخلاق ولا من حسن التصرف أن يفسد الإنسان بيده حياتَه هنا وهناك .

هذا محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وهو زعيم المرسلين ، وخاتم النبيين ، وإمام المرشدين ، وأفضل خلق الله أجمعين ، كان يجاهد في سبيل الله ما يجاهد ، ويلاقي من أعدائه المشركين والكافرين ما يلاقي ، ويحمل من هموم الدعوة والناس والحياة ما يحمل، ويبذل من ذات نفسه وجهوده وأعصابه ما يبذل ، وتفيض منه أنوار الجلال والكمال ما تفيض ، فإذا رجع إلى منزله النبوي الطاهر ، خلع عند بابه ثوب الجد والجهاد، وارتدى ثوبَ الزوج الحنون الكريم ، والعشير العذب اللقاء ، والمخالط الجميل الأسلوب ، فإذا هو أكرم خلق الله في بيته ، وأفكه الناس في معاملة نسائه ، وأحلى الناس كلاماً ، وأعذبهم منطقاً ، يسبي بحديثه الأرواحَ ويأخذ بالقلوب ، وكان يتناسى داخلَ البيت مقامَ النبوة وجلالَ الرسالة ، وهيبته الفذة بين صحابته ، فيساعد أهله في خدمة البيت ، فيخصف النعل ، ويرقع الثوب ، ويصلح الدلو ، ويحلب الشاة ، ويُميل الإناء للهرة حتّى تشرب !.

وكان يحاول ما استطاع أن يُدخل السرورَ والبهجة على أهله ، فهو مثلا يُركب حفيديه وحبيبيه الحسن والحسين فوق ظهره إرضاءً لهما ، وهو يحضر بنات الأنصار لعائشة حتّى يلعبن معها ، ويرى عندها عرائسَ صغيرة مختلفة تلعب بها ، فلا ينكر ذلك عليها ، بل يضاحكها في أمر هذه العرائس

ويداعبها ، وهو يلتمس الأسباب والوسائل لإظهار حبه لها وميله إليها واهتمامه بأمرها . فإذا شربت من إناء أخذ الإناء ووضع فمه موضع فمها وشرب ، وإذا أكلت من موضع أكل منه أو مما جاوره ، وكان يتكيء في حجرها ، وربما قرأ القرآن وهو على هذا الوضع ، إكراماً لها وإعزازاً لشأنها ، ولا عجب فهو الرسول الكريم الذي وصفه ربه بأنه الرءوف الرحيم !.

وكان من خلاله السامية وأخلاقه العالية ، يدخل على قلب زوجته بالترويح والتسلية ، فهو لا يمنعها من حركة أو متعة لا تتعارض مع دين أو خلق ، فها هو ذا مثلا يرى فرقة من أهل الحبشة أمام بيته تلعب بالسيوف ، وتتمايل في حركات رياضية بريئة ، فيأذن لعائشة بأن تتكيء على كتفيه لتتطلع إلى لعب هؤلاء : وبعد مدة يقول لها : حسبك يا عائشة !. فتقول له : لا تعجل !.. فينتظر مدة ويقول لها مرة ثانية : حسبك يا عائشة !. فتقول له : لا تعجل !. وفي المرة الثالثة يقول لها مثل ما قال ، فتجيبه وقد اكتفت قائلة : نعم !. ثم تعود إلى داخل حجرتها !.

وها هو ذا يسابق عائشة في الجري في أول عشرته معها ، وكانت خفيفة اللحم نشيطة الحركة حينئذ ، ثم دعاها بعد سنوات وقد خلَوا إلى السباق مرة أخرى ، وكانت قد امتلأت لحماً ، وثقلت حركتها ، فشدت درعاً في وسطها تأهباً للسباق ورسما خطاً علامةً للابتداء ، وتسابقا فسبقها فداعبها قائلا : هذه بتلك !.

وكان صلوات الله وسلامه عليه لا يقصر هذه الدعابة الجميلة الحلوة العذبة على زوجة له دون أخرى ، بل هو يداعب الجميع ، ويحتمل منهن المراجعة في القول ، والهفوة في التصرف ، وكان يعمل على إيجاد هذه الروح المرحة الصافية بينهن إذا تلاقين .. صنعت حبيبته السيدة عائشة رضي الله عنها نوعاً من الحلوى يسمى « الحريرة » ، وهو دقيق يطبخ بلبن أو دسم ، وجاء الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، ثم جاءت زوجته السيدة سودة بنت زمعة ، فقالت عائشة لسودة : كلي . فقالت سودة : إني لا أحبه ، فقالت لها عائشة : والله لتأكلن أو لألطخن به وجهك !. فقالت سودة : ما أنا بذائقته ، فأخذت السيدة

عائشة شيئاً من الصحفة بيدها ، ومسّت به وجهَ سودة على سبيل المداعبة ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم بينهما ، فخلّى الطريق لسودة ، فأخذت هي الأخرى شيئاً من الصحفة بيدها ومست به وجه عائشة ، وجعل الرسول يضحك مسروراً لروح الألفة والمحبة السائدة بين أهل بيته الكريم !.

بل كان كرمُ أخلاقه ولطف شمائله وأصالة نبله تظهر في مواطن يُنتظر فيها الغضب ، ويخشى الغيظ .. يقع بينه ذات يوم وبين إحدى نسائه نزاع طفيف ، فتدفعها موجة الغضب إلى أن تقول : أنت الذي تزعم أنك نبي !. ومع ما في هذه العبارة من شدة لم يزد الرسول على أن تبسم ضاحكاً من قولها فكأنما صب على نار الغضب صيِّباً من الماء فأحالها إلى رماد !.

ووقع نزاع بينه وبين السيدة عائشة ، واحتكما فيه إلى والدها أبي بكر ، فقال لها الرسول : يا عائشة ، تتكلمين أو أتكلم ؟. فقالت : بل تكلم ، ولكن لا تقل إلا حقاً . فلطمها أبو بكر لطمة أسالت منها دمها لشدة عبارتها ، وقال لها : يا عدوةَ نفسها ، وهل يقول رسول الله إلا الحق ؟. فتألم الرسول من ضربه لها ، وحال بينه وبينها ، وقال له : ما دعوناك لهذا !... وبعد قليل عاد الصفاء كاملا إلى حياة الزوجين الطاهرين .. ولا عجب في تلك الأخلاق ولا غرابة ، فمحمد صلوات الله وسلامه عليه هو الذي يقول : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي » . ويقول : « حُبِّبَ إليَّ من دنياكم النساء والطيب ، وجُعلت قرة عيني في الصلاة » . وكان كثيراً ما يدعو فيقول : « اللهم كما أحسنت خَلْقي أحسن خُلُقي » !..

إن الله تعالى يقول : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . ويقول : « وعاشروهن بالمعروف » . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الله في النساء » .. وإذا كنا قد قرعنا أسماعَ النساء عشرات المرات بطلب الطاعة والخضوع لكم أيها الرجال ، والائتمار بأمر الله في حقوقكم ، فإن واجب القسطاس يدعونا أيضاً إلى تذكيركم بعدم التحكم والبغي ، فقد تكون

المرأة عجينة صالحة للصلاح والاستقامة بجانب من التقويم والتوجيه ، ولكن سوء المعاملة أو شدة المؤاخذة تدفعها إلى الشطط والعناد ، فهي مخلوقة من ضلع أعوج كما جاء في الحديث الشريف ، وتذكروا حين بغيكم عليها أن المرأة ليست عند الرجل الطاغية أثاثاً يقتنى ، أو متاعاً يشرى ويباع ، ولكنها إنسانة ، لها حقوقها وحرمتها ، بحكم الإسلام وحكم القرآن ، فراقبوا الله ، واعدلوا في النساء ..

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

مقدمات الهجرة

السؤال : **ما هي مقدمات الهجرة التي سبقتها ؟.**

الجواب :

الحق لا بد له من وطن يظهر فيه ويثمر ، ولا بد له من قوة تذود عنه وتحميه ، والدعوة من الدعوات – وبخاصة الدعوة الدينية – لا بد لها من بيئة تذيع فيها وتنتشر ، حتى تكسب لها أتباعاً مؤمنين مطمئنين ، مستقرين في ديارهم ومشاعرهم ، فيعملوا بها ، ويحملوا غيرهم عليها ، فإذا عدم الحق أمنَه في وطنه بحث له عن وطن ، وإذا لم يجد القوةَ في داره الأولى طلبها في دار أخرى ، وإذا لم تجد الدعوة الأرض الخصبةَ فرت من التربة الخبيثة ، وتطلعت إلى أرض طيبة تلائمها ، وتؤتي أكلَها كل حين بإذن ربها ، وإذا ضاقت منافذُ مجتمع من المجتمعات بدعوة من الدعوات ، وأخذ الأعداء عليها مسالكها ، اضطرت الدعوة إلى أن تهاجر في الأرض لتجد سعةً من الدنيا تزدهر فيها وتثمر ، وتشتد وتقوى ، ثم تعود إلى مجتمعها الأول فاتحةً مصلحة ... تلك سنة مألوفة معروفة في تاريخ الدعوات ، وحركات الإصلاح الكبرى .

والإسلام – وهو دعوة الحق الخالد – قد عرف تاريخُه هذه السنة ، فقد ألقى اللهُ إلى نبيه الرسالة ، وحمله الأمانة ، ودعاه الى القيام بحملة التطهير والتعمير ، وثورة التوحيد واليقين ، وشرعة الفضيلة والعمل الصالح ، وقال له : «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ» فقام النبي بالأمر عازماً حازماً ، جاهداً مجتهداً ، لا تأخذه في الله لومةُ لائم ؛ ولكن الإسلام في أيامه الأولى كان يُعرض على المشركين كما يعرض الجوهر النفيس الثمين على جاهل بحقيقته وقيمته ، فهو في نظره قطع من الحديد أو النحاس ، ولذلك قلَّ منهم من استجاب لله ، وكثر فيهم من تمرد على ملته وهداه ؛ وأصاب الرسولَ في سبيل ربه ما أصابه من فنون الأذى وألوان العذاب ، حتى كانت الفترة التي قضاها الإسلام في مكة يجاهد باطلَها ، ويكبح جماح غرورها ، فترةَ تربية وتمحيص وابتلاء ، ضرب فيها الرسول أمثلةَ الجهاد والصدق في الكفاح والجلد في الدعوة ، وضرب فيها المسلمون وراءه أمثلةَ التضحية والاحتمال والصبر ، وضرب فيها الكافرون أمثلةَ الإصرار على الباطل ، والمبالغة في الإثم ، والعناد مع الحق ، وبعد أن كان المشركون يعارضون الإسلام لأنهم جاهلون به ، صاروا يحاربونه لأنهم معاندون له ... وليس هناك أمر أشد من العناد ، يدعو إلى العنف في الخصومة ، والفجور في المعارضة ، والإسراف في الباطل..

ولم يدخر المشركون وسعاً في الاستهزاء بالرسول الكريم الحليم ، والسخرية منه ، والافتراء عليه ، فوصفوه بالكذب والسحر والكهانة والجنون ، وقال الكافرون : « هذا ساحر كذاب » ، « وقالوا : « يا أيها الذي نُزِّلَ عليه الذكر إنك لمجنون » .

كما لم يدخر المشركون وسعاً في مثل هذا مع المسلمين المسالمين الصابرين: « إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، وإذا مروا بهم يتغامزون ، وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين ، وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ، وما أُرسلوا عليهم حافظين » .

واستباح طواغيت الشرك والبغي دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم ،

وبخاصة من استُضْعِف منهم ، فليست له عصبية تدفع ، أو جاه يمنع ، أو سلطان يردع ، فكان لا بد من متنفس وملجأ يهاجر إليه المسلمون بإسلامهم حتى يشتد ساعدهم ، فأشار عليهم النبي صلوات الله وسلامه عليه بالهجرة إلى الحبشة ففعلوا ، وبعد حين من مقامهم فيها بلغ مسامعَهم أن قريشاً قد أسلمت وآمنت ، أو سالمت ووادعت ، وأن أذى المشركين قد انقطع عن المسلمين ، فعاد هؤلاء الغرباء إلى ديارهم ، منتظرين الأمن والسلام ، فتبين لهم كذب ما بلغهم ، فظلوا غرباء في سبيل الله ، ثم عاودوا الهجرة إلى الحبشة ...

وزاد المشركون في عنتهم وظلمهم ، فتعاهدوا على مقاطعة المسلمين ، وحصارهم اقتصادياً من كل جهة ، فلا مزاوجة ولا محادثة ولا اتصال ، وكتبوا بذلك صحيفة باغية علّقوها في الكعبة ، وبقي المسلمون محصورين في شِعب أبي طالب ثلاث سنوات عجاف .

* * *

ثم جاء عام الحزن ، فمات أبو طالب عم النبي الذي كان يدافع عنه ، وكانت قريش تهابه ، وماتت أم المؤمنين خديجة الزوجة الأمينة الرحيمة التي عاونت محمداً وضحت من أجله وأخلصت في خدمته ... وخلا الجو أمام المشركين ليفعلوا بمحمد ما يريدون ، فتضاعف أذاهم له ، وخرج محمد يستنجد بأهل الطائف ، ويدعوهم إلى دينه ، فقابلوه ألأم مقابلة ، وردوه أسوأ رد ، وأغروا به سفهاءهم وغلمانهم، فجعلوا يقذفونه بالحجارة حتى أدموا قدميه، وحتى لم يجد إلا وجه ربه الكريم ، يناجيه بقوله :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلةَ حيلتي ، وهواني على الناس ... أنت أرحم الراحمين ، وأنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني ، أم إلى عدو ملكته أمري ؟. إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ، غير أن عافيتك هي أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، ، أن يحل علي غضبك ، أو ينزل بي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك ؟ !.

* * *

ثم كانت معجزة الإسراء والمعراج ، ليبتلي الله بهـا المؤمنين ، ويمتحن الصالحين للهجرة في سبيله ، فاتسعت سخرية المشركين ،ولم تزدهم معجزة الإسراء إلا نفوراً ، وأبى الظالمون إلا كفوراً ، وأسرفوا في تعذيب النبي وقومه إسرافاً كبيراً ...

وشاء الله أن يقبل على مكة في موسم الحج فريق من أهل المدينة ، شرح الله صدورهم للاسلام ، فبايعهم النبي على الايمان والمناصرة ، وزاد عدد هؤلاء بمضي الأيام ، حتى دخل الإسلامُ بيوتَ المدينة فأضاءها وأنارها .. وهنا فُتح باب الأمل أمام المسلمين ، فأشار النبي عليهم بالهجرة إلى إخوانهم في الدين بالمدينة ، فبادروا إلى ذلك تباعاً ، ولم يبق بمكة إلا من عجز عن الرحيل ...

وأحس المشركون بالخطر ، فسارعوا بالاجتماع في دار الندوة مؤتمرين بمحمد، وأجمعوا على قتله، فأبلغه الله ذلك وأمره بالهجرة، لتكون آية من الله لعباده ، ونقطةَ تحول في تاريخ دعوته، وفاتحة لنصره المبين لعباده المؤمنين : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين » ..

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الاحتفال بالمولد النبوي

السؤال : **ما رأيكم في الاحتفال بالمولد النبوي حسب ما هو شائع بين المسلمين؟. وماذا تقترحون لاصلاح هذا الاحتفال ؟.**

الجواب :

أرى من الخير أن نتفق أولا على المعنى المراد من كلمة « الاحتفال بالمولد » ، فإن كان المراد من هذا الاحتفال يتضمن معنى الاعتقاد بخصوصية هـذه الليلة ، أو ربط بينها وبين أي لون من ألوان التعبد ، قولاً كان أو حركة أو

عملا ، فنحن يجب أن نتفق على أن هذا ليس من الدين أو الإسلام في شيء ، لأنه لم يرد في قرآن ولا في سنة ربطُ ليلة المولد النبوي بشيء يتعلق بالعبـــادة القولية أو الفعلية . أما إذا كان المراد بالاحتفال انتهاز مناسبة ذكرى عاطرة طيبة، لاثارة ذهن الانسان وقلبه ، بكريم المعاني والمُثُل والأخلاق،واستعراض صفحات التاريخ المجيدة التي تمثلت في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وانتهاز الفرصة عند ثوران هذه الذكريات ، لكي نردد ما أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم من سنة ومن هدى ، ونتذاكر ما جاء به هذا الرسول ، من كتاب ربه ودين خالقه ، وما دعا اليه من هدى الإسلام وأحكامه ، فأرى أن هذا عمل طيب ، وينبغي أن نحرص عليه ، لا على أنه جزء من العبادة ، أو حكم من أحكام الدين ، أو أمر من أمور الاعتقاد ، بل عـــلى أنه انتهاز للمناسبات الكريمة والأوقات الطيبة ، لنربط بينها وبين ترديد تعاليم الدين وقواعده ومبادئه ، فتتقبل النفوس هذا الزاد بيقظة ونشاط.

والمجتمعات المعاصرة تتفنن في تخصيص أيام للجيش ، وللسلام ، ولمحاربة الفقر ، ولكذا وكذا ، وأعتقد أننا إذا لم نحي لنا أياماً لنا نسميها «أيام الاسلام »، فنتيجة هذا أن الأيام المصطنعة المعاصرة ستغمرنا بقيمها المادية ، ومعانيهاالجنسية أو العنصرية أو الطائفية ، وتلفتنا عن تذكرنا لأيام الإسلام ، ولو أخذنا بالنظرية التي تنادي بأننا لا نحتفل بهذه الأيام ، لأنها ليست من الدين ، لقضينا عـــلى ذكريات كثيرة نحن نجني من ورائها خيراً كثيراً ، لأننا ننتهزها فرصاً للحديث عن الاسلام وأحكام الاسلام ، كيوم الهجرة ، ويوم غزوة بدر ، ويوم فتح مكة ، ويوم الاسراء ، وليالي رمضان ، وغير ذلك من الليالي والأيـــام الإسلامية . وألاحظ هنا ملاحظة لها قيمتها ، ولعلها تدنينا من الطريقة المثلى للاحتفال بالمولد ، وهذه الملاحظة هي أن الليلة هي أن ¢ وُلد فيها الرسول صلى الله عليه وسلم لم تتعين باتفاق أو يقين ، فالمشهور عند المسلمين أنها الليلة الثانية عشرة من ربيع الأول ، ولكن هناك أقوالا وآراء أخرى ، تذهب إلى تحديد ليال سواها ، فهناك من يقول إنه ولد في اليوم السابع من ربيع الأول ، وفي رواية أنه ولد في التاسع منه ، وفي رواية أنه ولد في العاشر ، وهناك روايات أخرى كثيرة غير هذه الروايات ، منها الضعيف ومنها الشاذ . وبالرجوع إلى

كتاب « نتائج الأفهام ، في تقويم العرب قبل الإسلام ، وفي تحقيق مولد النبي وعمره عليه الصلاة والسلام ». وهو الكتاب الذي ألفه المحقق المرحوم محمود باشا الفلكي باللغة الفرنسية ، وترجمه الى اللغة العربية المرحوم أحمد زكي ، وطُبع في المطبعة الأميرية ببولاق مصر المحمية سنة ١٣٠٥ هـ ، وكان أحمد زكي في ذلك الوقت مترجماً لمحافظة الاسماعيلية ، وأصبح بعد ذلك شيخ العروبة المشهور أحمد زكي باشا . أقول إنه بالرجوع إلى هذا الكتاب نجد أن محمود باشا الفلكي يورد هذه الأقوال كلها ، ثم ينتهي إلى أن التحقيق التاريخي والفلكي والعلمي يثبت أن الرسول عليه الصلاة والسلام ولد في اليوم التاسع من شهر ربيع الأول ، ثم يختتم الموضوع بقوله : « ويتلخص من هذا أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم ولد يوم الاثنين ٩ ربيع الأول الموافق ٢٠ إبريل سنة ٥٧١ مسيحية ، فاحرص على هذا التحقيق ، ولا تكن أسير التقليد » .

أنا لا أذكر هذا لأنضم إلى محمود باشا الفلكي في رأيه أو لأعارضه ، وإنما أحب أن ألاحظ أن الاختلاف في الليلة التي ولد فيها الرسول عليه الصلاة والسلام يفيدنا في أننا لا نربط احتفالنا بليلة معينة ، حتى لا توجد شبهة إحياء لهذه الليلة بمعنى اعتقادي أو عبادي . ومن هنا يقول كثيرون من الدعاة المتفتحين إن شهر ربيع الأول كله شهر مولد ، اذا بدأ الشهر يبدءون الاحتفالات بذكرى مولد الرسول ، ويتحدثون عن شخصية الرسول وتاريخ الرسول ومن ايام الرسوم في أول يوم وثاني يوم من الشهر ، وهكذا إلى اليوم الثاني عشر ، وقد يستمرون الى آخر الشهر .

فنحن إذن لا نحيي ليلة بعينها لأنها مجرد ليلة ، وإننا ننتهز مناسبة اليوم أو الشهر الذي ولد فيه الرسول عليه الصلاة والسلام ، لكي نستعيد أحداث حياته ، ونستعرض صفحات جهاده ، ودعوته عليه الصلاة والسلام .

أما الملاحظ في الاحتفال بمولد الرسول عليه الصلاة والسلام خلال عصور التاريخ فهو انه قد تردد غالباً بين مذمتين : مذمة الإسراف ومذمة الإنحراف ، وقد سمعنا عن آلاف الجنيهات الضخمة التي كانت تبذل للاحتفال بالمولد ،

وعن المظاهر التي كانت تعمل ، وأغلبها لا يتصل بأصل الدين ولا مبادئه ولا منفعة أهله . فهذه الحفلات المسرفة في مولد الرسول عليه الصلاة والسلام لا نستريح إليها ، ولا نريد استعادتها . وأغرب الظن عندي أن الذين قاموا بالاحتفال بالمولد على هذه الصورة المسرفة لم يكونوا مخلصين للدعوة الاسلامية ومبادئها ، بقدر إخلاصهم لنزعات مذهبية أو طائفية أوسياسية ، كانت تحركهم إلى هذه الأعمال في أغلب الأحيان .

وبعد هذا الإسراف انقطع الاحتفال بالمولد النبوي في بعض الأوقات ، ثم عاد على أيدي العامة ، واتخذوا مناسبته فرصة لارتكاب الشرور والمفاسد والآثام والمنكرات ، وهذا هو المظهر الثاني من مظاهر الاعتساف في الاحتفال بالمولد ، وهو مظهر الانحراف .

وأخيراً أرادت المجتمعات المعاصرة أن تجدد في الاحتفال بالمولد ، واحتجوا لذلك بكثرة المنكرات الموجودة فيه ، وأن فيه اختلاطاً شائناً وتبرجاً فاضحاً ، وفيه تناول للمخدرات وإشاعة للإثم ، وفيه غير ذلك ، وقالوا : يجب أن نجدد فيه . ولكن التجديد الذي تم كان أغلبه على حساب ما نريد التمسك به من القيم الدينية والمبادىء الإسلامية .

بدأنا نجدد في المولد فنقيم سرادقات للغناء ، ونقيم حفلات تمثيلية ، ونقدم مسرحيات عصرية ، ونبيع كتباً قد يكون الكثير منها غير مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالناحية الإسلامية . أي أننا جددنا تجديداً لم نرتبط فيه دائماً بالوثاق الإسلامي الصرف .

فإذا كان الاحتفال بالمولد قد شهد عهوداً أسرف فيها المسرفون ، ثم شهد عهوداً أخرى انحرف فيها المنحرفون ، فاني أخشى أن نكون قد أسرفنا أيضاً في التجديد ، فباعدنا بين أنفسنا وبين ما نريده من الاحتفال الكريم السليم بالمولد النبوي ، على صاحبه أفضل الصلاة والسلام ، في نطاق الشريعة وحدود الدين .

* * *

وبعد هذا يأتي السؤال المنتظر : ماذا ينبغي أن نفعل للاحتفال بالمولد النبوي؟.
وأذكر أن المرحوم السيد محمد رشيد رضا دعي إلى إنشاء مقالة أو بحث في موضوع المولد النبوي ، يقال أو يتلى في احتفال يقيمه المسلمون في الهند ،فكتب سنة ١٣٥٠ هـ موضوعاً سماه « خلاصة السيرة المحمدية » ، وركز في هـــذه الخلاصة سيرةَ النبي عليه الصلاة والسلام .

وفي ربيع العام التالي ، أي سنة ١٣٥١ هـ كتب كتابه المعروف وهـــو«نداء الجنس اللطيف » عن حقوق المرأة في الإسلام . وفي سنة ١٣٥٢ هـ كتب كتابه المشهور « الوحي المحمدي » . وفي سنة ١٣٥٣ هـ كتب مقالا عنوانه « يـــوم محمد » ونشره في مجلة « المنار » . وكان هذا كله برجاء من مسلمي الهند الذين يحتفلون بهذا اليوم . وكان السيد رشيد رحمه الله قد كتب قبل ذلك في سنة ١٩١٦ كتاباً سماه « قصة المولد النبوي المختار » ، وكان شيخ مشايخ الصوفية في ذلك الوقت هو السيد محمد توفيق البكري ، فأحل ما كتبه الشيخ رشيد محلّ القصص القديمة التي كانت تردد في ليلة المولد ، وفيها الكثير من الأساطير التي لا تتفق وحقائق السيرة النبوية الصحيحة . وقد نشر الشيخ رشيد هذه القصة في«المنار» ثم طبعها مستقلة .

نأخذ من هذا أنه يحسن أن ننتهز فرصة المولد النبوي لكي نواصل التعريف بالسيرة النبوية ، ونجدد الدعوة إلى المبادىء الإسلامية والأحكام الشرعية . ونحن محتاجون إلى هذا أقوى احتياج في مجتمعنا المعاصر ، لأن العامة تغمرها الآن بحار كثيرة من الثقافة الطارئة أو البعيدة عن الفكر الديني ، فبجوار هذا الطوفان من ألوان الثقافات المادية والاجتماعية والفنية ، يجب أن يكون هناك رصيد كافٍ مستمر من ينابيع الثقافة الإسلامية ، والمجال يتسع لمد الناس بهذا المدد في أمثال هذه المناسبات : في يوم الهجرة ، أو يوم المولد ، أو ذكرى بدر ، أو ذكرى فتح مكة ، أو ليلة النصف ، أو ليلة الإسراء ، أو ليلتي العيدين ، أو ليلة القدر ... إلخ .

ثم أقترح أيضاً فيما يتعلق بالاحتفال بالمولد أن نجعل أول درس يتلقاه التلاميذ والطلاب عند مرور هذه الذكرى ، عن شخصية الرسول الكريم عليه الصلاة

والسلام ، وأن نعمم ذلك في جميع مراحل التعليم ، من أول صف في الدراسة الأبتدائية إلى آخر مرحلة في الدراسة الجامعية . وذلك بجوار الكتابة عن تاريخ الرسول ودعوته في الصحف والمجلات ، وإلقاء المحاضرات وعقد الندوات، وجعل « يوم المولد » مناسبة لمؤتمرات إسلامية . وتوزيع جوائز لمباريات في التأليف عن رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام . وتاريخ النبي الأمي الأمين تبرز فيه ناحية مهمة يمكن أن نحسن استخدامها في مناسبة ذكرى المولد النبوي . وهي أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يتيماً : فَقَدَ أباه وهو حمل ، وفقد أمه وهو طفل ، ومع ذلك استطاع هذا اليتيم أن يكون أعظم مصلح في الوجود، بفضل ربه تبارك وتعالى ، وأن يرد إلى الدنيا رشدها وعقلها واسواءها على الطريق ، فليتنا ننتهز فرصة ذكرى المولد النبوي لنفتح فيها كل عام منشئات تنهض لخدمة اليتامى في المجتمع ومن في حكمهم من الضعفاء والقاصرين .

يجب أن ننتهز فرصة ذكرى المولد فنخصص فيها عناية ملحوظة باليتامى الموجودين في المجتمع الإسلامي ، لا بالعطف عليهم أو الإحسان إليهم فقط ، بل يجب أن نؤدي هؤلاء إلى اليتامى جميع حقوقهم التي جاء بها الإسلام ، فضلا عن أن يزاد عليها ما يستطيعه المجتمع المعاصر .

ومن الممكن أيضاً في مناسبة ذكرى المولد – حتى يكون الاحتفال به سليماً وقويماً – أن نعرض شخصية محمد عليه الصلاة والسلام كما صورها القرآن الكريم ، فنحن حتى اليوم لم يتفرغ منا كاتب ليفصل الحديث عن محمد عليه الصلاة والسلام كما صوره القرآن الكريم ، وهذا الحديث يصلح أن يكون مادة عظيمة من مواد ذكرى المولد النبوي ، ويكون لها قيمة كبيرة ومكانة عظيمة في التعريف بالإسلام وبنبي الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام ، لو أننا عرضناها على وجهها بتفصيل واستيعاب .

وأخيراً تأتي « قصة المولد » ، فقصة المولد كانت أولا مجموعة من الأساطير ، مع القليل من الحقائق التاريخية المتعلقة بسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام . ومنذ حين ثار بعضُ الناس على هذه القصة ، وحاولوا أن يغيروها فانتهى الأمر بأن

كتب المرحوم الشيخ عبدالله عفيفي قصة « المولد النبوي المختار » . وإذا كنا قد شكونا مُرَّ الشكوى من الخرافات التي أضيفت إلى حقائق السيرة في القصة الأولى ، فان قصة المرحوم عبدالله عفيفي غلبت فيها متانة الاسلوب ودقة البيان على الحقائق ، وعلى العبارة السهلة الميسرة التي تقدم لعامة المسلمين مبادىء دينهم ليسهل عليهم فهمها وهضمها والاهتداء بها .

فلو أن عالماً من المسلمين أو جماعة من العلماء تفرغوا لصياغة « قصة مولد» تعتمد على الحقائق التاريخية في السيرة النبوية ، وتعتمد على التيسير والوضوح في العبارة ، وتعتمد على الحلاوة في الأسلوب ، لكان هذا معواناً على تحسين الصورة التي نحتفل بها في ذكرى مولد الرسول عليه الصلاة والسلام .

وخلاصة ما أقول : إن استغلال ذكرى يوم المولد في عرض سيرة الرسول ومبادىء الإسلام أمر يحسن ألا نفرط فيه ، وألا نقصر في أدائه على الوجه المطلوب . أما الاحتفال بالمولد أو احياء ليلة المولد على أنها شيء من أحكام الإسلام ، فذلك شيء لم يرد فيه نص من قرآن أو حديث ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

تعليق صورة لقبر الرسول

السؤال : **ما حكم الدين في بعض المسلمين الذين يعلقون صورةً لقبر النبي صلى الله عليه وسلم على حائط في جهة المدينة ، ثم يتجهون نحو هذه الصورة عقب أدائهم الصلوات ، ويرددون عبارات للصلاة على النبي صلوات الله وسلامه عليه ؟.**

الجواب :

هذا الوضع المسئول عنه يعد من الأمور المبتدعة في الإسلام ، التي لم يعرفها عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا عصر الخلفاء الراشدين ، ولا عصر الصحابة والتابعين. وقد كان أهل السلف الصالح - رضوان الله عليهم اجمعين - أقوى المؤمنين حباً لرسول الله عليه الصلاة والسلام وشوقاً إليه ، ومع ذلك لم يرتضوا مثل هذا الوضع المبتدع للتعبير عن حب الرسول أو تعظيمه .

ومن المتفق عليه أنه لايجوز لمسلم أن يبدل في أحكام الدين ، ولا أن يزيد فيها ، حتى ولو كانت الزيادة من جنس الطاعة ، فلا يجوز مثلا أن تزاد ركعة على ركعات فريضة من فرائض الصلاة ، ولا يجوز مثلا أن نصوم يوم العيد ، مع أن الصوم في أصله عبادة مشروعة ، وهكذا .

ولقا روى علي بن الحسين رضي الله عنه أنه شاهد رجلا كان يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فيدخل فيها فيدعو ، فنهاه وقال : «ألا أحدثكم حديثاً سمعته عن أبي عن جدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تتخذون قبري عيدا (أي تتعودون الدعاء عنده) ولا بيوتكم قبوراً ، فإن تسليمكم يبلغني أينما كنتم » .

وفي رواية أخرى : « لا تتخذون بيتي عيداً ، ولا تتخذوا بيوتكم مقابر ، ولعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور انبيائهم مساجد ، وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم » .

ولقد ذكر الفقهاء أن السنة في الدعاء هي أن يتجه الداعي إلى القبلة ، والقبلة هي الكعبة ، والله تعالى يقول في سورة البقرة : « فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » .

ولقد نقل ابن القيم أن الإمام مالك بن أنس كان يأتي قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فيسلم عليه ، ثم يسند ظهره إلى جدار القبر ويدعو ؛ فيكون بذلك مستقبلا القبلة .

ثم إن هذا العمل المسئول عنه فيه تشبه بغير المسلمين ، ممن يعلقون الصور في معابدهم ويقدسونها ، وهذا التشبه لا يقره الإسلام .

لذلك يلزم من يفعل هذا العمل أن يتركه ويقلع عنه ، ويخلص العبادة لله وحده .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

عمر الرسول

السؤال : **كم كان عمر الرسول عند وفاته؟. وكم كان عمره يوم تزوج السيدة عائشة رضي الله عنها ؟ وهل أنجبت أولاداً للرسول ؟.**

الجواب :

تزوج النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، السيدة عائشة بنت أبي بكر – رضي الله عنهما – بوحي من الله تبارك وتعالى ، حيث نزل جبريل عليه السلام من عند الله عز وجل ، يقول للرسول عليه الصلاة والسلام : « إن هذه زوجتك في الدنيا والآخرة » . ولذلك كانت أم المؤمنين عائشة تفخر بذلك .

وقد عقد عليها النبي صلوات الله وسلامه عليه قبل الهجرة بنحو سنتين ، ودخل عليها سنة اثنتين من الهجرة ، فيكون عمر النبي حين عقد عليها العقد في نحو الحادية والخمسين ، ودخل عليها وهو في نحو الخامسة والخمسين من عمره .

ولم يكن للسيدة عائشة ، رضي الله عنها ، أولاد من رسول الله ، لا من الذكور ولا من الإناث ، لأن جميع أولاد النبي كانوا من السيدة أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضوان الله عليها ، اللهم إلا إبراهيم فإنه كان من السيدة أم المؤمنين « مارية » رضوان الله عليها ، وقد توفي إبراهيم قبل أن يكمل السنتين .

وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين لليلتين مضتا من شهر ربيع الأول بعد عشر سنين من الهجرة .

وكان عمره حين وفاته ثلاثاً وستين سنة على الأشهر .

وأولاد النبي حسب المشهور من الروايات هم: القاسم وزينب ورقية وفاطمة وأم كلثوم وعبدالله ، وكل أولاد النبي ماتوا في حياته ، إلا فاطمة فإنها ماتت بعده .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الإسلام ومعجزات النبي

السؤال : **يرى بعض الناس أن النبي عليه الصلاة والسلام نشر دعوته بأسباب من الأرض لا من السماء ، وأنه لم تجر على يديه معجزات أو خوارق للعادات ، فهل هذا صحيح ؟.**

الجواب :

الدين الإلهي رسالة من الله إلى الناس ، والله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء ، فلا تتيسر الصلة بينه وبين عباده الحادثين ، كما تتيسر الصلة بين بعضهم وبعض ، فلا بد من أن يتلقى رسالة الله مَلَكٌ من عباده المكرمين ، والملك يُلْقيها إلى نبي صنعه الله على عينه ، واختاره لرسالته . ودعوى الرسالة — وهي دعوى التلقي عن الله بواسطة أحد الملائكة — دعوى خطيرة جليلة — إن لم تؤيّد ببرهان قاطع خارج عن طاقة البشر ، معجز للناس ، مقرون بالتحدي — فإن الرسالة لا يتقبلها الناس بقبولها الحسن . لذلك رأينا الأديان السماوية منذ أقدم العصور تقترن بمعجزات الأنبياء التي حملت الناسَ على الاعتراف بهم ، والخضوع لرسالتهم ، وكان من سطوع التحدي في هذه المعجزات أنها من جنس ما برع

فيه القوم الذين يتحداهم النبي ، ولما كانت صناعة العرب هي البلاغة والبيان ، كان أقوى أسباب التأييد للدين الإسلامي هو هذا القرآن المجيد الذي تحدى فأعجز ، وخضع الناس له جميعاً من ناحية إعجازه معنى وبياناً ؛ ولذلك نجد الحديث الصحيح المتفق عليه يقول : « ما من الأنبياء نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيتُه وحياً أوحاه الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » .

وهذا القرآن الكريم الذي تحدى الناس فأعجزهم ، وثبت أنه معجزة بهذا التحدي ، قد تضمن ذكراً صريحاً واضحاً لمعجزات تتعلق بالأنبياء السابقين صلوات الله وسلامه عليهم ، ومعجزات تتعلق بمحمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، مثل الإمداد بالملائكة في بدر ، وإنزال المطر لسقي المسلمين دون المشركين ، وتثبيت الأقدام ، وقد كانت تسيخ في الرمال من قبل ، وإلقاء النعاس أَمَنَةً في ليلة المعركة ؛ والعاصفة التي جاءت في غزوة الأحزاب ، وهزيمة المشركين فيها برغم كثرة جموعهم وقلة المسلمين وضعفهم ضعفاً شديداً ، إلى غير ذلك مما هو ثابت في القرآن الكريم ؛ وهو يدل على أن المعجزات موجودة في الإسلام بلا شك . فقد أثبتها ما ثبتت صحته وهو القرآن المعجز ؛ فتكون هذه المعجزات قد ثبتت عن طريق صحيح لا يقبل الارتياب .

وهناك إشارات في القرآن الكريم إلى حسن التلاقي بين عمل العبد وعون الرب ، مما يشعرنا بأن الله سبحانه وتعالى قد جعل الدعوة الدينية مجمعاً لمعونة الله – وهي المؤثر الأول والسبب الأكبر – وسعي العبد . يقول الله تبارك وتعالى مثلا : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميتَ إذ رميت ولكن الله رمى » . ويقول : « يد الله فوق أيديهم » . فمثل هذه الآيات تشير إلى أن الله سبحانه وتعالى هو المؤثر الأكبر ، ويقترن هذا التأثير بسعي من العبد ، وإن كان هذا السعي بقدرة الله وفضله وهبته ؛ فلا تخلو الدعوة الدينية إذن من سبب أرضي ظاهري مقترن بالمؤثر الأكبر وهو فضل الله ومعونته ؛ وإن كان الفضل في الأول والأخير يعود إلى الله سبحانه وتعالى ، فهو واهب القُوَى والقُدَر التي يجب استعمالها واستغلالها .

وعلى الرغم من أنه قد وردت أحاديث نبوية صحيحة أكثرها في البخاري ومسلم عن خوارق العادات المنسوبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، كنبع الماء من بين أصابعه ، وتكثير الماء والطعام القليليْن ببركته ، وسرعة إجابة دعوته ، وإخباره ببعض أمور تتعلق بالمستقبل . على الرغم من أن هذا القدر كاف في إحاطة مقام الرسول صلى الله عليه وسلم بتجلة لا مثيل لها ، فإننا نرى فريقاً من الناس يغلون في أمر الذات النبوية ، فينسبون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أموراً هي محل نظر ، إذ لم تصح ولم تسَلّم ، كالقول بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أول الخلق ، أو أن الخلق جميعاً قد أُوجد من أجله ، أو أن العرش واللوح والقلم ، وغير ذلك من أشياء علوية قد خُلقت من نوره صلوات الله وسلامه عليه ، وكما غلا قوم في أمر الشخصية النبوية من ناحية الإسراف في التقديس ، غلا قوم في تجريد الرسول صلوات الله وسلامه عليه مما يجب له وينبغي لمقامه من إجلال وتوقير ، ومما صح نسبته إليه من خوارق ومعجزات .

والواجب علينا هو أن نأخذ في هذا الموضوع طريقاً وسطاً عادلا ، وخير ما يحملنا على الطريق الوسط هو القرآن المجيد ، فالقرآن يحدثنا بأن محمداً صلى الله عليه وسلم نبي ورسول ، ونذير وبشير ، وداع إلى الله بإذنه ، وسراج منير ، ورءوف رحيم ، وعلى خُلق عظيم ، إلى آخر هذه الصفات الكريمة التي ذكرها القرآن بشأن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكن الرسول مع هذه الأوصاف العظيمة بشر بنص القرآن حيث يقول : « قل إنما أنا بشر مثلكم ». والسيرة تحدثنا أيضاً عن بشريته فيما يتعلق بأمور الدنيا ، وإن كانت عصمته متحققة متوافرة فيما يتعلق بأمر الدين ، وقصة «تأبير النخيل» معروفة مشهورة ، وهو يقول في هذه القصة « إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشيء من أمر دينكم فخذوه ، وإن أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر » . هذا فيما يتعلق بأمر الرسول من جهة أنه نبي يوحى إليه من ربه ، وأتذكر الآن أن الإمام محمد عبده في « رسالة التوحيد » والسيد محمد رشيد رضا في كتابه « الوحي المحمدي »

قد أفاضا في القول إفاضة شافية عن هذا الموضوع ، وأنا أنصح من يحب التوسع فيه أن يرجع إلى هذين الكتابين ، ففيهما مزيد من الشرح والإيضاح ، وفيهما بسط واف شاف لما جاء في هذا المجال .

* * *

ونلاحظ أن الإسلام قد انتشر في نصف قرن في نصف الكرة الأرضية ، وهذا الانتشار يرجع إلى عدة أسباب أولها : إرادة الله جل جلاله . ثانيهما : سمو المبادىء التي دعا إليها الإسلام . ثالثها : المجهود العظيم الذي بذله الدعاة والمجاهدون في سبيل الله ، مقروناً بإخلاص هؤلاء الدعاة ، مما جعلهم الله أهلا لكي يعينهم ربهم وينصرهم : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

وهناك فريق من الباحثين يرى أن سر انتشار الإسلام يرجع إلى سهولة تعقله ، وسماحة تعاليمه ، وعلو المبادىء التي جاء بها ، وأنها تخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ولو فرضنا أننا اقتصرنا على أن السر في انتشار الإسلام يرجع إلى هذا وحده ، لكان هذا أيضاً سبباً من أسباب السماء ، لأن الذي يقدر على أن يأتي الناس بمبادىء هي أسمى من مبادئهم ، وتعاليم هي أعلى من تعاليمهم ، لا بد وأن يكون أعلى من البشر ، وهو الله سبحانه وتعالى .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الاحتجاج بالسنة

السؤال : **هناك من ينكر حجية السنة النبوية ، ويرى أنها ليست وحياً ، ويقول: لا نستدل بغير القرآن ، فما الرأي في ذلك ؟.**

الجواب :

أعتقد أن هذا الموضوع يحتاج إلى إلقاء نظرة عاجلة على تاريخ التشريع

الإسلامي . فالإسلام جاء ممثلا في القرآن الكريم أولا وقبل كل شيء ، وكان القرآن هو الدستور الأساسي لهذه الدعوة الخاتمة الجامعة ، ولا بد لها من مبين ومبلغ ومفسر . فكان هذا المبين والمبلغ والمفسر هو من اصطفاه الله لرسالته ، وحمله تبعة أمانته ، وصنعه على عينه ، وهو الرسول ، والله أعلم حيث يجعل رسالته . ولقد أحاط بالنبي صلى الله عليه وسلم مجموعة كريمة من الصحابة ، فقهوا عنه واستمدوا منه ، واستضاءوا بنور النبوة وأشعة الرسالة ، فكان بجانب سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ما سماه الفقهاء بأقوال الصحابة .

ثم جاء بعدهم التابعون وتابعو التابعين ، فكان لهم جهود مشكورة ومذكورة في ميدان الفقه الإسلامي ، وكلهم من رسول الله ملتمس ، كما يقول البوصيري عليه رحمة الله ، ثم نشأت المذاهب الفقهية ، واتسعت هذه المذاهب ، ودخل فيها كثير من التفريعات والأقوال ، وأصبح عندنا تراث كبير ضخم من الفقه والتشريع والأحكام الدينية .

أصيب المجتمع الإسلامي بعد هذا بمئات من السنين بغارات من الداخل ومن الخارج ، وبفتن داخلية وخارجية ، وكان من طبيعة الأمور أمام هذه الغارات ، وأمام هذه الفتن ، أن يحتضن المسلمون هذا التراث الفقهي ، وأن ينظروا إليه بعين الإجلال . ثم أخذ المسلمون ينهضون من الكبوة الطويلة المدى التي ألمت بهم ، وظهر فينا من يدعو إلى أن نجتهد ، لأن الحياة قد تغيرت ، ولأن المجتمع قد حدثت فيه أحداث ووقائع جديدة . وبطبيعة الحال كانت هذه الدعوة إلى الاجتهاد لخدمة الإسلام ، ما دامت تتقيد بشروط الاجتهاد وحدوده وقيوده وقواعده ، ولها ثمراتها وخيراتها في مجال الإعزاز لدعوة الله سبحانه وتعالى . ولكن هذه الدعوة التي يغلب على الظن أنها بدأت طيبة وسليمة على أيدي الأعلام من رجالات الإسلام في القرن الماضي وأوائل هذا القرن — سواء في مصر أو في خارج مصر — انتهزها أعداء الإسلام ، فأرادوا أن يتكئوا عليها ، لكي يهدموا صرح الإسلام ، إذ بدأوا أولا يقولون إن المذاهب الإسلامية الأربعة وغير الأربعة دخلها أقوال وتفريعات على أيدي التلاميذ

وأيدي المتأخرين ، ولهذا يجب ألا ينظر اليها بعين الاعتبار . فقلنا إذا كـــان هناك أقوال للتلاميذ ، أو تفريعات على أيدي المتأخرين ، فهناك أساس المذهب يمكن أن نعود إليه ، وهؤلاء الأئمة الفقهاء قد استمدوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واغترفوا من القرآن الكريم . فعادوا بعد هذا يقولون : إن هؤلاء الأئمة بشر يخطئون ويصيبون ، فيجب ألا ننظر إلى أقـــوالهم بعين التقديس والتسليم ، أو بعين الإجلال ، فنحن لا ينبغي لنا فيما يزعمون أن نعتمد على قول الشافعي ، أو ابن حنبل ، أو مالك ، أو أبي حنيفة ، وإنما نأخذ من إمام الجميع وهو الرسول صلى الله عليه وسلم . ووُجد فينا مع الأسف من استنام لهذه الفكرة ، واغتر بظاهر الكلام فاستجاب له ، واعتقد أن المسألة عـــودة كريمة إلى سنة الرسول صلى الله عليه وسلم الذي اغترف منه هؤلاء ، وأننـــا سنكرر العودة إلى السنة ، ونغترف كما اغترفوا ، ونأخذ كما أخذوا . ثم أخذوا بعد هذا يحاولون هدم السنة التي كانوا بالأمس القريب أو البعيد يوحون إلينا بأن نأخذ منها ، وأن نعتمد عليها ، وأن نترك أقوال هؤلاء الأئمة وهؤلاء الفقهاء من أجلها .

وأعتقد أنه إذا فُتح الباب أمام هذا الهجوم فمعنى هذا أن المرحلة التالية هي تناول القرآن الكريم نفسه بالطعن ، وقولهم فيه إنه كتاب إن صح لمجتمـــع صحراوي أو بدوي فإنه لا يصلح لمجتمع مدني حاضر ، كما افترى ذلك بعضُ هؤلاء الأعداء ، مع أن الله تبارك وتعالى يقول : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

ومن أجل هذا بدأ الإحساس بخطورة المؤامرة ، وتردد السؤال : هل السنة لها صفة الوحي ، حتى تكون مكملة للقرآن ومتممة له ، بحكم أنها مبينة وشارحة له ؟. وعلى هذا يكون ما ثبت عندنا من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم تشريعاً ، ولا يكون فيه مجال للرأي اذ لا رأي مع النص .

إن السنة يختلف أهل الاصطلاحات المتعددة في تفسيرها ، فمن ناحية اللغة نجد أن السنة معناها الطريقة ، ومن ناحية اصطلاح رجال الابتداع والاتباع نجد

السنة مقابلة للبدعة ، ولكن الذي يهمنا هنا من معاني السنة ما يراد بها في الاصطلاح الفقهي ، وهو أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته . وينبغي أن نتفق أيضاً على المراد بالوحي ، فهؤلاء قد يتوهمون أن المراد بالوحي ما كان متخذاً صفة القرآن الكريم في تنزله وفي إيحائه إلى الرسول ، فيقولون : إن الوحي هو القرآن فقط ، لأن جبريل نزل بهذه الآيات القرآنية بألفاظها ومعانيها على الرسول وتواترات ، ولا يصح أن نغير فيها ، بينما الرسول عليه الصلاة والسلام قد أثر عنه أحاديث يجوز روايتها بالمعنى ، كما يقرر ذلك بعض العلماء، وإن كانت هناك شروط لرواية الحديث بالمعنى ، حتى لا يقع تفاوت بين لفظ يوضع مكان لفظ . والوحي ليس هذا الذي توهموه فقط ، لأن الوحي كما عرفه العلماء هو إخبار الله تعالى لأحد أنبيائه أو رسله بشرع أو خبر ، وعن طريق خفي يتحقق به العلم اليقيني ، الذي يجزم الموحَى إليه بأنه صدق وحق ومن قِبَل الله سبحانه وتعالى ، وهذا الوحي قد يكون بطريق الإلهام ، وقد يكون عن طريق المكالمة من وراء حجاب ، كما حدث لموسى في المناجاة ، وكما حدث للرسول محمد في المعراج . وقد يكون عن طريق سفير الرحمن ، وهو المَلَك جبريل عليه السلام . وإذا لم نستطع أن نقنع هؤلاء بأن السنة كلها نزلت من عند الله سبحانه وتعالى بمعناها ومبناها عن طريق جبريل عليه السلام ، فانه قد يدخل قدر من السُّنَّة ضمن الوحي بمعنى الإلهام .

والذي نؤمن به أن السنة كلها ، ما ثبت منها وما صح ، وحي من عند الله تبارك وتعالى ، نزل به جبريل وعلمه للرسول ، وَوكَل إليه أن يعبر عنه بعبارة من عنده ، حتى يكون هناك فرق بين النص الإلهي المتواتر الباقي على مر الزمن المتعبد بتلاوته ، وبين التفسير النبوي الذي يحيل هذا النص الإلهي إلى أحكام يطبقها البشر وينفذونها ، ونحن نجد الدليل على أن السنة وحي أمراً مذكوراً في القرآن ، وفي السنة ، وفي عمل الخلفاء والصحابة ، وفي تصرف الفقهاء .

ثم نأتي للخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين ، فنجد أن بعضهم كان يثور من أجل تصرف لبعض الناس ، أو من كلام يقوله بعضهم ، فيلبب

الخليفة صاحبَ هذا العمل . أو صاحب هذا القول ، ويكاد يعصف به لولا أن يأتيه من يقيم له البرهان أو الدليل على أن هذا القول منقول من الرسول ، أو أن هذا العمل قد قام به الرسول . فيسلم الخليفة ويخضع ، لأن الرسول قد قال أو قد فعل . وهذا دليل على أن الخليفة الراشد يعتقد أن السنة ليست اجتهاداً من الرسول ، وإنما هي أمر مُتَلَقّىً من الله يخضع له العقل . ويخضع له أكبر الناس وهو الخليفة ، كما يخضع له أصغر الناس في الأمة .

ونجد أن الفقهاء الأئمة كانوا يخضعون أيضاً للحديث . ونجدهم أيضاً قد أخذوا بالقياس ، وأخذوا بالرأي ، ونشأت مدرسة للرأي والعقل بجوار مدرسة الحديث أو مدرسة النقل ، ولكنا نجد أن هؤلاء الأئمة وهؤلاء الفقهاء إذا رأى واحد منهم رأياً ، أو قرر قاعدة ، أو ذهب إلى فكرة فقهية ، ثم صح عنده الحديث أو بلغه نص نبوي لم يصل إليه من قبل ، فإنه يخضع للنص ، ويعدل عن رأيه . وإمام أهل الرأي في هذا هو الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان الذي وصل في الرأي وفي القياس إلى أبعد مجال . ولكنه كان يقول : إنه لا اجتهاد أمام النص ؛ وكان إذا صح عنده الحديث بعد تقعيده قاعدة أو إبدائه رأياً في مذهبه ينزع عن رأيه ويعود إلى الحديث ، وكذلك الإمام الشافعي رضوان الله عليهما .

ويحتج الذين يقولون ان السنة ليست وحياً بقول الله تبارك وتعالى : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » .

وكثير من المفسرين يذهبون إلى أن المراد بالكتاب هنا هو اللوح المحفوظ . ومع التسليم جدلا بأن المراد هنا هو القرآن . فليس معنى هذا أن القرآن الكريم سيذكر كلاً كبيرة أو صغيرة من الجزئيات ، أو الفروع التي وكل أمرها إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فهو لم يفرط في أي شيء من الأصول أو القواعد أو الأحكام التي تحتاج إليها الأمة في أعمالها الفردية أو الجماعية .

ويحتجون بقول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث : « ما بلغكم عني فاعرضوه على القرآن ، فما وافقه فإني قد قلته ، وما عارضه فلم أقله ، وكيف

أعارض القرآن الكريم وبه هداني الله » ؟. وهذا الحديث قد ردّه علماءُ الحديث وحكموا بأنه حديث موضوع .

وبعد هذا نأتي إلى بيان مهمة السنة لأنه يعين أكبر إعانة على إثبات أنها وحي، وانها متممة للقرآن ، فالعبادات كلها جاءت في القرآن بذكر أسمائها ، أو بملامح عامة لها ، ثم إن بقية التفاصيل والجزئيات قد تكفلت بها السنة ، والقرآن عندما يقول : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » .

يقرر أصل الحكم ، ولكنا لا نعرف كيف تُقطع الأيدي هنا .. هل نقطع من كل منهما أيديهما ، أو نقطع من كل واحد منهما يده ؟ وما اليد التي تقطع أهي اليمنى أم اليسرى ؟ ومن أين تقطع : من الكوع أو من الذراع ؟ كل هذا جاءت السنة فتكفلت به وشرحته ، فكانت مرتبطة بالقرآن متممة له ، وما يتمم الشيء يُلحق به ، فلها إذن قوة هذا الوحي الإلهي . ونحن نجد أن القرآن الكريم يقول « الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم » .

ولقد جاء صحابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما سمع هذه الآية ، وقال له : يا رسول الله ، كيف وما منا أحد إلا وقد ظَلَم ؟. فقال النبي : ليس ذاك ، وإنما الظلم الذي أراده الله هو الشرك . فقد خصص النبي هنا أمراً عاماً . ثم إن من مهمة السنة أيضاً أن تأتي بأحكام لم ينص عليها القرآن ، وإن كانت تتعارض مع القرآن .

القرآن يقول ضمن المحرمات : « وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف» .

ثم يأتي الحديث فيضيف إلى ذلك أنه يحرم أن يجمع الإنسان بين المرأة وعمتها ، أو بين المرأة وخالتها ، فمن أي مصدر كنا نستفيد هذا ؟. وهل جاء به « محمد » من عنده فيكون قد اخترع في الدين ما ليس منه ؟ أو أن هذا وحي من الله سبحانه وتعالى ؟ ومن الأشياء التي بينتها السنة ولم تذكر في القرآن ما جاء في الحديث عن البحر : « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » . فكيف نفهم هذا إلا من الحديث؟. وفيما يتعلق بالمحرمات من المطعومات نجد أن أغلب هذه المحرمات قد ثبت تحريمها بالسنة ولم يثبت بالقرآن ، وذلك لأن هناك قدراً كبيراً مـــن

التشريع ومن الأحكام الإلهية لم يتسع لها عموم القرآن حتى ينص على تفاصيلها ، وجاءت السنة فتكفلت ببيانها ، وهذا دليل على أن السنة جزء من الوحي ، وإلا لكانت السنة اختراعاً من عند الرسول عليه الصلاة والسلام .

بقي شيء ، وهو أننا تكلمنا عن مكانة السنة ومنزلتها في الوحي ، وأوضحنا الهجوم الخبيث الذي تتعرض له السنة من أعدائها ، وبقي أن نتكلم عن واجبنا نحو السنة ... فما واجبنا نحوها ؟.

واجبنا أن نعجل بإنشاء « دار الحديث » للعناية الواسعة بعلوم الحديث والسنة ، ويجب أن نعنى بتحفيظ أولادنا الحديث كما يفعل أشقاؤنا في شمال أفريقيا ، ويجب أن تتسع الدراسات الخاصة بعلوم الحديث والسنة في كليات الجامع الأزهر الشريف ومعاهده الدينية ، ويجب على المجلات الإسلامية في مصر وغيرها من بلاد الإسلام أن تتسع عنايتها بالبحوث الدائرة حول السنة والحديث .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

الجهاد والقوّة



أسباب النصر

السؤال : **ما هي الأسباب التي تحقق لنا النصر على أعدائنا ؟.**

الجواب :

كأن بيننا وبين نصرنا موعداً دانياً غير بعيد : « إنهم يرونه بعيداً ، ونراه قريباً » ، « ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا » ، لأن الله جل جلاله قد كتب علينا أن نخوض معركة مصير أو حرب تحرير ، نسترد بها ديارنا ، ونأخذ ثأرنا ، ومهما كان الواجب علينا ثقيلا ، والطريق أمامنا طويلا ، والثمن لذلك جليلا ، فلا بد لنا من الالتزام والإقدام : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

وإذا كنا قد قضينا بعد نكبتنا سنوات عجافاً غير خفاف ، بذلنا فيها جهداً مريراً للاعداد والاستعداد ، وتذاكرنا فيما بيننا أسباب النصر وعوامل الفتح ، فإننا بين يدي ما يسوقه الينا قدرنا من موعد لتحرير أرضنا وتطهير عرضنا ، لا بد لنا من أن نبدىء ونعيد فيما يلزمنا ، حتى نكون أهلا للنهوض بهـذا الواجب المقدس ، الذي يتعلق به وجودنا ومجدنا : « وعلى الله قصد السبيل ، ومنها جائر » ، « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .

ولا شك أن أول أسباب النصر هو الإيمان بالله بارىء النسم ، وباعث الأمم ، ومحيي الهمم ، وذلك لأن الحق جل جلاله يقول : « إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور » . ويقول : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » . ويقول : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » . وليس الإيمان بالله مجردَ نطق بكلمة التوحيد ، أو ترديد لألفاظ

وعبارات ، وإنما الايمان بالله اعتقاد راسخ وطيد بأنه قيوم السموات والأرض، واستجابة له فيما أمر به ودعا إليه ، وتقيدٌ بما حث عليه من أسباب العـــزة والسيادة ، واجتماع على دعوته وطريقته ، واعتصام صادق واثق بحبله القوي المتين ، ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم .

ومن أسباب النصر موالاة الإعداد ومواصلة الاستعداد ، دون أي استخفاف أو استهانة بقوة الأعداء ومكرهم وغدرهم ، ودون أي استرسال مع هواتف الخيال والأوهام، والله عز شأنه يقول لنا : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون » .

وهذا التوجيه إلى الإنفاق المشار إليه في الآية الكريمة السالفة ، يعلمنا أن كل فرد في الأمة له سهمه المباشر أو غير المباشر في المعركة ، فمن استطاع حمـــل السلاح تقدم وتصدر ، ومن لم يستطع أيّد وآزر ؛ ومهما يكن موقع الفرد من وطنه فإنه يستطيع أن يخدم معركة مصيره ومصير قومه ، بما يعاون عـــلى الفوز والنصر ، ولكل ثوابُه وأجره ، وصلوات الله وسلامه على رسوله حين قال : « من جهز غازياً فقد غزا ، ومن خلف غازياً في أهله بخير فقد غزا » . ولقد كان رسول الله يرسل بعض الصحابة في مهام تتعلق بمصلحة الأمة يميناً أو شمالا ، ولا يحضر هؤلاء القتالَ بالفعل، ومع ذلك يعدهم الرسول مجاهدين، ويعطيهم نصيباً كنصيب المجاهدين ، لأن الجميع كانوا في خدمة الأمة وخدمة المعركة ، بطريق مباشر أو غير مباشر ، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .

ومن أسباب النصر استدامة اليقظة والانتباه والحذر ، فالحرب خدعة ، كما قال سيد البشرية محمد صلوات الله وسلامه عليه ، والعدو ماكر خادع لئيم ، لا يتورع ولا يرتدع ، ولا هو يأخذ شيئاً إلا في ليل الخديعة والغدر ، والقرآن المجيد يقول : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا » . ويقول : « وخذوا حذركم » . ويقول : « ودَّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة » ويقول النبي عليه الصلاة والسلام : « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه ، كلما سمع هيعةً طار إليها » .

ومن أسباب النصر الاستجابة السريعة العاجلة حين النداء إلى النفير ، وحين تعلو صيحة البدء في الجهاد والنضال ، دون تقاعس أو تخلف أو إبطاء ، ولنذكر أن الحق جل جلاله يعرّض تعريضاً شديداً قاسياً بالذين يتوانَوْن في هذا المجال ، أو يتأخرون عن المبادرة إليه ، فيقول : « يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ؟ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ، فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ، إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ، ويستبدل قوماً غيركم ، ولا تضروه شيئاً ، والله على كل شيء قدير » .

ومن أسباب النصر الائتلاف والوحدة ، مع الطاعة والنظام ، والثبات والإقدام : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، وأطيعوا الله ورسوله ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين » . ويقول التنزيل المجيد : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » .

ومن أسباب النصر إخلاص النية لله ، والعزم على أن يكون جهادنا في سبيل الله : سبيل الحرية والعزة والكرامة ، سبيل الدفاع عن الوطن والعرض والحرمات والمقدسات ، والرسول هو القائل : « والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم أحدٌ صابراً محتسباً ، مقبلا غير مدبر ، فيُقتل إلا أدخله الله الجنة » . وهو القائل : « من قُتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون عرضه فهو شهيد ، ومن قتل دون قومه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد » .

ومن أسباب النصر استشعار العزيمة العميقة الصادقة على مواصلة الجهاد ، حتّى النصر أو الاستشهاد ، مع إخلاص التوكل على الله ، بعد استكمال كل الأسباب المهيئة لنصر الله : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ، ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ، فتربصوا إنا معكم متربصون » .

هذا هو الطريق ، وهذه هي أسباب النصر والتوفيق ، وما على الله بعزيز

أن يمن على المجاهدين المؤمنين بنصر مبين من عنده ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

الإيمان والجهاد

السؤال : **ما أثر الإيمان في الجهاد والنصر ؟.**

الجواب :

الدارس للاسلام يستطيع أن يقرر أن الحياة هي الجهاد ، وأن الجهاد هو الحياة ، لأن الإسلام أمر أتباعه بأن يكونوا دائماً في جهاد وعلى جهاد . أمرهم بأن يكونوا على جهاد قبل أن يلقوا أعداءهم أو يقابلوا محاربيهم ، فقال عزّ من قائل : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » ، وقال : « خذوا حذركم » . وأمرهم بالجهاد حين لقاء الأعداء ، وحين دخول حومة المعركة ، فقال لهم : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » ، وقال : « انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله » ، وأمرهم بالجهاد بعد الخروج من المعركة ، وفي هذا جاء أثر منسوب للرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد عاد مع صحابته من إحدى المعارك وهو : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ؛ قالوا : وما الجهاد الأكبر يا رسول الله ؟. قال : جهاد النفس » .

ومن هذا نفهم أن الجهاد ليس فقط حمل السلاح والدخول في معركة ، لأن حمل السلاح وكسب معركة يحتاجان إلى جهاد قبل المعركة ، وجهاد بعد المعركة ، وخاصة أن المسلمين وهم القوامون على الحق والعدل في هذا الوجود يحتاجون أو يضطرون إلى أن يشهدوا أكثر من معركة ، وهذا الجهاد يتسع حتى

يشمل النفس بعواطفها ومشاعرها ومعنوياتها ، والمال لأنه قوة تهيء السلاح والعتاد ، واللسان لأنه آلة تقول الكلمة الطيبة الموفقة .

ومن هنا ورد عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ما يفيد أن المؤمنين يجاهدون الكفار بأنفسهم وأموالهم وألسنتهم ، وقد وردت لهذا الحديث روايات لعل أشملها ما روي من أن الرسول عليه الصلاة والسلام ، قال : « جاهدوا الكفار بأنفسكم وأموالكم وألسنتكم » ، ويخيل إلي أن الجهاد بالنفس في هذا النص النبوي الكريم لا يقتصر على بذل الدم والشهادة ، وإنما يشمل أيضاً الجهاد بالنفس عن طريق تصفيتها وتطهيرها ، وتسليحها بقوى الخير والفضيلة والعقيدة والإيمان واليقين .

كما أن الجهاد بالمال واللسان والسيف يكون ردءاً لهذه النفوس القوية الثابتة على الحق المؤمنة بوعد الله ، ولهذا نرى في حديث القرآن الكريم عن الجهاد عجباً ، إنه لا يكاد يتحدث عن الجهاد إلا ويشير إلى الإيمان ، إما في بدء الحديث ، أو في خلاله ، أو في نهايته ، فالله تعالى يقول : « إن الله يدافع عن الذين آمنوا ، إن الله لا يحب كل خوان كفور » . فعلق دفاعه على أن يكون هناك مؤمنون يستحقون هذا الدفاع الالهي العظيم ، وعندما تحدث القرآن عن وعد الله الأكيد الذي يوفي به خير الوفاء قال : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » ، فكأن صفة الإيمان شيء بدهي مفروغ من تقريره وثبوته ، وما يكاد القرآن يتم هذه الآية حتى يعرض عقبها في آية أخرى مظاهر هذا الإيمان فيقول : « التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن النكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين » ، فبدأ حديث الجهاد هنا بالإيمان ، وختمه بالإيمان « وبشر المؤمنين » .

فهذا الإيمان جوهره عقيدة واحدة اذا استطعنا أن نملأ بها صدورنا وعقولنا ، واستطعنا أن نملأ بها صدور المجاهدين وعقول المناضلين والمشتركين في المعركة فقد ضمنا فعلا النصر الأكيد ، ولو قل العدد وقل العتاد أمام كثرة معادية ، أو أمام سلاح مهاجم لنا ، ما دام الإنسان يؤمن إيماناً وطيداً بأن الحياة مرحلتان ، وأن المرحلة الأولى تنتهي بسرعة ، وأنها سميت من أجل ذلك عاجلة ، وأن

الحياة الآخرة هي الباقية الدائمة ، وعلم المؤمن لكي يجتاز هذه الحياة العاجلة الأولى إلى الحياة الأخرى البالية ، بسلام واطمئنان وضمان للنعيم ، أن يدفع ثمناً لدخول هذه الحياة الأخرى، ولو أن المجاهد خرج إلى المعركة وهو مؤمن حقاً انه ان انتصر وفاز ورجع بالنصر فهو غاز في سبيل الله ، وإن سقط شهيداً في المعركة فهو منقول الى نعيم خالد دائم ، لكان خير المنتصرين .

ولكي تغرس هذه العقيدة في قلوبنا لا بد لها من تربية ، ولا بد لها من صلة دائمة بالله ، وبكتاب الله ، وسنة رسول الله ، وأدب المسلمين من سلفنا الصالح ، حتى تكون حياتنا قبل المعركة في جهاد النفس معواناً على تحقق هذه العقيدة ، فقد يعيش المجاهدون سنوات طوالا لكي يثبتوا ساعات في معركة يسجلون بها خلد الأبد ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

دروس من جهاد المؤمنين

السؤال : **نريد أن نعرف صورة – ولو كانت موجزة مركزة– عن مراحل الجهاد والكفاح التي تعرض لها المسلمون على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وعن المتاعب التي احتملوها ، لعل فيها دروساً تفيدنا في جهادنا الموصول ضد أعدائنا ، ولتكون نبراساً لنا في كفاحنا الطويل .**

الجواب :

مداولة الأيام :

يقول الله عز وجل : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » والمراد بالأيام هنا أزمنة النصر والغلبة ، ونداولها : أي نصرفها وندبرها بين الناس ، والمثل العربي القديم يقول : « يوم لك ويوم عليك » . ولو راجعنا تاريخ الحروب

والمعارك في قديم التاريخ وحديثه ، لما وجدنا قائداً من القواد — مهما كانت بطولته وعبقريته — ينتصر على طول الخط ، أو طول الطريق ، من بداية المعارك إلى نهايتها ، دون تعب أو نصب ، ولما وجدنا شعباً من الشعوب ظل دائماً يكسب ويفوز في المعارك تباعاً ، دون عرق أو دم .

وإذا كنا نتخذ التاريخ الإسلامي لنا مثلا أعلى ، فإن هذا التاريخ نفسه ، ببطولاته ومفاخره ومآثره يرينا أيضاً أن سنة الله لم تتبدل . وإذا كان الإسلام قد انتصر في معاركه التي شنها عليه أعداؤه والمتربصون به الدوائر ، واستطاع أن ينشر كلمته بين الناس في المشارق والمغارب ، وأن يوطد مبادىء الحق والعدل والخير التي جاء بها ، فإن الطريق أمامه لم يكن مفروشاً بالورود ، بل لقد كانت هناك سلسلة طويلة من الجهاد القوي العنيف ، الذي ذاق فيه المسلمون مرارة الهزيمة والانكسار ، كما فازوا بنعمة الفوز والانتصار ، وكم من متاعب ومصاعب اعترضت طريقهم ، وهم يمارسون صراعهم المتعدد الجوانب والأشكال ، فهو تارة صراع بين فكرة وفكرة ، وتارة صراع بين جيش وجيش ، وتارة صراع بالسلاح والعتاد ، وتارة صراع بالكلمة ، أو المقاطعة ، أو الحصار .

وقد يكون من الخير أن نستعرض في إيجاز وتركيز صوراً من هذا الصراع ، لنرى كيف احتمل المسلمون الأولون مرارة الإنكسار في صبر ورجاء في المستقبل ، وتعال على اليأس والقنوط والاستسلام ، لأن ربهم تبارك وتعالى يقول لهم : « ولا تيأسوا من روح الله ، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

الصراع بين الخير والشر :

وحينما بعث الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ، ليدعو الناس بدعوة الإسلام ، بدت هذه الدعوة غريبة في نظر كثير من الناس ، لأنهم قد ألفوا المظالم والآثام ، وألفوا التحلل الأخلاقي والتميع النفسي ، وألفوا استبداد الأقوياء بالضعفاء ، وتحكم الأغنياء في الفقراء . والإسلام قد جاء ليهدم كل هذه

المظالم والمآثم ، فكان من الطبيعي أن لا يتبع النبي صلى الله عليه وسلم في أول الأمر إلا عدد من الضعفاء ، الذين أحسوا بالظلم من المجتمع الطاغي المتحلل، الذي كان موجوداً قبل بعثة النبي محمد عليه الصلاة والسلام ، ومنذ البداية قام صراع عنيف بين الذين آمنوا بالإسلام ودخلوا فيه ، والذين تمردوا عليه ، ووقفوا يقطعون عليه طريقه .

الثبات على العقيدة :

وأخذت الأكثرية الكافرة المشركة تقاوم الأقلية المؤمنة المهتدية بنور الله عز وجل ، وتفننت تلك الأكثرية الطاغية في تعذيب المؤمنين واضطهادهم ، وكان المشركون يتوهمون أنهم إذا قضوا على رأس الدعوة ، وهو سيدنا محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فإنهم يستطيعون أن يتخلصوا من الدعوة نفسها ، ومن الذين دخلوا فيها وأخلصوا لها .

لذلك أخذ هؤلاء المشركون يساومون النبي عليه الصلاة والسلام ، فهم يعرضون عليه المال تارة، والسلطان تارة ، والعلاج الطبي تارة أخرى، ولكن هذه المساومات كلها قوبلت من الرسول بكلمته الحاسمة: « والله لو وضعوا، الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ، ما تركته، حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .

ولقد روي كما جاء في كتاب « الإسلام والاقتصاد »(١) أن عتبة بن ربيعة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم نائباً عن المشركين . وقال له مغرياً ومتودداً : يا ابن أخي ، إنك منا حيث قد علمت ، من السِّطَة (أي الطيب) في العشيرة ، والمكانة في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفّرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها ، لعلك تقبل منا بعضها .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : قلْ يا أبا الوليد أسمع .

---

(١) انظر كتابي « الإسلام والاقتصاد » ص ٢٧٢ طبعة سنة ١٩٦٥ م .

فقال عتبة : يا ابن أخي ، إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا ، حتّى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد شرفاً سوّدْناك علينا (أي جعلناك سيداً فينا) ، حتّى لا نقطع أمراً دونك . وإن كنت تريد مُلْكاً ملّكْناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيّاً (أي شيئاً من الجن) طلبنا لك الطب ، وبذلنا أموالنا حتّى نبرئك منه .

وأجمل الرسولُ الصمتَ حتى انتهى عتبة من عروضه لوقف الدعوة المصلحة المستعدة . فلما سكت عتبة قال له : أوقد فرغت يا أبا الوليد ؟.

قال : نعم .

فقال النبي عليه الصلاة والسلام : فاسمع مني : « بسم الله الرحمن الرحيم . تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً ، فأعرض أكثرهم ، فهم لا يسمعون » . ومضى النبي عليه الصلاة والسلام يتلو من سورة «فصلت » آيات ربه البينات ، الزاجرات لمن طغى وبغى ، المبشرات لمن آمن واهتدى ، حتّى بلغ قول الله تعالى : « فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقةً مثلْ صاعقة عاد وثمود » .

وكأنما أحس عتبة أن الصاعقة تكاد أن تأخذه ، فولى إلى قومه مدبراً ، وأخذ يحدثهم عن عزم الرسول وإبائه كلَّ عرض يكون على أساس تركه لدعوة الإسلام .

الصحيفة والكفار :

وبعد أن يئس المشركون من إغراء الرسول ، أو فتنة اتباعه ، لجأوا إلى الاضطهاد والحصار والمقاطعة ، واستطاع المشركون بجبروتهم وعنتهم أن يحاصروا المسلمين وبعض أنصارهم وأقاربهم ، داخل مكان محصور بين جبلين إلى جوار مكة ، وهذا المكان يسمى « شعب أبي طالب » ، والشعب هو واحد الشعاب ، وهي الوهاد والطرقات بين الجبال ، حيث كانت تسكن بعض عشائر قريش .

وأراد المشركون أن يزيدوا في طغيانهم وبغيهم ، فكتبوا بمقاطعتهم وثيقة سُميت في التاريخ الإسلامي باسم « الصحيفة » وعلقوا ، هذه الصحيفة داخل الكعبة ، لتكسب الصحيفة نوعاً من القداسة والجلال ، فقد كانت الكعبة معظّمة في نظرهم منذ قديم الزمن . ونصوا في هذه الصحيفة على أن لا يبايعوا المسلمين ، ولا يُدخلوا إليهم شيئاً من المعونة ، وقطعوهم عن الأسواق ، ولم يتركوا طعاماً ولا مبيعاً إلا بادروا إليه واشتروه قبل أن يصل إلى أيدي المسلمين ، ونصوا أيضاً على أنهم لا يتزوجون منهم ، ولا يزوجونهم ، ولا يقبلون منهم صلحاً ، ولا تأخذهم بهم رأفة ، حتى يُسْلموا النبيَّ صلى الله عليه وسلم لهم ليقتلوه . أي أنهم قطعوا كل صلة تجارية واجتماعية ومادية وأدبية وانسانية بين الناس وبين هؤلاء المسلمين .

ابتلاء وصمود :

وهذا الحصار الأليم العنيف كان لوناً قاسياً من ألوان الاختبار والابتلاء ، والصراع بين الحق والباطل ، وهو لم يستمر يوماً ، أو أسبوعاً ، أو شهراً ، أو عاماً ، فقط ، بل بقي ثلاثة أعوام ، حتى اشتد الامتحان على المؤمنين ، ولكنهم صبروا له موقنين ، وبلغ الأمر بالمسلمين في الحصار أنهم أكلوا أوراق الشجر ، وأكلوا كلَّ شيء رطب ، حتى ذكر أحدهم أنه داس ذات ليلة على شيء رطب ، فرفعه بيده وأكله ، دون أن يتبين حقيقة ذلك الشيء الرطب .

ويذكر ثان أنه وجد تحت قدميه شيئاً يقعقع ، فمد يده فالتقطه ، فإذا هو قطعة جلد يابسة ، فأخذها وغسلها ، ثم شواها ثم دقها وسفها ، وذلك كله من شدة الجوع وقلة الطعام .

ومع ذلك بقي هؤلاء المحاصرون المستضعفون على إيمانهم ويقينهم ، وحسن اعتقادهم أن الليل مهما طال سيعقبه نهار مشرق مضيء . وأن الشمس قد تحجبها السحب ثم تبدو ساطعة من جديد ، وأن النصر هو مصير المؤمنين الصابرين .

واشتد الأمر ، حتى أن بعض المشركين الكافرين – كالمطعم بن عدي – رأى أن هذا الحصار فيه ظلم وإجحاف وإسراف ، ولكنه لم يستطع في أول الأمر أن يقف في وجه قومه كلهم ، فكان يأتي في وسط الليل ، ويحضر إبلا له ، ويحملها بالطعام والزاد ، ويوجهها إلى ناحية الشِّعْب ، ثم يضربها على جنوبها ، فتمضي في طريقها نحو المسلمين ، فيأخذونها وينتفعون بها بعض الانتفاع . وهذا العمل من « المطعم » يدل على أن بعض أصحاب الوثيقة الطاغية كانوا يدركون مدى الجور أو الظلم الذي ترتب على هذه المحاصرة ، ولذلك كانوا يحاولون تخفيف آثار هذه المقاطعة ، ومن الذين فعلوا مثل المطعم بن عدي هشام بن عمرو بن الحارث .

وشاءت إرادة الله بعد ثلاث سنوات من الحصار أن يرسل حشرة «الأرَضَة» ، وهي سوسة تأكل الخشَب والورق ، وأن يسلِّطها على الصحيفة ، فتأكل جميعَ الشروط ، الباغية المكتوبة فيها ، ولا تبقي منها إلا كلمة : « باسمك اللهم » ، وهي التعبير الذي تعود العرب منذ القديم أن يفتتحوا به عهودَهم ومواثيقهم .

وأوحى الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم بما حدث للصحيفة ، فأرسل النبي عمّه أبا طالب ليخبر القوم بتلك الحادثة العجيبة ، لعلهم يقلعون عن غيهم ويرتدعون ، ولما دنا أبو طالب من المشركين ظنوا أنه جاء ليعلن استسلامَ النبي ومن معه ، وخضوعَهم لشروط الكافرين ، ولكن أبا طالب قال لهم مستدرجاً :

قد جرتْ بيننا وبينكم أمور لم نذكرها لكم ، فأتوا بالصحيفة التي فيها مواثيقكم ، فلعله يكون بيننا وبينكم صلح . وإنما قال أبو طالب ذلك ، ولم يخبرهم بما حدث للصحيفة ، خشيةَ أن ينظروا في الصحيفة قبل أن يأتوا بها فينكروها . وأتَوْا بالصحيفة . وهنا أخبرهم أبو طالب بأن النبي أخبره بأن الله تعالى قد أخبره بأن الأرضة قد أكلت كلَّ ما في الصحيفة ، ما عدا كلمة : « باسمك اللهم » . وفتحوا الصحيفة فوجدوا الأمر كما قال ، وكان ينبغي لهم

أن يرتدعوا ، ويرجعوا عن غيهم ، ولكنهم عاندوا وقالوا : إن هذا من سحر محمد .

على أن طول المدة ، مع حادثة الأرضَة، مع القرابة التي كانت موجودة، بين هؤلاء وهؤلاء ، كل هذه كانت أسباباً أخذتْ تزلزل كيانَ القوم ، وتثير الاضطراب بينهم ، فأخذ رجال منهم يندمون على ما حدث ، ويقولون: هذا بغي منا على إخواننا وظلم لهم . ومن هؤلاء المراجعين لأنفسهم هشام بن ربيعة بن الحارث — كاتب الصحيفة — والعاص بن هشام ، وزمعة بن الأسود، والمطعم بن عدي ؛ وقام هؤلاء ينادون بنقض الصحيفة ، فحدث الهرج والاختلاف بين القوم ، وسارع بعضهم إلى الصحيفة ، ونزعها ثم مزّقها .

وهنا انتهى الحصار ، وخرج المسلمون ومن معهم من الشِّعْب ، خرجوا ليستمروا في نضالهم المؤمن ، وصراعهم الموصول ضد الطغيان والكفران ، ولم يخرجوا ليستسلموا أو يغيِّروا طريقهم ، أو يفرطوا في مبادئهم ؛ وهذا الحصار الذي استمر ثلاث سنوات بعد أول محنة جماعية تعرض لها المسلمون ومَنْ حالفهم ، وقد احتملوها احتمال الصابرين ، فلم تضعف لهم إرادة ، ولم تهن لهم عزيمة ، ولم يتغير لهم هدف ، ولم يقولوا لأنفسهم متعللين : لقد حوصرنا ، وطال علينا الحصار ، وحوربنا في أرزاقنا وحرياتنا ، فلا لوم علينا إذا سلّمنا . لم يقولوا ذلك ، بل ظلوا على إيمانهم ثابتين ، وكانوا على استعداد قوي للاحتمال أكثر مما احتملوا ، والصبر أكبر مما صبروا ، والصراع أكثر مما صارعوا .

الهجرة :

يعود المسلمون إلى المسير على طريق الإيمان ، ويعود المشركون إلى مزيد من العدوان والطغيان ، حتى تضيق مكة على المسلمين ، ويحسون تمامَ الإحساس أن مقامهم فيها غير محتمل ولا ميسور ، ويرون أنه لا بد من الهجرة ، وإلى أين تكون الهجرة ؟... إلى المدينة التي استطاع الرسول بتوفيق الله أن يكسب فيها أتباعاً وأنصاراً .

وهكذا استطاع المشركون بجبروتهم وسلطانهم الباغي أن يرغموا المسلمين على الهجره من مكة إلى المدينة ، وأن يضطروهم إلى أن يتركوا وطنهم الأول الذي شهد ميلادهم ونشأتهم وذكرياتهم ، وفيه ديارهم وعقارهم وممتلكاتهم .

وفعل الرسول الكريم ما يفعله القائد العظيم ، ففتح لأتباعه أبواب الهجرة ، وبقي هو في مكة ليطمئن على هجرة أتباعه وسلامتهم من جهة ، ولينتظر أمر الله تعالى له ، من جهة أخرى ، ثم خرج بعد ذلك ، وليس معه إلا أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

فهل كان خروج النبي صلى الله عليه وسلم من موطنه مكة نوعاً من الاستخفاف بالوطن، أو الاستهانة بأرضه الغالية،ومقدساته السامية؟.معاذ الله، ولكنه الاضطرار والإرغام،فخرج الرسول من مكة وهو متعلق بها،مشوق بها، وترجم هو عن ذلك الشوق حينما أصبح بظاهرها ، فقال يخاطبها : « والله إنك لأحب بلاد الله إلى الله ، والله إنك لأحب بلاد الله إليّ ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت » . وحينما اشتد الحنين بالرسول وهو في طريق هجرته إلى المدينة أنزل الله تعالى عليه قوله : « إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد » . فأدرك الرسول أن الله سبحانه وتعالى سيفتح له باباً للعودة إلى تحرير موطنه العزيز .

دروس من الهجرة :

إن خروج المسلمين في الهجرة يعطينا صورةً من صور الاضطرار إلى الانسحاب الوقتي ، أو ترك قطعة من الوطن لفترة معينة ، تعقبها عودة عازمة صارمة لتحرير المسلوب واسترداد المغصوب .

وقد ينظر قصير النظر إلى حادث الهجرة على أنه فرار من تبعة ، أو هزيمة تشين ، مع أن الهجرة كانت خطة مرسومة ، لأن المدينة قد آمن منها كثير ، وصار للاسلام فيها ظهر وسند ، فتطلع الرسول بتوجيه من ربه جل جلاله إلى المدينة ، ليتخذ فيها نقطة ارتكاز ، ومركزاً للقيادة ، وبداية لإنشاء مجتمع

إسلامي ، تتوافر له مقومات الدولة الفتية القوية ، وهناك يستطيع أن ينظم جيشه ، وأن ينسق خطته ، وأن يشرع بعد ذلك في الانتصاف ممن آذوه واضطهدوه ، وأخرجوه والذين معه من موطنهم .

ومما يدل على نجاح هذه الخطة أنه لم تمض ثمان سنوات حتى رأت الدنيا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يعود في عشرة آلاف من أتباعه إلى مكة فاتحاً بلا معركة ولا حرب تذكر ، وتمَّ النصر الذي مهدت له الهجرةُ والخروج من الوطن ، ونزل قول الله تبارك وتعالى : « إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، فسبِّح بحمد ربك واستغفره ، إنه كان تواباً » .

قد نستطيع من دراسة حادث الهجرة أن نفهم أن المجاهدين قد يضطرون في بعض مراحل الجهاد والنضال إلى أن يتركوا بقعة من البقاع ، أو موضعاً من المواضع ، وهو عزيز على أنفسهم ، تحت قهر لا يطيقونه ، أو عدوان قوة تربو على قوتهم أضعافاً مضاعفة ، ثم يعاودوا الكرة لاسترداد ما تركوه .

وتم الهجرة ، ويستقر الرسول مع أصحابه في المدينة ، ويشرع في إعداد الجيش الإسلامي المؤمن ، ويحـاول النبي عليه الصلاة والسلام أن يتعرض للقوافل التجارية التي يسيِّرها المشركون بين مكة والشام ، لأن المدينة تقـع بينهما ، وهو يريد بذلك أن يستولي على ما يمكنه الاستيلاء عليه كتعويض عن جزء من الخسائر التي خسرها المسلمون ، عندما هاجروا من مكة إلى المدينة ، لأنهم خرجوا من مكة لا يحملون شيئاً ، فقد تركوا أموالهم وديارهم وعقارهم ، وكل عزيز عندهم ، فكان من الطبيعي – لا من البغي ولا من العدوان – أن يقدم على التعرض لقوافل المشركين التجارية .

غزوة بدر :

وتعرَّض النبي فعلا لإحدى هذه القوافل ، ولكنها أفلتت من أيدي المسلمين ، وما أن سمع المشركون بهذه المحاولة حتى خرجوا – برغم نجاة القافلة – في

جيش طويل عريض ، يريدون به تهديد المسلمين وإذلالهم ، فوقف المسلمون وعلى رأسهم رسولهم وقفةَ البطولة والشجاعة أمام جيش المشركين .

واستفز المشركون جيش المسلمين فاندلعت نار الحرب ، وكان عدد المسلمين ثلثَ عدد المشركين ، ولكنهم انتصروا بإيمانهم وثباتهم ، وحرصهم على الشهادة ، وعدم مبالاتهم بالموت ، واستخفافهم بالجراح والآلام في سبيل الله وفي سبيل العقيدة ، مع أن الظروف التي أحاطت بغزوة بدر لم تكن تعاون في ظاهرها على تحقيق النصر ، فالمسلمون قلة ، والمشركون كثرة ، والسلاح ضئيل بأيدي المسلمين كثير وفير بأيدي المشركين ، ووسائل الانتقال قليلة عند المسلمين كثيرة وفيرة عند المشركين ، والمسلمون لم يخرجوا وفي نيتهم الحرب ، بل خرج من خرج منهم وهم يحسبون أن الأمر لا يخرج عن الاستيلاء على القافلة ، وهذا عمل ميسور ، ومع ذلك كله صنع الإيمان الوطيد صنعتَه ، فغلب المسلمون وانتصروا .

غزوة أحد :

ثم مر عام اضطر بعده المسلمون إلى الالتقاء مع المشركين في غزوة أحد ، وتحول النصر الهائل الرائع الذي شهدناه إلى هزيمة مؤلمة في غزوة أحد ، وكان ذلك بسبب عصيان التوجيه الصادر من القائد ، وهو رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فقد أمر الرماةَ بالسهام والنبال أن يحموا ظهر الجيش من الخلف من فوق الجبل ، وأمرهم أن لا يتركوا أماكنهم مهما كانت النتيجة ، إلا اذا أمرهم ، وبدأت المعركة ، وفي المسلمين يومئذ عدد وفير وعزيمة ، وتم النصر سريعاً للمسلمين ، وأخذ المشركون يفرون هاربين منهزمين ، وشرع المسلمون يجمعون الغنائم والأسلاب من أرض المعركة .

وهنا قال الرماة لأنفسهم : لقد اندحر أعداء الله فما لبقائنا ها هنا معنى ... وحذرهم أميرهم عبدالله بن جبير ، وذكّرهم بأمر الرسول ، ولكنهم في غمرة الفرحة بالنصر الذي رأوه لم يتلبثوا ، ونزلوا إلى ساحة المعركة ، وهنا جاءت النكبة ، فقد سارع فرسان المشركين إلى اعتلاء الجبل من خلف المسلمين ،

وأخذوا يسددون الطعنات إلى ظهور المسلمين ، فانقلب النصر هزيمةً ، وصارت الفرحةُ حزناً عميقاً .

فقد أصيب الرسول عليه الصلاة والسلام وجرح ، وانكسرت بعض أسنانه ، وكسرت الخوذة التي كانت على رأسه ، ودخلت حلقتان في وجنته ، ومع ذلك كان يقول : أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب .

وعاد المسلمون إلى المدينة بجراحهم وهمومهم ؛ ولكن هل كسرت الهزيمة من العزائم ؟. هل أثرت النكسة في الإيمان ؟. هل ركن المسلمون عقب ذلك إلى اليأس والقنوط .

كلا ، بل من العجيب الرائع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر في اليوم التالي للمعركة – مباشرة – بأن يخرج المجاهدون في أثر العدو ، يتعقبونه ويطاردونه . وأمر الرسول بأن يقتصر هذا الخروج على الذين اشتركوا في معركة أحد بالأمس ، فجاءه جابر بن عبدالله يتوسل إليه أن يأذن له بالخروج معه ، لأن أباه – وهو عبدالله بن عمرو بن حرام – قد نال الشهادة بالأمس في معركة أُحد ، فسمح له النبي تكريماً لجهاد أبيه ، وتطييباً لخاطر جابر .

حمراء الأسد :

خرج هؤلاء المسلمون على الرغم من جراحهم ، وعلى الرغم مما أصابهم من هزيمة بالأمس ، وخرج معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مرهباً للعدو ، على الرغم من جراحه ، وكان لواء جيشه في غزوة أُحد ما زال معقوداً ، لم يحله ، فدفعه النبي إلى علي ، واستأنف مع صحابته الخروج ، وكأن المعركة ما زالت قائمة ومستمرة .

خرج الرسول مع صحابته ، وساروا حتى بلغوا مكاناً اسمه « حمراءالأسد» ، وهو يبعد عن المدينة نحو عشرة أميال ، وهناك أقاموا ثلاثة أيام ، مظهرين قوتهم للعدو ، ثم رجعوا إلى المدينة .

دروس مستفادة :

يقول مؤرخو السيرة النبوية القدماء : وإنما خرج بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مرهباً للعدو ، وليعلم الأعداء أنه ما زالت بالمسلمين قوة ، وإن الذي أصابهم لم يوهنهم ، ولن يصدهم عن متابعة الخروج لتأديب أعدائهم .

فانظر كيف انتزع الرسول عواملَ الإقدام من بين سحب الهزيمة ؟. وكيف حاول أن يعيد الثقةَ والطمأنينة إلى الجنود ، وكيف أراد أن يثير عواملَ البطولة وحوافز الإقدام فيمن جاهد معه بالأمس ، عن طريق العودة إلى الخروج ، وكيف قصر الخروج على من كانوا معه بالأمس تكريماً لهم وتشريفاً ، اللهم إلا جابر بن عبدالله الذي أذن له بالخروج ممجداً لشهادة والده في الميدان بالأمس.

وانظر كيف سار النبي بالجيش هذه المدة الطويلة ، وانظر كيف أقام في هذا المكان البعيد ثلاثةَ أيام .

إن مما يدل على قيمة هذا التصرف النبوي الحكيم ، وأثره في رفع معنويات الجنود ، ان التاريخ الإسلامي يقص علينا هنا أن معبد بن أبي معبد الخزاعي كان قد رأى خروج النبي مع صحابته إلى حمراء الأسد ، وبعد ذلك تقابل معبد والكفار ، فأخبرهم بخروج النبي مع جيش المسلمين ، وهم يريدون لقاء الأعداء ، فما كاد المشركون يسمعون ذلك النبأ حتى تزعزعت عزائمهم ، وفت ذلك في أعضادهم ، وقد كانوا يريدون الرجوع لاحتلال المدينة نفسها ، والقضاء على من فيها ، فلما علموا بخروج النبي وجيشه انكسرت نفوسهم ، وعادوا إلى مكة متعجلين .

فانظر كيف يعالج الرسول الموقف العصيب الذي يتعرض له المسلمون ؟. وكيف ينتزع من أعمالهم وفي مواقف ابتلائهم عوامل لتحميسهم وتجميعهم وإعادة الروح القوية العالية إليهم .

بل لقد حدث قبيل هذا الخروج ما يؤكد ذلك ، فحينما تغير الموقف في غزوة أحد ، وتحول النصر إلى هزيمة ، بسبب المخالفة للأوامر — كما عرفنا — اغتر

المشركون بنصرهم العاجل الموقوت ، فقال كبيرهم متباهياً مفاخراً بأصنامهم، موجها الكلام إلى المسلمين : أعل هُبَل ، لنا العُزَّى ولا عزى لهم ، وهبل والعزى صنمان من أصنام المشركين ، فكان الرد عليهم بتوجيه النبي هو : الله أعلى وأكبر ، الله مولانا ولا مولى لكم .

يوجههم النبي إلى هذا ، وهو مثخن بجراحه لم تضمد بعد ، ثم يعود المشركون المغترون إلى حديثهم عن كثرة من قتلوا من المسلمين ، ويفاخرون بقتلاهم الذين ماتوا على الشرك ، فيكون الجواب بتوجيه من الرسول أيضاً هو : « لا سواء ، قتلانا في الجنة ، وقتلاكم في النار » .

وكأن الرسول يقول للمسلمين : يجب أن تظلوا على إيمانكم ويقينكم بأن النصر من نصيبكم ، وأن الجنة موعدكم ، وأن الشهادة مبتغاكم ، وأن الحق طريقكم ، وأن نهايتكم خير من نهايتهم : « إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون » . « قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ، ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون » .

وكأن الرسول صلوات الله وسلامه عليه يريد التذكير بالصفة الأساسية التي يجب أن تتوافر في المجاهد ، ليكون قوةً لا تُغلب ، وهذه الصفة هي أن يؤمن بأن المعركة فيها خير له مهما كانت نتيجتها ، لأنه إن انتصر فهو غازٍ في سبيل الله ، وإن مات فيها فهو شهيد في سبيل الله ، وإذا نالته الشهادة ، فهو لم يمت، ولم يصبه العدم ، بل انتقل إلى حياة أفضل وأكرم ، والله تعالى يقول : « ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم الا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين » .

* * *

ونستطيع أن نقول أن خروج الجيش الإسلامي في اليوم التالي لغزوة أُحد – حسب الصورة التي عرفناها – يحقق الأهداف التالية :

أولا : تقوية الروح المعنوية ، لأن الهزيمة إذا تبعها استسلام لها ورضىً بها فإنها تفني البقية الباقية من الروح المعنوية في الجيش .

ثانياً : القيام بأعمال استطلاعية واستخبارية لمعرفة تحركات الأعداء ونواياهم.

ثالثاً : إرهاب العدو وإشعاره بأن الهزيمة لم تكن ساحقة ، وأن الجيش المؤمن ما زال مستعداً للخروج والاشتباك وتحقيق الأهداف .

رابعاً : إشعار المسلمين في المدينة – وهي مركز قيادة المسلمين – بأن المجاهدين ما زالوا قادرين ، وأن هناك من يصلح للحراسة والصيانة والدفاع والهجوم ؛

خامساً : إيجاد الثقة في نفوس المجاهدين ، لأنهم بخروجهم في اليوم التالي يستردون عزائمهم، ويشعرون بطريق عملي أنهم صالحون لمعاودة الاشتباك والنضال .

غزوة الخندق :

ومرت الأيام ، وكسب المسلمون بعد ذلك طائفةً من المعارك ، أحسنوا التصرف في مكاسبها ومغانمها ، ولكنهم عادوا فتعرضوا لموقف عصيب شديد، فيه ألوان من المحنة والاختبار ، وهو غزوة الخندق التي تسمى أيضاً « غزوة الأحزاب » ، لأن المشركين وأحلافهم اليهود والمنافقين تآمروا ضد الإسلام والمسلمين ، وجمعوا جموعهم يريدون بها القضاء على الجيش الإسلامي والمجتمع المؤمن ، عن طريق الحرب الخاطفة المحاصرة المطوقة ، وسارع المسلمون بمشورة من سلمان الفارسي المسلم إلى حفر خندق في الجهات المكشوفة من ظاهر « المدينة »،وتم الحفر بهمة ونشاط،حيث واصل المسلمون العمل بالليل والنهار ، واشترك النبي نفسه في الحفر ، وتعب وجاع ، وربط على بطنه الحجر من شدة الجوع .

وأقبلت أحزاب الشرك والكفران ، وبدأوا الحصار ، واستطاع أفراد منهم أن يقفزوا بجيادهم فوق الخندق ، ولكن المجاهدين المؤمنين كانوا لهم بالمرصاد، فاصطادوهم واحداً بعد واحد ، ولكن الأيام تمر ، والبرد شديد ، والشتاء قارس ، والتموين داخل المدينة محدود ، والحصار عنيف ، ولقد صور القرآن الكريم مبلغَ الأهوال والمخاطر التي تعرض لها المسلمون في هذا الوقت ، فقال في سورة الأحزاب هذه الآيات الكريمة التي ينبغي لنا أن نقف أمامها وقفةَ التأمل والتفكر والتدبر :

« يا أيها الذين آمنوا أذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً ، وجنوداً لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيراً، إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً ، وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض : ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً » .

ثم يقول في السورة نفسها : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ، ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ، من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا ، ليجزي الله الصادقين بصدقهم ، ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم ، إن الله كان غفوراً رحيماً، ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزاً ، وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم (أنزل اليهود من حصونهم) وقذف في قلوبهم الرعب ، فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطأوها ، وكان الله على كل شيء قديراً » .

نعم على الرغم من الحصار والإرهاب والشتاء والجوع ، وعدم تـوازن القوى أو تقاربها ، ظل المسلمون على مقاومتهم وإيمانهم وتماسكهم ، لم يخضعوا

ولم يستسلموا ، وتدخلت عنايةُ الله فأرسلت الريح العاصف فاقتلعت خيام الأحزاب ، واشعلت النيران بينهم ، وأدخلت الرعب في نفوسهم ، ففزعوا إلى الانسحاب هاربين ، وصدق قول الرسول عليه الصلاة والسلام: « نُصرت بالرعب » .

والدرس الذي نستفيده من هذه الغزوة هو قوة الاحتمال ، وطول النّفَس في النضال ، وبذل كل جهد مستطاع ، وتأكيد الإيمان بأن عناية الله تتدخل حينما يستنفد المؤمن كلَّ طاقاته وامكاناته ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم .

كما نقف وقفة متأملة عند قول الرسول وقد رأى الأحزاب تنسحب : « لن يغزونا بعد اليوم ، نحن سنغزوهم » . إن هذه العبارة فيها توجيه قوي إلى الأمل والثقة . وصدق الله رسوله فبعد غزوة الأحزاب أخذ المسلمون يوالون الانتصارات والمكاسب في صراعهم مع جموع الطغيان والكفران .

المشركون ينقضون العهد :

وجاءت بعد هذا غزوة الحديبة التي انتهت باتفاق على وقف القتال عشر سنوات ، وعلى بعض الأمور التي ظنها بعض الناس شديدةً على المسلمين ، ولكنها في باطنها أدت إلى خير كثير ، وبعد وقت قصير نقض المشركون العهد، ونقضوا مبادىء الاتفاق ، فانتهزها الرسول فرصةً مشروعة ، وقام بحملة خاطفة واسعة ، استطاع بها أن يفتح مكة دون معركة ودون دماء ، ونزل قول الله تبارك وتعالى : « اذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً » .

غزوة مُؤْتة :

وقد نستطيع أن نعود إلى الوراء قليلا ، لنشهد موقفاً من المواقف العصيبة التي تعرض لها المسلمون، وذاقوا فيها المتاعب والآلام، ومع ذلك صبروا واحتملوا ، وواصلوا مسيرهم على طريق الحق . هذا الموقف تجلى في غزوة « مُؤْتة » حيث

أرسل النبي صلى الله عليه وسلم الجيشَ لمحاربة الروم الذين يحتلون يومئذ بلاد الشام ، وجعل للجيش ثلاثةَ قواد يتولون القيادة على التوالي ، وهم زيد بن حارثة ، فجعفر بن أبي طالب ، فعبد الله بن رواحة .

وبدأت المعركة ، وكان الكفار أضعافَ أضعاف المسلمين عدداً وعُدَّة ، وجاهد المسلمون أصدقَ الجهاد ، واستشهد القواد الثلاثة واحداً بعد واحد ، واشتد الموقف جداً ، ورأى خالد بن الوليد أن الجيش الإسلامي سيفنى عن آخره إذا بقي في المعركة ، فتسلم لواء القيادة ، وعمد إلى شيء من الحيلة والمخادعة ، حتى أوهم الكفار أن هناك أمداداً تصله تباعاً ، ثم سارع خالد بسحب الباقين من الجيش في حكمة وبراعة ، وعاد بهم إلى المدينة ، ولما قال بعض الناس لهؤلاء العائدين من المعركة : أنتم فررتم . صحح الرسول عليه الصلاة والسلام هذ الخطأ وقال : إنهم ليسوا بالفرارين ، ولكنهم الكرارون إن شاء الله .

وفعلا عاد هؤلاء المجاهدون بعد ذلك ، فجاهدوا الجهاد العظيم ، وفتحوا الفتح المبين .

غزوة حنين :

ولم يقف الجهاد بعد فتح مكة ، بل جاءت غزوة حنين لتكون درساً قاسياً للمسلمين ، فقد خرج المسلمون إليها في جيش ضخم كبير العدد ، حتى قال بعضهم : لن نُغْلَب اليوم عن قلة . وكأن الاغترار بالكثرة جعل فريقاً من المجاهدين لا يبذلون كل ما لديهم من طاقات في القتال ، ولذلك دارت الدائرة على المسلمين ، وتغلب عليهم أعداؤهم ، واشتد الأمر ، وجعل الرسول ينادي في المسلمين : أيها الناس ، إليَّ أين أيها الناس ؟ أنا رسول الله ، وأنا محمد بن عبدالله .

فتجمع فريق من المسلمين حوله ، واشتدت الحرب ، وكثر الطعن والضرب ، وبدأ مصير المعركة يتغير ، وشرع المسلمون ينتصفون لأنفسهم ، فرجحت كفتهم ، واستقام أمرهم بعد أن تعرض للاضطراب بسبب الاغترار ، وفي

غزوة حنين نزل قول الله تعالى : « لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ، ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً لم تروها ، وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين، ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء ، والله غفور رحيم » .

* * *

إن هذه المواقف التي عرضتها في إيجاز وتركيز تتضمن الكثير من العظات والعبر والدروس ، وكل موقف منها يحتاج إلى تحليل وتفصيل ، وقد ينبغي لنا بعد هذا الاستعراض أن نتناولها في مجال أوسع من هذا المجال ، موقفاً موقفاً ، لنعرف تفاصيل كل موقف ، وما فيه من توجيهات ، وبذلك يتأكد في نفوسنا أن الحياة صراع ، وأن المجاهدين عرضة للمتاعب والمشاق، وأن طريق النضال ليس مفروشاً بالورود والرياحين ، وأن الإيمان هو مفتاح النصر ، والموصل إلى الفوز ، مهما طال الطريق، أو تعددت المعارك، أو اختلفت نتائج الجولات، والله تعالى يقول : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » ، ويقول : « والعاقبة للمتقين » .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

غفران الذنوب للشهيد

السؤال : **ما حكم الشهيد التي يستشهد في المعركة وكان لا يؤدي الفرائض؟هل تغفر له ذنوبه ؟.**

الجواب :

لا شك أن التضحية بالنفس في سبيل الله عز وجل هي قمة الأعمال التي

يتقرب بها الإنسان إلى خالقه ، لأن مَنْ ضحى بحياته لوجه ربه يكون قد باع هذه الحياة للعلي الكبير ، بثمن جليل هو الرضوان ونعيم الجنان ، وبسبب هذه التضحية يغفر الله تبارك وتعالى لمن أخلص النية والجهاد في سبيله ، ما يكون قد فرط منه من هفوات أو زلات ؛ وقد نستطيع أن نفهم هذا من قول الله سبحانه في سورة آل عمران : « فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأودوا في سبيلي ، وقاتلوا وقُتلوا ، لأكفرن عنهم سيئاتهم ، ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، ثواباً من عند الله ، والله عنده حسن الثواب » . وتكفير السيئات معنى يفيد غفران الذنوب ومحو الهفوات .

وكذلك يقول الحق جل جلاله في سورة الصف : « يا أيها الذين آمنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ، ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ، ومساكن طيبة في جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم » . فذكرت الآية الكريمة أن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب والمعاصي للمجاهد بنفسه وماله ، ويدخله نعيم الجنة .

ولقد جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسأله قائلا : يا رسول الله ، أرأيتَ ان قُتلتُ في سبيل الله ، أتكفّر عني خطاياي ؟. فقال الرسول صلوات الله وسلامه عليه : نعم ، إن قُتلتَ وأنت صابر محتسب ، مقبل غير مدبر » . أي إذا توافر الإقبال على المعركة دون تردد ، وكان هناك الثبات والصبر ، وصدق النية، وابتغاء وجه الله ، وجاء الاستشهاد وصاحبه مقبل على أعدائه ، غير فارٍّ منهم ولا منهزم أمامهم . فهذا الإقبال الصادق المخلص الموقن يكون بفضل الله سبباً لمحو ما كان على المجاهد قبل ذلك من سيئات أو تبعات .

وكذلك قال سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام : « يُغفر للشهيد كلُّ ذنب إلا الدَّيْن » ، وكأن هذا توجيه من الرسول صلى الله عليه وسلم للمجاهد في سبيل أن يحذر إبقاء دين عليه ،وهو خارج إلى الجهاد في سبيل الله ؛ حتى

يكون مقبلا على ربه بكليته ، وإن لم يستطع رد دينه ، فعليه أن يوصي من يقوم برده وتأديته لصاحبه .

ولقد روى الترمذي وابن ماجه أن النبي صلوات الله وسلامه عليه قد قال : « للشهيد عند ربه سبع خصال: يُغفر له أول دفعة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويُجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار ، :الياقوتة خير من الدنيا وما فيها، ويزوّج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويشفع في سبعين من أقاربه » .

والسنة النبوية يعلّمنا أن الشهادة مراتب ، وأن الشهداء درجات ، ولكنهم مشمولون جميعاً بفضل الله وعونه ما داموا قد قصدوا بابه ، وأخذوا أسبابه ، وتطلبوا بجهادهم واستشهادهم رضاه ورحابه . يقول الرسول : « الشهداء أربعة : رجل مؤمن جيد الإيمان ، لقي العدو فصدق الله حتّى قُتل ، فذلك الذي يرفع الناسُ أعينهم إليه يوم القيامة هكذا — ورفع رأسه حتّى وقعت قلنسوته — ورجل مؤمن جيد الإيمان ، لقي العدو فكأنما ضُرِب جلده بشوك طلح (وهو شجر شديد الشوك) من الجبن ، أتاه سهم غَرْبٌ (أي لا يدري مصدره) فقتله ، فهو في الدرجة الثانية ؛ ورجل مؤمن خلط عملا صالحاً وآخر سيئاً ، لقي العدو فصدَقَ الله حتّى قُتل ، فذلك في الدرجة الثالثة ؛ ورجل مؤمن أسرف على نفسه ، لقي العدو فصدق الله حتّى قُتل ، فذلك في الدرجة الرابعة » .

هذا ولكن اللائق بالمجاهدين الصادقين أن ينشئوا نشأة حسنة ، وأن يسلكوا في حياتهم سلوكاً قويماً ، وأن يعدوا أنفسهم لحياة الجهاد ونعمة الاستشهاد بالإيمان والطاعة والاستعداد ، حتّى يلاقوا ربهم وهم على أسمى ما يستطيعونه من التقوى والطاعة : « إن المتقين في جنات ونَهر ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر » .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

مقاومة الاسلام للاستعمار

السؤال : ما هو منهج الإسلام في مقاومة الاستعمار ؟.

الجواب :

الموضوع هو تبيان منهج الإسلام في مقاومة الاستعمار ، والاستعمار أو الاستدمار – بتعبير أدق – أشكال وألوان ، فهناك الاستعمار السياسي ، والاستعمار الاقتصادي ، والاستعمار الروحي ، والاستعمار في الأفكار والآراء والمبادىء والروحانيات والعقائد ، ويبدو أن أشد أنواع الاستعمار وأخفاها وأخطرها هو الاستعمار في العقائد ، والاستبداد في فرض المبادىء والآراء ، كما يبدو أن الاستعمار في العقائد يكون فاتحة وسبباً لألوان الاستعمار الأخرى ، ويكون باباً لأخطار كثيرة تأتي من جهته ، لأن الانسان إذا كان خاضعاً مستعبَداً لغيره في عقيدته ، فانه يكون تابعاً لمن استعبده أو أخضعه لتلك العقيدة ، لأن العقيدة قوة مسيطرة على صاحبها مؤثرة فيه ، وهو يستجيب لها ، ويعمل بوحيها في خشوع وخضوع ، كما أن الإنسان اذا تحرر في عقيدته ، وكون آراءه ومبادئه في تحرر واستقلال ، تمتع بحرية الذات وقوة الشخصية ، ومتى وجدت فيه هذه القوة وتلك الحرية كان عزيزاً في حياته ، كريماً في تصرفاته ، موفقاً في خطواته ، يأبى الخضوع لأي نوع آخر من أنواع الاستعمار ، لأن عقيدته الحرة التي كونها بنفسه وبحثه واقتناعه ، ستكون المحرك لسائر أعماله وخطواته ، ومتى عرفنا أن الإسلام الحنيف قد بدأ في مقاومته لألوان الاستعمار بقضائه على الاستعمار في تكوين المبدأ والعقيدة ، فهمنا أنه يكون أوضحَ مقاومةً وأجلى مناهضةً لما يبقى من ألوان الاستعمار ، لأن هذه الألوان يتناقض وجودها مع قضاء الاسلام على الاستعمار للعقيدة ، لأنه ما دام قد قضى على الأساس وهو استعمار العقيدة ،

فمن باب أولي لا بد أن يقضي على ما يتفرع عن هذا الأساس من ألوان الاستعمار .

والاعتقاد عمل من أعمال العقول والقلوب ، فهو في جذوره سر مستكن في داخل المعتقد ، يكون بينه وبين ربه ، ولذلك يجب أن تتحرر العقيدة من الخضوع لغير الله ، ، لأن الله سبحانه هو الذي يطالب بها ويثيب عليها ، ويعاقب على الانحراف فيها ، ولقد كان معروفاً قبل الإسلام أن بعض الناس يرغم بعضاً آخر منهم على الدخول في دين معين أو عقيدة معينة ، وقد استفاضت أنباء ذلك الإرغام هنا وهناك ، وتاريخ الأديان يفيض بشواهد كثيرة على ذلك ، وهذا يتعارض تماماً مع معنى الدين وجوهره ، لأن أصل الدين هو أنه إذعان من النفس لله ، وتسليم منها لخالقها عن اقتناع ويقين ، حيث يكون هذا الاذعان نابعاً من العقل والقلب والوجدان ، وهذا لا نستطيع أن نتصور وجوده مع الإكراه والإرغام ، ولذلك قال علماء المسلمين إن إسلام المكرَه باطل لا يصح ، لأنه سيسلم من الظاهر ، ثم يبقى في الباطن على غير إسلام وإيمان .

* * *

ويقص علينا التاريخ في الزمن الغابر ، كما يقص في الزمن الراهن أن الموجه الديني في بعض الأديان يقول للفرد : « يجب أن تعتقد أولا ما يعرض عليك دون مراجعة ، ثم لك بعد ذلك أن تجتهد في فهم ما تعتقده » .. ولكن الإسلام يقول لك-: اجتهد ثم اعتقد ، ويقول لك : انظر أولا وتدبر ، ثم آمن وأيقن بعد تفكير واقتناع . ولا شك أن هذا تحرير قويم كريم للعقل في نطاق الاعتقاد. وفي بعض الأديان يقول رجال الدين : « إن الجهالة هي أم التقوى » . ولكن الإسلام يقوم الوضع ويصلح الحال ، فيقرر أن أساس التقوى هو العلم والمعرفة، فيقول القرآن : « إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء » ، ويقول : « قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ، ويقول : « شهد الله أنه لا إله إلا هو

والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط » ، ويقول : « والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب » .

والإسلام يجعل العقلَ أساسَ الاعتقاد وعماد الرسالة وحارس الدعوة ، حتى لا يكون هناك مسيطر خارجي على الإنسان ، فيتحرر من الوهم والخوف والتبعية والإرغام ، ولذلك يقول القرآن : « ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون » ، لأنهم ما داموا لا يعقلون فهم لا يؤمنون ، لأن الإيمان جزم ويقين واعتقاد ، والاعتقاد يكون بدليل وبرهان ، والإسلام ينعي على العبيد غير الأحرار في تفكيرهم ، فيقول عنهم : « لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون ». وقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة في تمجيد العقل ، كما وردت أحاديث كثيرة، منها: «ما اكتسب رجل مثلَ فضلِ عقلٍ يهدي صاحبه إلى هدى ، ويرده عن ردى » . وقوله : « إن الرجل ليدرك بحسن خُلُقه درجةَ الصائم القائم ، ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله » ، وقوله: لكل شيء دعامة ودعامة المؤمن عقله، فبقدر عقله تكون عبادته، أما سمعتم قول الفجار في النار : « لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير » ؟ وقوله : « ان لكل شيء مطية ، ومطية المرء العقل ، وأحسنكم دلالة ومعرفة بالحجة أفضلكم عقلا » .

* * *

ومن القواعد الإسلامية أنه إذا تعارض العقل والنقل ، بأن كان دليل العقل دليلا قاطعاً ، وكان هذا الأمر القطعي يتعارض مع ظاهر نص من النصوص الدينية ، فاننا نؤول النص ليتفق مع ما يقطع به العقل ، ويجب ألا يهولنا ذلك ولا يفزعنا ، فان صحيح المنقول في الإسلام موافق دائماً لصريح المعقول ، ففرض التعاوض بينهما باطل ، كما أشار ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية ... وقد دعا الإسلام الى توحيد الله سبحانه وإلى الإيمان بوجوده ، وإبداعه للكون ، وقدرته على كل شيء ، وهذا يستدل عليه بالنظر وتحريك العقل وتحريره من

الأوهام الماضية ، وآثار السابقين الضالين ، ولذلك قال العلماء : إن أول واجب يكلّف به المكلف هو النظر والتفكير ، وهناك ما يقرب من ثلث آيات القرآن تدعو إلى النظر في ملكوت السموات والأرض ، والتفكير في الآيات ، والتدبر في الخلق ، واستخدام العقل .

ومن المظاهر الرائعة لتحرير العقل في الإسلام أن قائلين من أهل السنة قالوا : « إن الذي يستقصي جهده في الوصول إلى الحق ، ثم لم يصل إليه ، ويموت طالباً الحق غير واقف عند الظن ، فهو ناجٍ » . فأي تحرير للعقل من الاستعمار الفكري أكثر من هذا التحرير ؟.

والإسلام — في سبيل تحريره العقول والقلوب من الاستعمار في الاعتقاد والرأي — طالب الناس بأن يستمعوا لما يقال ، وأن ينظروا فيه ، ويميزوا بين طيبه وخبيثه ، ولذلك يقول القرآن : « فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب» . والرسول يقول في هذا المجال : « خذ الحكمةَ ولا يضرك من أي وعاء خرجت » . ويقول : « الحكمة ضالة المؤمن ، أنّى وجدها فهو أحق بها » . ويقول : « الحكمة ضالة المؤمن ، فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق » ، ويقول : «اطلبوا العلم ولو بالصين » . وحين قال الرسول هذا القولَ الأخير لم تكن بين المسلمين والصين علاقات سياسية أو اقتصادية أو ثقافية ، ولكنه التحريض النبوي على طلب العلم والهدى والحق من أي جهة ، وفي أي مكان ، مهما كان نائياً بعيداً .

ومن مظاهر تحرير الإسلام للعقول من الاستعمار والاستعباد في مجال الاعتقاد أنه اشتهر بين المسلمين قولهم : « اذا صدر قول من قائل يحتمل الخطأ من وجوه ، ويحتمل الصواب من وجه ، حُمل على الصواب لا على الخطأ » . وهذا تقدير بليغ لحرية الرأي وسعة التفكير وتعدد وجهات النظر .

ولقد قام الاسلام الحنيف على أصل أساسي وعماد جوهري في عقيدته وبنائه، وهذا الأصل الأصيل هو عقيدة التوحيد التي تصورها كلمة « لا إله إلا الله »

وهذه الوحدانية تحرير من الخضوع لغير الله ، ومن الذل أمام أحد سواه ، فالمسلم اذا آمن بربه الواحد الأحد اعتز به ، ولجأ إليه ، واستمد منه ، وأخلص العبادة له ، وفي هذا الباب نرى أن الله تبارك وتعالى قد ألغى الوساطة بين العبد وربه ، فقال مثلا : « واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداعِ اذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون » . ويقول : « وقال ربكم ادعوني أستجب لكم » . ويقول : « ونحن أقرب اليه من حبل الوريد » . وفي سبيل اخلاص العبادة لله وحده قوض الاسلام بناء السلطة الدينية التي يدّعيها بعض البشر على البعض الآخر ، فليس لهذه السلطة في الإسلام رسم ولا اسم ، والرسول نفسه وهو خير خلق الله وأمين وحيه مبلّغ ومذكر ، وليس بمهيمن ولا مسيطر : « قل إني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً » . ويقول القرآن في خطاب الرسول : « فذكر إنما أنت مذكّر ، لست عليهم بمسيطر » . « فذكّر إن نفعت الذكرى » ، « إنما عليك البلاد وعلينا الحساب » ، « إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تُسأل عن أصحاب الجحيم » ، « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » ، « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » ، « بل الإنسان على نفسه بصيرة » ، إلى غير ذلك من الآيات .

وكل مسلم تتوافر له شروط الفهم للقرآن والسنة يستطيع أن يفهمهما بهذه القدرة التي يحققها الله له ، لأنه بدون هذه القدرة يكون ضالا في الفهم لا مهتدياً ، وما كان في الإسلام من أحكام وحدود وزواجر فمشرّعها هو الله ، والأمة كبيرها وصغيرها سواء في النزول على أمر الله وحكمه ، وليس هناك لأحد طاعة اذا خالفت هذه الطاعةُ أمراً من أوامر الله سبحانه ، ولذلك يقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » . فإذا ما انتقل الأمر من مجال العقيدة والدين إلى مجال الدنيا وأعمالها ، فإن الإنسان يكون أكثر حريةً وانطلاقاً ، وحسبنا قول الرسول : «أنتم أعلم بشئون دنياكم» ، وهذا حث على اتساع البحث والرأي في شئون الحياة المختلفة .

* * *

وإذا راجعنا تاريخ الإسلام وجدناه سلسلة من المقاومة للاستعمار الفكري ، ولمناهضة طغيان الجبارين على المستضعفين ، فبينما نرى القرآن الكريم يشن الحملة القاسية على فرعون الذي استبد وطغى ، وقال للناس : « أنا ربكم الأعلى » ، نجد المسلمين يسيحون في الأرض هداة محررين ، فيخلّصون الناس من طغيان الأكاسرة وحملهم الناس على عبادة النار ، من طغيان القياصرة وحملهم الناس على عبادة الأبطال ، ولا عجب فمهمة الإسلام هي إحقاق الحق وإزهاق الباطل : « ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون » . ويقول الله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » .

وهذا هو الإمام الغزالي مثلا — وهو رجل متدين غيور مشهور بحرصه على تعاليم الدين — يرى أنه إذا حدث خلاف بين رجل الدين ورجل الفلسفة ، بأن أنكر رجل الفلسفة حقيقة من حقائق الدين فالواجب على رجل الدين أن يفحص كلام الفيلسوف فحصاً دقيقاً . ليعرف الأسس التي بنى عليها فكرته الخاطئة ، ثم يبدأ في مناظرة الفيلسوف ، وليحاول مخلصاً في حكمة ومجادلة بالتي هي أحسن أن يريه مواطن الضعف التي لم يتنبه إليها في رأيه ، حتى يقنعه بخطئه ويهديه إلى الحق المبين .

ولقد اتسع المجتمع الإسلامي على مر القرون والعصور ، فضم طوائف مختلفة في آرائها وأفكارها ووجهاتها النظرية ، من سنة وشيعة وخوارج ، وأشاعرة ومعتزلة ، كما ضم هذا المجتمع جماعات من أبناء العقائد الأخرى كالموسوية والعيسوية ، ولقد اتسع المجتمع الإسلامي لبحوث طوائفه السابقة ومناقشاتهم ومجادلاتهم بلا بغي أو استعباد ، وما حدث من صدام أو فتنة بين بعض الطوائف وبعضها الآخر لم يكن سببه تعاليم الإسلام ، بل كان سببه السياسة ومبعثه الهوى .

والإسلام حين يعلّم الإنسان أن يتحرر في تفكيره واعتقاده من كل قيد باطل أو متابعة هزيلة ، يذكّره بأن يستمسك بالحق ولو لم يجد معه كثرة

تسانده ، وعليه إذا عرف الحق آن يتبعه ويثبت عليه ، ولو لم يجد معه أنصاراً أو أتباعاً ، فإن الحق لن ينقلب باطلا ولو قل متبعوه ، وإن الباطل لن ينقلب حقاً ولو كثر متابعوه ، والرسول يقول : « لا يكن أحدكم إمعة ، يقول : إن أحسن الناس أحسنتُ ، وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطّنوا أنفسكم: إذا أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن تجتنبوا اساءتهم » . والإمام ابن حزم يرى أن الحق قد يكون مع الواحد لا مع الجماعة من الناس ، وهذا إعزاز بعيد المدى للحق أينما كان .

* * *

ومن تقدير الإسلام لحرية الاعتقاد أنه لم يرغم غيرَ المسلمين على الدخول فيه ، ونهى عن اضطهاد الناس من أجل عقائدهم ، وسمى هذا الاضطهاد فتنة ، واعتبر ذلك أشدّ من القتل ، فقال القرآن : « والفتنة أشد من القتل » ، وقال: « ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » ؟... ويقول : « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي» . ولقد كان في عهد الرسول رجل يسمى الحصين من بني سالم بن عوف ، وكان له ولدان غير مسلمين ، فأراد أن يحملهما على الإسلام ، فنهاه الرسول عن ذلك ، مع أن « الحصين » كان يريد بذلك تحقيقَ النجاة و الفوز لولديه ، بدليل قوله للرسول : « أيدخل بعضي النار وأنا أنظر يا رسول الله » ؟. وكذلك جاءت امرأة نصرانية عجوز إلى عمر الفاروق ، وسألته حاجةً فقضاها لها ، ثم دعاها إلى الإسلام فأبت ، فخاف عمر أن يكون كلامه لها إكراهاً فقال : اللهم إني لم أُكرهها ، وتلا قوله تعالى : « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » .

ولقد ترك الإسلامُ غيرَ المسلمين في مجتمعه ، وتحت ظل دولته ، أحراراً يباشرون عبادتهم ، ويمارسون شعائرهم الدينية ، ويأتون أعمالهم الخاصة ولو كانت مخالفة للاسلام ، كأكل لحم الخنزير وشرب الخمر ، ما لم يؤثّر ذلك

في المجتمع ، أو ما لم يتخذ طابع البث للإثم والإشاعة المنكر ، ولقد أرسل « خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز» رضوان الله عليه الى الحسن البصري يقول : « ما بالنا تركنا المجوس ينكحون بناتهم ، والنصارى يأكلون لحم الخنزير ويشربون الخمر »؟. فرد عليه الحسن يقول : « على هذا أخذنا الجزية، وعلى هذا أقرهم السلف الصالح ، إنما أنت متبع لا مبتدع » . فاقتنع خامس الراشدين بكلام الحسن .

وقد يقال : ولماذا شُرع القتال في الإسلام ؟. . ويجاب على ذلك بأن القتال قد شُرع للدفع الهجوم من الأعداء : « أُذن للذين يقاتَلون بأنهم ظُلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير » . أو للانتصاف والانتقام من البغاة المعتدين : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا » ، « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » . أو لمنع الاضطهاد الديني : « وقاتلوهم حتّى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » . والمراد بالفتنة ، الفتنة في الدين ، وذلك بالإكراه على الخروج منه أو اعتناق غيره ، وقوله : « ويكون الدين لله » معناه أن يكون اعتناق العقيدة أمراً خالصاً لله ، لا يتحكم فيه جبار كفور ، أو طاغية أثيم .

وقد يقال أيضاً : فلماذا يأخذ الإسلام الجزيةَ من غير المسلمين ؟ أليست ضريبة فيها إرغام وإكراه ؟. ويجاب عن ذلك بأن الجزية مبلغ محدود من المال ، تأخذه الدولة الإسلامية من غير المسلمين فيها ، المستظلين بظل حمايتها ورعايتها ، وهذا المبلغ يؤخذ في مقابل صيانة الدولة للأمن العام ، وفي مقابل دفع الدولة الإسلامية العدوان الأجنبي والداخلي عن هؤلاء ، بحيث لو عجزت الدولة عن صيانة الأمن أو صد العدوان لم يكن لها حق في أخذ هذه الجزية ، ويستدلون على ذلك بما فعله أبو عبيدة عامر بن الجراح مع أهل حمص حين فتح الشام ، فقد صالحهم على أن يدافع عنهم نظيرَ مال يدفعونه ، ودفعوا المال فعلا ، ولكن الطاعون أصاب جيش المسلمين ، فعجز عن الدفاع عن أهل

حمص أمام جيوش الرومان ، فرد أبو عبيدة المال الذي أخذه ، **فما كان منهم** إلا أن ردوا إليه المال وهبوا مع المسلمين لمحاربة الرومان ...

الذي لا مرية فيه أن الإسلام قد حرر الإنسان من الأوهام والطغيان ، وبنى ألوان الحرية التي يتمتع بها المرء على أساس الركن الركين للحرية ، وهو التحرر في العقيدة والفكر ، لأنه متى تحرر الإنسان في عقيدته وتفكيره ، أبى إلا أن يكون حراً في سائر الميادين .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الدين يدعو إلى الوحدة

السؤال : **كيف دعا الإسلام إلى الوحدة ؟.**

الجواب :

إن هدف الإسلام الأكبر هو تحقيق الوحدة الكاملة الشاملة في مجال الاعتقاد ومجال الحياة ، ولذلك نوجز شعارَ الإسلام في قولنا : إنه دين جاء بكلمة التوحيد وتوحيد الكلمة .

وجاء الإسلام الحنيف وشعاره هو العمل الدائم في غير شطط ، والجهد الموصول في غير إسراف : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً » ، ولذلك أخذ الاسلام بشرعة التدرج ، فمرحلة تؤدي إلى مرحلة بعدها ، وجهد يمهد لجهد يليه ، وهكذا حتى يبلغ الأمر يوماً تمامَه وكماله .

وهذا التدرج في إزالة الشر وتوطيد الخير ، هو الطريقة المثلى لتحقيق الصلاح والإصلاح ، ولقد أقبل الإسلام على الدنيا وفي طليعة أهدافه أن يحقق التوحيد والوحدة .. أن يحقق توحيد الله جل جلاله ، فلا يبقى معبود سواه ،

وأن يحقق وحدة الإنسانية تحت لواء خالقها وهاديها ، حتّى يصبح الناس إخوة في البشرية وعباداً لله ، ولكن الإسلام لم يحاول أن يحقق ذلك في يوم وليلة ، ولو أراده لما استطاع ، لأنه جاء والدنيا في شتات وفرقة ، وأهلها قد تمزقوا وتطاحنوا بعصبيات الأنساب والألوان واللغات ، والأديان والأوطان ، ولو قال قائل يومها إن هناك قوة تستطيع أن تمحو هذه العصبيات في وقت طويل أو قصير ، لما صدق الناس ذلك ، فقد كان التفرق واسعاً ، والتمزق بليغاً ، ومع هذا جعل الإسلام من أغراضه الأساسية أنْ يحقق هذه الغاية ، وأن يجعل دستوره كلمةَ التوحيد وتوحيد الكلمة ؛ وقد نجح في ذلك .

وعند استعراضنا للقرآن الكريم نجد فيه طائفةً من الآيات الكريمة التي يمكن أن نتخذها رائداً في تصور المراحل التي رسمها الإسلام الحنيف لهذه الوحدة الشاملة ، التي تبدأ من وحدة الرسول ، إلى وحدة الإنسانية كلها ، فالله تبارك وتعالى حين بعث نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم لم يبعثه لقوم دون قوم ، ولا لأمة دون أمة ، ولا لعصر دون عصر ، بل بعثه للناس جميعاً : أسودهم وأبيضهم ، حاضرهم وقابلهم ، قريبهم وبعيدهم : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » ، « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

ومعنى هذا أن الهدف العام لرسالة محمد هي أن يدعو الناس جميعاً حتّى يكونوا أتباعاً له ، مؤمنين بما جاء معه من هدى ونور من عند الله رب العالمين . ولكن الله تعالى خطّ له طريقةَ التدرج والتتابع التي تعبّد الطريق أمام هذه الغاية الكبرى ، فقال له أولا : « وأنذر عشيرتك الأقربين » أي ابدأ بقرابتك ومَنْ حولك من أهلك فادعهم إلى ربك ، واجمع كلمتهم على طريقه ، واجعل مَنْ آمن منهم بك وحدةً وكتلة ، وقد روي أنه لما نزلت هذه الآية دعا النبي أهله إلى الاجتماع على كلمة الله ، وكان مما قاله لهم : « يا فاطمة بنت محمد .. يا صفية بنت عبد المطلب .. يا بني عبد المطلب ، إني لا أملك لكم من الله شيئاً ، سلوني من مالي ما استطعتم » !..

ثم تأتي مرحلة ثانية يتسع فيها نطاق الدعوة ، ليتسع نطاق الوحدة ، فيقول

الله تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : « وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » . أي إن هذا الإسلام فيه شرف لك ولقومك العرب، وسيسأ لكم ربكم عن صيانتكم لهذا الشرف ، وحرصكم عليه ، وجهادكم من أجله ، ولذلك يجب عليك أن تنذر قومك بهذا الدين ، وتدعوهم إليه ، وتجمعهم عليه، ولذلك روي أن النبي جعل يردد في قومه قوله :

«يا معشر قريش ، أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بني كعب ، أنقذوا أنفسكم من النار ، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً » .

ولكن الإسلام لم يأت للعرب وحدهم ، ولا لقوم محمد فقط ، بل جاء لهم ولغيرهم من الناس ، فالباب فيه مفتوح لهذا وذاك وذلك من الناس ، ومن دخل هذا الدين صار أخاً لجميع أتباعه ، وزاد لبنةً في بناء هذه الوحدةالإيمانية الواسعة النطاق ، ولذلك رأينا القرآن الكريم يقول : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً » .

ويقول : « إنما المؤمنون إخوة » . ويقول للأمة المؤمنة في سورة الأنبياء : « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » .

ثم نجد أن الله تبارك وتعالى يلفتنا إلى وحدة الأديان الإلهية ، وإلى اجتماع الأنبياء والمرسلين تحت لواء وحدة النبوة والرسالة ، وإلى أن أمم هؤلاء الأنبياء وأتباعهم يكوّنون في الواقع أمة واحدة وكتلة واحدة ، وإن تباعدت الأوطان وتطاولت الأزمان ، لأن الكل عباد الله ، ولأن الهداة جميعهم رسل يستمدون من الله، ولذلك يقول القرآن في سورة المؤمنون: «يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم ، وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » .

وما دامت أمة الأنبياء كلهم أمة واحدة ، فالواجب على اللاحق أن يؤمن بالسابق ، والواجب على النبي المتأخر في وقته أن يصدّق المتقدمين عليه في

أزمانهم ، ومن هنا قال القرآن الكريم : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، ولا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » وقال : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ، إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون » . وقال : « قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ، ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، ونحن له مخلصون » .

والواجب كذلك على من بقي من أتباع الأنبياء السابقين أن يؤمنوا بالنبي الجامع الأخير ، ولذلك يقول الله لنبيه محمد عن أهل الكتاب : « فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم » .

ولا يكتفي القرآن الكريم بتحديثنا عن الوحدة بين المؤمنين بجميع الأنبياء والمرسلين ، بل يحدثنا عن الوحدة الإنسانية بين أبناء الجنس البشري ، لأنهم أبناء أب واحد وأم واحدة ، وهذه الوحدة يجب أن تكون عاملا من عوامل التفاهم والتقارب والترابط بين الناس ، لأن هناك أرحاماً إنسانية مشتركة ، يجب أن تكون لها حرمتها ، وأن تكون لها رعايتها . وبرعاية هذه الأرحام الإنسانية يتدانى البشر ، ويزول من بينهم الخلاف . يقول الله تبارك وتعالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً » .

وكلمة « الناس » في الآية تشمل الجنس كله ، وقوله : «ومن نفس واحدة» يفهمنا أن الإنسانية كلها بدأت من نفس واحدة ، وما دام منبعها واحداً ، وربها واحداً ، فيجب عليها أن تكون كلها داخلة تحت وحدة العبودية لخالقها وبارئها ، وهو الله جل جلاله : « يا أيها الناس اتقوا ربكم » !...

وهكذا نرى أن مراحل الوحدة في الإسلام متتابعة متوالية ، تبدأ عند نقطة

الارتكاز ضيقة الحيز ، ثم تتسع وتتسع ، وتنفسح ثم تنفسح ، حتى تشمل وحدة الناس كلهم ... إنها تبدأ من الرسول الواحد ، الذي أرسله الله الواحد الأحد ، ثم تأتي وحدة العشيرة ، ثم وحدة القوم والوطن ، ثم وحدة الأمة المؤمنة ثم وحدة الأنبياء والمرسلين ، ثم وحدة النوع البشري كله .

وقطعُ هذه المراحل يحتاج إلى وقت ومجهود، وما لا يستطاع اليوم يستطاع غداً ، وما لا يستطيع تحقيقه العباد يقدر عليه رب العباد عندما يشاء ويختار : « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

وبعد ، فإننا نستفيد من هذا الاستعراض العاجل أن الإسلام دين الوحدة: بمراحلها المتتابعة ومشاهدها المختلفة، ودوائرها الّتي تندرج الصغرى منها داخل الكبرى ، وأن هذه الوحدة يجب أن نعمل لها ، وأن نواصل السير في مراحلها ، وكلما قطعنا مرحلة جعلناها في حصانة ووقاية ، ثم انتقلنا إلى المرحلة الّتي تليها ، وأن الانسان يجب عليه أن تتعلق همته بالمقاصد الشريفة والغايات الرفيعة ، ولكنه لا يتعجل الوصولَ إليها دفعةً واحدة ، وإلا ضَلَّ أو أفسد : « إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » . وإن التدرج مع المواصلة في السعي هو سنة المؤمنين العقلاء، وصدق نبي هذه الأمة حين قال : « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ » والله يهدي العاملين .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

مقاطعة الاعداء

السؤال : **ما حكم الإسلام في معاملة الأعداء والتعاون معهم ؟.**

الجواب :

يقول الله تبارك وتعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة، وقد كفروا بما جاءكم من الحق ، يخرجون الرسول وإياكم ، وأن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة ، وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل » .

هذه هي الآية الأولى من سورة « الممتحنة » ، ويروى في سبب نزولها أنه عندما تهيأ رسول الله صلى الله عليه وسلم لفتح مكة ، وكان ذلك سراً ، أرسل أحد المسلمين ، واسمه حاطب بن أبي بلتعة كتاباً (رسالة) مع امرأة إلى أهل مكة ، يخبرهم فيها بأن النبي صلى الله عليه وسلم يتهيأ لغزوهم ، ومضت المرأة بالكتاب في طريقها إلى مكة ، ولكن الله تعالى أوحى إلى نبيه بذلك ، فأرسل خلفها ثلاثة أشخاص منهم الإمام علي رضي الله عنه ، فأدركوا المرأة ، وطلبوا منها الكتاب الذي معها ، فأنكرته أولا ، فقال لها علي مهدداً : لَتُخْرِجِنّ الكتاب أو لنلقين الثياب (أي نفتشك). فأخرجته وأعطته ، فإذا فيه خطاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش أهل مكة ، يخبرهم فيه بتجهيز المسلمين لفتح البلد الحرام . وكان نص الكتاب : « أما بعد ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه إليكم بجيش كالليل ، يسير كالسيل ، وأقسم بالله لو لم يسر إليكم وحده ، لأظفره الله بكم ، وأنجز له موعده فيكم ، فان الله وليه وناصره » .

ولما عرف النبي ذلك قال : ما هذا يا حاطب ؟. فأجابه نادماً آسفاً حزيناً : « لا تعجل عليّ يا رسول الله ، إني كنت امرأ مُلْصقاً في قريش (أي ليس منهم ولكني حليف لهم) وكان مَنْ معك من المهاجرين لهم قرابات في مكة يحمون بها أهلهم ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً ، يحمون قرابتي عندهم ، ولم أفعله كفراً ولا ارتداداً عن ديني ، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام » .

وأدرك النبي عمق الأسى والأسف في نفس حاطب فقال لمن حوله : أمّ

صاحبكم فقد صدق . فقال عمر غاضباً : دعني يا رسول الله أضربْ عنق هذا المنافق ، فقال له النبي : إنه قد شهد غزوة بدر ، وما يدريك ، لعل الله اطلع على أهل بدر فقال لهم : اعملوا ما شئتم فإني قد غفرت لكم . وهنا نزلت الآية الكريمة .

وفي أولها تقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء» . أي لا يليق بكم ولا يحسن منكم أن تجعلوا غير المسلمين من أعداء الله وأعداء الرسول وأعداء الدين ، أصدقاء وأحباء ، لأنهم كفروا بعقيدتكم ، وخرجوا على دينكم ، ووقفوا لكم بالمرصاد ، وحاربوكم وأخرجوكم من دياركم وعقاركم وأوطانكم وأموالكم ؛ والله جل جلاله هو الذي يقول : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء منْ دون المؤمنين» . ويقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم » .

وتقول الآية : « تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله رَبكم » : أي وكيف يجوز لكم أن تحبوهم ، أو تتعاونوا معهم — ولو في الظاهر — وقد أعلنوا كفرهم بدين الله، وتمردوا على أوامر الله ، واستخفوا بحرمات الله ، وخرجوا على الحق المبين الذي جاءكم من عند ربكم جل جلاله ، وأخرجوا الرسولَ عليه الصلاة والسلام من بلده مكة ، واضطروه إلى الهجرة إلى المدينة ، كما أخرجوكم وشردوكم في الأرض ، ولم يكن لكم ذنب ولا جريرة تستحقون عليها هذا الاضطهاد . اللهم إلا أن يكون هذا الإيمان بالله جل جلاله ذنباً أو جريرة .

« إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي» أي إن كنتم صادقين في أنكم خرجتم مخلصين مهاجرين في سبيل الله ، مجاهدين لابتغاء وجه الله ، ونيل رضوانه ورضاه ، فلا يجوز منكم ولا يليق بكم أن تفعلوا شيئاً من ذلك بحال من الأحوال .

« تسرون إليهم بالمودة ، وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم »، أي ولا يجوز أن تجعلوا بينكم وبين هؤلاء المشركين مودة ولا علاقة، لأنهم لا يخلصون لكم،

ولا يحبون خيركم ، بل هم يتربصون بكم الدوائر ، والله سبحانه هو المطلع على كل شيء ، العليم بالظواهر والبواطن ، يعلم كلَّ ما تفعلون ، سواء أكان ذلك في إخفاء أو إعلان .

« ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل » : من يرتكب هذا العمل الأثيم – وهو موالاة الأعداء – عامداً متعمداً ، يكون قد أخطأ قصد السبيل، وانحرف عن الصراط المستقيم .

ومن تفسير هذه الآية نستطيع أن نفهم في يسر ووضوح حكم الإسلام في التعاون مع الأعداء .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

هل انتشر الإسلام بالسيف ؟

السؤال : **هناك من يزعم أن الإسلام انتشر بالسيف ، فهل هذا صحيح ؟.**

الجواب :

لا أريد أن أتعرض للشواهد العديدة الدالة على سماحة المسلمين حكاماً وشعوباً في معاملة غير المسلمين ، فإن هذه الشواهد قد ظهرت في أعقاب الفتوح التي قام بها الإسلام والمسلمون ، وإنما الأهم من ذلك أن نعرف شرعة الإسلام وموقفه من الحرب واستخدام القوة .

ونحن حينما نقرأ النصوص القرآنية في موضوع السلم والحرب نجد أن هذه النصوص ذات ألوان ثلاثة : فلون منها رقيق لطيف ، ولون صارم عنيف ، ولون ثالث وسط بينهما .

فمن أمثلة اللون الأول قوله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » . وقوله : « « ادخلوا في السلم كافة » .

ومن أمثلة اللون الثاني قوله تعالى : « يأيها النبي حرض المؤمنين على القتال » . وقوله : « فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » .

ومن أمثلة اللون الثالث : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » إلى قوله تعالى : « فإن انتهوا فان الله غفور رحيم » .

وأي ناظر إلى أحد هذه الألوان الثلاثة دون أن يقرنه باللونين الآخرين يسيء تصور الحكم على الإسلام في موضوع السلم والحرب ، لأن حكمه سيكون ناشئاً عن نظرة جزئية مبتورة ، فلا بد من اقتران الألوان الثلاثة معاً ، لندرك أن اللون الأول وهو الرقيق اللطيف يكون في وقت الاطمئنان الأكيد والاستقرار الوطيد ، وصلاحية الجو للكلمة الحسنى والمعاملة الطيبة ، وأما اللون الثاني العنيف فيكون في وقت العدوان والبغي من الأعداء ، أو بتعبير آخر في وقت الزحف العام لاستفراغ جهد الأمة المسلمة في الدفاع عن نفسها ودعوتها ، وأما اللون الثالث فهو القانون العام الدائم الذي يتوسط حالة العنف وحالة التلطف .

ومبعث الشبهة في أن الإسلام بدأ نشره بالسيف يعود فيما أعتقد إلى التساؤل عن موقف المسلمين في غزوة بدر ، باعتبار أنها أول صدام وقع بين المؤمنين والمشركين . وفوق أن موقف المسلمين في هذه الغزوة كان محاولةً منهم لأخذ جانب من التعويض عما فقدوه من ممتلكاتهم وأموالهم على أيدي المشركين بمكة ، يجب أن نذكر أن الذين بقوا في مكة من ضعفاء المسلمين ونسائهم ، ممن لم يستطيعوا الهجرة ، تعرضوا لتعذيب عام عقب هجرة المسلمين ، والله تعالى يقول في ذلك : « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك ولياً ، واجعل لنا من لدنك نصيراً » .

وأما بقية الغزوات النبوية والخليفية فالواقع أنها كانت لردع القوة بالقوة ، والشر بالشر ينحسم ، فكان الإسلام يهدف إلى تحرير الشعوب من طغاتها أو أعدائها ، والدليل على ذلك أن الاسلام لا يقر لوناً من الحرب إلا ما كان

لرفع كلمة الله بدليل الحديث الصحيح الذي جاء فيه أن الرسول سئل عن الرجل يقاتل للمغنم ، أو يقاتل للذكر ، أو يقاتل ليُرَى ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله .

فلا يقر الإسلام حرباً للاكراه على الدخول فيه ،ولا لسيادة عنصر أو جنس، ولا لكسب مغانم أو أمجاد . ومن طبيعة الدين الأصيلة جمع الناس على السلام والأمان ، ولكن سوء الاستغلال في بعض الإحيان هو الذي يشوه أصول الدين، فالمسيحية مثلا تبرأ من الحروب التي قامت باسمها ، وكذلك الإسلام لا يتحمل تبعة من أساء استغلال الحرب باسمه أو باسم المسلمين .

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *



شخصيّات ومذاهب



أهل الصُّفَّة

السؤال : أريد أن أعرف من هم أهل الصفة ؟ وما عددهم ؟ وما مكانتهم ؟.

الجواب :

« الصفة » هو اسم المكان الذي يوجد في شمالي المسجد النبوي في المدينة المنورة على صاحبها افضل الصلاة والسلام ، وكان ينزل في هذا المكان المهاجرون الفقراء الذين لا تتهيأ لهم أمكنة أخرى ينزلون فيها ، ومن هؤلاء أبو هريرة وسعد بن أبي وقاص وحبيب وسلمان وغيرهم ، رضوان الله عليهم ، وقد اختلف عددهم قلة وكثرة ، فقد بلغوا في بعض الأحيان سبعين صحابياً ، وقد أحصى المؤرخون منهم نحو الستمائة ، وكتب أبو عبد الرحمن السلمي تاريخهم . ويقول عنهم الإمام ابن تيمية إنهم كانوا من أعظم الناس جهاداً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أشار إليهم القرآن الكريم في قول الله تبارك وتعالى : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون » . كما أشارت إليهم الآية الكريمة في سورة البقرة : « للفقراء الذين أُحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً ، وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم » .

وكانوا يشاركون في الجهاد بإخلاص وصدق ، وقد استشهد منهم سبعون شهيداً في غزوة « بئر معونة » ، وقنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعا في قنوته هذا على الذين قتلوهم .

وهناك من يسرف في مدح هؤلاء الفضلاء الكرام من صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فيقول إنهم كانوا مهتدين إلى الحق قبل البعثة النبوية ، وهذا

ضلال من القول كما نص عليه الإمام ابن تيمية ، بل الحق أن الله تعالى هداهم سواء السبيل بالإسلام ودعوة النبي عليه الصلاة والسلام .

وحسب هؤلاء القوم شرفاً ومكانة أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعطف عليهم ويودهم ، ويمنحهم من عنايته ورعايته الشيء الكثير ، صلوات الله وسلامه عليه .

ولا ينبغي أن يفهم فاهم من هذا الحديث عن أهل الصفة أنهم كانوا متعطلين أو متبطلين ، بل الذي ينبغي أن نعلمه ونفهمه هو أنهم ما كانوا يجدون فرصة عمل إلا ويشاركون فيها ، وكانوا يسهمون بالجهاد بقدر ما يستطيعون ، ولكنهم كانوا بحاجة إلى المعاونة والتأييد، وكانوا مع هذا يحسنون العبادة ويجتهدون فيها، ويكثرون من ذكر الله عز وجل ، وكأنهم قد جعلوا نصب أعينهم قول الحق جل جلاله : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار» .

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قبر الإمام علي

السؤال : سمعت منكم أن قبر الامام علي غير محدد المكان على وجه اليقين القاطع ، ولكني سمعت أيضاً أن الشيعة ذكروا تحديداً لهذا القبر ، فما الذي ذكروه في ذلك ؟.

الجواب :

ذكر ابن أبي الحديد شارحُ كتاب « نهج البلاغة » للإمام علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه ، أن الإمام علياً حينما قُتل أراد بنوه أن يخفوا قبره خوفاً من

بني أمية أن يحدثوا في قبره حدثاً ، فأوهموا الناس في موضع قبره تلك الليلة، وهي دفنه ، فشدوا على جمل تابوتاً مربوطاً بالحبال ، تفوح منه روائح الكافور ، وأخرجوه من الكوفة في ظلام الليل ، يوهمون الناس أنهم سيدفنونه بالحيرة ، وحفروا حفائر علة ، منها حفرة بالمسجد ، وحفرة في ساحة قصر الإمارة ، وحفرة في حجرة من دار آل جعدة بن هبيرة المخزومي ، وحفرة في دار عبدالله بن يزيد القسري بحذاء باب الوراقين مما يلي قبلة المسجد ، وحفرة في الكُناسة ، وحفرة في الثوية ؛ فعمي على الناس موضع قبره ، ولم يعلم دفنه على الحقيقة إلا بنوه والخواص المخلصون من أصحابه ، فإنهم خرجوا به وقت السحر ، في الليلة الحادية والعشرين من شهر رمضان ، فدفنوه على النجف في الموضع المعروف بالغريّ ، بوصية من الإمام إليهم ، وعهد كان قد عهد به ، وخفي موضع قبره على الناس ، واختلفت الأراجيف في صبيحة ذلك اليوم اختلافاً شديداً ، وافترقت الأقوال في موضع قبره وتشعبت .

ثم روى ابن أبي الحديد أيضاً أن سائلا سأل الحسين بن علي رضوان الله عليهما : أين دفنتم أمير المؤمنين عليه السلام ؟. قال : خرجنا به ليلا من منزله حتى مررنا به على منزل الأشعث بن قيس ، ثم خرجنا بـــه إلى الظهر بجنب الغريّ .

ثم قال ابن ابي الحديد : « وهذه الرواية هي الحق ، وعليها العمل ، والناس أعرف بقبور آبائهم من غيرهم من الأجانب ، وهذا القبر الذي بالغريّ هـو الذي كان بنو علي يزورونه قديماً وحديثاً ، ويقولون : هذا قبر أبينا ، لا يشك أحد في ذلك من الشيعة ولا من غيرهم ، أعني بني علي من ظهر الحسن والحسين وغيرهما من سلالته المتقدمين منهم والمتأخرين ، ما زاروا ولا وقفوا إلا على هذا القبر بعينه » .

وروى ابن الجوزي في تاريخه عن أبي الغنائم الحافظ الثقة قوله : « مات بالكوفة ثلاثمائة صحابي ليس قبر أحد منهم معروفاً إلا قبر أمير المؤمنين ، وهو هذا القبر الذي يزوره الناس الآن ، جاء جعفر بن محمد عليه السلام وأبوه محمد

ابن علي بن الحسن عليهم السلام إليه فزاراه ، ولم يكن إذ ذاك قبراً معروفاً ظاهراً ، وإنما كان به سرح عضاه (أي أشجار فيها شوك) حتّى جاء محمد بن زيد الداعي صاحب الديلم فأظهر القبة » .

ولعل إخفاء الدفن للإمام علي كان السبب في قول كثير من المؤرخين إن قبره غير معلوم المكان على وجه اليقين .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

شرف الدين الطيبي

السؤال : **أريد أن أعرف بعض المعلومات عن « شرف الدين الطيبي » .**

الجواب :

شرف الدين الطيبي هو الإمام الحسين بن محمد بن عبدالله شرف الدين الطيبي ، صاحب كتاب « شرح المشكاة » وغيره . وهو من أعلام القرن الثامن الهجري ، وهو من أهل « توريز » من عراق العجم .

قيل : إن اسمه : الحسن بن محمد بن عبدالله . وقيل : إن اسمه : الحسين ابن محمد بن عبدالله . ويقول عنه الإمام السخاوي : « هذا الرجل سمى نفسه في أول شرح المشكاة : الحسين بن عبدالله بن محمد ، وكذا سماه شيخنا المؤلف في أول تخريجه أحاديث المصباح كما سمى نفسه ، ولولا أنه مذكور هنا مع من اسمه الحسين بن محمد لقلت إنه انقلب على الكاتب » .

والطيبي من علماء الحديث والتفسير والبلاغة ، وكانت له ثروة طائلة من الإرث والتجارة ، فأنفقها في وجوه الخير ، حتّى افتقر في آخر عمره . وكان شديد الرد على الفلاسفة والمبتدعة ، مظهراً فضائحهم ، ملازماً لتعليم الطلبة ،

والإنفاق على ذوي الحاجة منهم ، آيةً في استخراج الدقائق من القرآن والسنة ، متواضعاً ، ضعيف البصر .

وكان كريماً حسن المعتقد ، شديد الحب لله تبارك وتعالى ، ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، ملازماً لصلاة الجماعة ليلا ونهاراً ، صيفاً وشتاء ، مع ضعف بصره في آخر عمره ، ملازماً تعليم الناس العلوم الإسلامية، وكان محباً لمن يعرف منه تعظيم الشريعة الغراء ، مقبلا على نشر العلم ، وإعارة الكتب النفيسة لمن عرف ومن لم يعرف . وكان يقسم يومه بين التفسير والحديث ، فهو يعقد مجلسه للتفسير من البكرة حتّى الظهر ، ثم يعقد مجلسه لقراءة صحيح البخاري من الظهر إلى العصر ، إلى يوم وفاته .

وقد توفي الطيبي عليه رحمة الله في شهر شعبان سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة للهجرة (١٣٤٢ م) .

يروى أنه جلس في اليوم الأخير من حياته لدرس التفسير في الصباح فأتمه عند الظهر ، ثم توجه إلى مجلس الحديث ، فدخل مسجداً عند بيته ، فصلى النافلة قاعداً ، وجلس ينتظر الإقامة للفريضة ، فقضى نحبه وهو متوجه إلى القبلة ، وذلك يوم الثلاثاء ١٣ شعبان سنة ٧٤٣ هـ ، عليه رحمة الله تعالى .

وخلّف الطيبي وراءه كتباً له منها :

١ – كتاب التبيان في المعاني والبيان ، وقد ذكر ابن حجر في « الدرر الكامنة» أن الطيبي شرح ، هذا الكتاب ، وأمر بعض تلاميذه باختصاره على طريقة نهجها له وسماه « المشكاة » وشرحها هو شرحاً حافلا .

٢ – حاشية على تفسير الكشاف ، سماها « فتوح الغيب في الكشف عن قناع الغيب » . توجد منه مخطوطة في المكتبة الأزهرية ، ومنه مجلد في خزانة الرباط . والكتاب أربعة مجلدات .

٣ – الخلاصة في معرفة الحديث .

٤ – شرح مشكاة المصابيح في الحديث .

٥ – شرع في جمع كتاب للتفسير .

والله تبارك وتعالى أعلم .

حول الإمام علي

السؤال : أين دُفن الإمام علي بن أبي طالب، وكم عدد الأحاديث التي رواها عن النبي صلى الله عليه وسلم ؟.

الجواب :

الإمام علي هو أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن أبي طالب ، وهو ابن عم الرسول عليه الصلاة والسلام ، وزوج ابنته السيدة فاطمة سيدة النساء ، وهو رابع الخلفاء الراشدين ، وأحد العشرة الذين بشرهم النبي بالجنة ، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين مات النبي وهو راضٍ عنهم .

وكان – كما يقول الإمام النووي في كتابه تهذيب الأسماء واللغات – أحد العلماء الربانيين ، والعلماء المشهورين ، والزهاد المذكورين ، وأحد السابقين إلى الإسلام ، فهو أول من أسلم من الفتيان .

وقد روى الإمام علي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسمائة حديث وستة وثمانين حديثاً ، اتفق الإمامان البخاري ومسلم على عشرين منها ، وانفرد البخاري بتسعة ، وانفرد مسلم بخمسة عشر حديثاً .

وقد روى عنه الحديثَ كثيرٌ من الصحابة ، وكثير من التابعين. يقول النووي في كتابه المشار إليه سابقاً : « وسؤال كبار الصحابة للإمام علي ، ورجوعهم إلى فتاويه وأقواله في المواطن الكثيرة والمسائل المعضلات مشهور » .

ولقد مات الإمام علي شهيداً ، رضي الله عنه ، وكرم وجهه الله ، قتله اللعين عبد الرحمن بن ملجم المرادي، ليلة سبع عشرة من رمضان سنة أربعين للهجرة.

وأما مكان قبر الإمام علي فقد اختلف في تعيينه الرواة والمؤرخون ، وقد

جاء في الجزء الأول من كتاب : « يسألونك في الدين والحياة » قول ٌ بأنه موجود في بلدة «النجف» بالعراق، ولكن الإمام ابن تيمية ينكر ذلك، ويقول إن القبر المشار إليه هناك هو قبر المغيرة بن شعبة .

وقيل قد دُفن الإمام في رحبة الجامع بالمدينة ، وقيل إنه مدفون في مكان يقال له « الغَرِيّ » بالكوفة ، وهناك قول بأن الأمام مدفون في « قصر الإمارة » بمدينة الكوفة بالعراق ، وإن الذين تولوا دفنه أخفوا قبره حتى لا ينبشه أعداؤه من الخوارج ، وهذا هو الراجح(١) .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الامام محمد عبده والأزهر

السؤال : **ماذا فعل الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده لإصلاح الأزهر ؟.**

الجواب :

رحم الله الإمام محمد عبده ، وطيَّب ثراه، لقد جاهد طويلا من أجل الأزهر الشريف ، وإن عاش في صراع عنيف مع طائفة من أبنائه ، الذين خالفوه في وجهته ، أو تخلفوا عن هضم آرائه ؛ والأزهر هو تلك الجامعة الإسلامية الكبرى التي صاحبت الأحداثَ وطاولت الزمان ، واتسمت بالذود عن الإسلام ، والعناية بلغة القرآن ، والغيرة على تراث العربية ؛ وأبناؤها طائفة من الناس ، يحاولون النهوض بتبعات هذه الرسالة ، وليسوا بمكان العصمة ، بل يجري عليهم ما يجري على البشر من السعد والبؤس ، والصواب والخطأ ، والإقبال والإدبار .

---

(١) كتاب « يسألونك في الدين والحياة » ج ١ ص ٥١٩ – ٥٢١ .

والله جل جلاله يبعث لهذا الأزهر بين الحين والحين من ينفخ فيه من روحه، ويبعث فيه من عزمه ، فيرد عليه جدة شبابه ورونقَ إهابه ، ويدفع به إلى الأمام فيعوض ما فاته خلال هجعة غلبته أو تعويق ألمّ به ، وكان الإمام محمد عبده أحدَ أولئك المجددين الأعلام .

* * *

ولقد دخل محمد عبده ميدان التجديد والإصلاح ، والأزهر منكمش على نفسه ، منطو على ذاته ، لا يجد أمامه الطريق الممهد ، ولا يقتدر على إنشاء الطريق المجدّد ، ومع كثرة الناقدين لهذه العزلة حينئذ قد يوجد من يلتمس لها فائدة ، وهي حفظ التراث الإسلامي والعربي من طوفان العوامل المقوضة الدخيلة ، فقد كان هناك الاحتلال ببلاياه ، وكانت هناك النزعات الأجنبية بخبائثها ، وكان هناك الويلات الحسية والنفسية التي تُصب صباً على العرب والمسلمين ، فكان الأزهر حينئذ كصاحب رأس المال العزيز عليه ، الذي لا يجد أمامه السوق الرائجة الصالحة لاستثمار هذا المال ، فهو يخزنه ويحرسه ، وإن تجمد وركد إلى حين ، حتى يتهيأ له المجال ، فيبدأ في الحركة والإنطلاق .

وحاول الإمام إصلاح الأزهر في وقت اصطلحت فيه على الأزهر محن شتى ، وكثير منها لم يكن له فيها حيلة ، ولا يجد لدفعها وسيلة ، فالفقر المدقع ، وإعراض المجتمع المطبق ، وسوء الاستغلال المجرم ، وكيد الاحتلال الأثيم ، وانعدام التوجيه الصحيح ، وفتور العزائم ، وضيق الآفاق ، كل هذه محن تلاقت وتجمعت ، فكانت أعداء خبثاء للأزهر والأزهريين ، ولمريد الخير للأزهر والأزهريين .

ومع ذلك أقدم الإمام على الإصلاح ، متدرعاً بثقة المصلح ، ويقين المؤمن ، فاكتسب الكثير من الناقمين ، وكسب القليل من المؤيدين ، وليس بصحيح أن أبناء الأزهر كلهم كانوا حرباً عليه ، وإلا لضاعت صيحاته سدى ، وإذا كان موقف رجل كالشيخ « عليش » مع الإمام عنيفاً ، فقد كان موقف رجل

كالشيخ « العباسي » منصفاً ولطيفاً ، والدروس التي تعجل الإمام بإلقائها في الأزهر عن علوم جديدة على بيئته ، وبأسلوب غريب عن طريقته ، وبجرأة مفاجئة للمألوف من محافظته ، هذه الدروس إن صد عنها كثيرون فقد أقبل عليها كثيرون ، وكثير من الصادّين زالت عنهم هزة الحيرة ، أو نزعة المعارضة فرجعوا إلى الشيخ يستمعون ، ومن مناهله يغترّفون ، وكانوا هم الطلائع للبعث في الأزهر الحديث .

* * *

وكان الإمام عليه الرحمات يرى أن النهوض بالأزهر هـو أعظم خدمة للإسلام ، لأن إصلاحه إصلاح لجميع المسلمين ، وكان يقرر أن هذا الإصلاح الأزهري يحتاج إلى زمن طويل ومراحل متعددة ، وإنه إنما قبل العمل في وظائف الحكومة لتتيسر أمامه الأسباب الموصلة إلى تحقيق إصلاحه ، كما كان يقرر أنه إذا تمّ اصلاح الأزهر الذي ينشده قبل وفاته ، فإنه يموت قرير العين ، ويرى نفسه سعيداً ، بل يرى نفسه ملكاً .

وقد حصر الإمام إصلاحه الديني في مجالات ثلاثة هي : الأزهر ، ومساجد الأوقاف ، والمحاكم الشرعية ، وإن شئت فقل : إنه حصره في الأزهر ، لأنه تتخرج منه رجال المساجد في الأوقاف ، ورجال القضاء في المحاكم الشرعية ، وكان يرى أن إصلاح الأزهر يؤدي إلى إصلاح التربية والتعليم ، وأن إصلاح الأوقاف والمساجد يؤدي إلى إصلاح الوعظ والإرشاد ، وأن إصلاح المحاكم الشرعية يؤدي إلى إصلاح البيوت والعائلات ، وكان يؤمن بأن إصلاح هـذه المجالات يؤدي إلى إصلاح الأمة كلها .

* * *

وقد بذل الشيخ — رضوان الله عليه — ما بذل من جهود في « مجلس إدارة الأزهر » ليرد على الأزهريين كرامتَهم ، وليؤمّن لهم مقومات حياتهم ، فجاهر في وجه الحاكمين قبل المحكومين بأن إصلاح الأزهر لا بد من أن يكون

أولا برضا شيوخه واقتناعهم وبأيديهم ، وكان يسعى من وراء ذلك إلى هدفين كريمين : الأول هو الإبقاء على عزة الأزهر ، والاحتفاظ بكرامة أبنائه ، لأنهم حملة الدين ودعاة الملة ، والثاني هو ضمان الوصول بهذا الإصلاح إلى غايته ، إذ لو سيق مساقَ الإرغام والإكراه لنبتت له المكايد والعوائق عن يمين وشمال .

ثم جاهر الإمام بأن عماد الارتكاز في هذا الإصلاح هو النهوض بالمستوى المادي لأبناء الأزهر ، وبينما كانت ميزانية الأزهر منذ قرابة سبعين عاما تعد بالمئات من الجنيهات ، استطاع الإمام أن ينتزع فوقها من الدولة ألفين من الجنيهات ، ويا له من رقم هائل خطير في الدولة يوم ذاك ، وفي ميزانية الأزهر المتواضعة جداً بوجه خاص .

* * *

وعلى الرغم من أن الإمام قد اتصل بأوساط غير أزهرية ، وطعم من ثقافات غير أزهرية ، واختلط بأوساط غير أزهرية ، وتعلم بعض اللغات الأجنبية ، ورحل هنا وهناك ، واشتغل بالسياسة والوظائف الحكومية ، ظلت الروح الأزهرية الأصلية غالبة عليه ، وظل هو وفياً لهذا الصبغ الأزهري المتميز ، وقد يدل على شيء من ذلك ما حدث وهو مدير للمطبوعات ، فقد تجلت فيه الدقة اللغوية ، حتى إنه أنذر صاحبَ جريدة مشهورة بإغلاقها إذا لم يتجنب ما يقع فيها من أخطاء لغوية ونحوية ، وإذا لم يعين لها محرراً صحيح اللغة قويم التعبير ، وسارع صاحب الجريدة بالامتثال خوفاً من الإغلاق .

وهناك موقف آخر قد يكون قد أدخل في باب الدلالة على هذه النزعة الأزهرية ، الوفية لبيئتها ، المعتزة بعُرفها وتقاليدها : فقد حدث وهو يشتغل في الحكومة أن حرضه بعض الكبار على ترك عمامته إلى الطربوش ، فأبى وتمنع ، فاستعانوا عليه برياض باشا ، وأوهموه أن الشيخ يريد أن يترك العمامةَ فعلا ، ولكنه يحتاج إلى من يشجعه أو يطلب منه ذلك ، فحادث رياض باشا الشيخَ في

ذلك فعاود إباءه ، ولما ألح عليه رياض قال الإمام : إن كان لا بد من ذلك فإني سأخلع عمامتي أثناء أداء وظيفتي ، ثم أعود إليها بعد ذلك ... فقال له رياض: « كلا ، إنني لا أرضى لك الطربوش ، لأنني أحب أن يعلم الناس أنه يوجد تحت العمائم من العقول والأفهام مثل ما يوجد تحت الطرابيش وغيرها » .

ومن هنا حق لكاتب سيرة الإمام – وهو السيد رشيد رضا – أن يقول : « يا لها من عمامة شرفت برأس صاحبها ، حتى حسدتها الطرابيش ، وهابتها التيجان ، وعظمتها البرانيط » .

ويبلغ الإمام قمة الغيرة على رسالة الأزهر حينما يجاهر منذ عشرات من السنين بأن تسخير رجل الدين في الحزبية والسياسة وأهواء الحاكمين يضر الضرر البليغ بالإسلام والمسلمين ، وكان يطالب للعلماء بأن لا يكون لأحد سلطة عليهم أو تأثير فيهم ، حتى ولو كان الخديوي نفسه ، لئلا يغريهم بوعد ، أو يثنيهم بوعيد ، وهذه حصانة إذا تحققت لرجل الدين الصحيح جعلته قادراً على الجهر بكلمة الحق بلا خشية من بغي أو رهبة من طغيان(1) .

* * *

أما بعد – فقد آتت ثورة محمد عبده في الأزهر أكلها ، وحققت الدفعة التي أرادها ، فصارت في الأزهر علوم حديثة ، ولغات أجنبية ، وصلات اجتماعية ، وبعثات علمية وتعليمية ، ولكن الإصلاح والتجديد كالموكب الدائب المسير ، والأزهر دائماً بحاجة إلى « محمد عبده » جديد ، ليدفع به دفعةً جديدة تؤتي ثمراتها من جديد .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

---

(1) راجع كتابي « وسائل تقدم المسلمين » . الفصل العاشر « رسالة المسجد » صفحة ١٣١ وما بعدها .

الاسلام والقاديانية

السؤال : **ما رأي الإسلام في القاديانية التي يدعي زعيمها أنه نبي جديد ؟.**

الجواب :

ادعاء الكذابين للنبوة داء في الناس قديم ، لأن التقليد عادة عميقة الجذور في الإنسان، والنبوة مقام سام كريم، يحاول التطاولَ إليه الأدعياء والسفهاء ، فهناك مسيلمة بن حبيب ، رسجاح بنت الحارث ، والأسود العنسي في الصدر الأول ، وهناك الحارث بن سعيد في عهد عبد الملك بن مروان ، وهناك إسحق الأخرس في عهد السفاح ، وهناك البهائية والقاديانية وغيرهما . فحديثنا إذن عن خطر القاديانية إنما هو تذكير بخطر ما تكرر من ادعاء وافتراء على الله .

وغلام أحمد صاحب نحلة القاديانية صنيعة من صنائع بريطانيا صاحبة الأفاعيل في عداوة العرب والمسلمين ، وذلك باعترافه هو ، فقد ذكر ما نال أسرته من المصائب قبل مجيء الإنجليز إلى الهند .

ثم عقب بقوله : « ثم رد الله إلى أبي بعضَ القرى في عهد الدولة البريطانية ». فهو إذن ربيب أسرة طعينة في كرامتها ووطنيتها ، لأنها صنيعة أمة لعينة ، عادت الإسلام والمسلمين شرَّ المعاداة ، وكذلك بدأ هذا المفتري حياته العملية موظفاً عند سادته الانجليز ، في إدارة نائب المندوب السامي البريطاني في (سيالكوت) بالهند ، فتطبع بطباعهم ، وأكل من فتاتهم ، وحمته انجلترا بعد ذلك ، ونفخت فيه ، وأعانته مادياً ومعنوياً وأدبياً ، وحمت اجتماعاته المضللةَ بالشرطة والجنود ، ووقته من غضب الشعب واستنكاره بالحديد والنار ، وهكذا كانت دعوته تسير تحت حراب الانجليز الذين أذاقوا الهنودَ ألوان الشقاء والعذاب ، أثناء الاحتلال الانجليزي المرير للهند .

وفي سنة ١٩٠٧م قامت حركة وطنية في (البنجاب) لمقاومة الاحتـــلال البريطاني ، فانضم القادياني المتنبيء مع أتباعه إلى صفوف المحتلين ، وجعل يحض بعض الناس على طاعة الحكومة الأجنبية غير المسلمة ، فيقول : « اذكروا دائماً الحكومة الانجليزية هي رحمة وبركة لكم ، فهي الدرع التي تقيكم » . ويقول في مناسبة أخرى : « وعلى أتباعي أن يقدروا هذه الحكومة الانجليزية ، ويظهروا لها شكرهم واعترافهم بالجميل ، بالولاء وحسن الطاعة » . وفي مناسبة أخرى يحمد الله حيث أنه وُلد تحت راية انجليزية ، ويتباهى بولائه لانجلترا ، فيقول في كتابه (البرية) :

« ولقد أقرت الحكومة بأن اسرتي في مقدمة الأسر التي عُرفت في الهند بالنصح والإخلاص للحكومة الانجليزية ، ودلت تحريات في الوثائق التاريخية على أن والدي وأسرتي كانوا من كبار المخلصين لهذه الحكومة من أول عهدها ، وصدق ذلك الموظفون الانجليز الكبار ، وقد قدم والدي فرقة من خمسين فارساً لمساعدة الحكومة الانجليزية في ثورة ١٨٥٧ م ، وتلقى على ذلك رسائل شكر وتقدير من رجال الحكومة ، وكان أخي الأكبر غلام قادر بجوار الانجليز على جبهة من جبهات الثورة » .

يقول الأفاك الأثيم هذا عن انجلترا التي حطمت الدولةَ الإسلامية في الهند ، وصادرت الأوقاف ، ونشرت الإلحاد ، وقتلت العلماء ، وأغارت على ما استطاعت من العالم الإسلامي تستعبده وتمتص دماءه ...

ومتى عرفنا هذه الرابطة الأثيمة بين القاديانية والانجليز أدركنا لماذا تحارب القاديانية الجهادَ ، فأتباعها مسخرون لسادتهم المحتلين ، ينفذون رغباتهم ، لأن المسلمين هناك تداعوا إلى الجهاد ، وظهرت حركات المقاومة الصارمـــة كحركة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، فخافت انجلترا وأوحت إلى القاديانية لتنادي بتحريم الجهاد ، وهو فريضة محكمة باقية ، فجاءت الفتوى الفاجرة التي يقول فيها القادياني : « لا يحل الجهاد أصلا ضد الحكومة الانجليزية التي أحسنت إلينا ، بل بالعكس يجب على كل مسلم أن يطيع هذه الحكومة بكل

إخلاص » . ورحمة الله على شاعر الإسلام « إقبال » إذ قال في غلام أحمد :
« إنه يتحدث عن مقام الاولياء والعظماء ، وإنما كان مريداً مخلصاً للسادة الانجليز ، إنه يعتقد أن بهاء الإسلام ومجده في حياة العبودية، وأن سعادة المسلمين في أن لا يزالوا محكومين أذلاء ... إنه كان يعد حكومة الأجانب رحمة إلهية ، لقد رقص الرجل حول الكنيسة ومضى لسبيله » ..

والقادياني الماكر قد تدرج بخبث في الادعاء ... تظاهر أولا بالدفاع عن الإسلام وتبيان حقائقه ، ثم ادعى الإلهام وأنه مصلح مجدد ، ثم ادعى أنه مثل المسيح وله فطرة كفطرته ، ثم ادعى النبوة ، وفضل نفسه على سائر الأنبياء ، ثم قال إنه المسيح قد عاد .

والعجيب أنه لم يحاول التظاهر بهدى النبوة في الإعراض عن الدنيا ومتاعها ، بل جمع المال الكثير من أتباعه ، وأخذ ينفقه على الملذات والشهوات. بينما تراه يتطاول بتقليد الرسول صلوات الله عليه وسلامه ، فيسمي زوجته « أم المؤمنين » ، ويزعم أن الله قد أمره بزواج فتاة معينة سماها (كأنه يريد التشبه بالنبي في قصة زينب بنت جحش) ، ويأتي بكلام مفتري يزعم أنه وحي فتراه يسرق من القرآن المجيد مع بتر وتشويه ، كأن يقول : « إني رافعك إلي ، وألقيت عليك محبة مني . لا إله إلا الله ، فليكتب وليطبع ولينشر في الأرض : خذوا التوحيد يا أبناء الفارس ، وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم » ... إلخ .

والقاديانية نفسها تحكم على نفسها بأنها ليست من الإسلام ، وأن أتباعها ليسوا بمسلمين ، ففي سنة ١٩٠١ م سجلوا أسماءهم في سجلات مفصولة عن سجلات المسلمين .

ويقول في ذلك ابن القادياني : « وكانت هذه السنة مبدأ التفريق بيننا وبين المسلمين » .

وهناك وجه كفران آخر لهم ، هو أنهم يقولون بأنبياء بعد محمد خاتم النبيين ،

مع أن القرآن يقول : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » .

وفي البخاري : « وانه لا نبي بعدي » ، وفيه : « وأنا خاتم النبيين » ، وفي مسلم : « جئت فختمت الأنبياء » . ومن إثمهم في التأويل المجرم أنهم يقولون إن « خاتم » ، هنا بمعنى حلية ، فهو كالخاتم حلية في الإصبع ، مع أن كلمة « خاتم » فيها قراءتان ، قراءة بكسر التاء ، وهذا لا جدال في أنها نص على أنه خاتمهم وآخرهم ، والأخرى بفتح التاء ، وهي أيضاً تستعمل في اللغة بمعنى المكمل الأخير . وهل يكون لتفسير كلمة خاتم بمعنى حلية أية قيمة أو أية تكريم للرسول مع الأوصاف الجليلة الأخرى مثل : « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً » ، « وإنك لعلى خلق عظيم » ، « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » ؟.

ثم إن عموم الرسالة المحمدية لجميع الخلق يقتضي عقلا — بعد أن تواتر نقلا — أن تكون هي الرسالة الخاتمة الدائمة ، والله يقول : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » . ويقول : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » .

ومن هذا البيان يتجلى ضلال هذه الطائفة ، وبُعدها عن الإسلام، وخطرها على المسلمين .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

عمر صاحب البصيرة

السؤال : كيف استطاع عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يبلغ هذه المكانة المشهورة اللامعة ؟. وما أهم الملامح البارزة في شخصيته ؟.

الجواب :

في كثير من الأحيان يستعرض الإنسان سيرة الخليفة الثاني عمر رضي الله الله عنه ، فيرى شخصيةً واسعة المدى متعددة الآفاق ، فيحاول أن يضع عنواناً عاماً أو شبه عام لهذه الشخصية .

وفي رأيي أن خير عنوان يوضع لشخصية عمر بن الخطاب أنه رجل « صاحب بصيرة » ، وأفهم من البصيرة معنيين : عمق التفكير والنظر ، ثم الاهتداء إلى الرأي الصواب في حينه وأوانه؛ وكذلك كان عمر رضي الله عنه : إنه يخرج في أول أمره ، وعلى فكره وعقله ووجهه غشاوةٌ من ظلمات الجاهلية ، ليفتك بمن حمل الدعوة وجاء رحمةً للناس أجمعين . وفي الطريق يقال له إن أختك وزوجها قد صبآ ، فهما أولى بعقابك وتعذيبك ، فيعود عمر إلى أخته وزوجها ، ويسمع بعد جدال عنيف شيئاً من القرآن الكريم ، فإذا بصيرته تهديه إلى أن هذا الكلم العميق الدلالة ، السماوي النفحة ، العالي عن مستوى البشر ، لا يكون من كلام الناس : إنما هو فوق طاقة الناس . وإذا بصيرة عمر تهديه إلى الإيمان ، فيذهب متعجلا ليشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

ثم نشهد هذه البصيرة نفسها من عمر بعد قليل من إسلامه ، فهو في حوار وجيز مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله : لماذا نستخفي بأنفسنا ، ونحن على الحق ، وغيرنا على الباطل ؟. وما يزال عمر يرتجي من رسول الله صلى الله عليه وسلم إعلانَ الدعوة حتى يستجيب له ، ويخرج الرسول بين صحابته صلوات الله وسلامه عليه ، ويعلن هذه الدعوة ، فيكون إعلانها توفيقاً ونصراً، وفارقاً بين عهد كان فيه استخفاء وتستر ، وعهد فيه قوة وصدع بكلمة الله سبحانه وتعالى .

وتمضي الأيام بعمر ، فإذا هذه البصيرة ترتقي به درجات فوق درجات ، حتى يقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم : « قد كان في كل أمة مُلْهَمون، فان يكن أحد منهم في أمتي فعمر » . وإنما جاء هذا التعبير على هذه الصورة

لتواضع النبي صلى الله عليه وسلم في وصف أمته . فإذا كانت الأمم من قبلُ قد ضمت ملهمين ، فأمة محمد صلى الله عليه وسلم وهـو خاتم النبيين والمرسلين أولى الأمم بأن يكثر فيها الملهمون . وقد نص الرسول على أن عمر من هؤلاء الملهمين .

وعاد مرة أخرى صلوات الله وسلامه عليه ليقول عن عمر : « إن الشيطان يفر من عمر ، فما رآه سالكاً فجا إلا سلك فجا غيره » .

هذه البصيرة التي ارتفعت بعمر بهذه الصورة ، تبلغ به أن يستشف هـدى الإسلام قبل أن يتنزل في حكم محدود فاصل . ومن هنا جاء ما يقوله الرواة وأهل السيرة عن موافقات عمر رضي الله عنه للقرآن ، فلم تكن هذه الموافقات تهجماً على الغيب ، ولا قولا على الله بغير حق ، ولا سبقاً لكلمة الوحي الفاصلة ، وإنما هي فطرة البصيرة التي أسلمت وآمنت ، وزادها الإسلام تطهراً ونقاء ، فهي تستشف هذا الهدى ، لا على سبيل الحكم والقطع ، ولكن على سبيل الجري مع طريق الدعوة المستقيم الذي ألفه عمر ، وأدرك أنه سيسير على استقامته ، دون أن ينحرف يميناً أو شمالا ، وتلك هي البصيرة التي ارتفعت بعمر درجات ودرجات .

إن بصيرة عمر تجعله يقف موقفين متعارضين متناقضين ، ولكن كلا من الموقفين يأتي في أوانه، ولا يتطلب كل منهما سوى هذا التصرف .

في حياة الرسول صلوات الله عليه وسلامه ، وفي عهد أبي بكر الصديق ، نرى عمر يمثل غالباً عنصر الشدة والصرامة والعنف . لماذا ؟. لأنه يعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم في يده الزمام ، وفي يده صمام الأمن ، وهو رحمة الله للعالمين . فلا يخاف عمر أن تجمح به هذه الشدة ، وإنما هو بفطرته وبصيرته يمثل هذا الجانب ، فإن شط أو بعد ، فإن يد النبوة كفيلة بأن ترده إلى سواء السبيل .

وفي عهد أبي بكر يرى عمر لين الخليفة الأول ، وهذه الربانية التي تجعل

أبا بكر رجلا بكّاءً حزيناً ، يميل في أغلب أحواله إلى الرفق والرحمة ، فلا بد من شيء من التوازن والتعادل مع رفق أبي بكر ولينه . ولكن عمر ما يكاد يتولى الخلافة ، ويتسلم زمام الأمور ، ويشعر بأنه أصبح الرجل الأول في الدولة ، وأصبح المتصرف فيها ، حتى تنقلب الشدة رحمة وليناً ، كيلا لا يفزع الناس من حوله ، ولقد خاف بعض الناس من شدة عمر حينما تولى الخلافة ، ولكن هذا الرجل الشديد الصارم ، الذي كان حينما يشمّ رائحة نفاق من أحد يقول للنبي صلى الله عليه وسلم : دعني أضرب عنقه يا رسول الله ، أو يقول : مُرْ فلاناً فليقتله يا رسول الله .

ينقلب عمر إلى رجل بكاء ، وإلى ساهر على الرعية يعس بالليل ، ويتحسس مطالب الأمة ، ويحمل الدقيق والزيت للمرأة العجوز ، ويوقد لها النار ، ويجعل الدخان يتخلل لحيته ويبكي ، ويقول حزيناً: كم أجاع عمر من أكباد المسلمين. الويل لعمر ، ويحاسب نفسه حسابَ الرجل الحزين الخائف ، الخاشي من الله سبحانه وتعالى كل الخشية . فلو أن قوة عمر أو صلابته في عهد أبي بكر انقلبت ليناً لما وجد صمامُ الأمن من يمثل الشدة .

ولو أن عمر في خلافته بقي على شدته لفزع الناس من حوله ، ولذلك وقف عمر هذين الموقفين المتقابلين ، وكل موقف منهما في مكانه ، وفي مناسبته الملائمة له ، فكان هذا مدداً من مدد البصيرة التي أعتقد أن عمر كان قريناً لها ، وكان عل حظ كبير منها . ثم إن صاحب هذه البصيرة يستخدمها خير استخدام عند تطبيق هذه الشريعة بأحكامها وتعاليمها .

إن للشريعة نصوصاً ، وإن هذه النصوص لها أهداف ومقاصد . وهو رجل لا يخضع لحرفية النص ، وإلا لتقلصت النصوص ، ولم يوجد معها القياس والفهم والتأويل والاعتبار الذي أرشد إليه القرآن ، ولو أنه أهمل النص لكان خارجاً عليه ، والنص هو صمام الأمان وزمام الأمة الذي يردها دائماً عن شطط الطريق كلما حاولت أن تستخدم عقلها ، أو أن تبعد بفهمها عن المعنى الأساسي للنص.

وعمر صاحب البصيرة يرى في نصوص الدين أنها العاصم من الشطط ، أو من الخروج ، وهو في الوقت نفسه يحسن تأويل هذه النصوص ، ويحسن تطبيقها ، ويضع كل نص في مقامه ، ويوفق بين الجزئيات والكليات ، وبين القواعد والفروع ، وبهذا استطاع عمر أن يقف مواقفَ قد يعارضه فيها بعض الذين نظروا نظرات فقهية جانبية لنص من النصوص ، أو لقاعدة من القواعد . وعندي لو أن علماء الدين قد عكفوا على دراسة فقه عمر دراسةً كاملة شاملة ، لاستطاعوا أن يخرجوا بكثير من النظرات العمرية العميقة في فهم نصوص الإسلام وقواعده ، بهذه البصيرة التي رزقها الله لعمر .

هذه الشخصية الضخمة الصارمة الشديدة القوية ، التي تقف للباطل بكل مرصد ، وتقاوم المنكر في كل سبيل .

قد يتوهم بعض الناس أنها شخصية قاسية ، شخصية سيف ، شخصية حكم ، شخصية تطبيق صارم عنيف ، ومع ذلك نجد البصيرة العمرية تستكمل الأجزاء الباقية للشخصية الواسعة الأفق الكاملة ، فإذا عمر يمثل لنا جوانبَ فيها المعاني التي نقول عنها إنها أدبية أو فنية أو جمالية .

عمر الذي تحدثنا عنه هذا الحديث ، ونعرفه هذه المعرفة ، هو الأديب الذواقة للكلم الطيب ، وهو الذي يقول في بعض عبارات له ما معناه : « لولا أنه يعبد الله ويجلس إلى قوم يتخيرون أطايب الحديث لما كان يبالي أن يموت » .

وهو الرجل الذي يسمع الشعر وينشده ، ويتذوقه ويفهمه ، ويحاول في موطن قضائه أن يصرف الأذهان عن المعنى الخبيث الذي قد يفهم من هذا الشعر لأنه في موقف القضاء . وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفهم التعليقات العمرية التي علق بها على بعض أبيات ، فهذا عمر يسمع في موقف التحاكم إليه قول الشاعر :

قبيلته لا يخفرون بذمـــة ولا يهضمون الناسَ حبةَ خردل

فيقول : ليتني كنت من هؤلاء ؛ مع علم عمر الأصيل بالطريقة العربية في

التعبير عن الجبن بهذا الأسلوب ، لكن عمر كان يريد في موقف القضاء أن يدرأ عن الشاعر عقوبةَ الطعن والسب في الناس .

وعمر نفسه هو الذي يقول : روّوا أولادكم الأشعارَ ، فإنها تدل على مكارم الأخلاق . وهو الذي يقول : من لم يرو محاسنَ الشعر لم يحسن أدبه .

وهذا المعنى يعطينا الجانبَ الجمالي الأدبي الفني في شخصية عمر ، وقد يكمل هذا الجانبَ الكلماتُ العمرية البليغة التي رُويت عنه رضوان الله عليه .

يقول مثلا : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسَبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا ، وتزينوا للعرض الأكبر (يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) .

انظر هذه الاستعانة البارعة بالجملة القرآنية في تزكية المعنى الذي يقصده ، وهو إنذار الناس بأن يكونوا محاسبين لأنفسهم ، قبل أن يصير الحساب إلى الله سبحانه وتعالى ، وأن يستعدوا ، وهذا مقصوده بالتزين : « يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم » .

ويقول أيضاً : « من كتم سرَّه كان الخيار إليه » . وكلمة : « كان الخيار إليه » فيها معنى عميق ودقيق . فالشخص الذي يكشف سرَّه ويظهره لأعدائه يصبح أسيراً لكشفه . أما حينما يطويه فهو مالك أمره ، وسيد لموقفه ، إن شاء أعلن هذا السرَّ عندما يحتاج إلى الإعلان ، وإن شاء طواه إن لم يكن هناك مجال للاعلان .

ولو تتبعنا كلمات عمر التي رُويت عنه ، وفيها الإيجاز وفيها البلاغة والعمق ؛ لوجدنا مادة كبيرة جداً لدراسة عمر الأديب البليغ الذواقة للكلم الطيب ، كقوله مثلا : « لا يكن حبك كَلَفاً ، ولا يكن بغضك تَلَفاً » . وكقوله : « يعجبني من الرجل إذا سيمَ خطةَ خسف أن يقول : لا ، بملء فيه » . بل أكثر من هذا نجد عمر يمثل في حياته الجانبَ الجميل الرقيق الذي يلطِّف شدةَ قوته في المواقف العملية .

فقد كان يستحب أن يسمع الغناء المهذب ، ويقول فيما يقول : الغناء حداء

الراكب ، وكأنه يشير إلى أن المرتحل في الصحراء فوق ظهور الإبل ، يحتاج والطريق ممتدة ، ووسائل الحياة نادرة ، إلى أن يستعين بالصوت الجميل ويردد اللفظ الطيب الدال على المعنى الكريم ، فيكون ذلك تسلية من ناحية العقل ومن ناحية القلب ومن ناحية الروح .

الواقع أن شخصية عمر بن الخطاب شخصية يصعب إحصاء جوانبها واستقصاء مميزاتها . فهو رجل صاحب بصيرة ، استطاع بهذه البصيرة أن يجعل نفسه صالحاً مصلحاً في أمة الإسلام ، وأن ينفع أمة الإسلام خلال عمره المبارك، وأن يترك من ورائه تراثاً ما زال بحاجة إلى دراسة كاملة متعاونة على تجلية الجوانب العمرية .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

السيدة خديجة

السؤال : **ما هو الدور الذي لعبته السيدة خديجة رضي الله عنها، في حياة النبي عليه الصلاة والسلام ، وفي تاريخ الإسلام ؟.**

الجواب :

منذ أكثر من نصف قرن كان يوجد في مصر عالم إسلامي جليل ، يعد خليفة للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، هو المرحوم السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار . وفي هذا الوقت كتب السيد رشيد رضا في مجلة المنار في سنة ١٣٢٦ هجرية (١٩٠٨) ميلادية في المجلد الحادي عشر من هذه المجلة، مقالة عن أثر القصة في القارئين ، وعن وجوب انتفاع الأمة المسلمة بهذا اللون من ألوان الأدب ، واقترح على القادرين من كُتّاب الأمة المؤمنة وأدبائها ، أن يصوروا لنا التاريخَ الإسلامي بأسلوب قصصي ،يحتفظون فيه بحقائق التاريخ،

ولكن يوجد فيه من التسلسل القصصي ما يجذب القراء إلى متابعة قصة الشخصية التي يكتب عنها .

ثم سارع شهيد الأمة العربية المرحوم السيد عبد الحميد الزهراوي الذي قتله السفّاح أحمد جمال باشا في الحرب العالمية الأولى ، سارع إلى تحقيق هذه الأمنية للسيد محمد رشيد رضا ، فكتب سيرةً جليلة عظيمة للسيدة خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها وأرضاها ، وقد نُشرت هذه القصة تباعاً في مجلدات المنار ، ثم جمعها السيد رشيد رضا في كتاب طُبع أكثر من مرة ، ولكن هذا الكتاب أصبح الآن مجهولا من عامة القراء ، لتقادم الزمن عليه ، وعدم حرص القارئين على متابعة ما نُشر في زمن بعيد .

ومع أن هذه السيرة التي كتبها المرحوم الزهراوي عن السيدة خديجة سيرة قيمة وجليلة وعميقة ، نجدها لم تحقق الهدفَ الذي قصده السيد رشيد رضا من كتابة التاريخ الإسلامي والحديث عن أبطاله بأسلوب قصصي يجذب القراء ، فقد عُني المرحوم الزهراوي بفلسفة البيئة والمجتمع الذي عاشت فيه السيدة خديجة ، أكثر مما عني بسرد حياتها وتاريخها، ولذلك أعتقد أننا ما زلنا محتاجين أيضاً إلى أن يُكتب تاريخنا الإسلامي،وأن تُكتب سير أبطاله بأسلوب قصصي ، لا يُعْتَدى فيه على أي حق من حقوق التاريخ ، وفي الوقت نفسه تتوافر لهذا المكتوب عناصر التشويق والتسلسل والتتابع الذي يجذب جمهور القراء إلى قراءة هذا التاريخ .

لو أن كاتباً من الكتاب عكف على سيرة السيدة خديجة منذ نشأتها الأولى ، ومنذ كانت في جاهليتها إلى أن اقترنت بسيد الإنسانية محمد عليه الصلاة والسلام، إلى أن توفيت في عام الحزن ، ثم ما خلف وفاتها من ذكريات ومناسبات احيا فيها الرسول عليه الصلاة والسلام سيرةَ خديجة وذكريات خديجة ؛ لو أن كاتباً فعل ذلك لخرج لنا بقصة ممتعة مشوقة ، متسلسلة كل التسلسل ، تصور لنا هذه الشخصية العظيمة الخالدة التاريخ .

السيدة خديجة يمكن أن ننعتها بأنها « سيدة العرب الأولى » ، وأنها « سيدة

الإسلام الأولى » ، وأنها « أم المؤمنين الأولى » ، ولكل من هذه النعوت مناسبته وموجباته . إنها كانت سيدة العرب الأولى ، لأنها نُعتت قبل بعثة النبي عليه الصلاة والسلام ، وقبل أن يقترن بها صلى الله عليه وسلم ، بأنها سيدة قريش . وهذا لقب ذكره المؤرخون في مصادرهم ، كما نُعتت في المجتمع الجاهلي قبل أن تقترن بالرسو ل بأنها « الطاهرة » ، فلقب الطاهرة بجوار لقب سيدة قريش يجعلان هذه المرأة بالفعل سيدةَ العرب الأولى .

ثم هي سيدة المسلمين الأولى ، لأنها كانت أول من أسلم في الوجو د ، فكسبت بذلك فضلَ السبق على النساء والرجال ، والكبار والصغار . وأصبحنا إذا قيل لنا : من هو أول من أسلم و استجاب لدعوة الإسلام ؟. قلنا : امرأة تسمى خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، وهذا يجعلها فعلا تستحق أن تكون سيدة الإسلام الأولى . أما أنها أم المؤمنين الأولى ففوق أنها الزوجة الأولى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبذلك استحقت أن تكون أم المؤمنين الأولى ، فإنه يضاف إلى ذلك ما تجلى مع إسلامها من صدق إيمانها وعمق يقينها ، فهي لم تكتف بأن تستجيب للرسول مسلمةً بالكلمة ، وإلا لقيـــل : زوجة تابعت زوجها لأنها أقرب الناس إليه ، ولأنها أحق الناس بأن توافقه فيما يقول وفيما يتجه إليه ، ولكن السيدة خديجة استطاعت أن تقف على الشاطىء ترقب هذه الأمواج الروحية المعنوية الضخمة ، وأن ترصد مهارة الرسول عليه الصلاة والسلام وهو يقف بين هذه الأمواج وقفة العملاق الذي عصمه ربه ، وآتاه من نوره ويقينه ما يجعله رحمة الله للعالمين ، فآمنت وصدقت ، وبذلك تستحق خديجة أن تكون أم المؤمنين الأولى. ثم لو نظرنا إلى شخصية السيدة خديجة حتى قبل أن نلحظ ميزاتها من جهة أنها زوجة الرسول ، وأنها أم المؤمنين ، وأنها كسبت جلالها وعظم مكانتها من هذه الصلة بالنبي عليه الصلاة والسلام ، لوجدنا فعلا سيدة توافرت لها مقومات الشخصية العظيمة .

كانت السيدة خديجة أولا من قبيلة مشهورة بشجاعتها وبجرأتها وشرفها . وكانت السيدة خديجة امرأةً حازمة وذات صرامة في رأيها . ولعل هذا يتجلى

عندما يعرض عليها الزواج فلان وفلان وفلان من أثرياء القوم ، فتأبى وترفض أن تتزوج ، بعد أن جربت الزواج مرة ومرتين . ثم كانت امرأة عاقلة عندما جاءها النبي عليه الصلاة والسلام يرجف ويقول : دثّروني دثروني ، زمّلوني زملوني ، إذ لم يغب عن عقلها أن تلحظ أن مثل هذا النبي الأمين الصادق الوفي النقي الصالح المستقيم ، لا يمكن أبداً أن يخذله مَن أبدع هذا الكون وأقامه ، ولذلك أخذت تتلمس له أسبابَ صدقه في رسالته من أعماله وتقول له : أنت تفعل كذا ، وأنت قد فعلت كذا ، كلا والله لا يخزيك الله ابداً . ولم تكتف بأن تقنع من جهتها الرسولَ عليه الصلاة والسلام بأنه لا داعي لأن يخاف أو لأن يتشكك ، بل أضافت إلى هذا أن أخذته وذهبت به إلى ابن عمها ورقة بـــن نوفل ، وورقة بن نوفل في هذا الوقت يمثل جانب الإلهيين من الناس ، الباحثين عن الكتب الدينية القديمة ، وله من شيبته ومن سنه المتقدمة ومن عدم دخوله في العصبيات والحزبيات السائدة في هذا الوقت ما يجعل لكلامه ميزاناً قيماً إذا ما تكلم . وكأنها أرادت أن تتلمس التأييد الحسي من مجتمعها ، لكي تؤكد صدق الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولذلك فرحت عندما سمعت ورقة ابن نوفل يقول : ان هذا هو الناموس الذي كان ينزل على موسى ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً ، إلى آخر ما نعرفه من القصة .

ومن مقومات شخصية خديجة الكبيرة أنها كانت امرأة رحيمة حنوناً ، فقد عاشت معيشةً فيها صبر وجلد منذ تزوجت الرسول عليه الصلاة والسلام . إن الرسول بعد الخامسة والعشرين وعلى أبواب الثلاثين بدأ يحبّب إليه الجانب الروحي والانفرادي والاعتكافي والانعزالي بشكل واضح ، وكان هذا كله على حساب خديجة الزوجة ، وعلى حساب الرفقة وشأن البيتوتة التي تستدعي بقاء الزوج إلى جوار زوجته ، فهو يذهب ويتحنث الأيام والليالي ذوات العدد، وهي تبقى في بيتها ليس معها إلا ذلك الطفل الصغير ، وهو هند الذي وُلـــد لها من زوجها أبي هالة ، ثم لا تتضجر ولا تطالب بحقها كزوجة ، بل هي تعد الطعام ، وتنظف الثياب ، وتجهز الماء ، فإذا ما عاد إليها زوجها قضى معها

وقتاً قصيراً ، ثم زودته بزاده ، ثم عاد ليقضي الأيام والليالي ذوات العدد ، وهكذا .

ثم يضاف إلى هذا أيضاً تلك الثروة التي كانت عند السيدة خديجة ، لأن هذه الثروة عندما توضع في اليد العاقلة الحازمة الذكية التي لا تشتط بها ، فإنها في هذه الحالة تكون دليلا على عقل صاحبة هذه الثروة ، فهي لم تحاول أن تتخذ من هذه الثروة مجالا للعبث أو المجون أو اقامة ليال سوداء ، أو تبني بها القصور أو تستجلب بها الرجال ، أو تقوم بسهرات عابثة سوداء أو حمراء أو غير ذلك.

ثم هناك ناحية خرى في السيدة خديجة تجعلها شخصية قوية ، وهي ميلها إلى الاتجار في مجتمع كانت الصبغة الغالبة عليه الإقراض بالربا ، فهذه الشخصية الكبيرة لا بد وأن تكون كفئاً لمن هو أكبر منها ، لما جرى عليه العرف في كل بنات الدنيا من أن الرجل يكون في مجموعة صفاته أقوى أو أظهر من المرأة ، وقد هيأت الأقدار لهذه السيدة الجليلة العظيمة رجلا أعظم منها وأجل ، أكسبها شرفاً إلى شرفها ، وزادها مجداً على مجدها .

وقد روى التاريخ الكثير عن وفاء النبي صلى الله عليه وسلم لخديجة ، وهذا الوفاء النبوي الكريم كان قبل الزواج وعند الزواج وبعد الزواج ، وعند الوفاة وبعد الوفاة ، ويمكن أن نتتبع هذا الوفاء النبوي الكريم الذي يأخذ ألواناً متعددة ، فنجده سلسلة متواصلة ، فقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام وفياً لخديجة عندما تاجر لها فكان أميناً ، وتضاعفت الأرباح والمكاسب على يديه ، فلم يغتل من هذه الأرباح أو تلك المكاسب شيئاً ، بل عاد بأمانته ليقدم إليها هذا الفيضَ الكثير مما كسب في التجارة ، وكان محمد عليه الصلاة والسلام وفياً لحرمة السيدة خديجة عندما أرسلت إليه من تعرض عليه أن يتزوج منها ، فلو كان غير حافظ لكرامتها لعلق على ذلك كما يعلق عامة الناس ، وكما جرت العادة بأن تعاب المرأة عندما تعرض نفسها على الرجل زوجة له ، ولكن ما كادت حاملة الرسالة تذكر له أن خديجة تعرض عليه الزواج ، حتّى رحب النبي عليه الصلاة والسلام .

وتزوج النبي عليه الصلاة والسلام خديجة ، ولم تكن بكراً ، فقد تزوجت قبله رجلين ، والمرأة إذا تزوجت قبل زوجها الحاضر بآخرين أو بآخر تتعرض لحرج ، فقد تدعو النفسُ الضعيفة الرجلَ إلى أن يذكّرها أو يعيرها بأنها ليست بكراً ، وبأنها ثيب ، ولكن هذا لم يحدث مطلقاً ، ونحن نعلم أن كل كبيرة وصغيرة قد عُرفت في حياة النبي صلى الله عليه وسلم .

ولم تكن خديجة فارغةً من جهة أخرى ، فقد كان معها ابنها هند ، وهو قد سُمّيَ ربيبَ النبي عليه الصلاة والسلام ، وغلبت عليه هذه التسمية ... ولم يفكر النبي يوماً من الأيام أن يتصرف كما يتصرف الرجل عندما يجد أولاداً لزوجته من رجل آخر ، فيحاول أن يسيء إليهم ، أو يعتدي عليهم ، وظل هند هذا يسمى ربيب النبي حتى قُتل مع علي بن أبي طالب في موقعة الجمل ، ويروى في بعض الروايات أن القتلى كانوا كثيرين في تلك الموقعة ، فشُغل كل أهل بيت بقتيلهم ، ولم يجد هند من يشيعه أو يهتم بأمره ، فهتفت امرأة وقالت : واربيب رسولاه . فما سمعت المدينة هذه الكلمة الا وترك النـــاس موتاهم ، وانصرفوا إلى هند ليشيعوه كما ينبغي ، وكما يليق بربيب الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويظل النبي صلوات الله وسلامه عليه وفياً لخديجة ، لا يتزوج عليها مع كثرة الدواعي الفردية أو الجماعية التي قد تدعو لهذا الزواج ، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام وفياً لخديجة حينما سمى عامَها الذي توفيت فيه وتُوفي فيه عمه أبو طالب « بعام الحزن » ؛ ثم هناك هذه الذكريات الكريمة التي كان النبي يرددها عن خديجة وهي الذكريات التي أدت بالسيدة عائشة وهي الصديقة بنت الصديق الطاهرة المبرأة أن تقول له عبارة تصور لنا غيرتها : أليس سوى خديجة ؟ أوليس في الدنيا سوى خديجة ؟. فيقول الرسول عليه الصلاة والسلام ما يؤكد بأن خديجة كانت أحبَّ الناس إليه ، ومع من ؟. إنه لم يقل هذا الكلام لأم سلمة مثلا ، التي تقدمت بها السن ، أو مع امرأة غير عربية كصفية بنت حيي بن أخطب ، إنما يقوله لعائشة الحبيبة بنت الحبيب أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وهي المرأة التي كان يؤكد أنه يحبها ، وأن الوحي يجيء إليه وهو في فراشها ، ومع ذلك يجابهها بالحقيقة .

والنبي صلى الله عليه وسلم لم يتزوج غير خديجة طوال حياتها ، وفي هذا رد على الذين يزعمون أن الرسول عليه الصلاة والسلام رجل نساء أو رجل متاع ، مع أنه تزوج امرأة كانت في الأربعين من عمرها أو فوق الأربعين ، وكانت ثيباً قد تزوجت برجلين ، وكان هو في الخامسة والعشرين من عمره ، فهي تكبره بخمسة عشر عاماً ، ثم يبقى معها ربع قرن من الزمان ، أي خمسة وعشرين عاماً ، فيقضي كلّ الشباب معها ، حتى يصل إلى الخمسين ، وتصل هي الى نحو الخامسة والستين ، ولم تتطلع عينه أبداً لا في مراهقته ولا في صباه ولا في رجولته ولا في كهولته ، إلى امرأة أخرى ، فكيف يعقل بعد هذا أن يعود فيتزوج لمجرد المتعة ، أو مجرد الفراش . وأعود إلى عرض السيدة خديجة نفسَها على الرسول ، فأفهم منه أنه كما أن للرجل الحقّ في أن يختار زوجته فللمرأة الحق في أن تختار زوجها ، وكما أن من حق الرجل أن يرى من يتزوجها ليستريح إليها ، يكون من حق المرأة أن ترى من ستتزوجه لتستريح إليه ، ولقد قال النبي عليه الصلاة والسلام لجابر عن خطيبته : اذهب فانظر إليها لعله أن يؤدم بينكما ، فكلمة : « يؤدم بينكما » تفيد معنى التالف المشترك ، والتواد المتبادل ، وتشير إلى أن المرأة لا تساق سوقَ النعاج إلى رجل لا تحبه ، أو تستثقل ظله ، أو تستقبح شكله ، أو يوجد فيه عيب من العيوب ، وهذا مما يجب أن ننص عليه وأن نؤكده ، لأنه ما زال عندنا بقايا من النـــاس ينظرون إلى موضوع الزواج على أنه حق خالص لولي الأمر ، أباً كان أو عماً أو أخاً أو ابناً كبيراً ، أو ما شابه ذلك .

ثم إن في قصة السيدة خديجة أموراً يجب أن ننص على أنها دخلت على هذه السيرة من صنع القصاصين ، أو من كيد أعداء الإسلام أو أعداء المسلمين ، ففي بعض الكتب مثلا جاء أن السيدة خديجة عندما عاد إليها الرسول عليه الصلاة والسلام من الشام أخذت يده ، ووضعتها على صدرها ، وقالت له ما قالت ، فلا يعقل إنسان أن سيدة كبيرة كالسيدة خديجة في حزمها وعقلها وتصرفها تفعل مع الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك ، ولو أنها فعلت لما طاوعها الرسول ،

ولما قبل منها ، ومثل هذا مما أضيف إلى قصة السيدة خديجة رضي الله عنها ، وليس بصحيح ، أن يزعم زاعمون أو يفتري مفترون أن السيدة خديجة جعلت أباها ولياً لأمرها في زواجها ، وأنها أطعمته وسقته خمراً حتى سكر ، ثم ألقت عليه ثوباً كما هو موجود في بعض الكتب .

إن الدافع الحقيقي الذي جعل السيدة خديجة تعرض نفسها على النبي عليه الصلاة والسلام ، وهو فيما أفهم – والغيب يعلمه الله – أنها سمعت من أقوال أهل الكتاب عن نبي منتظر ، وهي بعقلها جعلت تفكر في هذا المنتظر ، وتتلمس الصفات التي تناسب رسولا يهدي الناس ، ويرشدهم إلى طريق رب العالمين ، فلحظت هذه الصفات أو أكثرها في النبي صلى الله عليه وسلم ، فتعلقت همتها بالزواج منه ، رجاء أن يكون نبي الأمة، وقد صدق الله تبارك وتعالى ظنها، فكانت خير امرأة في العالمين ، لخير نبي في العالمين ، رضي الله عن خديجة ، وصلوات الله وسلامه على سيد الأنبياء .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

أحكام الميت
والدار الآخرة



الحياة في القبر

السؤال : **ينكر البعض نعيمَ القبر وعذابَه ، فما رأي الإسلام في ذلك ؟.**

الجواب :

من آيات الكتاب المجيد (القرآن) طائفة كريمة ، فيها إشارة، وفيها دليل، على حياة الإنسان في القبر ، وعلى نعيمه أو عذابه ، ومن قبيل هذه الآيات قوله تعالى : « النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » . أي يعرضون على النار في القبر قبل قيام الساعة ، ثم يأتي العذاب الأشد يوم القيامة . ومن قبيل هذه الآيات قول الله تعالى : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة » . فقد ذكر المفسرون أن المراد بالتثبيت هنا هو تثبيت الإنسان عند سؤال القبر ، واستشهدوا على ذلك بالحديث النبوي ، وهو قول الرسول صلى الله عليه وسلم وقد انتهى من دفن بعض صحابته : « استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت من الله ، فإنه يُسأل الآن » .

كذلك من الآيات التي تشير إلى عذاب القبر ونعيمه قول الله تبارك وتعالى : « فإن له معيشة ضنكاً » ، فهناك أكثر من مفسر قد فسر المعيشة الضنك بأنها عذاب القبر ؛ وكذلك قول الله تعالى : « ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر » . فقد فسروا العذاب الأدنى بأنه عذاب القبر ، وأن العذاب الأكبر هو عذاب يوم القيامة ، وكذلك قول الله تعالى : « سنعذبهم مرتين ، ثم يردون إلى عذاب عظيم » .

فقد قالوا إن العذاب الأول من المرتين هو الهزيمة في الحرب ، والعذاب في المرة الثانية هو عذاب القبر ، والعذاب العظيم الذي ختمت به الآية هو عذاب يوم القيامة .

وهناك أحاديث وُصفت بالصحة تدل على عذاب القبر ، كقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « عذاب القبر حق » ، وكاستعاذته من عذاب القبر حين قال : « وأعوذ بك من عذاب القبر » ، وكقوله : « إن هذه الأمة تُبتلى في قبورها » . وحين خطب خطبته يوم الكسوف كان مما جاء فيها : « ولقد أوحى إليّ أن هذه الأمة تُفْتَتَن قريباً من فتنة المسيح الدجال » ، وسأل أحدُ الصحابة الرسولَ صلى الله عليه وسلم فقال : ما بال الناس يفتنون في قبورهم إلا الشهيد ؟. فأجابه إجابةً رائعة حينما قال له : « كفى ببارقة السيف فوق رأسه فتنة » .

والرسول يصف القبر في بعض أحاديثه بأنه بيت الغربة ، وهذا التعبير فهم منه العلماء أن الحياة في القبر لا تُلحق بالحياة الدنيا ، ولا تلحق بحياة الدار الآخرة ، وسموها بالحياة البرزخية لأنها وصلة بين الأولى والأخرى .

إن الماديين أنفسهم — الذين لا يؤمنون بالبعث — يقولون إنهم يستحضرون الأرواح ويخاطبونها ، ومع عدم تدخلنا في صحة هذا الكلام أو عدم صحته، نرى أن هذا القول منهم يفيدنا نحن في إثبات أن الروح حية خالدة ، ونزيد على ذلك ما يقوله ديننا من أن هذه الأرواح لها صلة بأجسامها من ناحية الاحساس بالعذاب أو النعيم .

وعلى كل حال فالمسألة تعتمد على الثقة بالمحدث الذي يحدثنا عن هذا الغيب، وهذه الثقة توافرت لرجال الصدر الأول ، ولذلك كانت مسألة عذاب القبر ونعيمه لا تثير جدلا أو إشكالا عندهم ، وكان بلال بن أبي رباح وهو على فراش مرض الموت يحس بالموت يقترب منه يردد : « غداً ألقى الأحبة محمداً وصحبه » ، فهو يتعجل اللحظة التي يؤمن بأنه سيلتقي فيها بأحبته وأصحابه المقرَّبين إليه بمجرد خروجه من الدنيا . والصديق أبو بكر أيضاً قال في ليلة وفاته لمن حوله : اذا متُّ من ليلتي فلا تنتظروا بي إلى الغد ، فإن أفضل الأيام والليالي عندي أقربها من لقاء الرسول صلى الله عليه وسلم . فهو أيضاً يؤمن بأن اللقاء سيأتي بعد الوفاة مباشرة ، وذلك لوثوقه من المبلّغ الثقة الصادق الذي يبلغهم وهو النبي عليه الصلاة والسلام .

وسؤال الملكين في القبر سيكون تمهيداً لما سيلقاه الإنسان من نعيم إذا كان محسناً ، ومن عذاب إذا كان مسيئاً ، فكأن الحياة البرزخية نوع من البشارة لمن أحسن ، ونوع من التهديد والإنذار لمن أساء ، حتى يكون تخويفاً فوق تخويف ، وإنذارا فوق إنذار .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

ما يفيد الميت

السؤال : **أرجو تفسير هذا الحديث الشريف: «إذا مات الإنسان انقطع إلا من ثلاث : صدقة جارية ، وولد صالح ، وعلم ينتفع به » .**

الجواب :

يروى أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، او علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له». وهذا الحديث قد ذكره الإمام السيوطي في كتابه « الجامع الصغير » ووضع علامة تفيد أنه حديث ضعيف .

والمراد بهذا الحديث إذا صح أن الرسول صلى الله عليه وسلم يعلّم المسلم أن الحياة مهما طالت لها نهاية وخاتمة تنقطع عندها ، حيث ينتقل الإنسان من عالم الزوال والفناء إلى عالم الخلود والبقاء ، وأن العاقل اللبيب هو من يترك وراءه ما ينفع الناس من وجوه الخير ، وبذلك التوجيه يعلّم النبي صلى الله عليه وسلم الناس كيف يتركون وراءهم ما يجعل ذكرهم بين الخلائق محموداً ، ومكانهم عند ربهم مجيداً ، فكأنهم ما زالوا في الحياة يعملون ويثمرون .

ولقد ذكر الحديث ثلاثة أمور من وجوه الخير والبر التي تبقى ثمرتها وتستمر عند الله مثوبتها ؛ الأمر الأول: الصدقة الجارية ، أي الصدقة التي يجعلها صاحبها

على وجه تؤتي فيه ثمرتها وفائدتها باستمرار ، كأن يتصدق المرء بأرض تستغل باستمرار ، فتكون غلتها جارية موصولة على مستحقيها ، أو يتصدق برأس مال يُستثمر ويبقى رأس المال ، فتكون الثمرة من وراء ذلك متكررة متوالية ، أو يبني مدرسة يستمر فيها التعليم ، أو مستشفى يتصل فيه علاج المرضى ، أو غير ذلك من وجوه البر التي تبقى وتدوم .

والأمر الثاني هو الولد الصالح الذي يدعو لوالده الميت بالخير ، وهذا يستلزم أن يحسن الوالد تربية ولده وتقويمه وتأديبه ، فيقدر الولد هذا الصنيع الجميل ، فيظل يدعو ربه لوالده بالخير والثواب .

والأمر الثالث هو أن يترك الإنسان من ورائه علماً صحيحاً نافعاً، وقد يحقق ذلك بأن يعلّم تلاميذ له يبقون بعد وفاته ينشرون علمه هنا وهناك وقد يكون ذلك عن طريق تأليف الكتب المفيدة النافعة ، وهكذا .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

ثواب القراءة للميت

السؤال : **ما حكم الإسلام في قراءة القرآن على الميت، وخاصة عند الدفن ؟. وما حكم الإسلام في التكبير عند تشييع الجنازة ؟.**

الجواب :

لم تثبت في السنة على وجه اليقين قراءةُ القرآن على روح الميت ، ولكن بعض الفقهاء ـ كالشافعي وبعض المالكية ـ استحبوا هذه القراءة ، وعللوا ذلك بقولهم : لتحصل للميت بركة المجاورة .

وقالوا إن هذا الاستحباب يكون إذا قرأ الإنسان القراءة بلا مقابل ولا أجر ، ووهب ثواب قراءته للميت تطوعاً وتبرعاً ، فالمأمول في عفو الله وفضله أن تنفع الميت تلك القراءة .

وقد ذكر جمهور من العلماء أن قراءة القرآن الكريم تنفع الميت ، أو يصل ثوابها إليه ، وخالف في ذلك فريق آخر . ويحسن عند من استحبوا ذلك أن يقول القارىء بعد الانتهاء من التلاوة : اللهم أوصلْ مثل ثواب ما قرأته إلى فلان ، أو فلانة .

ويُروى عن الإمام أحمد بن حنبل أنه قال : « الميت يصل إليه كل شيء من الخير ، للنصوص الواردة فيه ، ولأن المسلمين يجتمعون في كل مصر ، ويقرأون ، ويهدون لموتاهم من غير نكير ، فكان إجماعاً » .

واشترط المبيحون أن تكون القراءة بغير أجر ، فإن أخذ أجراً فلا ثواب للميت على هذه القراءة ، بل لا ثواب للقارىء نفسه على هذه القراءة ، لأنه أجير فيها .

والصمت عند تشييع الجنازة هو الأفضل والأنسب ، لأن الحكمة الأساسية في تشييع الجنازة هي تذكر الموت والآخرة والمصير المحتوم : « كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « امشوا مع الجنازة تذكركم الآخرة » .

ويكره رفع الصوت — بدعاء أو ذكر أو قراءة — أثناء تشييع الجنازة ، ومن أراد أن يذكر فليذكر في نفسه وسره ، لأن السنة هنا هي السكوت ، فذلك أجمع للفكر والخاطر .

ويقول الإمام النووي في هذا المجال : « واعلم أن الصواب ما كان عليه السلف من السكوت حال السير مع الجنازة ، فلا يرفع صوت بقراءة ولا ذكر ، ولا غيرهما . لأنه أسكن لخاطره وأجمع لفكره فيما يتعلق بالجنازة ، وهو المطلوب في هذه الحال ، فهذا هو الحق .

ولا تغتر بكثرة ما يخالفه ، وأما ما يفعله الجهلة من القراءة على الجنازة بالتمطيط وإخراج الكلام عن موضعه فحرام بالإجماع » .

وهذا لا يمنع أن يدعو الإنسان بالخير للميت عقب الدفن ، وقد رُوي أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه ، فقال : استغفروا لأخيكم ، وسلوا له التثبيت ، فإنه الآن يسأل» . وروى رزين عن علي: أنه كان إذا فرغ من دفن الميت قال : اللهم هذا عبدك ، نزل بك ، وأنت خير منزول به ، فاغفر له ، ووسِّع مدخله .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

حكم زيارة القبور

السؤال : **ما حكمة زيارة القبور ؟ وهل يتفق ما يفعله الناس عند القبور مع الشريعة الإسلامية ؟ وكيف تكون الزيارة الشرعية للقبور ؟.**

الجواب :

الحكمة الدينية من زيارة القبور هي أنها — كما ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم — تذكرة بالموت الذي لا بد منه ، وبأن الدنيا زائلة مهما طال أجل البقاء فيها ، وبأن الجميع سيلقون هذا المصير المحتوم : « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة » . فإذا لم يكن الأساس في زيارة القبور هو هذه الحكمة ، فقد ابتعدت الزيارة عن هدى الدين وأدب الإسلام .

ولا يليق بزائر القبر أن يأتي بدعة أو منكرا ، وإلا تعرض لغضب الله وعذابه ، وليس من السنة في زيارة القبور أن يحدث صراخ أو نواح أو ندب أو لطم . أو غير ذلك من المنكرات والبدع .

ويقرر بعض العلماء أن المرأة لا يباح لها زيارة القبور ، لما في ذلك من تعرض للاختلاط والفتنة وارتكاب البدع ، ولقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام

لنسوة رآهن يزرن القبور : « ارجعن مأزورات غير مأجورات » أي ارجعن وأنتن مذنبات ، وليس لكن على تلك الزيارة ثواب .

ولكن لو التزمت المرأة كل أوامر الدين وآدابه عند زيارة القبور ، دون تعرض لبدعة أو محرم جازت هذه الزيارة .

وقد ذكر الفقهاء أن المرأة تحتاج إلى العظة والاعتبار والتذكر كالرجل ، وما دام الدين قد أباح للرجل أن يزور ، فإن هذه الإباحة تشمل المرأة أيضاً . ولكن يجب أن تكون المرأة على حالة من الحشمة والتصون تجعلها بعيدة عن الوقوع فيما يسيء إلى كرامتها وحصانتها ، ويجب عليها كذلك أن لا تقول ما يغضب الله من نواح أو تعديد أو ندب للميت ، وأن لا تفعل ما لا يجوز لها شرعاً كالصراخ والعويل ، ولطم الخدود ، وشق الثياب ، وتلطيخ الوجه أو الاعضاء بالسواد ، أو غير ذلك من أعمال الجاهلية التي حرمها الإسلام .

وهدى الإسلام في زيارة القبور أن يقول الزائر عندها مثل هذه العبارة : « السلام عليكم دار قوم مؤمنون ، أنتم السابقون ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، نسأل الله لنا ولكم العافية ، اللهم لا تحرمنا أجرهم ، ولا تفتنا بعدهم ، واغفر لنا ولهم ، يا أرحم الراحمين » .

ومن البدع المستحدثة في المجتمع الإسلامي ولا أصل لها في الدين بناءالبيوت على المقابر ، أو اتخاذها مكاناً للنوم والأكل والشرب واللعب ، وغير ذلك من البدع التي نراها في قبور المسلمين الآن .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

أين يدفن مجهول الدين ؟

السؤال : مات غريب في بلد لا يعرفه فيه أحد، وهو لا يحمل أي بطاقة تثبت أنه مسلم ، فما حكم دفن جثته ؟.

هذه الصورة التي وردت في السؤال نادرة الوقوع ، ومع ذلك يمكن أن تقع . وينبغي أن نعرف أن الذي يدفن في مقابر المسلمين هو المسلم أو المسلمة ، ويشترط لتجهيز الميت حسب شريعة الإسلام ، بما فيه من غسل وتكفين وحمل ودفن أن يكون الميت مسلماً ، ويحرم الغسل والصلاة على الكافر .

وقد جاء في مذهب المالكية أنه إذا اختلط موتى مسلمين بكفار ، ولم نستطع التمييز بينهم بوسيلة من الوسائل ، فإننا نغسلهم جميعاً للضرورة ، ونصلي عليهم ، ويدفنون في مقبرة المسلمين تغليباً لحق المسلم .

وعلى سبيل الاستئناس بهذا يمكن أن نقول إنه إذا لم نعرف دين هذا الميت ، ولم نثبت إسلامه أو عدم إسلامه ، لأنه ليس معه ولا حوله ما يفيد ذلك ، فإنه في هذه الحالة يحتمل أن يكون مسلماً ، ويحتمل أن يكون غير مسلم ، فنغلّب حق المسلم على حق غيره ، ونغسله ونكفنه وندفنه في جانب مقبرة المسلمين ، فإن لم توجد مقبرة للمسلمين فإنه يمكن دفنه في مكان منفرد صالح لذلك .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الحياة في القبر

السؤال : بعد وفاة الإنسان، وحساب الملكين له في قبره: أيدخل الجنة أو النار حسب عمله ، أو ينتظر إلى يوم القيامة للحساب الكبير ؟. وماذا يحدث له في مدة الانتظار ليوم القيامة ؟.

الجواب :

استدل الفقهاء على سؤال القبر وعذابه ، يقول الله عز شأنه في سورة غافر : « وحاق بآل فرعون سوء العذاب ، النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » . فقوله تعالى : « النار يعرضون

عليها غدواً وعشياً » فيه إشارة إلى عذاب القبر واستمراره إلى يوم القيامة ، بدليل قوله عقب ذلك : « ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب» .

وكذلك استدلوا بالحديث القائل : « القبر إما روضة من رياض الجنة . وإما حفرة من حفر النار » فإنه يدل أولا على ثواب القبر أو عذابه ، ويدل على استمرار هذا الوضع .

وقد رُوي عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «إن العبد إذا وُضع في قبره ، وتولى عنه أصحابه ، وإنه ليسمع قرع نعالهم (أي حركة انصرافهم) أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان : ما كنت تقول في هذا الرجل – لمحمد صلى الله عليه وسلم – فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبدالله ورسوله. فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار ، قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة ، فيراهما جميعاً ، وأما الكافر والمنافق فيقال له : ما كنت تقول في هذا الرجل؟. فيقول : لا أدري ، كنت أقول ما يقول الناس . فيقال: لا دريت ولا تليت (أي لا كنت دارياً ولا تالياً) ويُضرب بمطارق من حديد ضربةً فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين » أي الإنس والجن .

وكذلك روى عبدالله بن عمر رضوان الله عليهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة » . وهذا يدل على استمرار العذاب أو الثواب للإنسان في القبر .

وحساب القبر لا يغني عن حساب يوم القيامة . وقد يدل على ذلك قول الله تعالى عن يوم القيامة في سورة الحاقة : « يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ، فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاوُم اقرأوا كتابيه . إني ظننت أني ملاق حسابيه ، فهو في عيشة راضية ، في جنة عالية ، قطوفها دانية ، كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ، وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه ، ولم أدر ما حسابيه ، ياليتها كانت القاضية » .

وحساب الله تعالى لعباده يوم لقائه من الأمور المعروفة من الدين بلا لبس أو غموض ، ومعنى هذا أن حساب القبر لا يغني عن حساب يوم القيامة .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

قراءة القرآن على الميت

السؤال : **توفيت شقيقتي ، وقرأت القرآن على روحها ثلاث مرات بأكمله ، فما ثواب ذلك لها ؟.**

الجواب :

إن قراءة القرآن – في حد ذاتها – قُربة عظيمة من قربات الدين ، وطاعة من أجل الطاعات ، وقد وعد الله تبارك وتعالى عليها أعظم الدرجات ، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : القرآن مأدبة الله فخذوا من مأدبته ما استطعتم » .

وأما فيما يتعلق بقراءة القرآن على الميت فقد جاء في مذهب المالكية أن الميت ينتفع بالصدقة عليه من أكل أو شرب أو كسوة أو درهم أو دينار ، وينفعه كذلك الدعاء له بمثل : اللهم ارحمه . وهذا بالإجماع .

ولكن لا تنفعه الأعمال البدنية ، كأن تهب له ثواب صلاة أو صوم أو قراءة قرآن كالفاتحة ، وقيل ينتفع بثواب ذلك ، ومن علماء المالكية من قال إن القراءة يصل ثوابها إلى الميت ، وإنها عند القبر أحسن مزية ، وإن العز بن عبدالسلام رُؤي بعد الموت فقيل له : ما تقول فيما كنت تنكر من وصول ما يهدى من قراءة القرآن للموتى ؟. فقال : هيهات ، فقد وجدت الأمر على خلاف ما كنت أظن .

وقد جاء هذا في كتاب « الشرح الصغير على أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك » للدردير ، الجز الأول .

كما جاء في الجزء الأول من كتابي « يسألونك في الدين والحياة »(١) أن الإمام ابن تيمية – ومن أئمة المذهب الحنبلي – قال : إن الميت ينتفع بقراءة القرآن ، كما ينتفع بالعبادات المالية من الصدقة ونحوها .

وقال تلميذه الإمام ابن القيم : أفضل ما يهدى إلى الميت الصدقة والاستغفار والدعاء له والحج عنه ، واما قراءة القرآن وإهداؤه إليه تطوعاً من غير أجر فهذا يصل إليه ، كما يصل إليه ثواب الصوم والحج .

ولهذا ينبغي للسائل أن يطمئن ، فقد أحسن حينما شغل نفسه بقراءة القرآن الكريم ، فاستفاد هو بقراءته أولا ، ونرجو أن يتقبله الله تبارك وتعالى ، فينفع به شقيقته عليها رحمة الله ، والله هو العليم الخبير .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

كفى بالموت واعظاً

السؤال : **ما معنى هذه الحكمة « كفى بالموت واعظاً » ؟.**

الجواب :

الموت معناه انطواءُ صفحات العمل التي كانت للانسان في هذه الحياة الدنيا ، وابتداءُ صفحات حياته في عالم الخلد والبقاء : « وإن الدار الآخرة لهي الحيوان(٢) لو كانوا يعلمون » . والإنسان في حياته يشغل النـــاس بحركاته وتصرفاته ، وقد يلفتهم عن الحكم له أو الحكم عليه ، بمختلف الأسباب وشتى الوسائل ، ولكنه بعد أن يموت يصبح أشبه شيء بامرىء مطلــق السكوت والصمت ، أمام قضاة يستعرضون قصته ، وينظرون قضيته ، ويحكمون له

(١) كتابي يسألونك في الدين والحياة ، ج ١ ص ٤٤٢ .
(٢) أي الحياة الكاملة الدائمة .

أو عليه بقسط كبير من الحرية والإنصاف ... ولذلك اصطلح الناس — وبخاصة المؤرخين منهم — على أن لا يترجموا للأحياء ، مهما كانوا عظماء ، بل يرون تركَ الحديث عن حياتهم ، والحكم على أعمالهم وصفحات أعمارهم ، حتى يرحلوا من بين الناس إلى عالم البقاء ، وحينئذ يكون الحكم عدلا والقول فصلا ، والرأي أبعدَ عن التأثير ، والتصوير أنأى عن عوامل الرهبة والرغبة!.. وكم من تراجم ظهرت لأحياء ، فكانت أضاحيك أو أباطيل مفتعلة ، فلما رحلوا جاء التاريخ بكلمته القوية الصادقة ، فغيّر وبدل ، وهذب وشذب ، وحذف أو أضاف .. كذلك كم من أقوال جائرة خاسرة دُمِغَ بها أحياء عظماء ، بعوامل من العنت والاضطهاد والاستبداد ، فلما دالت الظلمات ، ورُدَّ عنهم كيد أعدائهم جاءهم الإنصاف ، سواء أكان أولئك المظلومون لا يزالون من الأحياء ، أم رحلوا إلى عالم الخلود والبقاء ...

وكذلك الإنسان في هذه الحياة ، هو عامل دائب ناصب ، فيما اختار لنفسه من طريق ، وعلى ما أحب من أسلوب ، تقرع سمعَه نذرُ الإله ، أو وعيد الحساب ، فيخشاه حيناً ، وينساه أحياناً ، والله لا يعجل العذابَ للناس ، لأنه لو عجله اليهم لقضى إليهم أجلهم ، ولكنه سبحانه — وهو الرؤوف الرحيم ، الكريم الحليم — أراد أن يجعل للناس ميقاتاً يلقونه عنده ، فيسألهم عن الصغير والكبير ، والجليل والحقير ، « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » ، « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون يا ويلتنا ، ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً » .

* * *

وأؤكد لو أن الإنسان تذكر وهو يسعى في الحياة ، آملاً مسرفاً في الأمل ، راجياً ملحاً في الرجاء ، طامعاً ملحفاً في الطمع ، يرتع ويجمع ويبلع ؛ لو تذكر في صولاته وجولاته ، وحركاته وتصرفاته ، أن من ورائه يوماً شديداً يحاسَب فيه ، وأن من فوقه الهاً أكبر يسيطر عليه ، وآمن بذلك حق الإيمان ، وأيقن

ذلك في عقله ونفسه عينَ اليقين ، لما كان منه إلا الخير ، وما حارب في حياته إلا الشر ، أو لكان ملَكاً يسعى على الأرض ، بل لكان الله سبحانه — كما يقول الحديث — هو يده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وعينه التي يبصر بها ، وأذنه التي يسمع بها ، ولو سأل الله لأعطاه ، ولو استعان به لأعانه ، ولكان في الوجود فرداً ربانياً ، يمده الله من عنايته وفضله بما يجعله سيد الكائنات ، وخليفة الله في الكون ، ولكن الانسان كثير النسيان ، بل ومن مادة النسيان اشتق اسمُه دلالة على أنه مضرب المثل في هذا النسيان ...

ولذلك يغفل المرء كثيراً عن دينه وعقيدته ، ويوم معاده وساعة حَسابه ، ومصيره فيما يتعلق بثوابه أو عقابه ، وهو حين يغفل عن كل هذا ينطلق في دنياه انطلاقَ المتحرر الذي لا يقف عند حد ، ولا يقنع بما يساق إليه . وقُتِلَ ابن آدم ، لو كان له واد من ذهب لتمنى معه الثاني ، ولو كان معه الثاني لتمنى معه الثالث ، ولا يملأ عينَ ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب ! ! .

على أن الناسي الغافل الجاهل المنطلق مع رغباته وشهواته ولذاته ، المغمور في تيار مطامحه ومطامعه ، يهتز هزةَ الأدكار والاعتبار كلما شهد حادث الموت أمام عينيه ، في القريب من أحبائه أو البعيد من إخوانه في الانسانية ، لأن حادث الموت نصيب مفروض مقسوم لكل حي وجد من فناء ، فهو يعود إلى ما صدر عنه ، ولذلك حينما يقف المرء في رحاب الموت يتذكر — مهما أسرف وغفل — أنه سيشرب من هذه الكأس يوماً من الأيام ، وسيصطلي بنار هذه النقلة ساعةً من الساعات ، وسيُحمل على الآلة الحدباء فوق الأعناق ، في حين من الأحيان ، مهما طالت سلامته ، وعلت في الحياة مكانته ، وحينما يتصور المرء ذلك يرجع ويرتدع ، ويخفف من غلوائه ، ويقلل من أخطائه ، ويدخر بين يديه ما يكون له زاداً يوم تقل الأزواد ، وما الزاد هنا إلا باتقاء الشر والباطل ، وعمل الخير مهما كان وأينما كان : « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقوني يا أولي الألباب » ، « فاذا جاءت الطامة الكبرى ، يوم يتذكر الإنسان ما سعى ، وبرزت الجحيم لمن يرى ، فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا ، فإن الجحيم هي

المأوى ، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هـي المأوى » .

* * *

ولقد اختلفت بالناس مناحي الحياة، ولاقوا من دنياهم حظوظهم ،وتفرقوا في أرجاء الوجود أيدي سبأ ، وتعددت بهم المسالك والشعاب ، فمنهم شقي وسعيد ، وغني وفقير ، ومحظوظ ومحروم ، ومنهم من يملأ بحديثه الأسماع ، ويشغل بحياته الأصقاع ، وتستفيض سيرته في البقاع ؛ وأغلبهم تستحوذ عليهم آمال عراض وأحلام طوال ، تستبد بنشاطهم وحيواتهم ، وتستأثر بجهدهم وجهودهم ، وتلفتهم حيناً أو أحياناً عن عقائد قويمة ، ومبادىء سليمة ، وقوانين خلقية كريمة ، وأهداف علية عظيمة ، وتلفتهم أيضاً عن مواقف للحساب مرهوبة ، ولكنهم على الرغم من كل هذا إذا فزعوا إلى نفوسهم ، وتخلصوا من لغب حياتهم ، وراجعوا سجلات أعمالهم ، وهزتهم حادثة مزلزلة أو نازلة مبلبلة – وفي مقدمة ذلك حادث الموت – تذكروا واعتبروا ، وخففوا من الغلواء ، وتخوفوا رب السماء !..

فليت شعري ، أليس في هذا الموقف المشهود في جلال الموت ، ورحاب النقلة من عالمنا هذا إلى عالم الرب المجيد ، ما يوحي إلى كبارنا وصغارنا أن يتجنبوا أخطاء الماضين ، ويزدادوا من مآثر السابقين ، ويسيروا على نهـج المهتدين ، ويصلحوا ما أفسدته أيدي المبطلين ؟... نعم ، وكفى بالموت واعظاً..

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

كراهية الموت

السؤال : **نرى الكثيرين من الناس يكرهون الموت، فلماذا ؟. وما حكم الدين في ذلك ، مع أن الله يقول : « بل تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى»؟.**

الجواب :

نفهم من تعاليم الإسلام أن الموت غفوة قصيرة تعقبها صحوة تكون بداية لحياة طويلة خالدة أبدية ، وقد شبه الله سبحانه الموت بالنوم في قوله تعالى : « الله يتوفى الأنفس حين موتها ، والتي لم تمت في منامها ، فيمسك التي قضى عليها الموت » ، والرسول صلى الله عليه وسلم يشير إلى قريب من هذا المعنى في حديثه الطويل الذي يقول فيه : « والله الذي لا إله إلا هو لتموتن كما تنامون، ولتُبعثن كما تستيقظون » .

والموت سنة مشاهَدة تتكرر كل يوم ، ومع ذلك يكرهه الناس ويخافونه، ويرهبون لقاءه ، وذلك لأسباب شتى : منها أن إيتان المحظورات والمآثم التي يعاقبهم عليها ربهم يوم لقائه يخيفهم من ذلك اللقاء ، لأن من ورائه أليم العقاب ، ومنها حب الحياة وسعة الأمل وفسحة الرجاء ، وقد جاءت الإشارة إلى هذا في الحديث الشريف : « قلب الشيخ شاب في حب اثنتين : طول الحياة، وحب المال » .

والخليفة العادل ، خامس الراشدين ، عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يلم بهذا المعنى إذ يقول : « لقد كانت لي نفس تواقة ، فكلما نالت شيئاً تاقت إلى ما هو أعظم منه ، فلما بلغت غايتَها من الدنيا ، تاقت إلى الآخرة » . ولما تاقت نفسه إلى الآخرة استعد لها ، وعمل من أجلها ، فرحب بلقاء الله بعد ذلك.

ومن أسباب رهبة الناس للموت قلة الاستعداد له ولما بعده ، مع الاغترار بالحياة ، لأن الإنسان في صحته وقوته يغتر بدنياه ، وقد يخيّل إليه أنها واسعة مبسوطة ، وكأنه يجهل أو يتجاهل أن أجله المحدود يتربص به ما بين حين وآخر، وهو لا يدري متى يأتي .. ومن الأسباب أيضاً سيطرة الرغبة في الخلود على نفوس الناس ، فتدفعهم إلى التعبير عن ذلك بادخار المال وبناء القصور وإنجاب الذرية ، وغير ذلك من وسائل التشبث بالحياة . والإنسان في هذه الحالة إما أن يكون مؤمناً بالبعث ، بعد الموت ، وإما أن يكون كافراً به . فإن كان مؤمناً بالبعث ، ولم يحسن الاستعدادَ للآخرة ، خاف من قدومه إليها غير مستعد .

وإن كان غير مؤمن بالبعث ، فإنه يخاف الموت أكثر من المؤمن ، لأنه يتوهم أن الموت قطعٌ لحياته ، وقضاء على الخلود الذي يطمع فيه ويحاول بلوغه . والإسلام قد حل مشكلة الخلود أكرمَ حلٍّ وأقومه ، عندما علّم أتباعه أن يؤمنوا بأن الموت نقلة من حياة عاجلة فانية إلى حياة آجلة خالدة : « وإن الدار الآخرة لهي الحيوان (أي الحياة الكاملة) لو كانوا يعلمون » . ولو تدبر الطامعون في الخلود هذا المعنى لحلوا به المشكلةَ في أنفسهم ، بدل أن يحاولوا أو يتوهموا الخلود في هذه الحياة ، وما هم ببالغيه .

والقرآن الكريم يشير إلى هذا في قوله عن اليهود : « يود أحدهم لو يعمّر ألف سنة ، وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر » ، فمهما امتد الأجل وطال العمر ، فالإنسان المفرِّط يرهب هذا اليوم الأخير الذي سيلجئه حتماً إلى عذاب دائم ، جراء كفرانه وإساءته .

ومن هنا نفهم السبب في حرص السلف الصالح على تذكر الموت والتذكير به ، لأن هذا يعلّم الذاكرين والمنكرين حسن الاستعداد للقاء الموت . فإذا تحقق هذا الاستعداد الحسن لم تكن ثمة رهبة من الموت ، ولا خوف من لقائه . ولقد جاء في الحديث الشريف : « اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وأمتني إذا كان الموت خيراً لي » وهذا تعبير عن عدم المبالاة بالحياة أو الموت ، وإنما الحرص الكريم هنا على ما هو خير النفس في عاجلها وآجلها . وفي الحديث الشريف أيضاً : « اللهم إني أحببت لقائك ، فأحبب لقائي » . فالرسول صلوات الله وسلامه عليه قد أحب لقاء الله ، ودعا ربه أن يحب لقاءه فيقبضه إليه ، وذلك لحسن استعداد النبي للقاء ربه ... ولقد كان شعار المسلمين في أيامهم الصالحة قول شاعرهم الذي يصور عدمَ رهبتهم من الموت ما داموا على خير ، ويقدمون على خير عند ربهم :

ولست أبالي حين أُقتل مسلماً   على أي جنب كان في الله مصرعي

فهو لا يبالي الموت ما دام يقينه مملوءاً بالإيمان عند موته ، ويصدق هذا قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن إلا وانتم

مسلمون » . وقد جاء هذا المعنى في دعاء وجهه عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى ربه وكرره في أخريات أيامه ، إذ قال : « اللهم كبرت سني ، وضعفت قوتي ، وقلت حيلتي ، وانتشرت رعيتي ، فاقبضني إليك غيرَ مضيعٍ ولا مفرِّط . اللهم ارزقني الشهادةَ في سبيلك ، واجعل موتي في بلد رسولك عليه الصلاة والسلام » .

وفي مثل هذا الجو الواعظ عند النفوس المشرقة يتوجه الاستعداد الطيب إلى الموت ، فلا يكون هناك خوف منه ، أو رهبة للقائه ، وهي درجة ينشط إليها الأخيار بجهادهم وجهودهم ، ولا يوفق إليها عامة الناس الذين تشغلهم أهواء نفوسهم وشهوات دنياهم عن العمل للآخرة ...

بقي ما يتعلق بقوله تعالى : « بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى» .

ومن العجيب أن الله تبارك وتعالى ذكر في صدر السورة التي اشتملت على هاتين الآيتين ، وهي سورة الأعلى ، آيتين كريمتين فيهما رمز واعظ ، إذا اعتبر به الإنسان لم يؤْثر الحياةَ الدنيا ، ولم يخف الموت تبعاً لذلك ، وهما قوله تعالى : « والذي أخرج المرعى ، فجعله غثاء أحوى » ، فقد أوضحت هاتان الآيتان أن من صفات الله سبحانه أنه هو الذي أنشا النبات والزرع في الأرض ، ثم جعله بعد خضرته ونضرته يابساً غثاء ، وجعله أسودَ اللون أحوى، وهذا كناية عن سرعة الانتقال من بداية الحياة ، إلى اتساع النمو ، ثم إلى الجفاف والذبول والفناء ... وبعد ذلك بآيات يأتي قوله تعالى : « بل تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى » ، كأنه — والله أعلم بمراده — يريد أن يقول : إن شاء هذه الحياة الأولى كشأن هذا المرعى الذي في سريعاً ، وإنما تبقى الدار الآخرة بمزاياها ، فهي خير وأبقى .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الأماكن المقدسة
ومساجد الإسلام



الأماكن المقدسة في الإسلام

السؤال : ما هي الأماكن المقدسة في الإسلام ؟.

الجواب :

إن الإسلام الحنيف دين يقوم على التوحيد الخالص ، وإفراد الله وحده بالربوبية والألوهية ، وعلى مقاومة الوثنية والإشراك بكل طريق وكل وسيلة ، ومن أسماء الله تبارك وتعالى اسم « القُدُّوس » ، ومعناه الطاهر المنزَّه عن جميع النقائص والعيوب ، لأنه سبحانه هو المتصف بكل جلال وكل جمال وكل كمال ، والقرآن الكريم يقول : « هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس » . وتقديس الله عز وجل هو تنزيهه عما لا يليق بألوهيته ووحدانيته ، ولذلك جاء في القرآن على لسان الملائكة قولهم لربهم : « ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » .

والتقديس في حقٍّ غير الله تعالى معناه التطهير ، ومن ذلك الحديث النبوي : « لا قدَّس الله أمةً لا يُؤخذ لضعيفها من قويها » . أي لا طهرها الله ولا أعزها ، وهو دعاء عليها . والمكان المقدس هو المكان المطهّر من أدران الوثنية ونحوها ، وقد ذكر الله في كتابه « الأرض المقدسة » ، وروى المفسرون أنها الشام ، أي مطهرة بالدين والعبادة ، وليس المعنى أن ذات الأرض معبودة ، فلا معبود سوى الله عز وجل في الإسلام .

وهناك في الإسلام أماكن يقال عنها : الأماكن المقدسة ، كالكعبة المطهرة والمسجد الحرام ، ومسجد الرسول عليه الصلاة والسلام ، والمسجد الأقصى في فلسطين — ردها الله على العرب والمسلمين — وليس معنى هذا أن أي مكان من هذه الأماكن معبودة أو يتقرب إليها المسلم بحال من الأحوال ، فالمعبود

هو الله ولا شيء سواه . وهذه هي الكعبة مثلا ، يقال عنها إنها بناء مقدس ، ومعنى ذلك أنها مطهرة من الأوثان والأصنام والشرك ، وهي لا تخرج بالنسبة إلى الله عز وجل عن كونها نقطة اتجاه يتجه إليها المسلم عند عبادته لله ، فالمصلي حين صلاته لا يصلي للكعبة ، ولا يتعبد لأحجارها ، وإنما هو يتوجه إلى الله ، وينوي عبادته لله ، ويتعلق قلبه في صلاته لله ، والله تعالى يقول : « إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري » ويقول : « فصل لربك وانحر » . فالمعبود هو الله ، والكعبة علامة فقط يتجه إليها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ، لتتلاقى أفئدتهم من كل مكان على ذكر الله وإفراده بالتسبيح والدعاء والمناجاة .

ومما يؤكد ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقرر أن المؤمن التقي أعظم حرمة عند الله من الكعبة ، فقد نظر النبي إلى الكعبة يوماً وقال : « لا إله إلا الله ، ما أطيبك ، وأطيب ريحك ، وأعظم حرمتك ، والمؤمن أعظم حرمة منك ، إن الله جعلك حراماً (أي يحرم الاعتداء حولك) وحرم من المؤمن ماله ودمه وعرضه ، وأن يظن به ظناً سيئاً » .

وهذا هو الحجر الأسود قد جعله الله في الكعبة علامة لبداية أشواط الطواف حولها في الحج ، فهو ليس معبوداً ، ولا يتقرب المسلم إلى الحجر الأسود باستلامه أو تقبيله ، بل يتقرب إلى الله وحده ، وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول وهو يستلم الحجر الأسود : « والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك » . وإنما ترجع مكانة هذا الحجر إلى أنه بداية للطواف ، وأنه الحجر الوحيد الذي بقي في بناء الكعبة المطهرة من عهد إبراهيم الخليل عليه السلام، فليس هناك في الإسلام أي معنى أو ظل للوثنية أو الإشراك فيما يتعلق بالحجر الأسود ، لأن المعبود وحده هو الله مالك الملك ، وبارىء الخلق ، وواهب الرزق ، لا إله إلا هو سبحانه . ولذلك يقول الرسول : « من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه » فالحج لله لا للمكان ولا للكعبة ولا للحجر . والقرآن يقول :

« فاعبد الله مخلصاً له الدين ، ألا لله الدين الخالص » . أي لا يقبل الله إلا ما كان خالصاً لوجهه . ويقول القرآن : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء » أي متجهين إليه وحده مائلين عما سواه . ويقول الله في الحديث القدسي « أنا أغنى الأغنياء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه » . ويقول الحديث النبوي : « من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ، ومن مات يشرك بالله شيئاً دخل النار » . فلا شريك لله سبحانه .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

الكعبة المطهرة

السؤال : **أريد أن أعرف موجزاً عن الكعبة المشرفة .**

الجواب :

الكعبة المطهرة هي قبلة المسلمين جميعاً في الصلاة ، وهي بناء متوسط الحجم يقع في وسط مكة ، وقد سُميت بالكعبة لتكعيبها ، أي تربيعها ، لأن كل بناء مربع مرتفع يقال له كعبة ، وكذلك تسمى الكعبة « البيت العتيق » لأن الله تبارك وتعالى أعتقه من التقيد بملكيه أحد ، وجعله خالصاً لعباده ، وتسمى أيضاً « البيت الحرام » ، لأن الله تبارك وتعالى يقول : « فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » ، وإنما سميت الكعبة « بالبيت الحرام » لأنها يحرم الاعتداء عليها ، كما يحرم الاعتداء عندها ، ولذلك يقول الحق جل جلاله : « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا » .

وهذه الكعبة المشرفة قد بناها إبراهيم الخليل وولده اسماعيل عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام ، والقرآن الكريم يشير إلى هذا حين يقول : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم » .

وقد خص القرآن المجيد الكعبة بالتشريف والتنويه ، فقال في محكم آياته : « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومنْ كفر فإن الله غني عن العالمين » . ومعنى أنه أول بيت أي أنه أول بيت عينه الله عز وجل ووضعه للعبادة ، حيث يعبد الناس عنده ربهم وخالقهم ، ومعنى كونه مباركاً أنه كثير الخير ، لأنه سبب هذا الخير الكثير ، فإن من جاءه تائباً إلى ربه ، مستغفراً له من ذنوبه هداه الله إلى الصراط المستقيم ، ومحا عنه سيئاته ، فيصير ذلك خيراً كبيراً وبركة جليلة . ومعنى أمن داخله أن من جاء إليه مخلصاً كان آمناً من عذاب الله ، كما أن الله تعالى جعل الكعبة حرماً آمناً ، لا يجوز عنده اعتداء أحد على أحد ، حتّى ولو كان ثـــأراً أو انتقاماً ، لأن المسلمين عند الكعبة ينبغي لهم أن ينسوا ضغائنهم وأحقادهم ، وأن يتلاقوا على دعوه السلام وروح السلام .

وكذلك قال القرآن الكريم عن الكعبة : « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس » . أي قواماً لهم في أمر دينهم ودنياهم ، لأن الكعبة قبلتهم فـــي صلاتهم كل يوم ، وفي هذا إصلاح لهم من ناحية الدين والعبادة ، كما أن الكعبة تجمع كل القادرين من المسلمين حولها في موسم الحج ، فيتعارفون ويتآلفون ويتشاورون فيما يفيدهم وينفعهم . وقيل إن معنى أن الكعبة قيام للناس هو أنها يقوم بها أمر دين المسلمين ، بأداء الحج والعمرة ، ويقوم بها أمر دنياهم عن طريق انتشار الأمن الواجب عند الكعبة ، وعن طريق جلب الثمرات من كل ناحية إلى ما حول الكعبة المطهرة .

والإسلام قد علم المسلمين أن يراعوا حرمة الكعبة وما حولها ، فلا يجـــوز للمسلم بالهدى أن يعتدي على إنسان أو حيوان أو طائر أو نبات ، والحديث النبوي يقول : « إن الله سبحانه حرَّم مكة ، ولم يحرِّمها الناس ، ولا يحل لمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ، ولا يعضد (أي يقطع) بها شجراً » .

وكذلك يقول الحديث الشريف الآخر : « لا يحل لأحدكم أن يحمل بمكة السلاح» وقد علق العلماء على هذا الحديث بأنه يحرم على الإنسان أن يحمل في مكة السلاح للاعتداء ، ولكن إذا حمله للتحفظ فلا بأس به .

ولا عجب في أن يحيط الله الكعبة ومكة بهذا التوقير والصيانة ، لأنه سبحانه يريد أن يجعل هذا البناء المطهر وهذا البلد الحرام ، ساحة تتمثل فيها روح السلام بأجلى معانيها وأوضح مبانيها ، ولذلك دعا إبراهيم ربه بأن يسبغ رداء الأمان والسلام على مكة ، فقال القرآن : « وإذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبني أن نعبد الأصنام » .

ولعل هذا — والله أعلم بالحقيقة — بعض السبب في أن يجعل الله الكعبة أول بيت يُعبد عنده ، فقد سأل أبو ذر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول مسجد وضع في الأرض . فقال : المسجد الحرام ، ثم المسجد الأقصى ، ثم ذكر أن بينهما أربعين عاماً .

وكذلك يوجد عند الكعبة مقام ابراهيم وهو المكان الذي وقف فيه خليل الرحمن حين بنائه الكعبة مع ابنه ، ويروى أنه كان يقف على حجر حينذاك .

ولمكانة الكعبة دعا الدين المسلم حين زيارتها أن يكثر من تسبيح الله وتكبيره وحمده والثناء عليه ، ووعد النبي صلى الله عليه وسلم من يخلص أداء الزيارة لله عند هذه الأماكن أن يكتب له الثواب والتعيم ، فقال صلوات الله وسلامه عليه : « إن هذا البيت دعامة الإسلام ، ومن خرج يؤم هذا البيت ، من حاج أو معتمر ، كان مضموناً على الله عز وجل إن قبضه أن يدخله الجنة ، وإن رده أن يرده بأجر وغنيمة » .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

مسجد الرسول بالمدينة

السؤال : **أريد تعريفاً مختصراً بمسجد الرسول صلى الله عليه وسلم .**

الجواب :

مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، هو المسجد الموجود في المدينة المنورة ، وهو الذي أسسه النبي أولا عقب الهجرة ، مع طلائع المسلمين من المهاجرين والأنصار ، وجعله مربعاً ، وكان يتجه فيه أولا إلى بيت المقدس (المسجد الأقصى) في فلسطين — ردها الله على العرب والمسلمين .

وقد اشترك النبي عليه الصلاة والسلام في البناء بنفسه ، وكان ينقل الحجارة بيديه ويقول : « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ، فاغفر للأنصار والمهاجرة ».

ومسجد الرسول هو أحد المساجد التي شرع الله تبارك وتعالى شدّ الرحال إليها للعبادة والتقرب إلى الله عز وجل ، فقال صلوات الله وسلامه عليه : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي بالمدينة ، والمسجد الأقصى » .

وقد أشاد النبي صلى الله عليه وسلم بمكانة مسجده هذا ، فقال : « من دخل مسجدي هذا يتعلم خيراً أو يعلّمه كان بمنزلة المجاهد في سبيل الله » . كما نوه النبي بمكانة الصلاة في هذا المسجد ، فقال : « صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام » . وقال أيضاً : « أنا خاتم الأنبياء ، ومسجدي خاتم مساجد الأنبياء ، وأحق المساجد أن يزار وتُركب إليه الرواحل ، وصلاة في مسجدي هذا أفضل من الصلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام » .

ولعل السبب في ذلك هو آن هذا المسجد كان مركز القيادة الإسلامية على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهو أول مسجد أقامه النبي والمسلمون ، وقد رُوي أنه المسجد المقصود بقول الله سبحانه : « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين » .

وكذلك كان هذا المسجد هو المكان الذي يتلقى فيه الصحابة رضوان الله عليهم دروس الدين وتعاليم الإسلام ، وفيه كان يتعبدون ويعتكفون ويذكرون مع الله رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وفيه ارتفع صوت الرسول متحدثاً ومعلماً وخطيباً ومبلغاً القرآن وأحكام الشريعة .

وفي هذا المسجد الشريف أيضاً توجد الروضة المطهرة التي يشير إليها قول رسول الله عليه الصلاة والسلام : « ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة » . ومعنى ذلك أن من لزم طاعة الله تبارك وتعالى في هذه البقعة آلت به الطاعة إلى روضة من رياض الجنة . أو إن الصحابة كانت تقتبس العلم في هذا الموضع من رسول الله ، فهداهم الله بذلك إلى سواء السبيل ، ومتعهم بالثواب الجزيل ، فالمكان إذن كالروضة ، ويؤيد ذلك قول النبي : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا » . قالوا : يا رسول الله ، وما رياض الجنة ؟. قال « حلق الذكر» وهي في العادة تعقد في المسجد .

وكذلك يضاف إلى شرف مسجد الرسول بالمدينة أن حجرات زوحابة أمهات المؤمنين كانت تحيط بالمسجد وتنفتح أبوابها على المسجد ، وقد ضموا مكان هذه الحجرات بعد ذلك إلى ساحة المسجد ، فأصبحت جزءاً منها . وبعد أن لحق الرسول بالرفيق الأعلى كان من شرف هذا المسجد أن يدفن فيه الرسول ، وأن يدفن إلى جواره أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، ثم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وأصبح من سنن الإسلام ، زيارة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهو الذي يقول : « من زارني ميتاً فكأنما زارني حياً » . ويقول أيضاً : «من

جاءني زائراً ، لم يرم حاجة إلا زيارتي كان حقاً عليّ أن أكون شفيعاً له يوم القيامة » .

ولقد هدانا أدب الإسلام إلى أن زائر المدينة المنورة يقول عند دخولها : اللهم هذا حرم نبيك صلى الله عليه وسلم ، فاجعل دخولي فيه وقاية لي من النار ، وأماناً من العذاب وسوء الحساب . ثم إذا وقف داخل المسجد النبوي أمام قبر الرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول في أدب وتوقير : السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يا نبي الرحمة وهادي الأمة ، السلام عليك يا خاتم رسل الله .

ثم يتأخر عن يمينه خطوة ويقول : السلام عليك يا أبا بكر ورحمة الله وبركاته ، ثم يتأخر خطوة أخرى ، ويقول : السلام عليك يا عمر ورحمة الله وبركاته .

وهكذا تتجدد الذكريات المجيدة في صدر الزائر لمسجد الرسول عليه الصلاة والسلام .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

المسجد الأقصى

السؤال : **أريد أن أعرف شيئاً عن تاريخ المسجد الأقصى .**

الجواب :

المسجد الأقصى في نظر المسلمين هو أولى القبلتين وثالث الحرمين ، وهو أحد المساجد الثلاثة المقدسة التي خصها الله جل جلاله بمزيد من التنويه والتكريم ، والتي شرع الله للمسلمين أن يرحلوا إليها بنية عبادة الله فيها والتقرب إليه

عندها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا بالمدينة والمسجد الإقصى ببيت المقدس» يعني القدس ، ردها الله على العرب والمسلمين .

ومن خصائص المسجد الأقصى أن الله تبارك وتعالى جعله واسطة العقد في حادثة الإسراء والمعراج ، وهي إحدى معجزات النبي صلوات الله وسلامه عليه ، والمسجد الأقصى أحد مسجدين اثنين صرح بإسمهما القرآن ، وهما المسجد الحرام في مكة والمسجد الأقصى في فلسطين ، فقال عز من قائل : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير » . ولقد كان المسجد الأقصى خاتمة لرحلة الإسراء في الأرض ، ثم كان فاتحة لرحلة المعراج في السماء ، ثم جعله الله خاتمة لرحلة العودة من المعراج ، وفاتحة لرحلة العودة من الإسراء ، وكأن الله تبارك وتعالى يريد بذلك أن يشير إلى أن المسجد الأقصى وما حوله هو واسطة عقد الوطن المسلم ، وأنه يجب على أبناء الإسلام وأتباع محمد عليه الصلاة والسلام — صاحب الإسراء والمعراج — أن يعنوا كل العناية بشأن هذه القطعة الغالية من أوطانهم .

ولقد كان من الشرف الكبير للمسجد الأقصى أن صلى فيه رسول الله عليه صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء والمعراج ، وصلى وراءه الأنبياء والمرسلون ، فكانت صلاة مشهورة ترمز إلى أن مواريث النبوات والرسالات قد انتهت إلى يد الرسول الخاتم الذي يقول له ربه : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

ولذلك جعل النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة في المسجد الأقصى أفضل من خمسمائة صلاة في سواه ، باستثناء المسجد الحرام ومسجد المدينة المنورة ، وقال صلوات الله وسلامه عليه عن المسجد الأقصى : « ائتوه فصلوا فيه ، فإن لم تأتوه وتصلوا فيه فابعثوا بزيت يسرج في قناديله » .

وجاء في الحديث النبوي : « من مات في بيت المقدس فكأنما مات في السماء» وهو يقصد بطبيعة الحال من مات على الإسلام طائعاً ربه ونبيه . وجاء في الفقه

الإسلامي أنه يستحب النية والاهلال بالحج والعمرة من بيت المقدس للحديث الذي يقول : « من أهلَّ بحجة أو عمرة من المسجد الأقصى غُفـِّـر له مع ما تقدم من ذنبه » ، وذلك إذا توافرت التوبة الصادقة والاستقامة على الصراط .

ولقد توالت عناية المسلمين بالمسجد الأقصى خلال القرون المتوالية ، وظلوا يحرصون على عمارته وصيانته ، ويؤلفون الكتب عن تاريخه وفضائله ، ويتعودون الاعتكاف فيه ، وخاصة في الثلث الأخير من شهر رمضان المبارك ، وظل الأمر كذلك حتّى حدثت النكبة الأليمة في صيف ١٩٦٧ واحتل الصهاينة القدس ، وأقدموا على جريمتهم الشنيعة : جريمة إحراق المسجد الأقصى ، مما أثار كل مشاعر الغضب الجارف والحزن العميق عند كل مسلم ، وعند كل عربي من المحيط إلى الخليج ، وإن أنظارنا تتطلع الآن إلى المسجد الأقصى المحترق في القدس المحتلة عاصمة فلسطين المغتصبة . تتطلع إلى المسجد الأقصى وهو يعاني من قوة الشر والبغي والظلام ما يعاني ، ومهما كان ما نشعر به الآن فان دعانا إلى الله تبارك وتعالى يتجلجل خاشعاً وعميقاً في أن يهبنا القوة والمقدرة لكي نطهر أرضنا ومقدساتنا من ظلمات الشر والفساد ، ويومها تعود القدس إلى أهلها ، وتتردد في جنبات المسجد الأقصى كلمات التسبيح والتكبير لقيوم السموات والأرض ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

جامع عمرو بن العاص

السؤال : **أريد أن أعرف لمحة عن جامع عمرو بن العاص بالقاهرة .**

الجواب :

إن جامع عمرو بن العاص هو أول جامع أقيم في مصر ، وهو الجامع الذي

صاحب تاريخ مصر منذ الفتح الإسلامي إلى الآن ، وقد أنشأ هذا المسجد البطل الفاتح عمرو بن العاص سنة إحدى وعشرين للهجرة (٦٤١ م) في مدينة الفسطاط (مصر القديمة الآن) في مكان قريب من النيل المبارك ، وقد تبرع بمساحة أرضه أحد المسلمين الصالحين ، ورفض أن يكون لها ثمناً ، وقد أشرف عمرو على البناء بنفسه ، واشترك معه عشرات من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولم يقتصر المسجد على الصلاة والعبادة وإقامة الشعائر ، بل كان أيضاً ساحة كبيرة للتعليم والتهذيب والتثقيف . ، كما كان يستخدم مكاناً للاجتماعات العامة ، ويتبادل الشعب بداخله مختلف الآراء فيما يهمه من شئون وأمور ، وكان الوالي يقوم فيه بالوعظ والإرشاد ، كما كان يؤم الناس في صلاة الجمعة ، وكانت خطبة الوالي داخل هذا المسجد تتطرق إلى أمـــور اجتماعية وشئون اقتصادية مختلفة ، ومن أمثلة ذلك أن عمرو بن العاص ألقى خطبة في أول عهده على الناس في هذا المسجد ، وكان مما قاله فيها : « يا معشر النـــاس ، إياكم وخلالاً أربعاً ، فإنها تدعو إلى التعب بعد الراحة ، وإلى الضيق بعد السعة ، وإلى الذلة بعد العزة ؛ إياكم وكثرة العيال ، وإخفاض الحال ، وتضييع المال ، والقيل بعد القال ، في غير دَرْك ولا نوال » .

ويعد جامع عمرو أول جامعة إسلامية عربية تنهض في أرض الكنانة (مصر)، حيث انتظمت في هذا الجامع دروس العلم والدين والأدب ، التي كان يلقيها كبار العلماء والفقهاء والأدباء ، فقد ألقى الإمام الشافعي – مثلا – دروساً عظيمة في هذا الجامع ، وحينما رحل شيخ المفسرون الإمام محمد بن جرير الطبري إلى مصر ، جلس في جامع عمرو بن العاص وألقى فيه دروساً ومحاضرات.

ويروي التاريخ عن هذا الجامع أن الطلاب الذين كانوا يدرسون فيه في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (نهاية القرن العاشر الميلادي) قد بلغوا ألفين ومائتين من الطلاب ، وهو عدد ضخم يثير الدهشة بالنسبة إلى ذلك العهد الذي كان فيه .

ويقرر كثير من المؤرخين أن جامع عمرو بن العاص في فسطاط مصر كان مدرسة إسلامية عربية كبرى ، يتلقى فيها الطلاب العلوم الدينية من فقه وتفسير وحديث وسيرة ، والعلوم اللغوية من نحو وبلاغة وأدب وتاريخ ، وغير ذلك من العلوم المفيدة ، كما كان المسجد مجلساً للقضاء والحكم بين الناس ، وفي هذه المجالس كانت تثار مسائل كثيرة لها صلة بالدين أو بالثقافة الإسلامية .

وكانت تعقد فيه مجالس لسرد القصص الأخلاقية الواعظة ، ومجالس للمناظرات العلمية ، ومجالس لمطارحة الشعر ، وكانت المذاهب الفقهية تدرّس فيه كذلك ، وكان في المسجد زوايا لتدريس العلم ، وقد وقف عليها طائفة من أغنياء المسلمين وصالحيهم أموالا كثيرة لعمارتها والانتفاع بها في مجال رسالتها .

وكانت هذه الزوايا تسمى بأسماء العلماء الذين يدرسون فيها ، أو بأسماء الذين أنشأوها وعمروها ، فكانت هناك — مثلا — الزاوية الشافعية نسبةً إلى الإمام العظيم محمد بن ادريس الشافعي ، وكانت هناك الزاوية المجدية ، نسبةً إلى مجد الدين الحارث بن مهذب وزير الأشراف في عهده ، والزاوية الصاحبية نسبة إلى الصاحب محمد بن فخر الدين ، والزاوية الكمالية ، نسبة إلى كمال الدين السمنودي ، والزاوية التاجية نسبة إلى تاج الدين السطحي .

ومرت الأيام والأعوام وجامع عمرو بن العاص في فسطاط مصر يصارع الزمن ، ويشهد عهوداً كثيرة تزدهر بداخله الثقافة الإسلامية والعربية ، حتى نراه مثلا في القرن السادس الهجري وأوائل القرن السابع تعقد فيه بضع وستون حلقة من حلقات التدريس للعلوم الإسلامية والعربية ؛ ومع ذلك كانت تمر عليه أحداث تؤدي به إلى أحوال من ضعف الشأن أو ضيق النشاط .

ثم أصبح جامع عمرو أخيراً ، مسجداً للصلاة والعبادة فحسب ، وانتقل النشاط العلمي منه إلى أماكن أخرى من المساجد أو المعاهد ، مع أن هذا المسجد جدير بالعناية والاهتمام .

والله تبارك وتعالى أعلم .

الجامع الأزهر

السؤال : أريد أن أعرف لمحة مختصرة عن الجامع الأزهر الشريف ؟.

الجواب :

الجامع الأزهر هو أشهر الجامعات وأوسعها ذكراً ، وأكثرها طلاباً وعلماء، حتى جاز لبعض الناس أن يسميه « شيخ الجامعات الإسلامية » . والتاريخ يحدثنا بأن الذي شيد الأزهر الشريف هو « جوهر الصقلي » قائد جيش الخليفة « المعز لدين الله الفاطمي » ، وقد أتم بناءه سنة إحدى وستين وثلاثمائة هجرية .

وقد أريد للأزهر في أول أمره أن يكون مقراً للدعوة الفاطمية القائمة على المذهب الشيعي الإسماعيلي ، وقد سُمِّي « الأزهر » بذلك الاسم — في الظاهر — نسبةً إلى « الزهراء » وهو لقب السيدة فاطمة رضي الله عنها ، وهي التي ينتسب إليها الفاطميون ؛ ولكن الله سبحانه أراد أن يجعل الأزهر بعد ذلك معقلاً للدراسات الإسلامية والعربية كلها ، ليكون مناراً يهتدي به أبناء العالم الإسلامي في المشارق والمغارب .

ويذكر التاريخ أن الوزير « يعقوب بن كلّس » الذي وقف على الأزهر أوقافاً ضخمة ، أشار في سنة ٣٧٨ هـ على الخليفة الفاطمي « العزيز بالله » أن يحول الأزهر من مسجد شيعي إلى جامعة إسلامية لتدريس العلوم الدينية والعقلية واللسانية . وقد كان هذا الرأي إيذاناً بأن يتسلم الأزهر زمام التوجيه الديني والتثقيف الإسلامي والتربية الأخلاقية لكل راغب في العلم من أبناء الإسلام هنا وهناك .

وكان صلاح الدين الأيوبي أول من فسح الطريق أمام الأزهر ليسير نحو هدفه الإسلامي الكبير ، وبعد أن كان التدريس الفقهي في الأزهر مقصوراً

على المذهب الشيعي ، فتح صلاح الدين الطريق أمام المذاهب الفقهية الأخرى فبدأت الثقافة الإسلامية تتجلى من داخل الأزهر بفروعها المتعددة وشعابها المتكاثرة .

ويظهر أن سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ على أيدي التتار كان سبباً قوياً في هجرة كثير من العلماء إلى مصر ، وإلى الجامع الأزهر ، والتأثر به والتأثير فيه ، من أمثال ابن حجر العسقلاني ، والمقريزي والعيني والبلقيني ، وهم من رجال القرن التاسع الهجري ، ومن أمثال السخاوي والسيوطي من رجال القرن العاشر.

وصار الأزهر — بعد غارات التتار المدمرة على العالم الإسلامي — هو الجامع الوحيد الذي يرتفع فيه صوت العلم والدين ، لأكثر من سبب ، فالتتار قد خربوا غيره من المساجد والمعاهد والمدارس ، والحضارة العربية ، قد انطوت صفحاتها المزهرة في الأندلس ، والأزهر يشبه مركز الدائرة في مصر التي تتوسط العالمين العربي والإسلامي ، وهي لا تبعد كثيراً عن بلاد الحجاز مهبط الوحي ، ولها أهميتها الاقتصادية وصبغتها العربية وزعامتها الدينية ، وهي مفتاح قارة أفريقيا ، وفيها بذور من الثقافة العقلية المصرية القديمة .

وظل الأزهر قوي الأثر عظيم الثمر في الحياة العقلية والاجتماعية حتى الفتح العثماني لمصر سنة ٩٢٢ هـ ، فكان هذا الفتح سبباً لضعف الحياة العلمية في مصر بصفة عامة ، وفي الأزهر بصفة خاصة ، ولكنه ظل يصارع ويقاوم برغم الأحداث التي مرت عليه ، وأقبل رجال أعلام حاولوا أن يبعثوا التجديد والحياة في كيان الأزهر الشريف ، فكانت هناك صيحات الشيخ حسن العطار المنادية بالاصلاح للأزهر والتعليم فيه ، ثم كانت هناك صيحات جمال الدين الأفغاني ، وصيحات الشيخ محمد عبده ، وصيحات الشيخ المراغي .

ولعل أوسع تحديد أو تطوير للأزهر هو إعطاؤه الصفة الجامعية العصرية ، بإصدار قانون تطوير الأزهر سنة ١٩٦١ م الذي نص في أوله على أن الأزهر هو الهيئة العلمية الإسلامية الكبرى ، التي تقوم على حفظ التراث الإسلامي ،

ودراسته وتجليته ونشره ، وتحمل أمانة الرسالة الإسلامية إلى كل الشعوب ، وتعمل على إظهار حقيقة الإسلام وأثره في تقدم البشر ورقي الحضارة ، وكفالة الأمن والطمأنينة وراحة النفس لكل الناس في الدنيا والآخرة ، كما تهتم ببعث الحضارة العربية ، والتراث العلمي والفكري للأمة العربية ، وإظهار أثر العرب في تطور الإنسانية وتقدمها ، وتعمل على رقي الآداب وتقدم العلوم والفنون ، وخدمة المجتمع والأهداف القومية والإنسانية والقيم الروحية ...

وبناء على هذا القانون تطور الأزهر تطوراً واضحاً : فظهرت جامعة الأزهر بثوبها الجديد ، وانشئت فيها كليات جديدة للطب والهندسة والزراعة والإدارة والمعاملات ، وانشئت كلية للبنات ، ومعهد للفتيات ، وأُدخلت تطويرات واسعة على مناهج الدراسة في الكليات القديمة ، وستظهر آثار هذا التطوير بوضوح إذا توالت الأفواج التي تتخرج في جامعة الأزهر بعد أن دخلت هذا الطور الجديد من الحياة الجامعية المعاصرة .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

جامع القرويين

السؤال : **أريد تعريفاً مختصراً عن « جامع القرويين » .**

الجواب :

سُمِّي هذا الجامع باسم « جامع القرويين » ، مع أنه موجود في الجهة الغربية من مدينة فاس ببلاد المغرب ، وذلك لأن المنطقة التي أنشيء فيها سنة ٨٥٩ م (٢٤٥ هـ) يسكنها المهاجرون من مدينة « القيروان » ، وقد خفف الناس التسمية الأصلية وهي « القيراونيون » إلى « القرويين » .

« والقيروان » مدينة مشهورة ، كانت دار مُلك المسلمين في أول فتح

المغرب الإسلامي ، ثم خربت ، فانتقل أكثر علمائها وفقائها إلى مدينة «فاس» التي تعد من أعظم مدن المغرب ، وفي العهود الماضية كان يجتمع فيها علم مدينة « القيروان » وعلم مدينة « قرطبة » حيث رحل العلماء من هاتين المدينتين، بعد اضطراب أمرهما إلى مدينة «فاس » ، فعمروا جامع القرويين بالعلم والأدب .

وجامع القرويين يعد أقدم جامعة إسلامية من ناحية اتساع الدراسة الدينية والعربية ، حيث ظل أحد عشر قرناً وهو موطن لتعليم العلوم الإسلامية واللغوية.

ويرجع الفضل – بعد فضل الله الأول – في إنشاء هذا المسجد إلى السيدة الفاضلة الصالحة الخيِّرة : أم البنين فاطمة القيروانيـة بنت محمد بن عبدالله القيرواني ، حيث تبرعت بنفقات إنشاء هذا الجامع ، وحينما ازدحمت مدينة فاس بعد ذلك بجموع السكان في عهد المرابطين ،ضاق جامع القرويين بالمصلين، فكانوا يصلون في الأماكن المحيطة به من أسواق وشوارع ، فاجتمع الفقهاء والشيوخ ، وقرروا توسيع المسجد ، فزاد عدد المترددين عليه والمنتفعين بالعبادة والعلم فيه .

وكانت تدرس فيه بجوار العلوم الإسلامية والعربية العامة ، علوم التصوف والأدب والأصول وغيرها ، وممن قام بالتدريس فيه المؤرخ المشهور «المقّري» صاحب كتاب « نفح الطيب » حتى تولى الإمامة والخطابة – إلى جوار الفتوى– في هذا الجامع خمس سنوات ، وكذلك قام بالتدريس فيه الإمام الفقيه الخطيب إبراهيم بن أبي بكر بن عبّاد الذي ترجم له المقري في كتابه المذكور ترجمة واسعة . وكذلك قام بالتدريس فيه أيضاً الإمام العالم عبدالله بن رشيد وقد تحدث عنه المقري أيضاً في « نفح الطيب » . وكان بعض العلماء يحاضر في جامع القرويين أو يخطب ، فيتعرض لموضوعات اجتماعية وسياسية ، كأن ينتقد الدولة أو الحاكم في بعض الأمور ، كما فعل مثلا الشيخ الصالح الورع عبد الرحمن الزرهوني .

ومن الذين تعلموا في جامع القرويين ، ثم تألق نجمهم وسطعوا بشخصياتهم العلمية في مجتمعهم : المؤرخ الكبير عبد الواحـد المراكشي صاحب كتاب

« المعجب في أخبار المغرب » ، وهو من رجال القرن السابع الهجري ، وقد توفي سنة ٦٤٧ هـ ، فقد رحل المراكشي إلى فاس ودخل جامع القرويين ، وتعلم منه الكثير ، وهو يذكر بالخير أساتذته العلماء الذين تلقى عنهم ، ويقول إنهم كانوا مبرزين في العلوم التي يدرسونها .

ولقد كانت هناك علوم كثيرة تدرس في جامع القرويين ، فوق علوم الدين واللغة ، كعلوم الطبيعة والفلك والفلسفة والطب والهندسة وغيرها .

وكان التعليم يسير في هذا الجامع على الطريقة التي عرفناها في الدراسة بالأزهر ، فالدراسة حرة اختيارية ، يدرس الأساتذة ما يختارون من علوم أو كتب ، ويختار الطلاب من يريدون من الأساتذة ليجلسوا إليهم ويسمعوا منهم ويتلقوا عنهم .

وفي عهد السلطان محمد الثالث ، في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ، صدر قانون بتحديد مواد الدراسة في جامع القرويين ، وفي سنة ١٩٣١ م صدر قانون جعل التعليم في هذا الجامع على ثلاث مراحل : المرحلة الابتدائية ، ثم المرحلة الثانوية ، ثم المرحلة العالية ، وجُعلت هناك دراسات متخصصة في الدين والأدب ، وأنشىء معهد للفتيات تابع لجامع القرويين.

وبعد استقلال تونس تحول جامع القرويين إلى جامعة تضم طائفة من الكليات: كلية الشريعة ، وكلية الآداب ، وكلية العلوم .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

الجامع الأُموي

السؤال : **أريد أن أعرف موجزاً عن الجامع الأموي في دمشق .**

الجواب :

الجامع الأموي يوجد في دمشق عاصمة سورية ، وقد سُمّي باسم « الجامع الأموي » لأنه بُني في عهد بني أمية ، ولأن الذي بناه هو أحد خلفاء بني أمية ، وهو الوليد بن عبد الملك بن مروان ، ولذلك يقال لهذا الجامع أيضاً « مسجد أمية » ، كما يقال له : « جامع دمشق » .

وقد بدأ الوليد بن عبد الملك في بناء هذا المسجد سنة سبع وثمانين للهجرة (٧٠٨ م) ، وقد توسع الوليد توسعاً كبيراً في الإنفاق على بناء هذا المسجد وتزيينه وزخرفته ، حتى صار معدوداً إحدى عجائب الدنيا ، وقد قيل إن الوليد أنفق في إنشائه خراج الدولة سبع سنين ، وإنه استغرق تسع سنين في البنـاء والزخرفة .

ويروى أن الوليد استقدم لبناء المسجد عدداً كبيراً من الصنّاع والبنائين ، من نواح شتى في أرجاء العالم الإسلامي ، وطلب من ملك الروم أن يرسل إليه مائتي صانع من بلاده ففعل، كما أحضر الوليد حُذّاق الفنانين من الهند وفارس، للعمل في المسجد . ولذلك صار هذا المسجد تحفة من تحف العمارة الإسلامية ، ولولا الأحداث التي غيرت معالمه من حريق وزلزال ، لبقي يبهر العيون ويدهش العقول .

ويُروى أن الوليد حينما أتمه قال لأهل دمشق : « يا أهل دمشق ، إنكم تفخرون على الناس بأربع : بهوائكم ومائكم ، وفاكهتكم ، وحماماتكم ، فأحببت أن أزيدكم خامسة ، وهي هذا المسجد » .

ولذلك نرى الرحالة المشهور والمؤرخ المعروف « ابن جبير » يصف الجامع الأموي بأنه من أشهر جوامع الإسلام حسناً ، وإتقانَ بناءٍ ، وغرابةَ صنعة .

والمسجد الأموي في دمشق هو أول مسجد اتُخذت فيه المآذن ، وبعده جامع عمرو بن العاص في فسطاط مصر ، ثم انتشر اتخاذ المآذن في المساجد بعد ذلك .

وعلى مر الأجيال أصبح الجامع الأموي معهداً للدراسات الإسلامية والعربية،

مع وجوه شبه فيه بالأزهر ، وكان الطلاب الذين يدرسون فيه يُسمون « المجاورين » – كما نرى أيضاً في الأزهر – أما لأنهم يجاورون الجامع حيث يلازمونه طلباً للعلم ، وإما أن يكون هذا تشبيهاً لهم بمن يجاورون الكعبة والمسجد الحرام .

وكان بعض هؤلاء الطلاب الذين يدرسون في الجامع الأموي ينامون داخله ، ومعهم صناديقهم وخزائنهم ، وأدى هذا إلى عدم المحافظة على نظافة المسجد وخلوه للعابدين والدارسين ، ولذلك نرى الملك الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٨هـ (١٢٦٩ م) يأمر بمنع النوم في المسجد ، ويأمر بإخراج الصناديق والخزائن من وسطه .

ولقد شهدت ساحة الجامع الأموي على مر العصور أعلاماً كباراً من علماء هذه الأمة وفقهائها ، منهم من قام بالتدريس فيه ، ومنهم من طلب العلم به ثم تألق نجمه وسار اسمه، ولا ينبغي أن ننسى في مقام التمثيل هنا أن حجة الإسلام الإمام أبا حامد الغزالي المتوفي سنة ٥٠٥ هـ قد قضى في الجامع الأموي مدة يتأمل فيها ويتعبد ، وذلك حينما خلا خلوته الروحية الصوفية في المنارة الغربية بالجامع الأموي ، وكذلك كان أمر ملك المغرب « ابن تومرت » .

وممن قاموا بالتدريس في الجامع الأموي الإمام الحافظ الزاهد بقية السلف احمد بن فَرْح الأشبيلي المتوفي سنة ٦٩٩ هـ (١٣٠٠ م) وقد كان فقيهاً شافعاً عالماً بالحديث ومصطلح الحديث . وهو منسوب إلى اشبيلية ، ومن هنا نلحظ ذلك التلاحم العلمي ، أو ذلك الاتصال الثقافي بين علماء المشرق وعلماء المغرب في العالم الإسلامي الكبير .

وكذلك كان ممن قاموا بالتدريس في الجامع الأموي الأديب الشاعر المؤرخ المؤلف صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي الذي تولى ديوان الانسان في مصر وحلب وصفد بفلسطين ، وكتب مائتي كتاب .

وبعد أن شهد الجامع الأموي عصوراً علمية مزدهرة أخذ نشاط العلم داخله

يقل أو يتقلص ، فقد أنشأت سورية في العصر الحديث جامعتها ، فانتقل إليها أكثر النشاط العلمي الذي كان موجوداً داخل الجامع الأموي،ومع ذلك لم يفقد الجامع صفته العلمية ، فما زالت حلقات للعلماء تعقد فيه ، وما زال طلاب للعلم يترددون عليه للتلقي أو التحصيل والاستذكار .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

جامع الزيتونة

السؤال : **أريد موجزاً عن تاريخ جامع الزيتونة .**

الجواب :

بُني جامع الزيتونة في تونس سنة اربع عشرة ومائة للهجرة (٧٣٢م) بناه الوالي عبدالله بن الحبحاب ، ثم أعاد بناءه محمد بن الأغلب حوالي سنة ٨٤٠ . ويعد جامع الزيتونة أهم الجوامع الإسلامية العلمية في بلاد المغرب ، وقد ظل أجيالا بعد أجيال تدرس فيه العلوم الإسلامية والعربية ، ويمتاز هذا الجامع من الناحية المعمارية الأثرية بأنه يوجد فيه منبر يعود تاريخه إلى سنة خمسين ومائتين للهجرة .

ومن خواص جامع الزيتونة أنه كان لا يُسمح لغير المسلمين بدخوله ، ولعل هذا كان سبباً من الأسباب التي دعت إلى عدم العناية بالدراسات الأثرية لهذا الجامع ، باعتبار أن المستشرقين هم الذين كانوا يهتمون أكثر من غيرهم بأمثال هذه الدراسات .

ولقد قام بالتدريس في جامع الزيتونة كثير من العلماء الأجلاء والفقهاء الأماثل ، نذكر منهم قاضي القضاة أبو العباس احمد بن محمد بن حسن بن

الغماز الخزرجي الأنصاري ، المتوفي في تونس سنة ٦٩٣ هـ ، وهو العالم الشاعر الأديب الفقيه .

وفي القرن الثالث عشر الميلادي ازدهر شأن جامع الزيتونة ازدهاراً أعطاه صفة الجامعة العلمية ، حيث استقدم إليه « أبو زكريا الأول » أساتذةً كبار من صقلية والأندلس ، ليقوموا بتدريس علوم اللغة والفقه والأدب ، والتاريخ والفلسفة والرياضة والطب .

وظل الجامع كذلك إلى القرن الثامن عشر الميلادي ــ كما تذكر الموسوعة العربية ــ ثم حُذفت من علومه طائفة ، وأصبح الجامع يوجه أكبر عنايته إلى العلوم الدينية واللغوية والأدبية .

ومضت السنون والأعوام وجامع الزينونة يتخرج فيه الكثير من العلماء والأئمة والوعاظ والمدرسين والقضاة والكتاب .

وفي وسط القرن التاسع عشر الميلادي أصدر حاكم تونس (الباي أحمد) قانوناً منظماً لشئون جامع الزيتونة ، وهذا القانون ينص على اختيار ثلاثين عالماً ليكونوا كهيئة تدريس في جامع الزيتونة ، على أن يشرف عليهم شيخ الإسلام ومعه القاضيان .

وكان من وراء ذلك أن وُضعت خطة للمناهج الدراسية في الجامع ، وكان وضعها عن طريق لجنة من العلماء .

ومن حمى جامــع الزيتونة انبثقت مدرسة ثانوية سُميت باسم « المدرسة الخلدونية » ، وألحقت بالجامع ، فكانت كفرع تابع له ، يعد الطلاب الذين يريدون الدخول فيه لطلب العلم ، وأضيفت إلى مناهج هؤلاء الطلاب الدينية والعربية طائفة من العلوم العصرية .

وفي سنة ١٩٣٣ م أصدرت تونس قانوناً ينص على أن جامع الزيتونة قد صار جامعة حديثة ، وأن شيخه سيلقب بلقب « مدير جامعة الزيتونة » ، وبمقتضى

هذا القانون صارت الدراسة في هذه الجامعة ثلاث مراحل : المرحلة الإعدادية، والمرحلة المتوسطة ، والمرحلة العالية .

ولكن شأن هذا المعهد قد تغير أخيراً ، حيث أثر فيه انتشار المدارس والمعاهد الحديثة ، فصار جامع الزيتونة أشبه بمعهد ثانوي تابع لمصلحة التعليم الثانوي في الجمهورية العربية التونسية ، حيث مزجت في مواد الدراسة به بين علوم الدين ، وعلوم العصر الحديث ، واللغات الأجنبية .

ولذلك لم تعد لجامع الزيتونة تلك الشهرة العلمية القديمة الواسعة ، التي كانت تحاول اللحاق بسمعة جامع القرويين في المغرب ، أو الجامع الأزهر في مصر .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

متفرقات

رد الوديعة

السؤال : **هناك رجل ترك عندك مالا كثيراً كوديعة، ثم غاب غيبة طويلة لا ترجى له حياة بعدها ، ولا تعرف أحداً من أقاربه ، فما هو موقفك من هذا المال ؟.**

ورجل آخر ترك عندك مبلغاً كبيراً من المال وسافر ، ثم سمعت أنه فقد سمعه وبصره ، فكيف تعيد إليه وديعته كاملة ؟.

الجواب :

إذا كانت عند الإنسان وديعة خاصة أودعها له شخصياً شخص آخر ، ثم غاب وانقطعت أخباره تماماً ، ولا يوجد أحد من أقاربه ، فإن الإنسان المودع لديه الوديعة ينبغي له أن يتأكد أولا من وفاة المودع الغائب قدر استطاعته ، وأن يتأكد من عدم وجود أي قريب له ، وأن يبذل في البحث كل ما يستطيع ، فإذا لم توجد للغائب حياة ، ولم يوجد أحد من أقاربه ، فعلى المودع لديه أن يتصدق بهذا المال ، أو يوجهه إلى جهة بر عامة ، ومن الاحتياط له أن يشهد على ذلك .

وأما الشخص الذي توجد لديه وديعة من رجل سمع أنه فقد سمعه وبصره ، فعليه أن يتأكد أولا مما سمع ، وأن يقابل الشخص المودع ليعيد إليه وديعته حسبما يمكن ، وإن كان لهذا المودع وكيل وقائم بأمره ، فإن المودع لديه يسلم الوديعة لذلك الوكيل مع الإشهاد على التسليم احتياطاً .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

محاسبة الحيوانات

السؤال : هل تحاسب الحيوانات يوم القيامة؟. وهل يحاسب الإنسان على معاملته للحيوان ؟.

الجواب :

اختلف العلماء في مسألة محاسبة الحيوان — غير الإنسان — يوم القيامة ، فقرر جماعة منهم أن الحيوانات تحاسب يوم القيامة بعد بعثها كالإنسان ، وتُسأل عما فعلت بينها ، وتُجزى به . واستدل أصحاب هذا الرأي بقول الله تعالى في سورة التكوير : «وإذا الوحوش حُشرت » . وقوله سبحانه في سورة الأنعام : « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » . كما استدلوا بالحديث النبوي القائل : « لتؤدين الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقتص للشاة الجلحاء (التي لا قرون لها) من الشاة القرناء (التي لها قرون) » .

وجاء في تفسير القرطبي أن الحيوانات تحشر غداً ، أي يجمعها الله حتى يقتص لبعضها من بعض ، ثم يقال لها : كوني تراباً . فتموت .

وتذهب جماعة أخرى إلى أن الحيوانات لن تحاسب يوم القيامة ، لأن الحساب خاص بالإنسان ، لأنه مكلف ، والتكليف قائم على العقل والتمييز ، والحيوانات غير مكلفة .

وقال أصحاب هذا الرأي إن « حشر الوحوش » المذكور في الآية هو جمعها كمظهر من مظاهر الاضطراب العام الذي يقع في الكون يوم البعث .

وهذا الرأي أرجح من الأول .

ولا ريب أن الإنسان سيحاسبه ربه على معاملته للحيوان ، لأن الإسلام يأمر

بالرفق بهذه الحيوانات•، وحسن معاملتها، وينهى عن تعذيبها أو تضييعها أو إرهاقها .

وحسناً أن نتذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دخلت امرأة النار في هرة حبستها ، فلا هي أطعمتها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض».

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

تربية الكلاب للهواية

السؤال : **ما حكم الدين في تربية الكلاب للهواية ؟**

الجواب :

من العادات السيئة الشائعة بين أهل العصر تربية الكلاب للتدليل والهواية كما يقولون ، وكثير من الذين يفعلون ذلك يسرفون إسرافاً شائناً في الإنفاق على هذه الكلاب المدللة ، ويعاملونها معاملة مترفة ، يتمنى كثير من الناس أن يلاقوا مثلها أو قريباً ، فهم ينيمون هذه الكلاب على أفخر الثياب ، وهم يطعمونها أفخم الطعام ، وهم يعالجونها عند الأطباء من مختلف الأمراض ، حتى ولو كان المرض عارضاً يسيراً كالبرد والزكام ، وهم يعلقون في رقابها الأطواق الفضية أو الذهبية ، وهم يصطحبونها معهم في السيارات والرحلات وغرف النوم ... إلخ .

ولو رجعنا إلى الدين الحنيف ، لوجدناه سهلا سمحاً ، فهو لا يمنع من اقتناء الكلب لغرض مشروع ، كالصيد مثلا ، فالقرآن الكريم يقول في سورة المائدة : « يسألونك ماذا أحل لهم ، قل أحل لكم الطيبات ، وما علمتم من الجوارح

مكلّبين تعلّمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه ، واتقوا الله إن الله سريع الحساب » .

فقد استدل الفقهاء بالآية على جواز اقتناء الكلاب للصيد بعد تعليمها ذلك . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لسعد بن حاتم : « إذا أرسلت كلابك المعلّمة ، وذكرت اسم الله ، فكُلْ مما أمسكن عليك ، إلا أن يأكل الكلب (أي من الفريسة المصيدة) فلا تأكل ، فإني أخاف أن يكون أمسك على نفسه » .

وفي رواية : « اذا أرسلت كلبك المعلّم فاذكر اسم الله ، فإن أمسك عليك فأدركته حياً فاذبحه ، وإن أدركته قد قتل ولم يأكل منه ، فكله فإن أخْذ الكلب زكاة » .

وذكر القرطبي عند ذكره هذه الآية أنها تدل على جواز اقتناء الكلاب لأنه من الجوارح ، والآية تذكر أنه أباح لعباده الطيبات ، كما أباح الجوارح المعلّمة المعوَّدة على الصيد ، وهذا يُفهم أنه يجوز شراء الكلب وبيع الكلب والانتفاع به بسائر وجوه المنافع .

وكذلك نفهم من السنة المطهرة أن الكلاب يجوز اقتناؤها لحراسة زرع أو ماشية أو دار أو غنم ، وقد نفهم أيضاً أن تتخذ الكلاب في المنافع البوليسية المتعلقة بالأمن وضبط الجرائم والمجرمين ، عن طريق تتبع الأثر ونحوه . ولكنا نجد في الحديث النبوي الشريف قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من اقتنى كلباً إلا كلب صيد أو ماشية نقص من أجره كل يوم قيراطان » . وفي رواية لأبي هريرة : « من اتخذ كلباً – إلا كلب ماشية أو صيد أو زرع ، انتقص من أجره كل يوم قيراط » .

ولعلنا نستطيع أن نفهم أن الإسلام الحنيف لا ينظر بعين الرضى إلى هؤلاء العابثين اللاهين الذين يتخذون الكلاب لمجرد الهواية واللهو والتدليل ، خصوصاً بعد أن عرفنا ما يتعوده هؤلاء من الإسراف في الإنفاق على هذه الكلاب ، على حين يوجد من حولهم من بني الإنسان من يستحق بعد هذه العناية .

والله تبارك وتعالى أعلم .

اقتناء الكلب

السؤال : **ما حكم الإسلام في تربية الكلب للهواية ؟.**

الجواب :

الذي نفهمه من الإسلام أنه يبيح اقتناء الكلب وتربيته ، إذا كان يراد من وراء ذلك فائدة معتبرة ، كاتخاذه للصيد ، أو لحراسة الغنم أو الماشية ، أو لحراسة البيت ، أو اقتفاء آثار المجرمين ، ونحو ذلك ، وأما اذا كان المراد من تربية الكلب هو الهواية والتدليل ، وتضييع المال والوقت على تدليله وترفيهه واللهو به فإن ذلك لا يتفق وآداب الإسلام ، وأقل ما يقال فيه إنه عمل – كما قال بعض السلف – ليس من مكارم الأخلاق .

ولذلك جاء في حديث جابر كما روى النسائي : « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ثمن الكلب ، إلا كلب الصيد » .

وهناك من الأئمة من يعد الكلب نجساً ، ويشدد في ذلك ، وجاء في السنة المطهرة ما يشير إلى أن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ، ولعل المراد هو الكلب المتخذ لغير فائدة مشروعة .

كما جاء في السنة أن ثمن الكلب حرام ، فعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « نهى عن ثمن الكلب ، ومهر البغي ، وحلوان الكاهن » . وقد روى البخاري هذا الحديث في صحيحه .

والنهي عن أخذ ثمنه يدل في الظاهر على تحريم بيعه ، وهو عام في كل كلب – معلماً كان أو غيره ، – مما يجوز اقتناؤه أو لايجوز . وقال الإمام مالك لا يجوز بيعه ، وتجب قيمته على متلفه .

وقال بعض الأئمة ، يجوز بيع كلب الصيد دون غيره ، وقال القرطبي : مشهور مذهب مالك جواز اتخاذ الكلب ، وكراهية بيعه ، ولا يفسخ إن وقع . وكأنه لما لم يكن عنده نجساً ، وأذن في اتخاذه لمنافعه الجائزة ، كان حكم جميع المبيعات ، لكن الشرع نهى عن بيعه تنزيهاً ، لأنه ليس من مكارم الأخلاق .

وعن ابن عباس في الحدث المرفوع : « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ثمن الكلب ، وقال : إن جاء يطلب ثمن الكلب فلاملأ كفه تراباً » . وذكر ابن حجر أن إسناد هذا الحديث صحيح .

وعلة المنع هي نجاسة الكلب عند من يقول بنجاسته كالإمام الشافعي . ومن لا يرى أنه نجس يمنع بيعه للنهي عن اتخاذه ، والأمر بقتله .

وبالمناسبة نذكر أن « مهر البغي » المنهى عنه هو الأجر الذي تأخذه المومس على الزنا .

و « حلوان الكاهن » هو الأجر الذي يعطى لمستطلع الغيب كالتنجيم والضرب بالحصى .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

استعمال الذهب

السؤال : ما حكم الدين في استعمال الذهب بالنسبة إلى الرجال والنساء ؟

الجواب :

أقام الله تبارك وتعالى الحياة الإنسانية على عنصرين هما الرجل والمرأة ، وجعل الرجل يمثل جانب القوة والشدة والصلابة ، وجعل المرأة تمثل الرقة

والحنان ولين الجانب ، ولذلك أباح الدين للمرأة من مظاهر التزين والتحلي أكثر مما أباح للرجل .

وإذا كان الإسلام قد حرم على كل من الرجل والمرأة أن يستخدم أواني الذهب في الأكل أو يستعملها في غير ذلك ، فإن الإسلام أباح للمرأة أن تلبس الذهب وتتزين به ، وحرم ذلك على الرجل ، إذ يحرم عليه لبس الذهب ، سواء أكان خاتماً أم سواراً أم زراً أم ساعة أم غير ذلك ، ولا يحل له إلا التختم بخاتم من الفضة .

وقد روى أحمد والحاكم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يلبس حريراً ولا ذهباً » وهذا حكم خاص بالرجال دون النساء ، كما بيّن الفقهاء ذلك .

وروي أيضاً أن النبي صلوات الله وسلامه عليه أخذ حريراً فجعله في يمينه ، وأخذ ذهباً فجعله في شماله ، ثم رفع يديه بهما فقال : « إن هذين حرام على ذكور أمتي » . يعني جنس هذين الصنفين ، وهما الحرير والذهب .

وأخرج الطبراني أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال : « الذهب والحرير حل لإناث أمتي ، وحرام على ذكورها » .

وأخرج الطحاوي أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن خاتم الذهب بالنسبة للرجال .

وقد ثبت أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه لعن الرجل الذي يلبس لبس المرأة ، ولعن المرأة التي تلبس لبس الرجل ، كما جاء في الحديث أن الرسول لعن المتشبهات من النساء بالرجال ، والمتشبهين من الرجال بالنساء .

وإنما حرم الإسلام هذا الاستعمال ، لأن استعمال الذهب يؤدي إلى ضررين : إما أن يؤدي إلى الإسراف الذي لا يرتضيه الإسلام ، وإما أن يؤدي إلى الترف الذي يهلك الأمم ، والتميع الذي لا يليق بالرجال ، والقرآن الكريم يقول : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها

تبذيرا » ، ويقول في شأن المؤمنين : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً » .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

نقل الدم

السؤال : **هل يجوز نقل الدم من شخص إلى شخص آخر ؟.**

الجواب :

يقول أهل الإفتاء إنه إذا توقف شفاء المريض أو الجريح وإنقاذ حياته على نقل الدم إليه ، من شخص آخر ، بأن لا يوجد من المباح ما يقوم مقامه في شفائه وإنقاذ حياته ، جاز نقل هذا الدم إليه بلا شبهة ، ولو من غير مسلم ، وكذلك إذا توقف سلامة عضو جاز نقل الدم إليه .

أما إذا لم يتوقف أصل الشفاء على ذلك ، ولكن يتوقف عليه تعجيل الشفاء فإن علماء الشافعية يجيزون نقل الدم لتعجيل الشفاء ، وهناك قول في مذهب الأحناف بجواز ذلك أيضاً .

وخلاصة هذا أنه إذا تحقق توقف حياة المريض أو الجريح على نقل الدم جاز بنص القرآن الكريم القائل : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » . أما إذا توقف تعجيل الشفاء فحسب ، فيجوز على أحد الوجهين عند الحنفية ، ويجوز على مذهب الشافعية ، وهذا مقيد – بلا شبهة – بما إذا لم يترتب على ذلك ضرر فاحش بمن تنقل منه الدم .

هذا ما يقوله أهل الإفتاء .

والله تبارك وتعالى أعلم .

دخول الجنة

السؤال : **بم ندخل الجنة إذا كان الإنسان لا يعمل الخير ؟.**

الجواب :

قرر العلماء أن الجنة تُنال بالإيمان والعمل الصالح ، فمن حقق الإيمان وقام بالأعمال الصالحة – وهي من الأعمال الصالحة – دخل الجنة . ولقد تكرر قول الله تبارك وتعالى « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » عشرات المرات في القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله سبحانه في سورة البقرة : « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار » . وقوله في سورة العصر : « والعصر ، إن الإنسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » .

وقيل : إن الجنة تنال بالإيمان ، والدرجات تُستحق بالأعمال الصالحات .

وقد ورد حديث رواه مسلم والترمذي يقول : « يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة ، ثم يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير ما يزن بُرَّة ، ثم يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة » .

وعلق على الحديث بعض الشراح بقوله : « فمن مات وهو موقن بكلمة التوحيد ، وهي لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، وكان في حياته بعيداً عن العمل بالشرع ، فإنه يحكم عليه بالنار بقدر عصيانه ، فيدخلها ، ولكن قبل استيفاء المدة تناله شفاعة الشافعين الذين يختارهم الله له حينما يشاء الله تعالى ، ولكن تُعَجَّل الشفاعة لكثير الخير قبل قليله .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى : أخرجوا من النار من ذكرني يوماً ، أو خافني في مقام » أي من ذكرني في زمن من الأزمان ، أو خافني في حال من الأحوال . رواه الترمذي » .

والله تبارك وتعالى أعلم .

• • •

فهرس المجلد الثالث
من كتاب «يسألونك»